تاريخ الشرق الأدنى القديم

تأليف انطون مورتكات

تعريب توفيق سليمان ، علي ابو عساف ، قاسم طوير



التعريف بالمؤلف

ولد الاستاذ انطون مورتكات عام ١٨٩٧ • اقتصرت دراسته الجامعية والاكاديمية على تاريخ ولغات الشرق الادنى القديم ، ويعتبر من أشهر العلماء المستشرقين الالمان خاصة ، والعالم عامة • اشترك في تنقيبات أثرية عديدة في مدن اوروك وآشور وبابل فيبلادالرافدين ، وذلك مابين عامي ١٩٢٠و١٩٣٠ • كان الاستاذ الدكتور مورتكات مديراً لمتاحف الدولة في برلين ــ المانيا الديمقراطية ــ • أصبح بعدها استاذاً لمادة آثار الشرق الادنى القديم في جامعة برلين الحرة وذلك منذ عام ١٩٤٧ • ترأس بعدها بعثات تنقيب أثرية عديدة في القطر العربي السوري في تل الفخيرية عام ١٩٥٥ــ١٩٥٦ وفي تل العيلون عام ١٩٥٦ وفي تل الخويرة منذ عام ١٩٥٨ •

اشتهر الاستاذ الدكتور مورتكات بمؤلفاته التي تدور بكاملها حول آثار الشرق الادنى القديم ، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ً ــ « الفن الفارسي وعلاقته بالفن اليوناني » : صدر عام ١٩٢٧ •

٢ً ــ « الفن التشكيلي القديم في بلاد سومر » : صدر عام ١٩٣٥ •

٣ً ــ تطور الاختام الاسطوانية « اعتماداً على مجموعة الاختام الشرقية القديمة المحفوظة في متاحف الدولــة في المانيا الديمقراطية » صدر عام ١٩٤٠ •

٤ً ــ « الحضارة السومرية في أوجها » : صدر عام ١٩٤٥ •

٥ً ــ « تموز » : صدر عام ١٩٤٩ .

٦ً ــ « تاريخ الشرق الادنى القديم » : صدر عام ١٩٥٠ .

٧ً ــ « الرسم الملون في الشرق الادنى القديم » : صدر عام ١٩٥٩ .

٨ً ــ « النتائج الاولية للتنقيبات في تل الخويرة » : ١٩٥٨ و ١٩٥٩ و ١٩٦٠ و ١٩٦٣

٩ً ــ وأحدث مؤلفاته هو « تاريخ الفن » : صدر عام ١٩٦٦ .

هذا عدا عن عشرات المواضيع الأخرى التي نشرها في مجلات عالمية عديدة ، بالاضافة الى التقارير المفصلة التي كتبها عن التنقيبات الأثرية في بلاد الرافدين وفي تل الفخيرية وتل العيلون .

* * *

كلمة المعربين

لما كانت المكتبة العربية تفتقر ، حتى صدور هذا الكتاب ، الى وجود مؤلَّف تفصيلي يبحث في تاريخ الشرق الادنى القديم مهد الحضارة الانسانية ، ولما كان على القارىء العربي أن يطلع على التطورات السياسية والفكرية التي عاشتها هذه المنطقة في تاريخها القديم ليكون محيطاً بتطورات هذا التاريخ الذي لا يمكن فصله أو عزله عن تاريخها الحديث ، لما كان الامر كذلك رأينا أن الواجب القومي والامانة العلمية تدفع بنا لنقدم على تعريب هذا المؤلَّف قاصدين تمكين القارىء العربي من سد هذه الثغرة . لقد تعرض المؤلف في مقدمته لهذا الكتاب الى التطورات السياسية والفكرية ، وأشار بشكل خاطف ومقتضب الى أهمية هذا الكتاب . وتجنباً للتكرار لم نر حاجة للتطرق الى تلك الأمور في هذه الكلمة . إلاَّ انه لا بد لنا من الاشارة إلى نقطة غاية في الأهمية تتعلق في محاولات الكثير من الباحثين في آثار الشرق الادنى القديم لاعطاء الأهمية الكبرى في المبادهة الحضارية لشعوب غريبة عن هـذه المنطقة ، واهمال الدور الفعال للعنصر السامي العربي في صياغـة وتطوير الحضارة الانسانية التي أول ما بزغ فجرها في هذه المنطقة من العالم . وقد وصلت محاولاتهم درجة التشكيك في الوحدة الحضارية للساميين العرب في هذه المنطقة ، فطرقوا مواضيع عديدة وألفوا كتباً كثيرة ، مثل الفن السوري وفن الاختام السورية وفن بلاد ما بين النهرين ، وفن فلسطين ، والفن المصري .. الخ ، فسمموا أفكار الشبيبة الجديدة المؤمنة بعروبتها ووحدة مصيرها ، بشكل قاد الى انشقاق في الرأي وتفسخ في المبادىء فأدى الى نشوء

تيارات فكرية معينة تخدم مصلحة الاستعمار والرجعية وعميلتهما الصهيونية .

وهكذا اتى هذا الكتاب ليسرد الحقائق التاريخية ــ الفنية ــ الحضارية بحماس موضوعي ، متحرراً من سائر التأثيرات الاستعمارية بثوبها العرقي أو التبشيري أو الصهيوني ، مؤكداً على ذلك الدور الفعال الذي لعبه الساميون العرب في اضفاء صبغة الوحدة السياسية والحضارية لمنطقة الشرق الادنى وعلاقتها الوثيقة بحضارة وادي النيل وغيره من الاقطار العربية . ولا غرابة في ذلك طالما أن أصل غالبية الشعوب التي يتطرق اليها هذا الكتاب ، إنما يعود إلى أصل واحد هو اصل العرب ، وارض واحدة هي الجزيرة العربية . إننا لا نقول ذلك على سبيل العاطفة أو الانفعال القومي ، بل انها لحقيقة واضحة ولو حاول المغرضون والمأجورون نكرانها . لنأخذ مثلاً على ذلك وهو ما يسمى باللغات السامية التي سادت هذه المنطقة بكتاباتها ومصادرها الأدبية ، سواء أكانت الاكادية أو البابلية أو الآشورية وبعدها الكنعانية والآرامية ومشتقاتها كالنبطية والتدمرية ومعاصرة هذه الثمودية واللحيانية والصفئية، لنجدها تشكل وحدةتامة ولو اختلفت فيلهجاتها وبعض جوانبنحوها وصرفها. لنقارنها مع اللغة العربية ، فنراهاليست إلا لهجات للغة أصلية لا يمكن أن تكون إلا العربية . وقد مهد غزو هذه اللهجات العربيه من الجزيرة العربية إلى أقطار أخرى قبل الاسلام السبيل لانتشار اللغة العربية بمفهومها الحديث عند نشر الدعوة الاسلامية . وأكبر دليل ملموس على ذلك هو ان اللغة العربية بقيتتسود ــولنتزول ــكافة الاقطار التي وصلتها اللهجات المذكورة من المحيط إلى الخليج . وبالمقابل نرى البلدان التي لم تنتشر فيها اللهجات المعنية قبل الاسلام ترتد على اللغة العربية في عصور انحطاط الامبراطورية العربية عائدة إلى لغاتها الأصلية مثل بلاد فارس وافغانستان واسبانيا ... الخ .

ومن ناحية أخرى يقدم لنا التاريخ القديم لهذه المنطقة برهاناً واضحاً على

أنه لا يمكن لأي استقرار سياسي أو حضاري أن يعم المنطقة إلا بالوحدة الشاملة وأن وادي النيل قاد قديساً بنصيب كبير في دعم الاستقرار السياسي أو عدمه في هذه المنطقة طالما انه جزء لا يتجزأ منها • وحتى المغرب العربي فنراه يدخل المسرح السياسي لتأثيرات هـذا الجزء من العالم عند انتشار التأثير الحضاري والسياسي الكنعاني العربي ليصل المغرب العربي في القرن الخامس والرابع ق•م• مندفعاً (هذا الأخـير) ليؤثر بدوره على مجرى الحوادث في المشرق العربي •

إن هذا الكتاب ليس إذاً الا دراسة واقعية حية تعكس لنا الماضي بأفكاره وحضارته وسياسته ، بثوريته وتجدده جاعلاً (أي الماضي) من نفسه منبر الاشعاع الفكري والحضاري عمَّ بتأثيراته النيِّرة كافة أنحاء العالم •

المعربون

* * *

المقدمة

مغزى الكتاب واهميته

كلما توصلت الابحاث الأثرية العلمية الى نتائج جديدة عن حضارة الشرق الادنى ، صعب علينا أن نفهم وندرك جوهر ذلك العالم الفريد وخصائصه .

وفي كل مرة تنجلي فيها غوامض قواعد اللغة السومرية ، لغة اقدم الشعوب المبدعة في الشرق الادنى ، تتبدى امامنا الهوة السحيقة ، التي تفصل تلك اللغة عن كلامنا وتفكيرنا .

لقد كشفت لنا التنقيبات الأثرية عن اساسات وجدران لمعابد قامت عبر قرون عديدة كل على أنقاض الآخر أو الى جانبه . ومن ناحية أخرى لا نعرف ، وانما نتصور فقط ، أي مغزى ديني عبرت عنه هذه المعابد وأية فكرة دينية مثلتها .

وتفيد المعلومات المتجمعة لدينا منذ سنين عديدة ان مدافن ضخمة للامراء الكهنة قد شيدت في عصور معينة . واننا لنعلم أيضا أن اتباع هؤلاء الامراء كانوا قد دفنوا احياء معهم . وهنا لا يمكن لنا ، الا بصعوبة ، ادراك مغزى تلك الطقوس الدينية ومعناها .

لقد أتضح لنا أن البابلي قد أدرك مع الزمن ، العلاقة الوطيدة بين الاعتقاد بالله والقيم الاخلاقية . غير أن مفاهيمه للانحرافات الخلقية في العبادة والمجتمع وتعريفه اياها تبقى عسيرة الادراك علينا : فكيف اذن بمثيلاتها الأقدم من العصر السومري ؟

اننا نستطيع كتابة فصول كثيرة في تاريخ الشرق الادنى وذلك بدراسة الاعمال الفنية بدءا من الاختام الاسطوانية الصغيرة حتى التماثيل الضخمة .

وقد يحمل العديد من هذه الاعمال الفنية كتابة توضح معناها وتدل على محتواها . وبصورة عامة ، نجد أن صعوبة تأويل الأعمال الفنية في بلاد الشرق الادنى بدءا من الاواني الفخارية الملونة في عصور ما قبل التاريخ حتى اللوحات الحجرية الضخمة التي تزين القصور الآشورية الحديثة تفوق مثيلاتها في أي بلد آخر .

يكاد حماس المستشرق أن يفتر وعزيمته ان تثبط لولا ادراكه ، بأن ليس عليه أن يعرف فقط كيف كان عليه الماضي ، بل من الواجب أن يعلم أيضا ، أين تكمن منابع حضارتنا . قد يكون غريبا وصعبا ، أن ندرك مدى التقدم الذي أحرزه المستشرقون في ابحاثهم خلال قرن من الزمن . ولكننا قد لا نكون على هذه الحالة التي نعيشها الآن بدون حضارة بلدان الشرق الأدنى. واذا لم نفهم حضارات هذه البلدان فانه من المستحيل فهم أنفسنا ، اذ أن مقومات الحضارة التي نرغد بها كبيرة كانت أم صغيرة يعود الفضل فيها الى بلدان الشرق الأدنى .

لم يقتصر الابداع الشرقي على اختراع الابجدية وحدها بل تعداها ليشمل الكتابة أيضا : أي كيف على الانسان أن يكتب . وبالتالي يكون الشرقي قد أوجد أعظم وسيلة لتدوين التاريخ . كما وتزداد أهمية الابحاث الرياضية التي قام بها الشرق وخاصة في علم الجبر يوما بعد يوم . وعدا عن هذا وذاك فلا تقل أبحاث علم الفلك اهمية عن ذلك ، التي اختفت وللأسف مع موت العلماء ومن خلفهم . ومع ذلك فان فضل الشرق على علم الفلك سيبقى ماثلا للعيان . كذلك سبق الشرق جميع بقاع المعمورة في مضمار تدوين وجمع وتنسيق الحقوق المتعارف عليها في قانون واحد .

أيعتقد المرء بعد هذا كله بأن الغرب قد توصل دون قدوة الى كل هذه الأشياء أو الى أشياء غيرها مثل الحرف اليدوية التي علمنا الشرق إياها ؟.

فليتذكر المرء مثلا فن الصياغة والنقش على الحجارة الكريمة أو على

العاج وصهر الزجاج • وبالاضافة الى ذلك فسيبقى تأثير الشرق الروحي في ديننا وفننا ظاهراً الى الأبد • فبالرغم من أن الشرق الأدنى لم يخلف لنا الكثير من المنحوتات الفنية الكاملة كما في مصر ، الا أنه ترك بين أيدينا ارثا من أساليب عامة كاسلوب التطابق بين العقيدة والتطبيق والتناسب بين الصورة المرسومة والسطح المخصص لها • انها لقوانين عرفت لأول مرة في الشرق • اما في مضمار قرض الشعر فقد كانت ملحمة جلجاميش مصدراً ملهما للملاحم الشعرية التي أبدعتها شعوب الغرب • واذا ما أمعنا النظر في هذه التأثيرات الحضارية ، فقد تبدو بسيطة ، اذا ما قورنت أولا بالدين ، الذي نشأ في بلاد الشرق الأدنى والذي كان يسيطر على البشر والكون •

وفي هذا المجال لا يكفينا فقط . أن نذكر التوراة والانجيل ، بل أيضا علم الفلك والسحر والاورفيسيه[1] وثنائية زارا توسترا[2] (زرادشت) أو عقيدة التقمص من تموز حتى آدونيس واتش ومتراش التي لا تقل عنهما أهمية • وبالرغم من أن تأثيراتها الروحية والنفسية متفاوتة الدرجة في بلاد الغرب تبقى قيمة هذه التأثيرات ظاهرة لا يمكن انكارها مطلقا •

لا تعتبر بلدان الشرق الأدنى مركز الديانات وحسب بل مصدر الاشعاع الديني الذي انار الأرض بكاملها • وهكذا نرى أيضاً أن ظاهرة تحكم العاطفة في بعض تصرفاتنا تمتد بجذورها الى تلك البلاد التي تقع بين البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي •

أود فيما يلي عرض تاريخ بلاد الشرق الأدنى بايجاز متحرراً من أي تعصب

(١) نسبة الى الشاعر اليوناني اورفيوس مؤسس احدى الفرق الدينية ابن ابولون وقصته الشهيرة في السفر الى العالم الآخر لاسترجاع زوجته ايوريدكا مصورة على لوحة وجدت في نابولي ترجع الى حوالي (٤٢٠) م .

(٢) نسبة الى تعاليم النبي زارا توسترا (زرادشت) في ايران وذلك في النصف الاول من الالف الاول ق.م .

للبابلية أو المبالغة بالاشادة بها على حساب الحضارات التي سبقت الحضارة اليونانية • كما سأتتبع تأثيرات هذا التاريخ وتطوره في المجالات السياسية والاجتماعية والدينية والفنية وابين وحدته رغم التفاصيل الكثيرة وتشابكاتها العديدة التي تحير الباحث • وأقصد بذلك ابراز شيئين : خصائص ومميزات الفكر والخيال الشرقيين من جهة وتأثيراتها على بلاد الغرب من جهة أخرى •

تحـديد الزمـان والمـكان

لم تكن المجالات الحضارية يوما مغلقة على نفسها بل هي منفتحة تؤثر كالأحياء على محيطها تستمد قوتها من ذاتها أو من بيئتها • لذا لا بد لنا أن نرسم الحدود الزمنية والمكانية لبحثنا هذا ، علما منا بأن هذه الحدود خاضعة لقانون المـد والجزر •

تتألف منطقة الشرق الأدنى من جزئين مختلفين هما بادية الشام في الوسط يحيط بها من الغرب والشمال والشرق سلاسل جبلية تتصل بهـا الهضاب الشامية والفلسطينية والاناضولية والايرانية ، ويربط الجزئين (السلاسل الجبلية والبادية) اراضي خصبة تمتد على شكل هلال من الخليج العربي حتى حـدود القطر المصري • وينتهي هذا الهـلال في اقصى الشرق الى اراضي رسوبية تشكلت من مجروفات نهري الفرات ودجلة • وقد عملت فيها يد الانسان على مر العصور ، رغم مناخها الحار ، فجعلتها خصبة وذلك بتجفيفها وارروائهـا •

وتلتقي في هذه المنطقة ــ الصغيرة نسبيا ــ مختلف الظواهر الطبيعية من صحراء وجبال ومستنقعات وأراضي زراعية وبحار وأنهار ، مما ينتج عن ذلك توتر شديد في المنطقة • انه من العسير أن نحدد بدقة بدء وخاتمة الحقبات التاريخية لبلدان الشرق الأدنى• ولكننا اذا اعتمدنا على المصادر المدونة ، نجد ان تاريخ هذه المنطقة لا يعود الى عصر أقدم من النصف الأول من الألف الثالث ق•م ، وذلك انطلاقا من أحدث نتائج التأريخ • أما آثار ما قبل التاريخ

فترقى بالتأكيد الى ما قبل بداية الألف الرابع ق٠م ٠ هذا وسنغض النظر عن التطرق للبحث في العصور الحجرية القديمة وذلك لعدم توفر أي جسر يربطها بالعصور التاريخية ٠ ويختتم ظهور داريوس ، مؤسس الدولة الاخيمينية ، الذي اصطدم مع الفكر اليوناني الغربي عند مطلع القرن الخامس ق٠م ، الفصول الأخيرة من تاريخ الشرق القديم ٠

صانعو هـذا التاريخ : مجموعة شعوب مختلفة

لقد ساهم في صنع هذا التاريخ سكان مناطق الشرق الأدنى وهم شعوب الصحراء العربية وكنعان ، والساحل الفينيقي ، وجبال آسيا الصغرى ، وبلاد ما بين النهرين ، ومنطقة الأراضي الرسوبية على الخليج العربي ، ثم شعوب جبال ايران وهضابها ٠

تختلف هذه الشعوب عن بعضها دما وعرقا ، الا ان لجميعها هدفا واحدا هو الوصول الى اراضي الهلال الخصيب ، وبالتالي التمكن من السيطرة على بلاد جنوب ما بين النهرين ، بلاد السومريين ، التي أول ما عرفت الحضارة المزدهرة عند مطلع الألف الثالثة ق٠م٠ تنتسب الشعوب القادمة من الصحراء العربية وبادية الشام ، التي دخلت اراضي الهلال الخصيب على شكل موجات عديدة متلاحقة طوال ثلاثة آلاف سنة الى اسرة الشعوب السامية ٠ وبالمقابل تنتسب الشعوب الجبلية ، أو على الاقـل طبقتها القائدة ، الى المجموعات الهندية الجرمانية ، التي وجهت اهتمامها الى المنطقة وتحركت نحوها في الألف الثانية والأولى ق٠م٠ كما ونجد هناك شعوباً أخرى ساهمت في صنع تاريخ هذه المنطقة كالسومريين مثلا الذين لا نستطيع معرفة اصلهم ، ذلك لان لغتهم بعيدة من ان تكون مرتبطة باللغات المعروفة حتى الآن ٠

لا تختلف هذه الشعوب فيما بينها في الدم واللغة والمستوى الحضاري فحسب، بل نراها ضمن مناطقها الجغرافية المتنوعة تتبع نظما اجتماعية مختلفة، وذلك بفعل تأثير شروط المعيشة الخاضعة لها ٠ فهناك بادية الشام موطن البدو

بعث الشرق الأدنى القــديم

عمل البحاثة الأثريون واللغويون طيلة سنين عديدة على رسم الصورة التاريخية لشعوب هذه البلدان . وقد أخذت هذه الصورة تتضح أكثر فأكثر مع مرور الزمن بعد أن استطاع كورني ڤيند عند مطلع القرن التاسع عشر أن يشق الطريق الى حل رموز الخط المسماري اعتمادا على كتابات ملكية فارسية قديمة . وقد أعقب ذلك الحفريات الافرنسية والانكليزيــة الواسعة للكشف عن قصور الملوك الآشوريين في دورشاروكين (كورس آباد) وفي كلخو (نمرود) وفي نينوى (كوجند شــيك) . وقد قدمت لنا نينوى مكتبة آشور بانيبال ، التي تعتبر بحق أكبر منهل لدراسة الحضارة البابلية الآشورية ومعها مجموعات من النقوش الجدارية البارزة ، التي تمثل أهم الأعمال الفنية في العصر الآشوري الأخير .

وبما اننا انطلقنا ــ ولا نزال ــ من الأسماء التي جاء ذكرها في التوراة فقد لازمت أعمال الحفريات المحاولات الحثيثة في فك رموز الأدب المسماري المدونة بصورة رئيسية على ما وصلنا من رقم طينية وانصاب حجرية بشكل قادنا من اكتشاف الى آخر بدءا من العصور المتأخرة الى العصور السابقة لها . وهكذا تم انتشال التراث الحضاري من تحت التراب كتراث السومريين في جنوب بلاد الرافدين على الخليج العربي وتراث العيلاميين في سوزا ؛ حيث ظهرت بنفس الوقت هنا أيضا بقايا العصور الاكادية القديمة ومسلة حمورابي الشهيرة التي تحمل نصوص شريعته . كذلك تم اكتشاف تراث الشعوب الجبلية حول بلاد السومريين والبابليين . وقد ازداد نفوذ هــذه الشعوب الجبلية في الألف الثانية ق.م . في هذه المنطقة التي عرفها الحثيون في آسيا الصغرى (مدينة بوغازكوي) وآشوريو العصر القديم والوسيط في مدينة آشور . أما التــلال الأثرية المنتشرة في شمال بلاد الشام فقــد قدمت لنا مناهل لدراسة تاريخ الكنعانيين والآراميين والفينيقيين .

وأخيرا اهتم علماء الآثار بالكشف عن فجر تاريخ الشعب السومري والمجتمعات القروية في مناطق بلاد ما بين النهرين وفي بلاد الشام وفلسطين وفي ايران هذه الحضارات التي تشكل قاعدة نشوء الحضارة السومرية وتطورهـا .

وهكذا امتدت الابحاث في بلاد الشرق الادنى خلال قرون من الزمن من قصور الآشوريين لعصرهم الحديث في نينوى وكورس آباد الى عصور ترقى الى ما بعد ٣٠٠٠ ق.م. وحتى العصور الحجرية ـ النحاسية والحجرية الحديثة والوسيطة والقديمة .



الساميين الرحل ، الذين ينتظمون فيعشائر متعددةترعى قطعان اغنامهاوجمالها في مناطق واسعة ومحددة بدقة • والى جانب ذلك فهناك الجبال التي يقطنها البدو الرحل ، الذين يعتمدون في عيشهم على الصيد وتربية الخيول ، وذلك عندما لم يجدوا مكانا لهم في الوديان الخصبة ، التي استقر فيها منسبقهم من السكان الحضر • وختاما نجد الهلال الخصيب المحصور بين الصحراء والسلاسل الجبلية قد اصبح موطن الفلاحين المتحضرين ، الذين لم يعودوا ينتظمون بعد حسب علاقاتهم العشائرية أو القبلية ، بل انطلاقا من موطن سكناهم أو انتماء لقراهم أو كما حدث بصورة خاصة في الاراضي الرسوبية من جنوب الرافدين وذلك حسب مناطق معابدهم ودويلات آلهتهم •

كانت هـذه الفئات الثلاث ، أهل البادية وبدو الجبال والفلاحون ، على اتصال مستمر فيما بينها • كما وكانت هذه الفئات تتأرجح في عيشها مع بعضها بين وئام وخصام دائمين ، رغم حاجة كل منها لحاصلات الأخرى • لقد حاول الحضر من السكان السيطرة دوما على الطرق التجارية التي كانت في ايدي البدو • وعلى النقيض من ذلك فقد استهدف البدو بصورة رئيسية الولوج والتحكم في المناطق المتحضرة ؛ وبالرغم من احتقارهم في الواقع للفلاحين ، كانوا يطمعون دوما في أرزاقهم وخيراتهم •

ويلازم هذا الصراع الاجتماعي في بلدان الشرق الادنى تناقض بين السكان من النواحي اللغوية والفكرية والأصول العرقية • اذا تتبعنا تاريخ الشرق الادنى نجد أنه لا يتمثل في شعب واحد خلق توازنا بين القوى الغريبة والمحلية • لقد كان هذا التاريخ نتيجة لصراع دام قرونا من الزمن بين شعوب غريبة عن بعضها البعض• غير ان تحاك ، أو بالاحرى تشابك ، المصالح المادية ، والفكرية جعلها تنتظم في مجتمعات ودول كما اصبحت الحال عليه في بلاد الغرب خلال القرون الوسطى والعصر الحاضر •

الفَصْلُ الأوّل

عصور ما قبل التاريخ

تنحصر البقايا الأثرية المتصفة بنوع من الأهمية والتي خلفها لنا العصر الحجري القديم ، كما هو معروف حتى الآن ، فقط في تخوم مناطق الشرق الأدنى ، في جبال فلسطين وآسيا الصغرى وبلاد ايران . ومن المرجح ان يكون الانسان قد استوطن بادية الشام في هذا العصر الغابر الذي لا نستطيع تحديد معالمه بأرقام . ان الذي يبدو مؤيدا ذلك هو العثور على بعض الأدوات الصوانية في الرطبة التي تقع تقريبا في منتصف الطريق بين دمشق والرمادي . ليس لهذه المكتشفات أية قيمة بالنسبة لبحثنا عن منشأ وتطور الحضارات التاريخية لأنها أبعد ما تكون عن منتجات مجتمع بشري متمدن وكوننا لم نستطع تتبع أية خطوة تربطها بالحضارة التي تليها .

ا ـ العصر الحجري الحديث والانتقال الى العصر الحجري ـ النحاسي :

اختلفت الأوضاع في العصر الحجري الحديث ، وعلى الأخص في العصر الحجري ـ النحاسي ، الذي يبدو وقد بزغ فجره مبكرا في هذه المنطقة . فحضارتهما لم تزدهر فقط على سفوح الأراضي الجبلية وفي الخوانق والكهوف بل انها لنتاج آخر الصيادين وأول الفلاحين المتحضرين . ويقصد بذلك ان فلاحين ـ صيادين بدأوا يبحثون عن أراضي صالحة للزراعة . ولم يقتصر هذا البحث فقط في الوديان والمرتفعات بل تعداها الى ذلك الشريط الخصب الذي يفصل بين الجبال وبادية الشام . كما وقد اجتاز حدود هذا فشمل الأراضي الرسوبية الخصبة في جنوب بلاد ما بين النهرين على الخليج العربي ، بالقدر الذي كانت فيه هذه الاراضي قد تشكلت بفعل الرسوبيات .

وعلى كل حال يبدو من نتائج الدراسات الحالية وكأن جنوب بلاد ما بين النهرين الذي عُرف فيما بعد ببلاد سومر ، قد دخل مرحلة التطور متأخرا قليلاً عن الاقاليم الشمالية لنهري دجلة والفرات • وقد تجلى ذلك بالدرجة الأولى مقابل ما عرف بعد ذلك ببلاد آشور في ضواحي مدينة الموصل الحالية وفي منطقة الخابور • وقد يكون هذا طبيعيا اذا اعتبرنا أن منطقة الفيضان المستنقعية عند مصب دجلة والفرات قد امتدت اليها يد الانسان شيئا فشيئا وقطنها بعد أن نفّذ فيها طريقة ري بدائية وشقّ الى جانب ذلك شبكة من الطرق اللازمة • ان الذي يدل على الاستيطان المتأخر نسبيا للجنوب ، هو انه لم تظهر هناك أية مكتشفات واضحة من العصر الحجري أو حتى من فجر العصر الحجري — النحاسي • وفي المقابل أصبح الأمر في هذا المجال عاديا لدينا في شمال ما بين النهرين وفي شمال بلاد الشام وفي ايران •

لم يُعثر حتى الآن في اطلال الجنوب على الأواني البسيطة السوداء أو الرمادية أو البنية الحمراء ذات القاعدة المخروطية المسطحة قليلا من الاسفل أو التي تشبه قرصا • وبالاضافة الى ذلك فتنقصها الحوافي حيث أُنتجت كما تصنعها يدالانسان بطبيعتها• وعلى النقيض من ذلك نجدهذه الأواني تصادفنا في كل خطوة نخطوها في مواطن السكن لمناطق مختلفة في بلاد الشام وفي اقليم الموصل وفي ايران حتى تركستان • وبالرغم من ان أشكالها تختلف قليلا عن بعضها تبعا لاختلاف مناطق صنعها ، فانها ترينا في كل مكان نفس أسلوب صنع السطح الخارجي المسودّ والمدلّك • تُعتبر هذه الأواني المشوية في نار الموقد البدائي ، والتي تحمل ارية أو شراجا بدل العروة من مخلفات العصر الحجري الحديث (انظر صورة رقم ١) • وحيثما يعثر المرء على هذه الأواني تظهر غالبا بجانبها أواني ذات حزوز مليئة باللون الأبيض • ان لهذا الأسلوب أي تلوين سطح الوعاء الأسود المدخن والمصقول بخطوط بيضاء وقعا جميلا على النظر (انظر صورة رقم ٢) • لقد اكتشفت هذه الآنية منذ

سنين عديدة في شمال بلاد الشام في بلدة ساقة شي كوتزي وفي بلاد آشور وفي الطبقات السفلى من مدينة نينوى • كما عثر عليها أيضا منذ عدة سنوات داخل بيوت مبنية من الطوب في تل حسونة الذي يقع على بضع كيلو مترات الى الجنوب من الموصل • ففي الوقت الذي كشفت فيه الحفريات عن مثيلاتها في ايران (تبة سيالك) ، لم يجد المرء حتى الآن آثار بيوت في أقدم طبقات تل حسونة والتي تقع مباشرة فوق الأرض الحرة • لهذا اعتقد المنقبون أن سكان هذا التل كانوا من الصيادين الرحل او المخيمين منهم • ويعتقد العلماء أن بيوت طبقات تبة سيالك السفلى قد بنيت من القصب أو من مواد عضوية أخرى مشابهة • تبين لنا العظام والأسلحة وأدوات الحصاد التي وجدت في أقدم طبقات تل حلف على نهر الخابور ان هذه الطبقات كانت عبارة عن قرى صغيرة مثل تل حسونة على الدجلة وتبة سيالك في ايران ، وأنها ما هي الا قرى صغيرة قطنها أناس كانوا يمرون مرحلة الانتقال والتحول من حياة الصيد الى حياة الاستقرار والاعتناء بالزراعة •

وبهذا يمكننا اعتبار هذه المنطقة انها تمثل أرقى مستوى اجتماعيا في الجزء الشمالي من بلاد الشرق الادنى خلال الألف الرابعة ق•م• وعلى الرغم من اختلاف الآنية بأشكالها تبعا لمناطق صنعها الواسعة ، الا أنها كانت جميعها على مستوى واحد في الأسلوب الزخرفي والدقة الفنية • ولا يمكن لنا حتى الآن أن نستقرىء من المكتشفات الأثرية الموجودة لدينا ، فيما اذا كانت القرى العديدة المنتشرة في ارجاء البلاد الواسعة قد شكلت فيما بينها دويلات سياسية • ولذلك نجد حقا انه من الجرأة بمكان أن نعتبر الشمول السياسي قد ساوى في توسعه الامتداد الحضاري • الا انه يحق لنا أن نفترض العديد من القرى وقد اتحدت فيما بينها على شكل ما يشبه الأقاليم • كم كنا نود أن نعرف الكثير عن عقيدة وفكر اولئك الناس الذين حملوا بذور التقدم للاجيال القادمة • ولكن من المؤسف أن مخلفاتهم الحضارية التي تعود الى نهاية العصور الحجرية وبداية العصر الحجري–النحاسي لا ترينا

الا بصيصا من النور • اذ ليست الأدوات الصوانية البسيطة والسكاكين والمكاشط والمحكات والنبال وأول الأدوات النحاسية التي صنعت من النحاس الخام بواسطة الطرْق ، حتى ولا ذلك المقبض العظمي المصنوع على شكل انسان والخاص بأداة صوانية عثر عليها في الطبقة الاولى في تبة سيالك ، من تلك الآثار التي نستطيع أن نستشف منها أخبار اولئك الناس ونعرف بواطن أمورهم •

وفي هذا المجال يمكن أن تشكل موجودات القبور التي اكتشفت في تبة سيالك المنطلق الوحيد لهذا الموضوع • فالدفن كان في البيوت دون أن يوضع مع الموتى أدوات كالأسلحة أو الآنية أو الحلي كما كان متبعا في جميع العصور • ومع هذا يبدو وكأنهم كانوا يقدمون القرابين أثناء عملية الدفن • والجدير بالذكر أن هذه العادة كانت معروفة خلال عصور ما قبل التاريخ في مريمدي (مصر) حيث ثبت ذلك وفسرت عملية دفن الموتى في البيوت على ان السكان القدماء كانوا يعتقدون ان أرواح موتاهم كانت تشاركهم موائد الطعام • وهذا يقودنا على الأقل للتعرف على اعتقاد عام كان يسود بين السكان بأن الأموات ينتقلون الى حياة أخرى بعد الموت • وقد يبدو تلوين العظام بالأحمر في تبة سيالك ما يؤكد هذه العادة التي كانت معروفة أيضاً في أماكن أخرى والتي تعتمد على الاعتقاد بقوة الدم على وهب الحياة بحيث قاد السكان لاستخدام اللون الاحمر لون الدم •

يمكن لنا أن نتصور بلدان الشرق الادنى عند نهاية العصر الحجري الحديث وخلال مرحلة الانتقال الى العصر الحجري ــ النحاسي ، على انها منطقة واسعة تسكن سلاسلها الجبلية قبائل الصيادين • بينما ينتشر البدو الرعاة المخيمين في رحاب باديــة الشام ، التي بقيت موطنا لهم في جميــع العصور وحتى يومنـــا هـــذا •

أما أراضي الهلال الخصيب فقد استوطنها تدريجيا فلاحون ، أفراد منهم أو جماعات ، انتظمت في قرى واستملكت أراضي زراعية قدمت لها انتاجا

كان غير كاف على ما يبدو لتستطيع الاستغناء عن الصيد نهائيا .

لقد شمل هذا التحول من حياة الصيد الى حياة الفلاحة الذي لا بد وان تم في الألف الخامسة والرابعة ق.م جميع البقاع المحصورة بين البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي مجتازا ايران حتى آناو .

ترى هل كان هؤلاء السكان الذين حملوا لواء هذا التحول في الغرب والشرق والجنوب ينحدرون من شعب واحد أم كانوا ينتسبون الى أرومة واحدة ؟ هذا ما يستحيل الاجابة عليه طالما اننا لا نعرف ولن نعرف شيئا عن لغة هذا العصر . ان الانسان لا يعبر عن أفكاره بالكلام فقط ، بل يعكسها صورا وأشكالا فنية . بناء على ذلك يمكننا الافتراض ان أشكال الأواني الفخارية المتعددة والمختلفة بين منطقة وأخرى في شمال بلاد الشام وفي بلاد آشور وفي شمال بلاد الرافدين وفي ايران ، ليست الا تعبيرا عن وجود جماعات بشرية متعددة تقف على مستوى واحد من التطور ، ولكنها تعود الى أصول عديدة .

ب ـ العصر الحجري ـ النحاسي :

تعتبر الأواني الفخارية المصنوعة يدويا والمدخنة والمصقولة والمزخرفة أحيانا بطريقة الحز ، من مميزات العصر الحجري الحديث ومن مبتكراته ، بينما تعتبر الأواني الملونة أي ذات التزيينات المتعددة الالوان كالأسود والبنفسجي والبني الداكن والاحمر الفاتح والمصنوعة من عجينة طينية فاتحة اللون ، مميزة للعصر الحجري ـ النحاسي ، الذي يلي العصر الحجري الحديث. كما جاءت هذه الآنية بنفس الوقت كدليل على الانقلاب الثوري العام الذي طرأ على الحياة في تحولها من العصر الحجري الحديث الى العصر الحجري ـ النحاسي .

لقد دلت نتائج الحفريات التي جرت مؤخرا في تبة سيالك في ايران ، وتل حسونة في القطر العربي العراقي ، وتل الجديدة في القطر العربي السوري ،

أن الفاخوري أقدم على تلوين آنيته ، قبل أن يكون قد اهتدى الى طريقة شيّها باتقان ، أي قبل اختراعه أو اكتشافه للموقد ذي النار المنتظمة ، الذي يستطيع به شيَّ آنيته دون أن تتدخن جوانبها . كذلك يبدو أن هذا التحول عن صنع الآنية المصقولة في العصر الحجري الحديث الى صنع آنية ملونة في العصر الحجري ــ النحاسي لم يحدث فجأة ولا بدون تجارب، خاصة كما كنا نظن في السابق .

وعلى كل حال فسواء أكان هذا التحول قد تم بشكل فجائي او على مراحل ، فان المرء لا يشك مطلقا ، بأن بلاد الشرق الأدنى ، قد ارتقت الى مرحلة حضارية جديدة ، في فترة ازدهار صناعة الأواني الفخارية الملونة بأنواعها المتعددة .

١ ــ مطلع العصر الحجري ــ النحاسي (سامراء ، تل حلف ، تبة سيالك) :

لقد اتخذت ثلاث مناطق حضارية في بلاد الشرق الأدنى أسماء ثلاثة مواقع أثرية هي : تل حلف وسامراء وتبة سيالك ، كما تعطي هذه المواقع الأثرية أسماءها الى ثلاثة أنواع من الفخار الملون المعروف ، الذي يعتبر القاسم المشترك الأعظم لبداية العصر الحجري ــ النحاسي .

هذا ولا يمكن فصل المناطق الحضارية المتجاورة عن بعضها البعض ، باستثناء منطقتي تل حلف وسامراء ، المعروفتين حتى الآن بتداخلهما وتشابكهما ، الا انهما تبقيان من الاحوال النادرة . وهكذا لم نعثر حتى الآن على فخار سامراء في شمال بلاد الشام التي تعتبر الجناح الغربي لمنطقة تل حلف ، بينما نرى ان فخار تل حلف يظهر في أي مكان يعثر فيه على فخار السامراء ، أي في المثلث المحصور بين الزاب الكبير والدجلة والفرات الاوسط . اضافة الى ذلك فقد وجد في سامراء نفسها اناء وحيد من نوع فخار تل حلف . كما ونجد في بعض المواقع الأثرية ، أن هذين النوعين من الفخار قد استمر استعمالهما سوية ردحا طويلا من الزمن .

وكما تبين وانطلاقاً من آخر نتائج حفريات تل حسونة ، الذي يبعد ٣٥ كم تقريبا الى الجنوب من الموصل ، يتراءى لنا وكأن فخار سامراء ، أقدم بقليل من فخار تل حلف • أما الأهم من هذا كله ، فان مظهر وأسلوب زخارف فخار سامراء الملونة ، يوحيان بأن هذا الفخار يعكس لنا حقا درجة حضارية أقدم زمنا من فخار تل حلف •

لقد صنع كل من النوعين باليد ، وفيما عدا ذلك ، فهما يختلفان عن بعضهما ، في النواحي الفنية والزخرفية • وهكذا فان أهم فارق بين النوعين هو عناصر تزييناتهما وخاصة التي ترمز الى السحر • يحتل الصليب المعقوف مكانا بارزا بين عناصر تزيين فخار سامراء لأنه يرمز الى شيء ما ، ولأن شكله ايضا قد أوحى الى الفاخوري ، بأن يرتب عناصر تزيينية اخرى على هيئة صليب معقوف • لقد رتب مثلا حول مركز الوعاء وعلى شكل صليب معقوف اناس" يرقصون ذوو شعر هفاف ، أو على شكل طيور تلتقط في مناقيرها الاسماك أو على هيئة تيوس جبلية (انظر صورة رقم ٣) • ليست الحيوانات المستعملة في هذه التزيينات حيوانات أليفة بل هي من الحيوانات البرية التي تكون عادة هدف الصيادين • ورغم اننا لا نستطيع استقراء الافكار ، التي تمثلها تلك التزيينات بدقة ، الا انها ـ على ما يبدو ـ تعبِّر عن أفكار مجتمع كان لا يزال يعيش على الصيد وهي بعكس ما نراه بالنسبة الى فخار تل حلف والآثار الاخرى المعاصرة له من بقايا ابنية وتماثيل صغيرة واختام •

اذا كان وجه الشبه معدوما بين أواني سامراء وآنية حلف فان آنية سامراء تلتقي مع آنية ايران المعاصرة لها في ميزة فريدة تكمن في اسلوب الزخرفة أو التلوين ، اذ يعتمد اسلوب تزيينها على أشكال هندسية تجريدية معينة ، قد تعني مبدئيا رموزا ، الا انها قد تتكيف أحيانا حتى تأخذ شكلا معينا • فمثلا قد يحوَّر الصليب المعقوف حتى يصبح على شكل حيوان ، أو بالعكس قد تجمع أعضاء جسم حيوان ما وترسم على شكل صليب معقوف • وكما ان الصليب المعقوف في منطقة سامراء يصبح على شكل زوبعة مؤلفة من أربعة

تيوس جبلية ، نرى في ايران انه قد توضع قرون على مثلث مخطط ليصبح على شكل حيوان أو يوضع رأس تيس جبلي على مستطيل محصور في الوسط ومخطط (انظر صورة رقم ٤) • تشير بقايا حضارة تل حلف الى انها من نتاج مجتمع فلاحي عاش على الزراعة واحتفظ ببعض عادات مجتمع الصيد•

لقد اكتشف فخار تل حلف بكميات كبيرة في موقع تل حلف نفسه ، وفي تل عريجية الصغير الذي يقع بالقرب من الموصل ، وتعتمد تزيناته الى درجة كبيرة ، وأكثر من غيرها ، على عناصر تجريدية غامضة أحيانا بالنسبة لنا • وقليلا ما تكون هذه العناصر مستمدة من عالم الاحياء • وفي هذه الحال فاننا نعتبرها مادة هامة تقودنا الى بعض الاستنتاجات القيمة • فنعرف من بين العناصر الواقعية ما يسمى بالقوقعة المزدوجة ، التي نفهمها فأسا مزدوجة (انظر صورة رقم ٥) •

والى جانب ذلك نجد رأس الثور (أو ما يسمى بالبوكرانيوم) • وانسجاما مع هذه الفكرة التي تعتمد على العنصرين السابقين ظهر الثور الراكع على قوائمه الاربع الذي يعتبر من أهم ميزات وخصائص هذا النوع من الفخار (انظر صورة رقم ٦) • ولا تقل أهمية هذا الثور المقدس عن أهمية تلك التماثيل الانثوية الصغيرة والمصنوعة من الطين المشوى • ان اطرافها دميمة واجسامها محورة وتتسم هذه التماثيل بطابع غريب حيث تتمتع باطراف مشحوذة ونسب غير متكاملة ، وقد اتبع في تلوين خطوطها نفس اللون والطريقة التي استخدمت في الاواني الفخارية الملونة (انظر صورة رقم٧)

من المؤكد ان هذه الأشياء تشير الى أقدم ما نعرفه عن تقديس الأمومة المرتبط بعبادة الثور • كما وتلفت الانتباه في طرق التعبير عنها بواسطة الفأس المزدوجة والتماثيل الصغيرة المقرفصة الى قرابتها مع الديانة الكريتية ، الا انها اقدم من هذه الاخيرة بكثير •

ان تقديس الأمومة وعبادة الثور من البوادر الفكرية الاولى الهامة

للمجتمع الزراعي ولذلك فقد قدر لهذه العبادة أن تلازم بلدان الشرق القديمة آلاف السنين • وتعتبر هذه الأفكار التي ظهرت عند بداية التحضر في بلاد الشرق الادنى من مظاهر التقدم في الجزء الغربي منها على عكس واقع الحال في الجزء الشرقي •

وبناء على ذلك أصبح علينا من السهولة بمكان ان نعلل القفزة التي خطتها منطقة تل حلف في الانتقال بالعمارة من الاكواخ البسيطة الى الابنية ذات المخطط المستدير التي تقارب في تصميمها ما يسمى بالتولوز الايجي • كما نستطيع بنفس السهولة أن نرى في هذه القفزة احدى اهم الصناعات اليدوية المتجسدة في فن شحذ الاحجار الصماء التي تعتبر منطلقا لصناعة الاختام المسطحة في تطور الشرق القديم بعد ذلك (انظر صورة رقم ٨) • ولقد نشأت هذه الاختام من فكرة التعويذات لدفع الشرور والتي كانت تتجلى بشارات منقوشة ترمز الى ملكية صاحبها •

لايمكننا حتى الآن معرفة ما اذا كانت منطقة الاراضي الغرينية في جنوب الرافدين على الخليج العربي والتي اصبحت فيما بعد المركز الاقتصادي والفكري لبلدان الشرق الادنى ، قد ساهمت بصورة عامة في تشييد صرح حضارة المنطقة عند مطلع العصر الحجري ـ النحاسي • وعلى كل حال لم تقدم التنقيبات الأثرية العديدة التي جرت في تلك المنطقة حتى الآن مكتشفات يمكن مقارنتها مع تلك التي نعرفها في منطقة حلف الحضارية • ويبدو حتى الآن ان مركز القيادة للشرق الادنى في التطور الحضاري للمجتمع الزراعي كان يتجسم في الجزء الشمالي من بلاد ما بين النهرين وعلى الاخص في منطقة تل حلف المحصورة بين طوروس وزاغروس • الا ان الحالة تبدلت خلال حقبة العصر الحجري ـ النحاسي الوسيط والأخير، اذ يبدو وكأن الجنوب قد بدأ ولأول مرة يحاذي الشمال في كل خطوة يخطوها •

٢ ـ العصر الحجري ـ النحاسي الوسيط (العُبيد الأول) :
والعصر الحجري ـ النحاسي الاخير (العُبيد الثاني) :

تقدم لنا نتائج حفريات تل تبة كورا ، الذي يقع الى الشمال الشرقي من الموصل احسن صورة عن مراحل نمو حضارة ما قبل التاريخ في الشرق الادنى خلال هذا الفصل . في وسط هذا السهل الخصيب الذي يمتد على طول سفوح الجبال الايرانية ، وهنا بالذات ، يتسلم المجتمع الزراعي لأول مرة وبشكل واضح زمام القيادة الفكرية لبلاد ما بين النهرين . اننا لا نزال نعتمد على فن العمارة والاواني الفخارية وصناعة الاختام في استقاء معلوماتنا عن حضارة هذا العصر كما كنا نفعل سابقا . غير اننا نلحظ فقط تحولا من الاهتمام بالآنية الفخارية الى التركيز على أهمية المجالين الآخرين .

حقا ان صناعة الفخار قد حققت تقدما تكنيكيا جبارا خلال هذه الحقبة باختراع الدولاب الذي كان يُدار بادىء الامر يدويا ببطء . إلا أن هذا التقدم التكنيكي بالذات يبدو وكأنه جعل من الآنية الفخارية سلعة عادية بسيطة لم تعد تصلح وسيلة للتعبير عن متطلبات فكرية أسمى . وعلى كل حال نرى ان تلوين الآنية في شمال بلاد مابين النهرين قد اخذ يضمحل ويتلاشى منذ هذا العصر . لا تعطينا باقي مبتكرات هذا العصر الفنية كالتوصل الى صب النحاس بدلا من طرْقه او كاستعمال الآجر بدلا من الطوب بصورة رئيسية فكرة عن المنجزات الفكرية في هذا العصر . ولكن أصبحت الابنية المقدسة ، أي المعابد التي كان بناؤها يشكل التجارب الاولى للتعبير عن القوى الميتافيزيكية وكذلك الاختام المبسطة ، هي التي تعطينا هذه الفكرة . وترينا هذه المنجزات الفكرية بوضوح تحررا شاملا من القيود التشكيلية التي كانت مسيطرة في تزيين الفخار ، تلك القيود التي حولت الاشكال الواقعية الى أشكال تجريدية ذهنية لتؤكد بها القيمة الرمزية لفعاليتها . وهنا نشأت في فن صناعة الاختام أول القصص المصورة أو ما يسمى بالاخبار المصورة التي

شكلت نقطة الانطلاق لكافة المواضيع التصويرية التي طرقها عالم الشرق الأدنى بعد هذا العصر (انظر صورة رقم ٩) •

لقد تم الكشف في تبة كوراعن طبقات متعاقبة تعود الى الفترتين الوسطى والاخيرة من العصر الحجري ـ النحاسي يحوى كل منها على معبد يختلف عن الآخر كليا في شكل مخططه • ان اقدم هذه المعابد عبارة عن بناء صغير يحوى جميع خصائص البناء المقدس الذي عرفته بلدان الشرق الأدنى فيما بعد • انه عبارة عن غرفة طولانية تتوسط مجموعة من الغرف الجانبية ويقع المدخل على الضلع العرضاني • يقوم في وسط الغرفة الطولانية مذبح أو ما يسمّى بمنضدة القرابين • وقد عززت الجدران بدعامات مربعة تشكل في مظهرها محاريب تزيينية رافقت كامل تطور فن العمارة الدينية خلال جميع العصور التي مرت على بلدان الشرق الأدنى فيما بعد • اما البناء الثاني فيوحي بأنه كان على الأرجح حظيرة مقدسة اكثر مما هو معبد ديني • كذلك يرجح ان تكون ابنية جدرانه من الخشب بدلا من اللبن الذي شيد به البناء الاول أو كان مبنيا من الخشب والطوب معا •

ان ما يؤيد صحة ملاحظات وتفسيرات نتائج حفريات تبة كورا بشكل قاطع ، بان المكتشفات الأثرية هناك انما هي من خصائص اواسط وأواخر العصر الحجري ـ النحاسي ، يكمن في أحدث الحفريات التي جرت في جنوب البلاد ، وعلى وجه التحديد في ذلك المكان المقدس القديم المعروف باريدو ، واليوم بخرائب تل أبو شهرين ، والذي أصبح فيما بعد بلدة إله الماء والارض « ايا » • لقد كان كل ما نعرفه عن بقايا ما يسمى بعصر العبيد في الجنوب وحتى قبل عدة سنين مضت لا يتجاوز بعض الكسر الفخارية وبعض التماثيل الطينية النسائية التي تمثل إلهة الأمومة وهي ترضع طفلا أحيانا • لقد مثلت واقفة وتتحلى بوجه يشبه وجه القط ، كما انها لا تختلف عن مثيلاتها المقرفصة والمكتشفة في منطقة تل حلف الحضارية في الشمال الا ظاهريا ولكنها تشترك في طبيعة واحدة • وقد ظهر مجددا في اريدو ايضا وفي طبقة تعود الى نهاية

دور العُبيد (اريدو طبقة ٧) اقدم مثال على المعابد حتى الآن التي تسمى « المعبد المرتفع » الذي قدر له ان يظل الطابع الخاص والمميز لحضارة بلاد ما بين النهرين (انظر صورة رقم ١٠) • اننا نلاحظ تشابها بين مخطط أقدم معبد في تبة كورا وبين مخطط هذا المعبد ، بالرغم من ان هذا الأخير قد بني على مصطبة مرتفعة تعكس اقدم المعابد التي عرفناها في تبة كورا وبالرغم من ان مدخله قد أقيم على الضلع الطويل • وتتوسط ايضا الغرفة الطولانية مجموعتين من الغرف الجانبية • ويتوسط الغرفة الطولانية في تبة كورا مذبح مضافا اليه منصة مرتفعة مع درجة أقيمت على ضلع الغرفة القصير • والجدير بالذكر ان هـذه المنصة قد اصبحت فيما بعد عنصرا مميزا لهـذا النوع من المعابد •

استطاع المنقبون الكشف عن المراحل الاولى لتطور هذا المعبد من الطبقات العديدة المتعاقبة فوق بعضها البعض • ان أقدم المعابد المعروفـة لدينا عبارة عن منشأة تبلغ مساحتها ٤×٤ م وتحوي على مذبح ومنضدة للقرابين • وهنا نجد ان هذا المعبد لم يؤسس فوق مصطبة مما يدل على ان نشوء المصطبة ناتج من تكدس الركام والانقاض وتعاقب البناء فوق بعضه • لقد عثر في هذا المعبد على كسر فخارية تعرف باسم « فخار موقع الحج محمد » ويعتبر اقدم أنواع الفخار الملون الذي وجد في جنوب بلاد ما بين النهرين حتى الآن • ويمكننا ارجاع تاريخ هذا النوع على الأرجح الى مرحلة التحول من فجر العصر الحجري ــ النحاسي الى اواسطه (انظر صورة رقم ١١) •

يمكننا أن نستشف من هذه المكتشفات ، بأرجحية كبيرة ، ان جماعات فلاحية قد استوطنت أراضي الجنوب المستنقعية في عصور قديمة وعملت عن طريق تجفيف المستنقعات وارواء السهول على تحويل أراضي الجنوب الى أراضي خصبة تعادل الخصوبة الطبيعية لاراضي الجزء الشمالي • لقد تأكد لنا فيما سبق ان تبة كورا واريدو كانتا على مستوى واحد من التقدم الفكري

والاقتصادي، بالرغم من اننا نود الاستزادة في معلوماتنا في هذا المجال.فمثلا كم نود ان نعرف من هو الرب أو الربة أو الآلهة بصورة عامة التي كانت تقدس في هذه المعابد ؟ . وما هو المقصود من نقش تلك المشاهد الحيوانية على سطوح الاختام المسطحة ؟ . أو كيف نظمت الحياة الاجتماعية لهؤلاء الناس ؟ . وهل كانت القرية تشكل وحدة مستقلة أم ان مجموعة من القرى اتحدت فيما بينهما وشكلت أقاليم وبلدان ؟. ثم من هي الشعوب التيساهمت في هذا التطور ؟ .

ليس هناك من شك أن إلهة الأمومة والثور المقدس قد لعبا دورا كبيرا في الحياة الدينية لمنطقة شمال بلاد الرافدين منذ فجر عصر العبيد ، وذلك بعد ماشاهدناه من عناصر تلوين الأواني الفخارية ومن تماثيل طينية صغيرة . ولكن من المحتمل أيضا أن تكون معابد تبه‌كورا قد بنيت لعبادة آلهة أخرى قدستها الأديان فيما بعد وهي تمثل السماء والجبال والبحار والشمس ، والقمر ونجمة الزهرة أو الرعد والبرق . أما بالنسبة الى الجنوب ، في اريدو ، فانه يجوز لنا أن نفترض بأن أقدم معبد يقع تحت معبد إله المدينة « ايا » قد بني أيضا من اجل تقديسه . وبناء على ذلك يصح لنا الافتراض بأنه الى جانب فكرة الحياة المتمثلة بالهة الأمومة كانت توجد آلهة محلية في العصر الحجري ـ النحاسي أي في الألف الرابعة ق.م.

وهذا ما يقودنا أيضا الى افتراض آخر وهو ان ديانة العالم السفلي المتمثلة بام الأرض وقطعانها المقدسة التي كان يدين بها المجتمع الزراعي لم تكن الديانة الوحيدة . بل لا بد ان تكون هناك ديانة أخرى نشأت عن تقديس آلهة محلية أو عن تقديس آلهة مجتمع الصيد الأقدم عهدا من ذلك . وعلى كل حال يبدو أن نقش رسومات كلاب الصيد والحيوانات البرية على الأختام المسطحة انما تشير الى أن أفكار مجتمع الصيد لم تكن قد اندثرت بعد ، رغم ان المجتمع قد اتنقل الى طور الزراعة .

لا يمكن لنا أن نعرف بالتأكيد فيما اذا كانت القرى العديدة قد اتحدت معا خلال هذا العصر أيضا والى أي مدى سارت هذه القرى في بناء أو تشكيل الدويلات • الا أن مظاهر الحضارة المتشابهة في أقاليم واسعة قد تشير على الأقل الى وجود وحدة شكلية بين القرى أو بين المناطق • كما يمكننا أن نعتقد أيضا بأن وراء تشابه واختلاف المعطيات الحضارية المتعاصرة في الشمال والجنوب تكمن كذلك شعوب متباينة وصلت مستوى حضاريا معينا في وقت واحد •

ان ما تقدم ينطبق على منطقة تبه‌كورا في الشمال ومنطقة العبيد في الجنوب ولكن لا ينطبق على ايران ، بغض النظر عن حدودها الغربية التي كانت واقعة أحيانا تحت تأثير بلاد ما بين النهرين الحضاري • لقد سارت ايران بخطى ثابتة الى قمة التمدن الخاصة بها خلال أواخر العصر الحجري ــ النحاسي دون أن تساهم على ما يبدو بالخطوات التقدمية الأولى في طريق الانتقال الى الحياة الزراعية ، خاصة وانه لا يوجد أي دليل يشير الى تقديس إلهة الأمومة الخاصة بالمعتقدات الفلاحية • لقد ازدهر فن تزيين الأواني الفخارية بالألوان في ايران ، ووصل الى درجة الكمال عند أواخر العصر الحجري على عكس ما جرى في بلاد النهرين • كذلك اعتمد هذا الفن على عناصر تعكس المواضيع الفكرية لمجتمع الصيد • كما تبنّى أيضا الاسلوب التجريدي الذي يميل الى تحوير المظهر الخارجي الواقعي للاشياء حيث يكتفي بدلالتها التعبيرية وهذا ما سبق أن عرفناه في العصر الحجري ــ النحاسي الأول • أما في مجال الاختام فان ايران لم تتجاوز قواعد هذه الصنعة الأولية الا بعد وقت طويل • اضافة الى ذلك لم نعثر حتى الآن على مباني دينية ترجع الى هذا العصر ، ولو اننا استطعنا على أي حال أن نضع بصعوبة الطابع المحافظ للهضبة الايرانية في مصاف مرحلة المجتمع الزراعي في بلاد ما بين النهرين • تبقى بادية الشام التي تشكل القوة الرابعة في الشرق الأدنى في هذا العصر ، خلال جميع العصور اللاحقة أيضا ، عارية من المخلفات الحضارية • الا ان

علينا ان لا ننسى أهمية بادية الشام كمنطلق للموجات السامية المتعاقبة • فبالرغم من أن تأثيرها لم يكن ملموسا ، فان هذا التأثير كان خلال عصور ما قبل التاريخ وفي العصور الأخرى التي أعقبته من أهم العوامل في تطور البشرية •

لقد بقيت فلسطين بعيدة عن مسرح حوادث التطور البشري في العصر الحجري ـ النحاسي ولعدة قرون أخرى ، بينما ساهم شمال بلاد الشام وجزء كبير منه ، سمي فيما بعد بفينيقيا ، في التطور الحضاري لعصر تل حلف كما تدل على ذلك المكتشفات الأثرية المستخرجة من أعمق الطبقات في يومك تبة بجوار مرسين ومن رأس الشمرا (اوغاريت) ومن حماة • كما يبدو أيضا ان فلسطين كايران قد سلكت في هذا العصر طريقا خاصا بها ، اذ ترينا المكتشفات الأثرية في مجدو (تل السلطان) وأريحا ، أن السكان هناك عرفوا مرحلة الانتقال أيضا من حياة الصيد الى حياة الاستقرار والزراعة وبدأوا في بناء البيوت وصنع الأواني الفخارية • ان التزيينات الفخارية الملونة وما يعاصرها من الأوعية الفخارية المخصصة لحفظ بقايا الاموات التي اكتشفت في موقع الخضيري ثم مجسمات البيوت الطينية الملونة ذات الشكل الهرمي تشير الى علاقة المواقع المذكورة اعلاه مع المناطق الشمالية •

ـ يمكن تأريخ الرسوم الجدارية (فريسك) ، طريقة الرسم في بيوت موقع تل عليلات غزول الشهير الواقع الى الشمال من البحر الميت والتي تمثل على الأرجح مشاهد دينية تخص عبادة الاجداد أو الكواكب ، يمكن تأريخها في أواخر العصر الحجري ـ النحاسي أي قبيل ولوج الكنعانيين الساميين الى فلسطين وفينيقيا • لو افترضنا ان هذه الرسومات ما زالت تطابق في تطورها أواخر عصر العبيد تقريبا ، فانها لا يمكن أن تكون بعيدة عن أوائل فجر تاريخ بلاد ما بين النهرين بالرغم من تأخر البلاد الفلسطينية خلال تلك الحقبة •



الفصل الثاني

فجر التاريخ

بشكل يكاد يكون غير ملحوظ ، تحقق أحيانا الانسانية العز وتقدما مفاجئا بعد فترات طويلة من الفتور أو التطور البطيء . وهكذا تبدو وكأنها تتحفز مدخرةقواها لتجتاز بقفزة واحدة العتبة التي تفصل بين العصر الحجري ــ النحاسي ، والعصر النحاسي البحت، تلك العتبة التي تتفق ومرحلة فجر التاريخ في جنوب بلاد ما بين النهرين المسمى ببلاد سومر على الخليج العربي .

انتزعت سومر القيادة الفكرية والحضارية في بلاد الشرق الأدنى عند مطلع الألف الثالثة قبل الميلاد وسبقت حقا مصر في خلق اول حضارة مزدهرة تكمن فيها بذور تاريخية . ولكننا لا نعرف ما اذا كان ذلك ثمرة النضوج الفكري لشعب المنطقة ام أنه كان بتأثير شعب جديد قدم الى هناك . ان ما حققه اولئك السكان القلائل الاولين في مجالات الفكر والاقتصاد والسياسة في ذلك الاقليم المنتزع من الطبيعة ، يمكن أن يعتبر بحق حضارة مزدهرة تجلت بتأسيس دولة الإله المتمركزة في مدينة المعبد وذلك كتجسيد للايمان بالقوى الخفية المنطلقة من فلسفة دينية ثابتة تشمل الفرد والجماعة على حد سواء والتي وجدت تعبيرها في العمارة الضخمة وفي الفنون التشكيلية الجديدة من نوعها .

لقد ابتكر هذا العصر الخلاق الكتابة التي كانت عبارة عن صور أو رموز مجردة تعكس تعبيرا كلاميا مغينا . كما كانت هذه الكتابة

واسطة عملية لادارة اقتصاد المعبد المادي اكثر من ان تكون تعبيرا لمفاهيم روحية سامية ، اذ أنها كانت عبارة عن واسطة عملية لتنظيم اقتصاد المعبدفقط. بالرغم من كل هذا تبقى الكتابة هي التي خرجت ببلاد الشرق الأدنى من ظلمات عصور ما قبل التاريخ الى تباشير فجر التاريخ . ومع ان أول الرقم الطينية المعروفة لدينا لا يتعدى كونها قوائم بالمخزونات أو العمال فهي التي مكنتنا على أي حال من القول بأن السومريين كانوا على الارجح أول من رفع لواء حضارة عصر فجر التاريخ . لقد جرى التحول بسرعة فائقة من الرموز الصورية والتعابير الصامتة الى الكتابة الصوتية اللفظية . ولقد تم هذا عندما لم يعد المرء يستعمل بعد رمزا ما لمفهوم معين فقط ، بل عمم ذلك الرمز على جميع الأشياء المتشابهة أي على جميع الكلمات ذات اللفظ الواحد.

فمثلا عندما كان اللفظ « تي » يعبّر في السومرية عن كلمة « السهم » ، أصبح مفهوم « الحياة » الذي يعبّر عنه فيما بعد بالسومرية أيضا باللفظ « تي » ، يكتب على شكل سهم .

وهنا اذا استطعنا اثبات ذلك في عصر فجر التاريخ ، فهـذا يعني وعلى الارجح بأن السومريين هم أول من ابتكر الكتابة المسمارية وبالتالي اول من بنى كامل صرح حضارة هذا العصر . وهذا يقودنا لأن نقف حائرين ومكتوفي الايدي امام التساؤلات التالية : متى قدم السومريون الى هذه البلاد ؟ ومن أين قدموا ؟ وكيف تمت هجرتهم الى هذه البلاد ؟ وهل هم السكان الأصليون لجنوب بلاد ما بين النهرين ؟ اننا لا نستطيع الاجابة على هذه الاسئلة بوضوح لأن السومرية بقواعدها ومفرداتها بعيدة عن أن تنتسب الى اية لغة أخرى ولأننا لانملك وثائق مكتوبة من العصور السابقة للسومرية باستثناء بعض اسماء قرى في بلاد سومر وبعض الكلمات الغريبة في السومرية والشبيهة لتلك الاسماء والتي لها علاقة بالمجال الزراعي بحيث تبدو وكأنها ترجع الى العصر ما قبل السومري .

قال بعض العلماء استنادا الى ابحاث علم الانسان منطلقين من نتائج بحوث علم الاجناس التي اجريت على عدد قليل من الهياكل العظمية المتفتتة ، بأن الانسان السومري يتميز برأسه المتطاول كثيرا • غير ان هذه الميزة تتعارض كليا واشكال اشخاصهم المنحوتة منذ عصور فجر التاريخ حيث يظهرون فيها قصار الرؤوس وذوي جبهة مضغوطة الى الخلف (كجبهة القــرد) وانف متضخم ، طبقا لاوصاف ما يسمى بعرق بلدان الشرق الأدنى •

وعلى أي حال سواء أكان السومريون قد استقروا في البلاد منذ العصر الحجري ـ النحاسي أو قدموا اليها بعد عصر الصيد فقد ظلت اعمالهم في المضمار الحضاري ، وخاصة خلال النهضة السريعة التي شملت فجر التاريخ ، المنار الذي سارت على هداه بلدان الشرق الادنى لعدة قرون بل لآلاف من السنين • اضافة لذلك فقد كان لهم النصيب الاكبر في الاشعاعات البعيدة المدى لهذه المنطقة على غيرها من بقاع العالم •

ينقسم فجر التاريخ السومري الى ثلاثة فصول فرعية يتشابه قسم منها مع بعضه البعض كليا ويختلف القسم الآخر عن بعضه البعض اختلافا كبيرا•

آ ـ عصر الوركاء (اوروك) = (الطبقة الرابعة)

يدعى العصر الأول ، الذي بدأ مع مطلع الألف الثالثة ق•م تقريبا ، بعصر الوركاء (= اوروك) لأن جميع مصادر هذا العصر الحضارية قد استنبطت تقريبا من الموقع الاثري الكبير المعروف حاليا بالوركاء الذي كان يحتضن مدينة المعبد السومرية الشهيرة اوروك المعروفة بالتوراة تحت اسم ايرخ • لقد ظلت هذه المدينة قائمة منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصرين السلوقي والبارتي وهذا ما دلت عليه الطبقات العديدة المكتشفة لحد الآن • كذلك تشكل الطبقات ٦ ـ ٤ بداية لفجر التــاريخ حسب ترقيم الطبقات الذي اتبع اثناء الحفريات •

لم يعد الفخار واسطة تعبير لمفاهيم روحية سامية في هذا العصر الجديد كما كان عليه الحال في العصر الحجري ـ النحاسي . ويمكننا أن نستقرىء بعض مظاهر التمدن المادي من اولى الوثائق الكتابية كالرموز التي تشير الى العربة والسفينة والمحراث وبعض انواع الحيوانات والنباتات وغيرها كثير . اما الشواهد الحقيقية على التقدم الحضاري المزدهر وعلى التنظيم السياسي الفعال في عصر الوركاء (الطبقة ٤) ، فانها تكمن في الشواهد المعمارية الضخمة وفي فن شحذ الحجارة الصماء والكريمة (الاختام) وفي التماثيل ، لأننا لم نجد حتى الآن المنحوتات التي نفترض انتشارها بشكل اكيد في ذلك العصر .

لقد تألفت الوركاء أيضا في عصورها الاولى من منطقتين مقدستين ضمتا على الارجح معبدين مستقلين في البدء ، ثم اندمجتا مع بعض بالطرق السلمية أو الحربية .

تضم المنطقة الاولى التي يرجح بأنها أقدم من الثانية معبد إله السماء آنو وهذا ما عرفناه من خلال كافة المعلومات التي وصلتنا من العصور المتأخرة والعصر السلوقي للمدينة.لقد أمكن الكشف عن معبد يرجع الى فجر التاريخ وأطلق عليه اسم « المعبد الابيض » نسبة للطبقة الكلسية التي تكسو جدرانه (انظر صورة رقم ١٢) . كما أمكن أيضا ازالة التجديدات والاحداثات الاضافية التي لحقته فيما بعد ، بحيث ظهرت أساساته واضحة بشكل مكننا من تصور شكله قائما .

ولقد تبين أيضا ان شكله لم يتغير تقريبا منذ عصر ما قبل التاريخ حتى عصور فجر التاريخ رغم الترميمات العديدة التي اجريت فيه .

يقوم هذا المعبد على مصطبة عالية بحيث يتضح لنا بأنه كان أول نموذج لما عرف فيما بعد بالزيقورات[1] ذات المعبد المتصاعد الذي أصبح العلامة

(١) الزيقورات : ج زيقورة : برج عال يتألف على الاغلب من سبع طبقات . وكان الاقدمون يقيمونه اكراماً لآلهتهم ، ومعناه العظمة والعلو . والكلمة مقتبسة من العربية يقال : صقر النار اي أوقدها ، واصقرت الشمس اي اتقدت .

الفارقة لديانة بلدان الشرق الأدنى وفن العمارة فيها • ويرينا هـذا المعبد والمعبد الذي مر ذكره والمكتشف حديثا في المدينة المجاورة اريدو، ان التقاليد قد استمرت دون انفصام بين عصري ما قبل التاريخ وفجر التاريخ •

لقد وصل فن العمارة حسب المعلومات المتوفرة لحد الآن الى مستوى الفخامة والعظمة في المنطقة الثانية من مدينة الوركا والمسماة بحي إي ـ أنّا التي يتمركز فيها معبد إي ـ أنّا (اننّين التي عرفت فيما بعد باسم عشتار) إلهة الأمومة الكبرى • لقد ظهرت في هذا الحي عمائر لا تقوم على مصاطب عالية • ان مخطط البناء القديم الذي نشأ في عصر ما قبل التاريخ وعرفناه في حي آنو وفي اريدو ، والذي يتألف من باحة مستطيلة وممتدة (أو قاعة) تحيط بها من الجانبين الطولانيين مجموعة من الغرف الصغيرة ، قد أصبح هنا جزءا لا يتجزأ من اعمال تخطيط الابنية •

تكمن اصول العمارة التي تستخدم المحاريب في جـدرانها في تلك المحاريب المتواضعة المجنحة بدعامات تزينية صغيرة والمعروفة في اول معبد ظهر في تبة كورا والذي يعود الى أواسط العصر الحجري ـ النحاسي• ولقد وصل هذا النوع من العمارة الى مرحلة من الازدهار لم تعرفه حتى العصور التاريخية اللاحقة • وتجلى ذلك في مبنى المعبد الرئيسي لـ (إي ـ أنّا) أو ما يسمى بمعبد (د) المرجح أن يكون معبد اننّين ، الذي يرجع الى عصر اوروك الرابع (انظر صورة رقم ١٣) •

انه حقا لجدير بالملاحظة وظاهرة جديدة تلك التي نجدها في الكسوة التي تغطي جدران ابنية الوركاء • اذ أُكسيت الجدران المبنية من اللبن المجفف بطبقة سميكة من الطين ، التي رصعت بدورها بآلاف من المسامير المصنوعة من الطين المشوى المقاوم للعوامل الطبيعية • هذا وقد لونت اطراف المسامير بالاسود والابيض والاحمر ونظمت على نحو تنتج عنه سلسلة من الجدائل الزخرفية • يمكننا اعتبار هذا تقليدا للحصيرة المستخدمة كغطاء بدائي للجدران ونوعا من الموزاييك المسماري •

لم يصادفنا الحظ حتى الآن في العثور على تماثيل منحوتة كبيرة تعود الى الفترة الاولى لفجر التاريخ السومري ، وان كل ما نعرفه عن الفنون التشكيلية الجديدة في هذا العصر مستمد من فن شحذ الحجارة الصماء (الاختام) .

لقد اجتازت هذه الصفة ايضا مرحلة هامة في تقدمها والتي ربما تجلت في اختراع ما يسمى بالختم الاسطواني الذي اصبح الى جانب الزيقورات والكتابة المسمارية من المميزات البارزة في حضارة بلدان الشرق الادنى . لقد كسب الفنان مساحة اكبر لحفر المشاهد التصويرية على الاختام الاسطوانية التي ينتج عن طباعتها على العجينة الفخارية شريطا مستطيلا واسعا اذا ما قورن ذلك بمساحة أختام ما قبل التاريخ المسطحة .

لم يشمل هذا التجديد شكل الختم فقط بل تعداه الى مادته واسلوبه التصويريين اللذين اتخذا اتجاهات جديدة كليا . لقد تميز الاسلوب التصويري في هذه المرحلة بميله نحو خلق رابطة بين الاشكال المتفرقة وذات الطابع الواقعي وبين ملاءمتها مع المساحة المعطاة ، انطلاقا من حساسية فنية بارزة تجاه قوانين التجريد الفني . هذا وقد عرفت المواضيع التصويرية لأول مرة ثراء هائلا بشكل اجتازت الحدود الفكرية لمجتمع الصيد بمسافات شاسعة ، مع الاشارة الى أن أفكار مجتمع الصيد بقيت على قيد الحياة .

ان نظرة واحدة على مشاهد الطقوس الدينية والقتال وشعارات الجن والآلهة لتكفي في تكوين فكرة عن مظاهر الحياة الروحية في ذلك العصر الزاخر بالحيوية والحركة . فالأمير المسمى بـ « لوكال » ، أي الانسان العملاق ، يظهر بنفس الوقت مصورا ككبير الكهنة والبطل المحارب في حومة الوغى .

لقد احتلت مدينة المعبد بصورة نهائية مكان القرية ، غير انه علينا ان لا نفهم تعبير « المدينة » كما نفهمه اليوم ، وانما كبقعة تحتضن عقارات المعبد

وبيوت الكهنة وتتوسط مقاطعة من املاك الإله. ان كل ما نستطيع ان نستنبطه من آثار هذا العصر ، يتوافق ومحتويات النصوص السومرية المتأخرة التي تدور حول نظام الدولة السومرية الذي حدد بأن كل الاراضي ومن يعيش عليها من الحيوانات والنباتات ملك كبير آلهة الدولة . كما نجد ان خليفة هذا الإله الأكبر في أرضه هو المسمى بـ «لوكال»، الانسان العملاق. كذلك اتخذ كبير الآلهة المعبد مقرا له وخصصت مستودعات هـذا لخزن غلال الارض وحصيلة جهد الانسان . أما اللوكال فيوزع لكلٍّ عمله وأجره وكل من لم يعمل في الفلاحة كفلاح في استغلال الارض وزراعتها وانما كموظف في الادارة الاقتصادية او القانونية او السياسية بحضيرة الإله مثل الكهنة والكتاب أو الحرفيون والعمال أو المحاربون ، فانه يسكن بجوار المعبد . وبذا يشكلون بسكناهم هذا ما نسميه بالمدينة . ومن المحتمل ان يكون عدد الآلهة المحليين مع مناطقهم قد التزموا قيادة إله رئيسي وأقاموا اتحادا منظما فيما بينهم وفق نظام تيوقراطي ـ جماعي . وعلى كل حال استطاع الشعب السومري عنـد بداية الالف الثالثة قبل الميلاد ان يحدد العلاقات الاقتصادية والسياسية للافراد والجماعات بقوانين مستمدة من معتقداته الدينية وايمانه بالقدرة الخفية . ويتمثل المغزى الأخير لهذين الشيئين في قمة دولة الإله المتمثلة في شخص لوكال نائب الإله . ومن الممكن ان يكون هذا التوازن بين الحياة المادية والروحية قد ساهم كثيرا في نشوء اول حضارة انسانية راقية .

ب ـ عصر جمـدة نصر

لقد برزت الى الوجود اشياء مختلفة خلال الفصل الثاني لفجر التاريخ الذي اعتدنا ان نسميه عصر « جمدة نصر » ، نسبة الى الموقع الأثري المعروف بهذا الاسم والذي فقد أهميته اليوم . وتشير تلك الاشياء التي يحتمل ان يكون مصدرها من ايران الى نوع من تهجين حضارة الطبقة الرابعة في اوروك . لقد ظهرت ثانية كميات كبيرة من الاختام المسطحة الى جانب الاختام الاسطوانية التي تعتبر من مستحدثات العصر الفائت ، هذا وغالبا ما أدت

عملية ثقب الكتل الكروية التي هي بالاصل من مخترعات شاحذ الاحجار الصماء (الاختام) في فجر التاريخ ، الى تبسيط الرسوم كليا وخاصةالمحفورة منها على مساحات الاختام المسطحة • كذلك نجد ثانية وبعد انقطاع طويل اواني فخارية ملونة باسلوب وتكنيك لا يمكن ان يكون الا ذات تأثير من الخارج ، وخاصة من ايران التي لم ينقطع فيها فن تلوين الفخار • اضافة الى ذلك لم تعد عمارة معبد إي ـ أنّا في اوروك ضخمة وشامخة كما كانت في السابق • هذا ويبدو ايضا ان معبد انّين قد أقيم على مصطبة مرتفعة ، ولما كان الامر هكذا فيرجع ذلك اما لأن انّين قد غيرت صفتها « كسيدة السماء » ، أو لأنها أبعدت إله السماء آنو من منصبه كاله لمدينة اوروك •

ولكن رغم كل هذا نرى ان الحضارة التي كانت قد نشأت في عصر اوروك الرابع قد استمرت في سير تطورها بخطى ثابتة • فالكتابة في عصر جمدة نصر « اوروك الطبقة الثالثة ــ ب » ، ليست الا استمرارا فعليا لعصر اوروك (الرابع) • تقدم لنا اختام ومنحوتات هذا العصر حقا مواضيع كافية الآن بحيث تجيز لنا لأول مرة بالاعتماد على المادة الأثرية فقط ، لأن نرمي نظرة على التركيب الروحي لانسان فجر التاريخ ، بشكل لم نعهد له مثيلا من قبل •

تتجلى الطاقة الحيوية لفجر الحضارة السومرية باوضح صورها في نشاطها التوسعي الذي اتقد بصورة خاصة خلال عصر جمدة نصر • ولهذا السبب لم نعتمد بعد الآن على المكتشفات الأثرية في اوروك فقط ، لأن حضارة عصر جمدة نصر قد تركت شواهدها في كافة ارجاء الشرق الأدنى • اننا نلمس اشعاعها ينير جارتها عيلام ومختلف ايران وكذلك آسيا الصغرى وبلاد الشام وربما يكون قد شمل مصر ايضا (في حضارة نيكادا الثانية) • هذا وقد تم العثور في سوزا عاصمة عيلام (الطبقة الرابعة) على اختام شبيهة بمثيلاتها في جمدة نصر وكتابة لا بد ان نشأت بكل تأكيد بتأثير الكتابة المسمارية

الاولى • كما عثر أيضا في أسفل طبقات اشنونا وخفاجي وتل عقرب الواقعة في منطقة الديالي الى الجنوب من بغـداد على آنية مقدسة تحمل نقوشا بارزة تشبه تلك التي وجدت في جنوب الرافدين • بالاضافة الى ذلك فقد تم التقاط عدد من اللقى الصغيرة في احد معابد تل براك الواقع في شمال الرافدين (الجزيرة حاليـا) تشبه مثيلاتها المكتشفة في ارض بلاد سومر الحقيقية والتي ترجع الى عصر فجر التاريخ ، علما بأن مخطط هذا المعبد يغاير في شكله ما يسمى بالمعبد الابيض المعاصر له في اوروك الرابضة في الجنوب •

ومهما تنوعت نتائج الحفريات التي اجريت في كل هذه المناطق الأثرية ، تبقى مواضيع نقوش الاختام والمنحوتات الحجرية تدور ـ باستثناء شواذ قليلة ـ حول فكرة دينية رئيسية واحـدة تجلت في تقديس الام الكبرى اتّين • لقد انتشرت عبادة هذه الإلهة بصورة رئيسية في اوروك وفي أماكن أخرى ايضا ولكن تحت أسماء مختلفة ووفق طرق محلية معينة • هذا وتعتبر اتّين وريثة إلهة الأمومة التي سبق أن عرفناها في مجتمع ما قبل التاريخ القروي • اما هنا في النصف الثاني من عصر فجر التاريخ فتظهر اتّين على صـلة وثيقة بملك اوروك الاسطوري المعروف بالانسان الإله دوموزي والمشهور بالتوراة باسم « تموز » والذي يلعب دور الراعي والسمّاك بنفس الوقت • ولقد ازدادت معرفتنا به من خلال الاغاني السومرية التي تعود الى حوالي (٢٠٠٠) ق•م حيث يلعب فيها دور عشيق فتيٍّ للالهة الكبرى • وعنـدما يموت يدب الاصفرار في النباتات وتسير الحيوانات في طـريق الانقراض • الا ان عشيقته بالتعاون مع اخته « كرمة عنب السماءِ » المسماة بـ « كيشتين ـ آنّا » عادتا فانتشلتاه من براثن عالم الاموات•وهكذا زهت الحياة من جديد وعمّت المسرة الكونَ وتجددت الحيوية في كل شيء باطلاله ثانية على دنيا الاحياء•ولقد رتّلت تلك الأغاني عند موته وترنم المرء بألحانها عند بعثه ، كيف لا وهو الإله ـ البشر ! • ففي خلال عصر التاريخ وخاصة

في اوروك لا يكمن سر قوة الحياة في الإلهة اننين بقدر ما يتجسد هذا السر في دورة الحياة والموت في شخص تموز الذي كان يشكل أسس الفلسفة السومرية ، التي نستطيع تتبع جزئياتها وتفصيلاتها على يد الفن التصويري ، بينما يبقى كبار الآلهة بالنسبة لنا مجرد اسماء تعكس قوى السماء .

كثيرا ما نجد على الاختام الاسطوانية والآنية الحجرية المقدسة زخارف بارزة تمثل مناظر لحيوانات اليفة يتصدرها غنم أو ابقار تخطو خلف بعضها البعض (انظر صورة رقم ١٤) . ولقد كان يصاحب هذه المناظر شعار على شكل حزمة من رماح القصب ينتهي اعلاها بزهرة حلزونية وبعلم مثلث . لقد سبق ان ظهر هذا الرمز كاحدى اشارات الكتابة في عصر الوركاء الرابع الى جانب شعارات اخرى للالهة . كما اننا نستطيع أن نقتفي اثره في تطور الكتابة المسمارية . وهنا يمكننا قراءته كاسم الإلهة عشتار التي تعتبر النظيرة السامية لانين السومرية . هذا وترينا اختام اخرى منظر خروفين يقفان الى جانب نبتة ذات أزهار ثمانية الوريقات . ومن حين لآخر يجتمع حيوان أليف مع شكل محور لزهرة ترمز هنا الى كامل الشكل النباتي . اما المشاهد الاخرى فتضم حيوانا أليفا وحظيرة يصحبهما شعار الإلهة الآنفة الذكر . وغالبا ما تظهر الابقار الى جانب أشكال سنابل الشعير خاصة اذا علمنا بأن البلاد لم تعرف المراعي آنذاك ، بحيث كانت تتم عملية تربية الابقار بالاستعانة بالشعير للتغذية . لقد شكل موضوع رعي الحيوانات وعلفها حافزا قويا للفنانين ، إذ دفعهم الى الاكثار من تمثيلها بشكل ندرك من خلالها بأنها فصل من ملحمة دينية اكثر من كونها موضوعا عاديا . فمثلا يقوم رجل ، غالبا ما يرافقه خادم ، بتقديم سنبلة أو غصنا يحمل أزهارا ثمانية الوريقات الى البقر والغنم لأنها تعتبر من قطعان الإلهة التي يرمز اليها على شكل حزمة من نبات القصب . أما هذا الرجل فما هو الا شخص أمير بلحيته وظفيرته الخلفية ورباط شعره (عقال) . وبهذه المناسبة فاننا نرى

في مشاهد عصر اوروك (الطبقة الرابعة) ان الملك نفسه يحمل مثل هـذا العقال ليتميز به عن خادمه (انظر الصورة رقم ١٥)٠ان ما يلفت النظر بشكل خاص هي التنورة التي يرتديها الملك الراعي المصنوعة من قماش محاك على شكل شبكة ٠ يظهر هذا الرجل في مشهد محفور على ختم اسطواني هام في وضع أمامي وهو يحمل غصنين تتدلى منهما أزهار ثمانية الوريقات ، بينما يقفز خروفان الى الأعلى في محاولة منهما لالتهام الغصن من بين يديه ٠ من هنا نرى أن المشهد بكامله يشكل شعارا مؤلفا من عدة أشكال رمزية ٠ ونظرا لكونه مرتبطا بحزمتين من نبات القصب اللتين ترمزان الى الإلهة المقدسة فلا يمكننا والحال هذه الا أن نفهمه كمظهر من مظاهر الطقوس والعبادة ٠ لذا فانه لا يمكن أن يدور هـذا المشهد الا حول العلاقة التي تربط اثنين بالملك الراعي السابق الذكر أي بملك اوروك الاسطوري المسمى تموز ، الذي وصفته النصوص كسيد لقطعان الحيوانات أو سيد مساكن الرعاة ٠ هذا ومن المرجح أيضا أن تكون بعض الابنية المكتشفة في اوروك على علاقة بمساكن الرعاة وحظائر القطعان المقدسة ٠

لم تصف الاغاني تموز كحامي ومربي الحيوانات الاليفـة وحسب ، بل مجدته بنفس الوقت كأنه يفيض رجولة وكبطل لا يستهان به ٠ بنـاء على ذلك يجب علينا أن نرجع مجموعة أخرى من المشاهد الفنية التي تعود الى عصر فجر التاريخ الى شخص تموز ، وخاصة تلك التي يظهر فيها بطل عار من اللبـاس يقوم بحماية القطعان من شر أفظع الحيوانات المفترسة هو الاسد ٠

لقد سبق ان وجدت هـذه الفكرة التصويرية التي تتجسد في حماية الحيوانات الأليفة والدفاع عنها صداها ضمن مفهوم تجريدي ورمزي في عصور فجر التاريخ ٠ وقد تجلى هذا في مشهد البطل الذي يتأبط ثورين أو يقهر أسدين بشكل ًمثل كلاهما بطريقة رمزية ٠ لقد قدر لهذه الفكرة أن تلعب دورا مرموقا خلال كافة مراحل تطور فن وديانة الشرق القديم ٠

وختاما لذلك فان تموز معروف لدينا أيضا بأنه كان كبير كهنة الإلهة وبنفس الوقت عريسها ، الذي يشاركها حفلة الزفاف في عيد رأس السنة ، وذلك كتجديد رمزي للحياة وانبعاثها في كل من الطبيعة والدولة . كذلك فاننا نعثر على هذه الفصول المقتطعة من اسطورة اتّين ــ تموز ثانية في الاعمال الفنية لعصر جمدة نصر ، التي نجدها أكثر تفصيلا على وعاء كبير من الالباستر يحمل ثلاثة أفاريز من النقوش البارزة (انظر الصورة رقم ١٦). ويتألف السفلي منها أيضا من ثلاثة أقسام قوام أشكالها سنابل شعير ونباتات أخرى نمت فوق الماء في الوقت الذي تسير فوقها الأغنام . يشكل المـــاء والنباتات والحيوان مجتمعين رموز ومعاني الحيـــاة التي تفتقت في النبتة الناشئة من الطبيعة غير العضوية كي تصل الى مرحلتها الثانية والعليا في الحيوان وكلاهما يشكلان أساس الوجود البشري الذي نذر نفسه للآلهة . وفي الافريز الوسطي نشاهد رجالا عراة يجلبون ثمار الحقل الى « أم الجميع » الموجودة في الافريز الاعلى حيث يظهر امامها الرجل الذي يرتدي التنورة الشبكية وهو الراعي والبطل تموز الذي يتقدم موكب ناذري القرابين في طريقه لمقابلة الإلهة بمناسبة عيد رأس السنة .

وهكذا اذا تصفحنا طيات هذا الفن التصويري نجده يتيح لنا الفرصة لأن نلقي بنظرة فاحصة على فلسفة ذلك العصر الذي يعتبر منطلقا اساسيا لكامل السير اللاحق لتاريخ الشرق الادنى ، حيث صور لنا العالم بسمائه وارضه بمماته وحياته موحدا في تماسك وتوازن فريدين . كذلك اندمجت نواميس الحياة ضمن كلّ متوحّد دون أن تنقصها التوترات ولكنها مع هذا قادت الى توازن في القوى .

ولقد شكل هذا التوازن الحاصل محور سعادة الحضارة الانسانية في حقباتها الكبرى عند اشتداد التوترات الداخلية . ان التوازن بين العوامل الداخلية المتصارعة لأكبر حظ أصابته الحضارة الانسانية . فمن هذا التوازن

تفتقت قدرة السومريين الخلاقة في فجر تاريخهم والتي تجلت في ادراك ان الموت والحياة يدوران في دوامة أبدية ، وفي الايمان بأن دولة الإله وتنظيمها المجتمع البشري على أساس تيوقراطي تشرف فيه الدولة على كافة وسائل الانتاج ليكون في خدمة الآلهة . ولقد تجلى هذا الادراك أيضا في العمارة الشامخة وفي اول المنحوتات الهامة وفي الاختام وذلك كتعبير عن فلسفات دينية . واخيرا كان اختراع الكتابة الاولى كصلة ارتباط بين الكتابة المصورة والكتابة الصوتية لتنتقل بعد فترة الى مرحلة الكتابة المقطعية .

وفي الختام لا نستطيع ان نرجع التطورات اللاحقة ، ان كان ذلك في المجال الديني والفني وفي المجال السياسي والاقتصادي ، الا الى تلك التوترات بين الإله والعالم ، بين الموت والحياة ، بين الكهنوت وممتهني القتال والى التوترات ضمن الدولة الواحدة وبين الدويلات المتفرقة .

ج ـ عصر ميزيليم

يجب ان نضيف الى عصر فجر تاريخ بلاد ما بين النهرين حقبة ثالثة قدمت لنا ولأول مرة وثيقة تحمل اسما ، وبالتالي يمكننا ان نعتبرها وثيقة تاريخية بكل معنى . انها عبارة عن رأس دبسة تحمل نقوشا بارزة قدم كنذر من ميزيليم ملك كيش . في الواقع لا تحوى هذه الوثيقة الا اسما نكرة مجردا من كل ارتباط . الا انها تعتبر بالرغم من ذلك اول مصدر مكتوب لتاريخ البلاد السياسي . وتثبت لنا هذه الوثيقة ما نستطيع ان نستقيه من ملاحظات اخرى تؤكد لنا تحول مركز ثقل الحضارة من اقصى الجنوب على الخليج العربي الى المنطقة التي تعلوها قليلا الى الشمال ، هي منطقة العاصمة بغداد الحالية . أي من مدن اوروك واريدو واور الى مدينة كيش عاصمة الملك ميزيليم ، التي تعتبر الأم القديمة لمدينة بابل الشهيرة عاصمة الحقبة الكلاسيكية، والتي انطلقت منها منذ ذلك الحين موجة عمّ بها العنصر السامي المنطقة . يعود الفضل في كل ما نعرفه بشكل ملموس عن هذا العصر في النواحي المادية والفكرية كليا الى المكتشفات الاثرية . وهذا مادعانا بحق الى ضم هذه الحقبة والحقبتين السابقتي الذكر الى عصور فجر التاريخ وليس الى فترة بدء التاريخ . هذا ويعتبر الانقلاب الذي طرأ على كامل حضارة عصر جمدة نصر وانتقالها الى عصر ميزيليم ، من اعنف ما عرفناه خلال كافة مراحل تطور الشرق الادنى القديم .

في الواقع لم يحدث هذا الانقلاب دفعة واحدة ، خاصة وان الحدود الفاصلة بين الحقبتين ليست واضحة تماما . فمثلا نجد ان هناك عناصر حضارية داخلية وظاهرية في هذا العصر الجديد تعتبر استمرارا لتقاليد العصر الماضي . كذلك يمكننا تتبع هذا التحول حتى خلال

فترة انتقالية من الفوضى التامة كان البحث فيها جادا عن اشكال فنية جديدة. بالرغم من هذا ترينا حصيلة عصر ميزيليم حضارة جديدة كليا اذا ما قورنت بعصري اوروك الرابع وجمدة نصر .

لقد طرأ على فن العمارة تبدل شمل نواحيها التكنيكية البحتة وعناصرها الرئيسية في الوقت نفسه . فشكل الآجرّة في عصر ميزيليم لا يزال يُعتبر لغزا عسير الحل حيث لم نستطع تفسير تحدب وجهها الطولاني العلوي إن كان ذلك من خلال ميزتها في تماسك البناء او من خلال هدفها كتقليد للاحجار الغشيمة غير المنحوتة ، كما كان البعض يعتقد في السابق . وهكذا سيبقى ذلك الشكل المسمى بـ « السلحفي » لآجرّ عصر ميزيليم يشكل لغزا اكثر تعقيدا من لغز اختراع مادة الآجرّ نفسها في العصور السابقة .

لا يقتصر الشيء الجديد على شكل الآجرّ وحسب، بل تعداه ايضا الى اسلوب تأسيس البناء . فبينما كانت الابنية تقام في السابق مباشرة فوق مصطبة مستوية عمد المرء في هذا العصر غالبا على حفر اساسات للجدران ، او كما يعمد احيانا على حفر كامل مساحة الارض التي ينتصب فوقها المعبد بعمق عدة امتـــار ، ومن ثم ملئها بالتراب وذلك كي يفصل الارض المقدسة عن الاراضي المحيطة بها . كذلك ظهر تقليد جديد من نوعه وهو ان تُغرز مسامير برونزية سحرية في الزوايا الاربعة لأساسات البناء من شأنها تثبيت لوحات كتابية فيهـا . وما هو جديد أيضا هي منشآت المعابد التي نعرف العديد منها في آشور وماري واشنونا وخفاجي اذ تختلف عمـا يُسمى بالمعبد العـالي في اريدو واوروك وتل براك والمعابد الكبيرة في حي إي ــ أنّا التي تطرقنا اليها آنفا بالرغم من ان شكل قدس الاقداس فيها كان معروفا في خفاجي قبل عصر ميزيليم . اما الآن فيتخذ المعبد شكل الحظيرة وهو عبارة عن صالة مستطيلة يستند المذبح فيها على الضلع القصير ، بينما يقع المدخـل في الضلع الطويل

بعيدا قدر الامكان عن المذبح • يرتبط هـذا البهو بباحة وغرف مخصصة للكهنة وادارة المعبد •

هذا ويمكن أن يحوي المعبد مكانا واحدا أو اثنين أو ثلاثة أمكنة لقدس الاقداس • ويصل الامر في بعض الاحيان ، كمـا هو الحال في معبد شارا المقدس في تل عقرب ، ان يضم المعبد مجموعات من قدس الاقداس مع بيت ملحق للكهنة ، بحيث يشكل المجموع وحدة بنائية متماسكة •

لم يعد المعبد يشكل بناء مستقلا بنفسه ومنفتحا بنفس الوقت نحو العالم الخارجي كما هو الحال في العصور السابقة ، بل تحول الى منشأة أدارت ظهرها للخارج لتطل كليا ومن جميع جهاتها نحو الباحة السماوية التي تتوسطها في الداخل • وهكذا انقضى عهد شموخ وضخامة مباني عصر اوروك الرابع واختفى من امامنا في كل مكان بعد هذا العصر • لقد بقي اسلوب المعابد العالية متبعا أيضا فيعصر ميزيليم ، كما تشهد على ذلكبعض المصاطب الباقية، الا اننا لا نعرف شيئا عن شكل ومخطط المعبد نفسه الذي كان يعلو المصطبة• كما اننا لم نستطع حتى يومنا هذا أن نعرف لماذا بُنيت لبعض الآلهة معابد عالية ولبعضها الآخر معابد عادية • وأخيرا قدم لنا فن العمارة في عصر ميزيليم أول سور مدينة وحصن بنفس الوقت هـو السور المزدوج والمستدير لمدينة اوروك حيث يبلغ طوله حوالي ٩,٥ كم ويحيط به ما يقارب الـ ٩٠٠ برجا دفاعيا ، كما امكننا التأكد من وجود بوابتين فيه • هذا وتشير جميع الدلائل وفي مقدمتها نوع الآجر السلحفي الشكل وكتل الطوب الكبيرة على ان هذا السور من عصر ميزيليم ، وانه ليس كغيره من التحصينات الدفاعية الاخرى• اذ يشير النص البابلي لملحمة جلجاميش ، الذي يعتبر أهم المخلفات الادبية لهذا العصر ، بأن جلجاميش هو الذي أقام صرح هذا السور وانه كان الملك الاسطوري لاوروك وخليفةتموز وذلككماتسردها القائمةالملكية الاسطورية• كما وتذكر الملحمة بأن اقامة صرح هذا السور انما كان نتيجة لاعمال السخرة

لسكان اوروك حيث وضع جلجاميش به حجر الاساس لشهرته الخالدة • لقد تثبتت به حدود منطقة قسمت بالتساوي بين مدينة وحدائق النخيل وضواحي واراضي بور تخص المعبد •

اننا نفسر هذا العمل ، على انه الخطوة الاولى نحو التحول من نظام دولة الإله مع المعبد كمركز لها الى نظام اجتماعي جديد يكون فيه المعبد والقصر ، كبير الكهنة والملك جنبا الى جنب متفقين أو متعاديين • ولقد أصبحت أيضا مدينة المعبد نفسها بتسوير حدودها منعزلة عن بقية اقسام المدينة • وهكذا شكلت هذه الاقسام مع قصر الملك والسور المحيط بها عالمًا قائما بذاته : انها الثنائية (المعبد والملك) ، التي كان قد قدر لها أن تقرر السياسة الداخلية لبلدان الشرق الادنى طيلة آلاف من السنين •

لقد طرأ تبدل حاسم على صناعة الاختام وعلى فن النحت من عصر جمدة نصر الى عصر ميزيليم بنفس الدرجة التي شملت فن العمارة • فلا يعقل لأحد منا أن يتصور تناقضا في القوانين الشكلية للمنحوتات النافرة أو في الاختام كالذي يبرز في المنتجات الفنية بين عصر جمدة نصر وميزيليم • ففي عصر جمدة نصر صاغ الفنان مشاهد منحوتاته النافرة بشكل بدائي وقريب من الواقع على المساحة المعطاة له • وفي البدء كانت عناصر المشاهد غير منظمة ثم عمد على تجميعها وتنسيقها بشكل متسلسل ومرتبط • اما في عصر ميزيليم فقد اصبحت المساحة المخصصة للمشهد ، نفسها مجرد مكان لاستيعاب الافكار المراد التعبير عنها • كذلك فقد خضعت عناصر المشاهد المصورة كلاً وافرادا لقوانين وشروط تلك المساحة المخصصة لها ، علما بأن تلك الصور ما هي الا تعبيرا رمزيا للاشياء بحد ذاتها • لقد كانت الصور في عصري اوروك وجمدة نصر دوما سواء منها التماثيل المجسمة أو المنقوشة على اللوحات وفي الاختام تمثل اشكالا حية ملموسة وواضحة التجسيم • ولقد بلغ التجسيم فيها احيانا درجة من المبالغة في اعطائها الاستدارة التجسيمية

حيث تبدو منتفخة وبالغة السمنة • بينما نرى الاشكال في هذا العصر وقد برزت عن السطح بشكل يكفي فقط لاظهارها مرئية ، مما ادى بها الى درجة قصوى من النحافة والبساطة التخطيطية المنقوشة وهزيلة جدا ، بحيث لم يعد بالكاد ابراز العناصر المصورة بشكل مجسم بقــدر ما استهدف النــاحية التخطيطية وابراز الحدود الترسيمية الخارجية للجسم النافر الذي تحول الى هيكل من الاحجام •

هذا وتشير جميع دلائل صياغة الشكل على قدرة تجريدية مقصودة ، التي يمكننا مقارنتها بالخطوة التي قادت تحول الكتابة من تطورها التصويري الى طورها الصوتي •

فالتجربة المتطـرفة اصبحت الشعار الفكري المميز لهـذا العصر التي لا تنطلق من التأثير الحسي بقدر ما تنطلق من مبدأ اضفاء الروحانية على الاشكال • ولقد وجدت هــذه التجريدية اقصى معانيها في تلك التماثيل الفردية التي تم اكتشافها في احد محاريب معبد « ابو » في اشنونا (تــل اسمر) • لقد ٌوجد ذلك الكنز الثمين من التماثيل في حفرة تقع بالقرب من المذبح بحالة ممتازة جــدا وتتألف من اثنى عشر تمثالا من حجر الالباستر اثنان منها لنساء والباقي يمثل رجالا • انهم جميعا يشكلون تحويرا للشكل الانساني بحيث تنفق وهيكل الحجوم المتفتّق عن ذهن النحات • لم يعمد الفنان على طرح البناء الكلي للاشكال بتناظر دقيق وحسب ، بل جهد ايضا بقصد تحوير اعضاء الجسم الى اشكال هندسية منتظمة وبعيدة عن النسب العضوية •

ورغم هذا فان الاجسام وفي مقدمتها الوجوه لا تتمتع بأي تشابه مشترك او تبسيط تخطيطي بل تهيمن عليها هالة روحانية مجردة • فمثلا وجد لدينا في تل اسمر تماثيل فريدة من المصلين تبدو وكأنها قد خلت من اللحم والدم ولم يبق فيها غير لب انسان نذر روحه للاله (انظر الصورة رقم ١٧) •

واذا كانت التماثيل المجسمة قد اعطتنا لمحة عن التركيب الفكري لانسان هذا العصر ، فان المنحوتات النافرة والاختام لترشدنا الى تفسير تصوراته الدينيـــة •

لقد وصل الينا من مواقع اثرية متعددة مثل اور ، وفارا ، وخفاجي ، واشنونا ، وسوزا ، لوحات حجرية مربّعة الشكل تقريبا لم نستطع حتى الآن تحديد اوجه استعمالاتها الحقيقية بالضبط •فهي دوما مثقوبة في الوسط وتحمل على الغالب نقوشا بارزة ،رتبت غالبا فوق بعضها ضمن اثنين أو ثلاثة اشرطة وتعالج موضوعا واحدا يدور حول مشهد رئيسي واحد يتمثل بامرأة ورجل يجلسان متقابلين ويشربان من كأس واحدة أو يمتصان الشراب بواسطة عود قصب من وعاء كبـير ويساعدهم الخدم بكل شيء ، بينما يُحيي الموسيقيون والراقصون الحفل (انظر الصورة رقم ١٨) • اما في الاشرطة الاخرى فاننا نرى اما خداما يجلبون لوازم الحفل ، وعربة أو سفينة تنقل المشتركين الى مكان الاحتفال • اضافة الى ذلك يجد المرء أيضا بقرا أو غنما مع سنابل وأزهار • وتقدم لنا لوحات حجرية اخرى مشاهد مأخوذة من صور تموز كحام للابقار ومصارع للاسود ضمن الكفاح المشترك للانسان والحيوان الاليف ضد الحيوان المفترس • ونشأ خليط من كليهما تجسد في شكل الثور ــ الانسان الذي يتألف جزئه العلوي من جذع انسان وجزئه السفلي من اطراف الثور • هــذا وسبق ان حصل مثل هذا الاندماج بين الحيوان الكاسر الاسد والطير الجارح النسر بشكل نتج عنــه ما يسمى بـ « الإمدوكود » الذي يتألف من جسم نسر ورأس أسد (انظر صورة رقم ١٩)•بذا لم يعد هناك مجال للشك بأن تكون عناصر مواضيع منحوتات عصر ميزيليم النــافرة من حيث المحتوى ، استمرارا لموضــوع الاعتقاد بـ « اتّين ــ تموز » •

ان مشهد مجلس الشراب والطــرب الذي تلتقي فيه الاميرة بالامير كممثلَين لاتّين ــ وتموز لا يمكن الا وان يمثل الحدث الرئيسي في الديانة

السومرية الا وهو عيـد رأس السنة • مما لا شك فيه أيضا ، ان نفس الافكار هـذه طغت على كامل فن صناعة الاختام • في الواقع لا تحوي نقوش الاختام الاسطوانية الا نادرا عناصر مجالس الشراب التي تمثل ايضا المشهد الرئيسي في نقوش اللوحات النذرية • ولكن معظم الاختام استعاضت عن هذا المشهد بموضوع آخر تجلى في صراع البطل تموز مع عدو الحياة الاسد ، وذلك دفاعا عن كيان قطعان الحيوانات الاهلية • لقد وصل الفن التشكيلي هنا وبالذات في عصر ميزيليم قمة مراحله التجديدية ، وذلك عندما عمد الفنان على شبك اشكاله في شريط يشبه السلسلة • كما جهد الى تحويلها الى اشكال خليطة وصور اختام •

ومع هذا فان الموضوع الديني لصور الاختام ينبثق من نفس المصدر الذي اشتقت منه اللوحات الحجرية مواضيعها ، ذلك المصدر الذي تجلى في دورة الحياة والموت •

اذا القينا نظرة عامة على جميع المكتشفات الاثرية لعصر ميزيليم ، العصر الذي يشكل الفصل الثالث من عصور فجـر تاريخ بلاد ما بين النهرين ، لرأينا ان عالم الاشكال الجديد في جميع فروع الفن يفصح عن شخصية مستقلة به • غير ان قوة تأثير ديانة اننّين ـ تموز بقيت مبدئيا اقوى من أي اختلاف آخر في المميزات الشخصية لدى سكان المنطقة خلال الازمنة القديمة واللاحقة • ترى هل كان سكان البلاد في هذا العصر هم أنفسهم السكان السابقين الذين طرأ عليهم تغير داخلي شامل ، ام ان هذا التغير جاء نتيجة تفاعلهم مع نازحين جدد ؟ مما لا شك فيه بعد الآن ان ولوج السومريين الذين شيدوا أقدم حضارة مزدهرة في بلاد ما بين النهرين خـلال عصري اوروك الرابع وجمدة نصر ، لا بد وان يكون قد رافقه تغلغل الساميين الذين جاءوا من بادية الشام وذلك على الاقل خلال عصر ميزيليم إن لم يكن قبله • تأكيدا لذلك لقد زودتنا حفريات ماري (تل الحريري في اواسط الفرات) بكتابات سامية دونت بالخط المسماري والتي لا يمكن ان تكون احدث

بكثير من عصر ميزيليم ملك كيش وذلك اذا انطلقنا من خلال دراسة نـوع الخط وعلاماته الفارقة • واذا ثبت بشكل قاطع ـ كما تشير جميع الدلائل ـ بأن الثقل الحضاري في عصر ميزيليم قد تحرك من الجنوب نحو الشمال ، فانه يجوز لنا ان نعيد سبب ذلك بقليل من الارجحية الى الساميين • بنـاء على ذلك يمكننا ان نعلل الانقلاب الاول الذي اعقب عصره جمدة نصر وهو عصر ميزيليم كنتيجة لتطعيم الشعب السومري القوي بدم الشعب السامي • وختاما لا بد لنا من التوضيح ان السامية قد ظهرت الى الوجود في عصر ميزيليم خلف لباس سومري دون أن تكون سامية خالصة •

د ـ المصادر الكتابية والمكتشفات الاثرية

يعتمد عرضنا لعصور ما قبل وفجر التاريخ لبلاد ما بين النهرين كليا على تنائج الابحاث الاثرية • هذا ولم تمدنا المكتشفات الاثرية لهذين العصرين بأية وثائق كتابية يمكننا ان نستشف منها أي شيء عن الوضع السياسي وتطوره ، وذلك لانها لم تكن وما كانت موجودة آنذاك ؛ إذ لم توجد حقا تلك الكتابات الملكية التي تعالج المسائل الحربية او السلمية او التقارير الحوالية ، حتى ولا رسائل أو عقود بين الحكومات أو بين الافراد كمااصبحت عليه الحال فيما بعد في الشرق الادنى القديم • لقد عرف بابليو العصور التاريخية ، ونقصد بهم العلماء ، وذلك خلال الفترة المحصورة بين عام ٢٠٠٠ ق٠م تقريبا وعصر الكاهن الكلداني بيروسوس ، الذي عاش فيالعصر الهيلنستي والذي حاول تعريف اليونان بحكمة بلاده ، كل هؤلاء عرفوا ان جذور حضارتهمإنما تكمن فيعصر اقدم بكثيرمنعهد ملوك اور الذين ثبتت لنا اسماءهم في الوثائق المدونة • وعندما وضع هؤلاء العلماء قوائم بمختلف سلالات الحكام الذين بسطوا يوما سلطانهم على البلاد منطلقين من مدن رئيسية عديدة ، كانوا على ثقة بأن سلالة اور الاولى التي خلفت لهم عنها مصادر كتابية وثيقة ، لم تكن تشكل بداية كل شيء • وهكذا اكملوا مجرى التطور وعادوا به حتى نشوء الانسانية معتمدين بذلك على استقصاء اخبار غلبت عليها الصفة القصصية والاسطورية • فمثلا يحدثنا رقيم طيني عثر عليه في لارسا عن عصر غابر لم يكن قد عرف بعد مرحلة تشكل الحكومات ، بينما تقص علينا وثيقة اخرى كيف كان الانسان في ذلك الوقت يدب على اربع كالحيوانات دون ان يستطيع السير منتصبا • كذلك نعرف من خلال

ادعاءات بيروسوس بأن مخلوقا خليطا من سمكة وانسان اسمه أو ــ أنّس كان قد خرج في الازمنة الغابرة من الماء حاملا معه المدنية الى اليابسة •

اما الملكية فيرجع هؤلاء العلماء مصدرها الى السماء • وعلى اثر ذلك انتشر ملوك في مختلف المدن اقاموا فيها حكومات دامت آلاف السنين • رغم التناقض الموجود في معطيات مختلف قوائم السلالات الملكية ، فانها تتفق باجمعها على ان العصور الغابرة ذات الطابع نصف الاسطوري ، قد لاقت حتفها على يد فيضان كاسح كاد ان يودي بالانسانية آنذاك الى اندثار كامل• واقد وجد هذا النوع من الفيضان موازياً له في طوفان نوح الذي لا تزال التوراة تحدثنا به •

اذا تساءل المرء اية المراحل الحضارية لبلاد ما بين النهرين المعروفة لدينا من خلال الابحاث الاثرية التي يمكن تحديدها بعصر ما قبل الطوفان ، فما علينا الا أن نفكر بالعصر الحجري القديم • في الواقع اعتقد يوما الحفّار الاثري الانكليزي «ووللي» ، منقب مدينة اور الشهير ، اثر حفرية عميقة في اور ، بأن الطبقة الرسوبية السميكة التي ترجح ان تكون من بقايا فيضان ، يمكن ارجاعه الى نفس عصر طوفان نوح الاسطوري • إلاّ أن هذه النظرية اثبتت فشلها حقا • اذ تفصل هذه الطبقة بين عصري العبيد المبكر والمتأخر ، وهذا يعني بأنها تخص العصر الحجري ــ النحاسي بالذات• وفي مواقع حفريات اثرية اخرى في البلاد ومنها اوروك مثلا نجد الطبقات الحضارية تتالى بدون انقطاع من عصر العبيد القديم حتى المتأخر منه دون ان تعترضها اية طبقة رسوبية • كذلك ليس لدينا أي سبب يدفعنا للاعتقاد بأن التراث المحلي يشير الى وجود ذلك الحد الفاصل بين العصر الحجري الحديث وعصر فجر التاريخ ، بشكل يمكن ان يدفعنا لافتراض حدوث طوفان في هذا التراث يفصل بين العصرين •

لقد صنفت المصادر المحلية التي ترجع الى ما بعد الطوفان سلالة كيش

الاولى في ثلاثة وعشرين ملكا بلغ مجموع حكمهم (٢٤٠٠٠) سنة • ثم تتبعها سلالة اوروك الاولى باثنى عشر ملكا ، وصل مجموع حكمهم مدة زادت عن الفي سنة • وبالمقارنة مع سلالة كيش نجد ان هذه المدة اقصر بكثير من تلك التي حكم بها ملوك كيش ، إلا انها تبقى تتجاوز الحدود المعقولة لعمر الانسان • وينتسب الى هذه السلالة الملك الاسطوري تموز ، الذي عرفناه خلال فجر التاريخ محور الديانة السومرية وكامل فلسفتها • وكذلك فقد شملت تلك السلالة خليفة تموز حلجامش الذي كان بطلا للملحمة الشهيرة باسم « ملحمة جلجاميش » والذي شيد سور مدينة اوروك كما كان ايضا عدو اتّين التي ارتبط بها تموز بعرى وثيقة • في الواقع حكم جلجامش في اوروك ، الا انه يبدو لنا حسب ما تذكره المصادر المكتوبة وكأنه ينتسب الى اصل غريب ، حيث كثيرا ما يُربط اسمه بمدينة كركميش في شمال بلاد الشام • وبما ان سور اوروك المكتشف والذي يُعتبر اعظم مآثره لجلجامش يعود الى عصر ميزيليم ، فانه يجوز لنا ان نرى في ملحمته انعكاسا للفصل الثالث من فجر التاريخ السومري • وبذا يمكننا الترجيح بان كيش كانت منطلقا لاول عملية تأشّم[1] قوية للشعب السومري •

وبما ان سلالة كيش بحقبتها الزمنية التي شملت ٢٤٠٠٠ سنة قد سبقت عصر فجر التاريخ ، الذي تمركز سياسيا وفكريا في اوروك فانه يجوز لنا ، بتحفظ قليل ، ان نرى في تلك السلالة تلميحا لذلك التطور الطويل لبلاد الرافدين خلال العصر الحجري الحديث وبصورة خاصة خلال العصر الحجري — النحاسي أي عصر مجتمع القرية هذا المجتمع الذي لم يعد يجوز لنا ان نحصره في اقصى جنوب الرافدين فقط • وربما تبرز الحقيقة بان ما سُمي فيما بعد ببلاد سومر أي تلك الاراضي المنبسطة على الخليج العربي ، لم يتسن لها في ذلك العصر ان تحتل مركز القيادة الفكرية تحت اسم مدينة كيش •

---

(١) تأشّم : تعني التطعيم بالعنصر السامي .

يمكن ان يتوافق العصر الحجري القديم مع عصر ما قبل الطوفان الذي يمكن لحد ما تفسيره بالانحسار الجليدي الكبير او بطغيان البحر الذي لم يستثن الا الجزر الايجية من طغيانه .

اضافة الى ذلك تتوافق سلالة كيش الاولى التي عاشت آلاف السنين مع العصر الحجري-النحاسي (الكالكولتيك) ، بينما يشمل عصر سلالة اوروك، الاولى وبمليكَيْها الكبيرين تموز وجلجامش الفصول العديدة لفجر تاريخ سومر نفسها .

وهكذا علينا ان لا ننسى بانه من الممكن ان يكونوا قد بالغوا في الارقام التي وضعوها لعمر الملوك في قوائمهم رغبة منهم في التأكيد على طبيعتهم نصف الاسطورية . اذا ادركنا بان قوائم سلالات المصادر المحلية المتأخرة لا تشكل تاريخا بالمعنى الصحيح للكلمة ، وانما ارادت ان تعكس بشكل اسطوري تطور الشعب ، اذا ادركنا كل هذا فانها تقدم لنا لحدٍ ما تأكيدا لنتائج الابحاث الحديثة في علم ما قبل التاريخ .

الفصل الثالث

عصر سلالة اور الاولى

بعد سلالة اوروك الاولى تأتي سلالة اور الاولى زمنيا ، وذلك كما ورد في قوائم الحكام الموضوعة بالخط المسماري . تقع اور على الفرات وتبعد بضع كيلو مترات الى الجنوب الشرقي من اوروك وهي اصغر منها ، الا انها من الناحية السياسية لا تقل عنها أهمية وكان صاحبها إله القمر نانّا . لقد ورد اسم الملك ميشانّيبادّا كأول حاكم فيها . ووصفته بعض النصوص الحديثة بأنه نصف إله كما ذكرت قائمة الحكام بأنه حكم مدة ثمانين عاما فقط بعكس جميع ما سبقه من الملوك . وتبدو هذه المدة طويلة ايضا الا انها قريبة من المدة التي يمكن ان يعيشها انسان ما . وبنفس الوقت قدمت لنا حفريات أور كتابات ورد فيها اسم ميشانّيبادّا نفسه واسم زوجته نينتور (نين) . وبهذا لم يبق لدينا ادنى شك بأننا قد تركنا حقل ما قبل التاريخ وفجره . اننا نعرف ايضا اسماء امراء وموظفين معاصرين من مدن اخرى مثل ماري على اواسط الفرات وادب في اقصى جنوب الرافدين . لو لم يكتشف العالم ارنست دى سارز ولأول مرة عند نهاية القرن الماضي خلال حفرياته في مدينة لاجاش (تلّو) وثائق حول التاريخ السومري ، لبقيت المكتشفات الاثرية الاخرى تشكل المصدر الوحيد لاحكامنا على هذا العصر . هنا بين انقاض هذه المدينة الصغيرة الواقعة الى الشرق من نهر الفرات تمّ العثور على وثائق كتابية لم تفصح لنا عن اسماء والقاب حكام المدن وحسب ، بل استطعنا ان نستقي منها لاول مرة معلومات عن الحوادث السياسية والاحوال الاجتماعية .

اننا نعرف الكثير من عواصم الاقاليم في هذا العصر الجديد بما فيها من مبانيها ومنحوتاتها ولقيّها الصغيرة واحيانا اسماء حكامها . انها تلك المدن التي تنتشر من ماري في الشمال الغربي الى آشور ونيبور وشوروباك (فارا) وادب والعبَيد حتى اريدو في الجنوب . لقد احتفظت اوروك حتى في هذا العصر بمركز هام ، غير ان ملك اور انتزع الآن القيادة السياسية لنفسه ، بعد أن بشّرت عاصمة البلاد الدينية مدينة نيبور ، مدينة الإله الّيل ، باسمه .

لقد اصبح جليا الآن أن البلاد قد قُسمت الى عدة اقاليم . وربما كان الامر كذلك في العصور السابقة . وخضع كل اقليم لسلطة إله رئيسي يديره بالنيابة عنه نائبه الإله ـ الملك المسمى « لوكال » . ولم يعد لبعض المدن لوكال ، أي ملك ، مثل مدينة لاجاش بالرغم من أهميتها السياسية . بل كان لها حاكم يسمى « انزي » (كان يقرأ في السابق باتيزي) يدير شؤونها ويخضع لمملكة إله مجاور . هذا ويمارس الـ « لوكال » نوعاً من السلطة على جميع امراء اقاليم البلاد ويقوم إلّيل النيبوري الذي يُعتبر ملك الآلهة فينتدبه لهذه المهمة وذلك بناءً على اعماله ومنجزاته . ولقد جرى منذ امد بعيد تقسيم آلهة الاقاليم الذين يعبدهم الناس في دويلات المدن حيث تم ترتيبهم حسب نظام التسلسل الكهنوتي وكان إلّيل إله الارض والريح وسيد البلدان ويمارس سلطة الملك عليهم مثله بذلك مثل الملك الاكبر الذي يسمو على ملوك المدن الآخرين .

آ ـ مجرى الحوادث التاريخية

سياسة الدولة الداخلية والاجتماعية

من قبيل الصدفة اننا نعرف اخبار التطور الاداري والاجتماعي لمدينة لاجاش (تلو) الاقليمية الصغيرة وذلك افضل بكثير مما نعلمه عن سير الحوادث والاحوال في عاصمة البلاد ، مدينة إله القمر اور .

فبينما لا نعرف عن عاصمة البلاد سوى اسم اول ملك فيها ميشانِّيبادا[14] واسم زوجته نينتور (نين) واسم ابنه آنِّيبادا[15] الذي بنى معبدا في موقع تل العُبيد الصغير بالقرب من اور ، نجد ان الكتابات التي تعود الى نفس العصر والتي اكتشفت في لاجاش تمكننا من القاء نظرة اكثر عمقا في حياة واعمال سلالة كاملة دامت اكثر من عشرة اجيال .

تُعتبر لاجاش مدينة الإله نينجرسو = سيد جرسو ، التي تشكل جزءا أو حيا من أحياءلاجاش . أما نينجرسو هذا فكان ابناً لـ « إنّيل » . كذلك يبدو وأنه كان يجسد ايضا احدى مظاهر إله العالم السفلي البطل المصارع الذي عرفناه في اوروك كجانب من صفات تموز . وكانت تقف الى جانبه في لاجاش إلهة امومة اسمها بابا . وكلاهما يشكلان معا زوجا الهيا كما هي الحال عند انّين وتموز في اوروك . لم يكن الوجود السياسي لمدينة لاجاش بأكمله الا في خدمة هذا الزوج الإلهي . لقد وسع كثير من امراء لاجاش نفوذ سلطانهم على نحو استطاعوا به ان يلقّبوا أنفسهم بالملوك ، رغم انهم لم يُذكروا في قوائم السلالات بهذا اللقب . ولقد افتخر سائرحكام وملوك لاجاش باعمالهم السلمية والحربية كبُناة كهنوتيين وكقواد معارك للاله نينجرسو ، غير انهم لم يهملوا قط الآلهة الاخرى مثل نانشي

او ام مدينة لاجاش « جاتوم دوج » . اننا نعرف من خلال كثير من النصوص الكتابية اسم اورنانشي كمؤسس لسلالة لاجاش ، الذي نجده مع وزير له وسائر اطفاله على لوحة منحوتة (انظر الصورة رقم ٢٠). وتسرد لنا احد هذه النصوص ما يلي : « اور نانشي ملك لاجاش ، بن جوني دو ، بنى معبد نينجرسو ... بنى معبد نانشي ... بنى معبد جاتوم دوج ... عندما بنى معبد نينجرسو ، جلب الى المخزن سبعين كارو حبوب . في الجبال ... جمع الاخشاب ، بنى سور لاجاش ... نحت تمثال نانشي ، السيدة ... حفر القناة ... » .

لقد خلف لنا حفيد اورنانشي ، إي ـ أنّا توم ، نصبا تذكاريا قيما وفريدا من نوعه المسمى بنصب العقبان (انظر الصورة رقم ٢١) ومع انه كان محطما تماما فقد امكن ترميمه . انه لا يُعتبر عملا فنيا فحسب ، بل وثيقة ادبية ـ سياسية في الوقت نفسه . يبلغ طول هذه النصب ١,٥ م وعرضه ١,٣ م وسمكه ١١ سم وهو من الحجر الكلسي وذو رأس محدب منحوت باتقان . وتغطي كافة جوانبه صور وكتابات نقشت ضمن اشرطة افقية . انه ليعتبر احدى أهم القطع المميزة والفنية التي نعتمد عليها في دراستنا للفن واللغة والتاريخ ومفهوم الدولة والدين السومري . يحدثنا إي ـ أنّاتوم في هذه الكتابة عن العلاقات الطيبة التي كانت قائمة في زمن حكومات اسلافه بين مدينة لاجاش وبين المدينة المجاورة لها اومّا . ثم يتابع حديثه عن ولادته وتسميته من قبل الإلهة انّين وعن رضاعته لحليب نينخورزاج الإلهي ، التي تعتبر إلهة الجبل الكبيرة . ويستطرد في الاخبار عن تربيته على يد الإله نينجر سو نفسه وعن سيطرته على اقاليم واسعة من بلاد سومر . وهنا يحاول امير اومّا بارشاد من إلهه أن يغير على منطقة جو ـ إدين التي تخص املاك الإله نينجر سو . عندئذ يقود إي ـ أنّا توم حملة لنصرة الإله نينجر سو ويلحق الهزيمة النكراء بأهالي أومّا إلا انه تجنب عن قصد تدمير منطقتهم . وختاماً للمعركة أُبرمت بين الجانبين معاهدة اقسم فيها الطرفان

على عدم النكث بها بسبع ايمان على يد سبعة آلهة رئيسية • وفي كل مرة يتردد في المعاهدة الدعاء التالي : اذا نقض العدو كلمته فسوف يصطاده الإله بشبكته من أجل تحطيمه • ثم حفر خندق عميق وصل المياه الجوفية في جو ــ إدين التي يحمل النصب اسمها • وبهذا فقد كان هذا النصب يشكل شيئا مقدسا ، خاصة واننا نعرف من خلال الكتابات المتأخرة انه كان يحتل مكانا في المعبد •

لا تقل المعلومات التي تزودنا بها الصور المنقوشة على لوحة العقبان عن الكتابة التي يحملها هذا النصب • لقد قسم الوجه الامامي الى حقلين خصصا للاله الذي مثل على هيئة رجل جبار عار الجذع ذو لحية طويلة وشعرملفوف على شكل ضفيرة كثيفة خلف الرقبة • يرتدي تنورة فقط ماسكا بيده اليسرى شبكة يتخبط فيها الاعداء كالسمك ويحمل باليد اليمنى دبسة يضرب بها رأس احد الاعداء ، الذي يمد رأسه خارج الشبكة •اما عقدة هذه الشبكة فتحمل إمدوكود (النسر ذو رأس الاسد) ، الذي يمثل رمز الموت والمعروف لدينا في عصور سابقة • وقد نقشت عربة الإله في الحقل الذي يقع تحته •

لقد قسمت جوانب اللوحة الثلاثة الاخرى الى اربعة حقول تضم مشاهد تعطينا افضل فكرة عن فن القتال وطقوس دفن الموتى في هذا العصر • يخطو في الحقل العلوي إي ــ أنتاتوم وهو مرتديا التنورة ذات الخصلات المصنوعة من صوف الغنم والتي تعتبر الزي المميز لهذا العصر • اضافة الى ذلك يرتدي معطفا من الفرو وخوذة واقية للرقبة • كما يحمل في اليداليمنى عصا معوجة ثلاثية الحزوز • ويتبعه فوج من مشاة المهاجمة ذوى الخوذ والمعززين بالرماح والتروس المستطيلة الشكل وهي تطأ رؤوس الاعداء الصرعى بأقدامها • ونشاهد امام وفوق المنتصرين بعثرة من جثث الاعداء

التي اقتطعت العقبان جزءا من اوصالها وطارت بها حائمة فوقها ومحلقة في السماء • وهكذا كانت بالتأكيد صورة المعركة ضد اهالي اومَّا •

في الحقل الثاني يقاتل جيش لاجاش باسلوب آخر : اذ يمتطي إي ــ أنَّاتوم بنفسه عربة حربية يتقدم رأس محاربيه المسلحين بالرماح والفؤوس وتمتلىء مزودته المعلقة في مقدمة العربة بسياخ الرمي والفؤوس والسياط • وهنا نراه ثانية يمسك العصا المعقوفة بيمناه ، بينما يقذف الرمح على العدو بيسراه • وفي الوقت الذي لم يبق من صور الحقل الرابع والاخير أي اثر ، تتعرف من مشاهد الحقل الثالث على طقوس دفن الابطال الشهداء ممن سقطوا في ساحة الوغى • الى اليسار من الصورة يجري تكديس الجثث بعناية فوق بعضها البعض في حين يقوم رجال بنقل التراب في سلال يحملونها على رؤوسهم ليفرغوها فوق الموتى • وامام المدفن الجماعي يستلقي ثور للتضحية على ظهره ، مربوطا على وتدين ومُعدًّا للذبح • ثم نرى فوقه اغناما عديدة في نفس الوضع • ويوجد خلف الثور وعاءان كبيران تتدلى منهما اغصان كبيرة • الى اليمين مباشرة لا بد الا وان يكون الملك قد وقف بنفسه هناك حيث لم يبق من شكله الا قدماه وجزء من تنورته ذات الخصائل الصوفية •

في حين تركت جثث قتلى الاعداء طعاما للطيور الجارحة ، يقوم المرء بدفن قتلاه بعناية وباشباع ارواحهم بدم الاضاحي كي تتمكن من الاستمرار في العيش • وتشبه هذه الحالة وضع ابطال هوميروس مع الفارق بين الجانبين أن الآخرين لم يدفنوا بل أحرقوا • لم يكن الانتصار الذي احرزه إي ــ أنَّاتوم على اومَّا ، الذي مجده على نصبه التذكاري ، النصر الوحيد في حياته • بذا لا بد انه كان اميرا ذو خصال حربية فهم كيف يلبي وينفذ رغبات إلهه نينجرسو تجاه الآلهة المجاورة • لقد صرع عيلام في الشرق واكتسح مدن سومرية جنوبية عديدة مثل أوروك واور وانتصر في الشمال على اكشاك وكيش ، التي كانت من المحتمل انها تسيطر على لاجاش ويحتمل ان يكون قد غزا ماري على اواسط الفرات ايضا • وبهذا يكون إي ــ أنَّا توم قد اصبح فعلا

الملك الاكبر في سومر ، ولو ان سلالته لم تذكر في قائمة الحكام . ليس من الممكن أن يبقى قائدا ظافرا حقق انتصارات خارجية يمارس سلطة القائد الحربي ، دون ان يكون كبيرا للكهنة ودون ان يترك بنفس الوقت في الداخل اثرا لضغطه على الكهنوت . وهذا ما قاد الى مضاعفات زادت في حدة التوتر بين الكهنوت والملكية .

ان استقلال الملكية عن كهنوت اتّين وانفصال المعبد عن القصر الذي سمحنا لانفسنا الاعتقاد بحدوثه عند جلجاميش بطل فجرالتاريخ الاسطوري ، نستطيع الآن تأكيده انطلاقا من النصوص التاريخية المكتشفة في لاجاش . لم تخف حدة النزاع حتى في عهد خليفتي إي ــ أنّا توم ، أي في عهد اخيه إي ــ نانّاتوم وابنه إن ــ تيمينا ، بين لاجاش والمدن المجاورة لها وخصوصا بينها وبين مدينة اومّا . اذ حاول أمير جديد من اومّا ثانية انتزاع المنطقة المختلف عليها من نينجرسو اللاّجاشي وضمها الى اومّا نهائيا . وبقي الخلاف قائما الى آن تمكن إن ــ تيمينا من القضاء على أومّا نهائيا . تؤكد الوثائق النذرية المكتوبة مثلا على آجّرة مشوية او على المزهرية الفضية المشهورة التي حفظها في معبد نينجر سو بانه اضطر لادراج لقب كبير كهنة نينجر سو في الكتابة . ولقد ورد على المزهرية المعنية (انظر الصورة رقم ٢٢) ما يلي : « الى نينجر سو محارب إنّيل قدم إن ــ تيمينا ، انزي لاجاش ، صفي قلب نانشي ، كبير انزيي نينجر سو ، ابن إي ــ أنّا توم انزي لاجاش ، الذي احبه ملكه نينجر سو ، قدم مزهرية من الفضة الخالصة ... ولأجل حياته قدمها الى نينجر سو ... في ذلك الوقت كان دودو كاهن نينجر سو » . يبدو ان سلطة كبير كهنة نينجر سو قد تعاظمت بعد وفاة إي ــ أنّاتوم ، لدرجة ان عانت الملكية من ذلك الشيء الكثير واخذت تفقد اكثر فاكثر من سلطتها . لقد كان ابن إن ــ تيمينا ، إي ــ أنّاتوم الثاني آخر ملك في سلالة اورنانشي وبموته اندثرت تلك السلالة ليتعاقب بعدها على العرش رجلان من الكهنة في عهد إن ــ تيمينا . ولم يدم ذلك طويلا حتى نصّب

ابن الرجل الثاني المسمى لوكالاندا نفسه حاكما على مدينة لاجاش . لقد كانت عقيلته المسماة بـ « بارانمتار؟ا » ابنة احد المالكين الكبار . وقامت من جانبها فقط على انشاء علاقات خاصة مع اميرة ادب وتبادلت الهدايا معها . كما جمعت ثروات طائلة مكنتها من تقديم الهدايا الى المعبد . وهكذا تشير كل الدلائل الى ان الوضع المثالي للدستور التيوقراطي ومعه اشتراكية الدولة والذي افترضنا ، ان اوروك قد نعمت به في عهد أمير اسمه تموز طيلة عصر فجر التاريخ قد تبدل الآن في لاجاش التاريخية خلال عصر اور الاول ولم يبق من معانيه الا القليل . كما هو الحال في كل مكان ، اخذت ذلك الوقت مختلف اجهزة الدولة ، التي كانت تخدم في الاساس مصالح الجميع اخذت تستقل عن بعضها ، وجهد كل منها للوصول الى مراتب عالية على حساب الأخرى ليحصل على منافع شخصية . وقد ساهمت في ذلك الملكية وجهاز حكام الولايات والكهنوت بل وحتى نساء المتنفذين ايضا . لم يعد الكهنوت الاعلى والملكية تنحصران في يد واحدة . فكلاهما تخلى عن ممارسة السلطة باسم الإله كما فرضت نظرية الدولة ومفهومها سابقا . كذلك اشتد يوما بعد يوم الصراع الاجتماعي بين المتنفذين وبين العامة ، وبين الشعب وبين حكامه . هذا ويبدو ان الكهنوت بشكل خاص قد عرف كيف يستغل سلطته الدينية والاقتصادية تجاه رئاسة الدولة وعامة الشعب المتديّن . ويبدو كذلك ان الكهنوت قد جعل أيضا من منصب الـ « انزي » منصباً قصير الاجل . كما مارس الضغط والظلم الاقتصاديين على الفقراء والارامل واليتامى . ثم حدث فعلاً عكس ذلك في وقت توفرت فيه يد قوية اعادت الحق والنظام في الدولة الى نصابيهما . بعد انتهاء حكم لوكالاندا الذي دام تسع سنوات ، اصبح موظف كبير اسمه اورو كاجينا خلفا له ، والذي يعتبر أول مصلح اجتماعي في تاريخ الشرق الادنى . لقد اعاد الاعتبار والهيبة الى الـ « انزيه » في الخارج واطلق على نفسه لقب ملك مستعيضا بذلك عن لقب « انزي » خلافا لما فعله اسلافه . وربما كان ذلك

من باب التحدي للملك الكبير في كيش • لقــد جند كامل قوته لشؤون الاصلاح الداخلي • فماذا كان يريد وما هو الهدف الذي رسمه لنفسه فاتنا نستقرئه على افضل وجه من كتاباته ، حتى ولو انها لم تصلنا متكاملة ورغم ان كثيرا من دقائق اللغة السومرية ومصطلحاتها غير واضحة لنا تماما حتى هذا اليوم • تعتبر تلك الكتابات اقدم وثائق تاريخية حول انقلاب اجتماعي الغى الرق ، واطلق الحرية وحمى الارامل واليتامى ، واعاد المفاهيم الخلقية الصحيحة الى « الانزيه » واجبر الكهنة على التخلي عن ممتلكاتهم الخاصة لصالح الإله ، الذي يملك كل شيء في الدولة•ويحدثنا اورو كاجينا بما يلي :

« من اجل نينجر سو جندي إلّيل المحارب بنى اورو كاجينا ملك لاجاش قصر تيراش وبنى اتنسورا ، وبنى معبد بابا ، بنى بورساج ، وبنى معبد نذورها ، بنى لها ماثور المدينة المقدسة • ومن أجل نانشي حفر القناة التي تجري الى نانشي ، قناتها المحبوبة ، التي جعل احواضها مثل عرض البحار • بنى سور جيرسو (وسط مدينة لاجاش) • منذ الازمان القديمة ومنذ البداية في ذلك الحين سكن البحارة على سفنهم والرعاة بين الحمير ، والرعاة بين الاغنام ، وسكن صيادو السمك عند ••• وكال كهنة باشيشو••• حبوب••• وضحّى رعاة الغنم بالمال بدلا من النعجة البيضاء التي احتقرت اليها قطعانهم ، ونذر الموظف وموظف الكلماخو وموظف الأباراكو ومراقبو « الأكلو » المال بدلا من الخروف • استخدمت الابقار في ري الاراضي الموهوبة للانزي ، التي تشكل اخصب حقول الآلهة ، الاقطاعاتالتيتعتبر منطقة سرور الانزي• يصادر الكهان الحمير والابقار الجيدة ، يوزع الكهنة الحبوب على محاسيب الانزى وقدم الكهان ••• ثياباً ، ••• اقمشة ، ••• ادوات برونزية ، ••• طيوراً ••• والجدي الصغير نذرا • اقتلع كاهن كل منطقة لنفسه أشجار حديقة ام الفقير ، واخذ الثمار • وعندما كان يدفن أي ميت ، يأخذ الكاهن لنفسه سبعة « اورنن » من البيرة كمشروب له ، و ٤٢٠ رغيفا و ١٢٠ « كا » حبوب غذاء له ورداءاً وجديا وفراشا ••• كان يوجد مراقبون على حدود

منطقة نينجر سو التي امتدت حتى ساحل البحر .... كان يوجد في الماضي نظام القنانة .

عندما وهب نينجرسو جندي إلّيل المحارب ، اورو كاجينا مقاليد مُلك لاجاش وعندما وطد قوته بين (٣٦٠٠) انسان اعاد التعاليم السابقة ، وجعل الكلمة التي تفوه بها ملكه نينجرسو تسود البلاد . ابعد البحاره عن السفن ، والرعاة عن الحمير والغنم ... والمراقبين عن مخازن حبوب موظفي باشيشو . الغى التعويض المالي لقاء نقص في صفوف الاغنام البيضاء والخراف وابعد مراقبيهم . وابعد المراقبين عن الهبات التي كان يقدمها الكهان الى القصر . وسلّط في بيت الانزى وفي حقل الانزى سيدهم نينجرسو . وسلط في بيت الحريم وفي حقلهن سيدتهن بابا . وسلط في بيت وحقل الاطفال سيدهم دوشاجّا . ولم يعد يوجد مراقبون على حدود منطقة نينجرسو وحتى البحر . وعندما يُدفن الميت اصبح الكاهن يأخذ ثلاثة « اورنن » بيرة مشروبا له ، وثمانين رغيفا طعاما له وفراشا وجديا ... ولم يعد يدخل عنوة أي كاهن في اية محلة الى حديقة ام الفقير . واذا ولد لاحد رعايا الملك حمار قوي وقال له سيده : اريد شراءه منك ، واذا اشتراه منه ، فعلى ذاك أن يقول له : « ادفع مقابله سعرا جيدا » . واذا ما وقع بيت احد الوجهاء بالقرب من بيت احد اتباع الملك وصدف أن قال له هذا الوجيه ، اريد شراءه واذا ابتاعه ، هكذا على الآخر أن يقول له : ادفع سعرا ... جيدا ، ... تكلم هو وحرر أولاد لاجاش من الضعف ومن السرقة ومن القتل وجعل الحرية تسود . لم يعتد بعد الآن أي قوي على اليتامى والارامل . عقد اورو كاجينا هذا الميثاق مع نينجرسو » .

مهما بدت لنا اعمال اورو كاجينا اليوم تقدمية ومحبذة ، الا انه لم يقف في بداية التطور وانما في نهايته . انها آخر نزعة للروح المحافظة التي حاولت عن طريق اصلاح اجتماعي ، انقاذ النظام السومري الاجتماعي الاصلي أي التيوقراطية . لقد قدر له أن يعيد للاله ما كان له ، الا انه لم يستطع ازالة

الفوارق الاجتماعية التي اتسع نطاقها بالضرورة خلال قرون عديدة ، ولو انه استطاع أن يخفف من حدتها • كذلك لم يعد باستطاعته أن يوحد سلطات كبير الكهنوت الأعلى والقيادة الحربية والقضاء بالمعنى الصحيح كما كان يتطلبه النظام التيوقراطي بالاصل • واخيرا لم يستطع تنفيذ اصلاحاته الا في نطاق ضيق وذلك على مستوى مدينة دولته لاجاش ، ولو ان محاولات اصلاحية قامت في مناطق ثانية ، كانت تعيش في ظل ظروف مشابهة • لم تختلف الاحوال الاجتماعية ومستويات المعيشة في مختلف دول الإله وانهم لم يعودوا يضعون انفسهم طوعا في خدمة الجميع كاعضاء في جسم كبير واحد • بل عاشت كذلك دويلات الآلهة في نزاع دائم مع بعضها البعض ، بالرغم من ان هذه الدويلات كانت تجتمع بالاصل في منطقة جرى التسلسل فيها على اساس المراتب الدينية والقوة السياسية لكل منها • لذلك لم يكن بالامكان القيام باصلاح اجتماعي دائم او تجديد سياسي شامل في البلاد ، الا على اساس نشوء الدولة الواحدة • وقد تحقق مثل ذلك على يد سلالة سامية في الحقبة التالية ، استلم قيادتها حكام اكاد • لقد اكتشف الطريق لهذا التجديد من قبل احد منافسي اورو كاجينا • انه انزي أومّا ، المدينة المجاورة التي كانت في صراع مستمر مع لاجاش منذ ايام إي ـ أنّا توم • ان هذا المنافس هو لوكال زاجّيزي بن الانزي اوكوش من أومّا • ولقد كان هذا والياً تحت امرة ملك كيش الاعلى شأنه شأن اورو كاجينا ، وبدأ هذا المنافس الصراع ثانية ضد اورو كاجينا ، الا ان ذلك لم يدر الآن حول الحدود ، أي على القطعة المتنازع عليها من نينجرسو بين أومّا ولاجاش كما هي الحال في العصور السابقة ، وانما تجسم ذلك في تحقيق اهداف بعيدة المدى • من المؤكد بان لا جاش لم تشكل الا الخطوة الاولى في مسيرة فتوحاته الكبرى • لم يكن لوكال زاجّيزي ليهتم بادىء الامر باصلاح الاحوال الداخلية التي من شأنها أن تساعد الارامل واليتامى ، والفقراء ، والمعدمين والرعاة والمساكين • هذا ولا بد وأن شعر بان سلطة سياسية ما ذات نظام آخر ومخالف

ستتبع نظاما جديدا وستتحين الفرصة المواتية لتقضي على تسلط دويلات الآلهة السومرية في جنوب الرافدين الى الابد . ولمجابهة هذا الخطر مسبقا ، عمد بقسوة ما بعدها قسوة ، على احتلال جميع العواصم السومرية ووضعها تحت قبضته ليقوم بعدها بتأسيس أول امبراطورية عظمى في الشرق الأدنى منطلقا بذلك من اوروك كعاصمة له ولتمتد من الخليج العربي حتى البحر الابيض المتوسط . يصف لنا رقيم طيني من عصر اورو كاجينا صاحب لاجاش الخوف والهلع اللذين انتابا السكان منجراء اساليب لوكال زاجيّزي الحربية البشعة والمنافية لتعاليم الآلهة . لقد اسالوا الدماء في كل المعابد واشعلوا النار في الكثير من الاماكن المقدسة وحطّموا تماثيل الآلهة ونهبوا الفضة والاحجار الكريمة « ... اخذوا الحبوب من حقل نينجرسو وكل ما كان مزروعا ، وبذلك يكون سكان أومّا قد أثِموا بحق نينجر سو لانهم دمّروا لاجاش والسلطة التي كانت من نصيبهم سوف تُنتزع منهم . لم يرتكب اورو كاجينا ملك جيرسو اثما ما ، اما لوكال زاجيّزي انزي أومّا ، فستحمل إلهته نيزابا هذا الاثم على رأسها » .

في الواقع لم تثن لعنات اورو كاجينا عزيمة لوكال زاجيّزى عن متابعة السير في طريق النصر . فهو لم يكن مصلحا وانما كان في كثير من الامور ثوريا هدم القديم بقبضة حديدية ليقيم بدلاً عنه نظاما جديدا . لقد وضع في البدء جميع المدن السومرية الهامة في قبضة يده واصبح بذلك المكلف من قبل آلهة البلاد الكبيرة وهذا ما اكده له إلّيل ملك الآلهة في نيبور .

اننا لا نزال نملك تقريره الذي يمجد فيه اعماله والذي امر بنقشه على العديد من الاواني الحجرية المنذورة : « ... عندما خلع إلّيل ملك البلدان ملكية البلاد الى لوكال زاجيّزي ، وعندما اخذ بيمينه في البلاد ، وعندما اخضع البلدان لسلطانه وغزا البلدان من مطلع الشمس حتى غروبها ، في ذلك الحين من البحر السفلي (= الخليج العربي) عبر دجلة والفرات حتى

البحر العالي (= البحر المتوسط) هنـا مهد لـه الطريق ، واعطاه إنّيل (السلطة) من مطلع الشمس الى مغيبها • جعل البلدان تنعم بالامان وغمر البلاد بالحبور • ونصبوه انزى البلدان في بيوت سومر المقدسة ، اما في اوروك فقد عينوه كبير الكهنة • في ذلك الحين جعل اوروك تشع حبورا ، ومن اور رفع رأسه الى السماء كالثور • وسقى لارسا المدينة المحببة « اوتو » بحياة النّعم ، رفع أومّا مدينة الآلهة ••• المحبوبة الى قمة المجد ••• لوكال زاجّيزي ملك اوروك ملك البلاد ، قدم لـ ••• إنّيل ملك البلدان ، قربانا من الخبز في مدينة نيبور وصب ماء صافيا •

الابتهال : ياإنّيل ، يا ملك البلدان ، ليت آنو يبلغ اباه المحبوب رجائي : ليضيف الى عمري عمرا آخر ويجعل البلدان تعيش بأمان ، محاربين بعدد الاعشاب ليعطيني منهم الكثير ، وأن يزودني بقطعان السماء وأن يرفق البلاد بالعظمة وأن لا تغير الآلهة حصني الجميل ، الذي قدرته لي ! وأن أكون دوما ذلك الراعي الذي يقف في المقدمة •

لقد نذر هذا من اجل حياته الى إنّيل ملكه المحبوب » •

حقا لقد انتقم نينجر سو لنفسه ، اذ برهن عمل لوكال زاجّيزي الذي قام به من اجل توحيد الدويلات السومرية ومركزة الشعب السومري على انه غير قابل للاستمرار • ويعود سبب ذلك بالتأكيد الى ان الجو المسيطر في مختلف المدن التي غزاها جاء معبرا عنه على رقيم طيني وجد في لاجاش • لقد كان مخططه صحيحا بلا شك ، ونفـذه بمساعدة محاربيه الذين كان عددهم «بعددالاعشاب»• ولكن من المؤكد انه لم يجد اية ركيزة له من الشعب السومري وكهنته ، ذلك لان كامل الاقدام والبذل وكل التضحية التي طلبها لوكال زاجّزي من الشعب السومري على الصعيد السياسي كانت غريبـة عن طبائعه • ان فكرة توحيد الدول السومرية ومركزة الشعب لا يمكن فعلا أن تتحقق الا على يد شعب من نوع آخر هو الشعب الاكادي السامي الذي كان قد استوطن البلاد وتأسمرَ بشدة منذ زمن طويل •

ب ـ الفـن

اذا كنا قد استقينا معلوماتنا عن الاوضاع السياسية والاجتماعية التي سادت في هذا العصر من خلال النصوص الكتابية التي وجدت في لاجاش فقط ، فان دراستنا للفن التصويري لهذا العصر تعتمد على اسس اكثر شمولا وبصورة خاصة على المكتشفات الاثرية الغنية التي قدمتها لنـــا الحفريات العديدة • وحتى بالنسبة لفن العمارة فهناك بقايا لأبنية عديدة تشكل مادة حية لدراستنا • يرينا فن العمارة والنقش التصويري في عصر سلالة اور الاولى بشكل جلي العلاقة الوطيدة بينه وبين عصر ميزيليم السابق من جهة ، ومن ثم سماتها الشخصية من جهة اخرى •

يكاد الفارق أن يكون معدوما في مجال العمارة بين عصر ميزيليم وعصر سلالة اور الاولى • بقي نموذجا الابنية المقدسة اللـــذان نشأا في العصور السابقة وهما المعبد العالي والمعبد الذي يتخذ شكل الحظيرة سائدين ايضا في هذا العصر دون أن ندرك بوضوح المغزى الذي يكمن خلف وجود هذين النوعين من المعابد • والى جانب المعابد التي تتخذ شكل الحظيرة المقـــامة على ارض مستوية في ماري وآشور من اجل الإلهة عشتار ، وفي اشنونا (تل اسمر) من اجل الإله ابو وفي خفاجي لإله (القمر ؟) اصبحنا نعرف الآن سلسلة كاملة من المعابد العالية المسماة بالزيقورات ، والتي لم يبق منها سوى مصطبتها العالية ، أي قسمها السفلي دون أن نتمكن حتى في هذا العصر من معرفة شكل البناء المقدس نفسه الذي كان يرتفع فوق هذه المصطبة : ظهرت في هذا العصر الى جانب المعابد العالية التي تعود الى عصر ميزيليم في حي إي ــ أنّا في اوروك والمعبد البيضوي في خفاجي ومعبد العُبيد ، اللذين يقومان على مصطبة مرتفعة ، ظهرت كذلك معابد جديدة لإله القمر

السومري ناتًا في اور ولإله مجهول في كيش وفي نيبـور للاله إنّيل سيد البلدان وملك الآلهة •

لقد فصلت الاماكن المقدسة الآن عن بقية اجزاء المدينة بحاجز يحيط بها • وأول ما نستنتجه من هذه الظاهرة هو وقوع تباعد وتباين واضحين بين المعبد والقصر ، واللذين نستشفهما ايضا من خلال كتابات هذا العصر •

لقد استمر اسلوب النحت المجسم الآن على منوال عصر ميزيليم ولـو ان اللباس والاسلوب قد تغيرا • ولم يهدف فن النحت ، بقدر ما نرى ، الى تمثيل الآلهة على هيئة انسان : اذ لم يترك لنا نحاتـو العصر صور آلهة على شكل منحوتات مجسمة وتماثيل للالهة • وعلى النقيض من ذلك كانت كوات المعبد واماكن العبادة مليئة بتماثيل نذرية لامراء واميرات ولكهـان وكاهنات ، واحيانا لاناس أدنى منزلة اجتماعية • وهذا ما عرفناه على الاخص في معبد عشتار في ماري وفي آشور وكذلك ايضا في ما يسمى بمعبد زِنْ في خفاجي • ومن المؤكد بأن هذه الحالة لم تختلف عما هي عليه في لاجاش حيث عثرنا على سلسلة من تلك التماثيل النذرية • غير انه لم يتم وللأسف الكشف عن المعبد الذي كان يحتضنها •

ان افضل صورة عن اهمية وغرض التماثيل النذريـة يقدمها لنا معبد عشتار في الطبقة (ج) من آشور ، التي كانت آنـذاك كسائر اجزاء الشرق الأدنى الاخرى تقع تحت تأثير الحضارة السومرية في هذا العصر • لقـد وضعت امام اللوحة الجدارية المقدسة في داخل الجدار العرضاني لحرم قدس الاقدس لما يُسمى بالمعبد الحظائري ، وضِعت مباخر عالية ومذابح مدرجة على شكل بيوت ، بينما انتصبت على كل مقعد من المقاعـد الموضوعة عـلى كلا الجدارين الطولانيين تماثيل واقفة وجالسة للمصلين الرجال منهم والنساء• لقد كان غرضهم عبادة الآلهة واستمرارا لتوسلاتهم اليها سعيا وراء اطالة الحياة وتجديدها •

غالبا ما يبقى اكثر هذه التماثيل اصغر بكثير من الحجم الطبيعي للانسان العادي ، ودوما ما كانت منحوتة من الحجر الجيري الهش (الالباستر) ونادرا ما استخدم المرء حجر الديوريت ، وقلما يوجد من بين هذه التماثيل من يحمل اسم منذره • تعتبر هذه التماثيل الوريث المباشر لطراز تماثيل معبد ابو في مدينة اشنونا غير أنها تختلف عنها بشكل جلي كونها اقل تجريدية واشد تقيدا في النواحي الجسمية • اما من الناحية الظاهرية البحتة فتتميز بترتيب شعرها الجديد وازياء الالبسة عليها • اضافة الى ذلك فقد اختفت عنها ما عرفناه في عصر ميزيليم من الخصلات الجانبية المجدولة واللحية الطويلة • ويظهر الامير الكاهن حليق الرأس في اكثر الاحيان وفي لباس ما يسمى بالتنورة « ذات الخصلات الصوفية » المؤلفة من سبعة صفوف افقية من الخصلات الصوفية فوق بعضها البعض (انظر الصورة رقم ٢٣) • اما النصف العلوي من الجسم فيبقى عاريا • لقد اصبحت الاشكال اكثر استدارة عما كانت عليه في عصر ميزيليم بشكل تبدو فيه احيانا وكأنها مكعبة وفقدت شيئا من سماتها الفردية •

ففي الوقت الذي حقق فيه فن النحت في عصر سلالة اور الاولى اسلوبا واقعيا اكثر من غيره كما يتجلى ذلك في روائع الاعمال الفنية مثل تمثال الملك لوكال ــ والو في ادب (بسميّه) نجده وقد فقد من ناحية اخرى الكثير من قوته التعبيرية المنقوشة • ان هذا لا ينطبق بطبيعة الحال على النحت النافر ، بالرغم من ان هناك الكثير من المنحوتات النافرة المتوسطة الاتقان • الا ان اللوحة المعروفة باسم « لوحة العقبان » اكبر آثار إي ــ أنّاتوم التاريخية في لاجاش والتي اعتبرناها قبل قليل وثيقة تاريخية هامة ، تكفي لابراز اهمية النحت النافر وتقدمه والنقش في العصور السابقة، خاصة وانه قد سبق لنا أن قيمنا هذا النصب ، نصب إي ــ أنّا توم في لاجاش كوثيقة تاريخية • تعكس هذه اللوحة كأول وثيقة سياسية ودينية من نوعها بطريقة الترتيب الصارم لمشاهدها نظام المجتمع السومري المتعنت

وتعكس بنفس الوقت من خلال مواضيعها التصويرية المستمدة من عـالم الآلهة وحياة القتال التناقض الناشيء بين المعبد والقصر وبين الملك والكهنة ، والذي صبغ كامل عصر اور الاول بطابعه •

على العكس من ذلك نجد ان فئة التماثيل التي كانت تنحصر في عصر ميزيليم في النحت النافر لاترينا الآن نوعية جيدة كالسابق • اننا نقصد بذلك تلك اللوحات الحجرية المستطيلة ذات الثقب المركزي التي تميزت مواضيعهـا في العناصر التصويرية بغنى وافر خلال هذا العصر • اذ لم تقتصر المواضيع على مشاهد من عالم اتّين ـ تموز وحسب ، بل تناولت مواضيع مقتبسة غالبا من عبادة آلهة اخرى مثل « نينخور زاج » و « ناتّا » و « إلّيل » وغيرهم لقد امر اورنانشي ملك لاجاش بنقش صورته على لوحة من هذا النوع تمثله كباني المعبد حاملا على رأسه سلة تحوي مواد بناء وهو يتوسط اهله • بهذا يتضح لنا شيء هام في التاريخ الحضاري وهو ان من الاهمية التاريخية الحضارية أن ندرك كيف ان الفن التصويري في عصر سلالة اور الاولى لم يعد يستمد عناصر مواضيعه وافكاره من محيط آلهة العالم السفلي فقط ، كما كانت عليه الحال في فجر التاريخ ، بل استعان ايضا بمعتقده في آلهـة الدولة الكوكبية • قد يكون السبب في ذلك تلك الحقيقة الواضحة بأن مصادر معرفتنا للحضارة السومرية في هذا العصر لم تعد ترتكز بصـورة رئيسية على اوروك مركز الاعتقاد باتّين وتموز ، وانما يعود السبب في هـذه الظاهرة ايضا الى ابراز حياة الدولة السياسية وفي استقـلالها عن الدين • وربما كان ذلك هدف قادة الدولة لان الاعتقاد بدورة الحياة والموت قد وصل تطوره الكامل في فجر التاريـخ السومري واتخذ لنفسه شكـلا اصبح على ما يبدو ثقيلا على كاهل الحياة السياسية السليمة البنية •

ج ـ الاعتقـاد بالموت (التقمص)

لقد بقي الاعتقاد بالأم الكبيرة باعثة الحياة ، وكذلك الاعتقاد باله النبات الذي يموت ويحيى من جديد على قيد الحياة في هذا العصر • ان ما يثبت لنا ذلك ليس فقط فن النقش التصويري لعصر سلالة اور الاولى بل ايضا تلك القبور العجيبة ومحوياتها •

في الواقع لا يمكن أن تعني الشيء الكثير تلك الافاريز التي وجدناها في معبد نينخورزاج ، احـدى آلهة الامومـة السومرية ، والذي بنـاه ميشا تّيبادّا مؤسس اور الاولى في محلة العُبيد القريبة جدا من اور كما ذكره ابنه في كتاباته • تحمل هذه الافاريز صورا مرصعة من الحجر الكلسي والبرونز والتي تعود بشكل كلي الى عـالم صور فجر التاريـخ : تتركب صور الافاريز هـذه من صفوف الثيران تخطو ومـن نسر له رأس أسد يقف فوق غزالين (انظر صورة رقم ٢٤) • كمـا ترينا منظرا لقطيع مـن الحيوانات يعكس لنا عملية الحلب واستخراج الزبدة • فبالرغم من ان هذه المشاهد تذكرنا كثيرا بالمواضيع التصويرية لفجر التاريخ ، إلا أنها لا تبرهن لنا عن اهمية كبيرة لاعتقاد فجر التاريخ بآلهة العالم السفلي في عصر سلالة اور الاولى ، لاننا هنا على صلة اكيدة وواضحة بمعبد إلهة امومة تشبه في صفاتها اتّين الاوروكية (نسبة الى مدينة اوروك) •

إن اقوى دليل لدينا للاجابة على السؤال المتعلق باستمرار الاعتقاد بتموز هو الحقيقة التالية : ان الموضوعين الرئيسيين اللذين يسيطران على نقوش اختتام عصر سلالة اور الاولى هما : مشهد مجلس الشراب ، وبالتالي ، وعلى الاخص ، ما يسمى بشريط الاجسام المتشابكة ، الذي نشأ في عصر ميزيليم من جـدل الاجسام ببعضهـا والـذي يستخدم فكرة صـراع تمـوز

وقطعانه ضد الحيوانات الكاسرة كرمز للصراع بين الحياة والموت ، حيث عبر عنه بآلاف الاشكال المتعددة .

اذا كانت الاغلبية الساحقة للاختام الاسطوانية ، التي اصبحت اكثر فاكثر من لوازم الحياة الخاصة ، مزخرفة اما بمشهد مجلس الشراب او بشريط من الاجسام المتشابكة ، التي تشكل اهم احداث رأس السنة ، عيد تجدد الحياة ، فانه ينتج عن ذلك بوضوح ان الاعتقاد الذي يدور في خلد السكان ، ليس الاعتقاد بآلهة الدولة الرسمية الكوكبية التي تحمل عبء الحياة العامة ، بل الاعتقاد بتلك القوى التي تؤثر مباشرة على الحياة في هذا العالم وفي العالم الآخر . إنها هي التي تسيطر ايضا على الاعتقاد بالتقمص وعلى الفن النادر لبناء القبور في هذا العصر .

لقد عثرنا في المقبرة المسماة بـ « Y » في مدينة كيش والتي تعود الى عصر ميزيليم ، على قبور تحوي الى جانب الدفين الرئيسي جثث العديد من الاتباع . لقد وضع في القبر مع الدفين الرئيسي عربته وأشياء اخرى من بينها منشار وازميل . اننا نرى عادة الدفن الجماعي ، أي دفن الامير واتباعه، لأول مرة في القبور الارضية الموجودة ضمن ما يعرف بالمقبرة الملكية في مدينة اور . إنها تعترضنا على نحو تصبح هي فيه المعضلة الرئيسية في التاريخ السومري .

يبلغ عدد هذه القبور الارضية ستة عشر قبرا تقع ضمن مقبرة كبيرة تضم ١٨٠٠ قبرا عاديا وتلك التي تحوي تابوتا . كما ولا بد أن يكون استخدام هذه المقبرة قد استغرق زمنا طويلا . هذا والذي يهمنا من بين جميع هذه القبور ، عند بحثنا لمعتقدات السومريين بالموت هي القبور الارضية فقط ، لأنها هي وحدها ، التي تدل على عادة الدفن الجماعي للعديد من الاتباع ، الذين دخلوا القبور طوعا . وبالاضافة الى ذلك كونها تحوي اثمن الهبات ، التي تعتبر بالنسبة لتزيينات عناصر نقوشها احدى أهم وثائق عالم الاعتقاد بـ « اتّين ــ تموز » .

لقد أقيم المدفن المبني من الحجارة الكلسية والذي يتألف من حجرة او عدة غرف على ارض حفرة يصل عمقها الى عشرة امتار تقريبا • ويستطيع المرء بلوغ هذا المدفن الذي يحمل سقفا مقوسا من الداخل ومسطحا مـن الخارج ، وذلك بواسطة طريق مائلة تنتهي الى ممر داخلي • لقد وضعت جثة الدفين الرئيسي في اقصى حجرة من الداخل • اما جثث اتباعه فقد مُددت الى جانبه أو داخل حجرة مستقلة تقع قبل حجرتـه أو في الفراغ المحيط بالمدفن أو في الممر الداخلي المذكور اعلاه •

وبعد أن وضعت الجثث في الممر الداخلي والحجرات المعنية ، املئت الحفرة بالتراب حتى ارتفاع معين ، ثم أحدثت فوق ذلك طبقة من الطين اقيم عليها نوع من حفلات دفن الاموات، وسكبت فوقها المياه وأحرقت الاضاحي •

لقد قدم المرء الشراب الى الاموات من خلال ثقب كبير في الارض فوق المدفن • وعلى الأرجح فقد اعيدت هذه العملية في كل مرة وصل فيها ردم الحفرة بالتراب ارتفاعا معينا • واخيرا وبعد ردم الحفرة بأكملها بالتراب انشيء فوق المدفن مبنى هيـكل صغير •

بينما تختلف القبور الستة عشر عن بعضها من ناحية التفاصيل ، نجدها من ناحية اخرى تتشابه جدا في تخطيطياتها العامة • ان كلا من هذه القبور عبارة عن مدفن واحد ولا يوجد بينها سوى ثلاثة مزدوجة يضم كل منهـا مدفنين لرجل وامرأة • اما أهم هذه القبـور الاخيرة من ناحية ثانية هو المدفن المزدوج المعروف باسم مدفن الملك ومدفن شوباد •

ان اول ما اكتشف هو مدفن الملك الذي يتألف من حجرة مساحتهـا ٤×٢ م • وعند اكتشاف القبر كان لايزال باب الحجرة موصدا لم تمسه يد ، بينما وجد سقف القبر مثقوبا • ولقد اقيمت حفرة في احدى زوايا المدفن خصيصا لوضع الجثة التي لم نعثر عليها ، بينما لا يزال في المدفن

نموذج قارب ثمين من الفضة يبلغ طوله ٦٥ سم فيه حجرة ومقاعد ومجاذيف، والى جانبه لوحة « لعب » [1] ثمينة .

ان الميت يحتاج الى القارب الفضي ليجتاز بواسطته النهر ، الذي يفصل عالم الاموات عن عالم الاحياء . اما ما اذا كان للوحة اللعب، أو على الاصح لصندوق اللعب ، الذي وجد في داخله سبعة احجار لعب ايضا ، مغزى ديني فاننا لا نستطيع معرفة ذلك . وعلى كل حال فان عناصر زخارفه المرصعة مستمدة من عالم الاعتقاد بـ « اتّين ـ تموز » : وهنا نجد الزهرة الثمانية الوريقات التي شاهدناها على نبتة في عصر جمدة نصر ، والتي كان يقدمها تموز طعاما الى الاغنام . والى جانب ذلك نشاهد ما يسمى بشجرة الحياة ، التي تنتصب بين حيوانين اهليين وبالتالي الصراع بين الاسد والحيوان الاهلي . ان كل ذلك هو شعارات الحياة التي يحميها تموز امام الفوضى والموت ويجددها باستمرار .

ان المهم هو ان القبر وجد عند اكتشافه وقد ثقب من الاعلى ، وان جثة الامير المدفون لم تكن موجودة ، بينما كانت الاشياء الاخرى الثمينة مثل القارب الفضي وصندوق اللعب ، والتي هي في الواقع من الاشياء التي يطمع بها اللصوص ، قد وجدت في مواضعها . ومما يدل ايضا على ان المدفن لم تعبث به يد اللصوص ، هو العثور على جميع الاتباع الدفناء وعددهم ٦٣ رجل وامرأة سالمين في الفراغ حوالي المدفن أو في الممر الداخلي مع ما زودوا به من هدايا ثمينة .

لقد وضعت امام الجدار الغربي جثث تسع من النساء كن يزين الشعر بالحلي ويحملن اقراطا ذهبية واكليلا مصنوعا من اللازورد واللؤلؤ ، ووريقات الذهب وكذلك مشابك شعر فضية ، ومشبكا يشبه المشط على الجهة الخلفية من الرأس وحلي العنق ومشبك ثياب طويل .

---

(١) تشبه هذه اللوحة لوحة اللعبة التي نسميها بـ « الضاما » .

كما وان الاهم من بين كل هذه التحف والنفائس بالنسبة لنا هي احدى الآلات الموسيقية الموجودة هناك والتي هي عبارة عن عود زخرفت واجهته الامامية باشكال مرصعة والذي يجب أن يكون قد عزفت عليه بعض اولئك النسوة التسع اثناء الاحتفال بالدفن (انظر صورة رقم ٢٥) • لقد قسمت هذه الجهة الى اربع حقول متتالية من الاسفل الى الاعلى : ففي الحقل الاعلى ينتصب شكل على هيئة تموز كحام للثيران ، كما كانت عليه الحال في عصر جمدة نصر • انه لبطل عار ذو ستة ظفائر يتأبط ثورين يقفزان عليه ويدير كل منهما برأسه الى الخلف في وضع نراهما فيه من الامام • اما في الحقل الثاني فنرى بالمقابل حيوانا يشبه الكلب ، وقد يكون ثعلبا ، واسدا ، يسيران كالانسان تماما باتجاه اليسار • يحمل الثعلب بين ساقيه الاماميتين اللتين تنتهيان الى اكف كيد الانسان ، طاولة للمائدة موضوعا عليها رأس خنزير ، وساق ، ورأس خروف ، بينما ينقل الاسد وعاء كبيرا وقصعة ، ونصف صدفة ، تشبه تلك التي وجدت في اور مصنوعة من الذهب • يجلس في الحقل الذي يليه حمار يعزف على عود او قيثارة لها احدى عشر وترا ويجلس امامه دب منهمكا بمساعدته ويقف بين الاثنين ثعلب (؟) يقرع طبلا • واخيرا وفي الحقل الاخير يرقص انسان عقربي الشكل ويتبعه غزال • ويحمل الاثنان كأسا في كل يد •

ومهما كان فهم هذه الجوقة الموسيقية الحيوانية ، كما اعتاد المرء أن يسميها ، من الصعوبة بمكان ، غير ان هناك حقائق يعبر عنها هذا المشهد : يرتبط المشهد تصويريا وبشكل وثيق مع تموز كبطل حام للثيران ، اما ماذا تعمل الحيوانات ، فذلك يبدو وكأنه تقليد لعيد رأس السنة • ينقص هذا المنظر المشهد الرئيسي وهو مجلس الشراب المعتاد غير اننا نجد حيوانات تقيم احتفال الشراب بدلا من الانسان اذ نقشت اشكالها على بعض الاختتام الاسطوانية • ليست هذه الجوقة الحيوانية اذن اسطورة تصويرية كما فهمها البعض ، بل انها لتشكل جزءا من مظاهر تموز المتعددة • واذا كانت

الحيوانات هي التي تقوم بالطقوس المقدسة لعيد رأس السنة ، فان ذلك لا يمكن أن يعني سوى مناسبة عكست فيها كافة مفاهيم القيم • وهـذه المناسبة لاتحدث ايضا الا في وقت أوقف فيه الإله في العالم السفلي من قبل قوى الفوضى وهذا ما يجري عادة قبل فترة وجيزة من بدء عيد رأس السنة ، أي عيد انبعاث الإله من جديد • انه وقت « الساتورنالين » الذي يتبادل فيه السيد والعبد الادوار •

تحمل عازفة العود التي دفنت حية مع اميرها ، على آلتها المشهد الرمزي لقهر قوى الموت الشريرة (الجوقة الحيوانية) على يد الباعث ، منظم الحياة وحاميها (انه تموز الذي يتأبط ثورين) • اذن يجب ان يكون هذا معتقدها ، أي ان تموز يجدد الحياة بصورة عامة وبالتالي فهو يجدد حياتها ايضا • تبعا لذلك يجب ان تكون قد نزلت هي ورفيقاتها الى القبر دون أي وجل ، أم هل كان الدافع لنزولهن امر آخر اقوى من السبب الاول ؟ • لمـاذا كان السقف الحقيقي للقبر مثقوبا ؟ لماذا كانت جثة الملك مفقودة في الوقت الذي كانت فيه جميع الجثث الاخرى موجودة ؟ •

عندما جرى الدفن الثاني في القبرين المزدوجين للملك ولـ « نـين ـ شوباد » ، اعيد تجويف نفس الحفرة وتم انشاء طريق مائل لها من جانب آخر ولم تصل عملية السبر الى العمق الذي وصلته عند حفر قبر الملك ، بل بلغت عمقا وصل الى ما تحت سقف حجرة مدفن الملك بقليل حيث اقيمت ارضية الحفرة الثانية •

اما الحفرة التي اعدت لحجرة الدفن الثانية فكان عمقها مساويا تماما لعمق حفرة حجرة مدفن الملك • لقد عثر في مدخل هذه الحفرة الجديدة وعلى ارضها ، على مكتشفات تشبه تلك التي وجدت في القبر الأول ، الا ان جثة الامير لم تحمل على عربة تجرها الثيران ، بل انزلت الى القبر بواسطة زحافات تجرها الحمير • فاتباعها لم يكونوا بتلك الكثرة كما هي الحال في قبر الملك،

بينما لم تقل الحلي غنى عن موجودات القبر المذكور . لم تعزف الموسيقيات على العود ، بل على القيثارة ، التي تحمل زخارف مرصعة ، استمدت ثانية مواضيع صورها بشكل كلي من عالم صور الاعتقاد باتّين ــ تموز : وهكذا نجد النسر له رأس الاسد فوق عنزين وثورين الى جانب شجرة تموز والصراع بين اسد وحيوان اهلي . لقد وجد في نفس الحجرة جثة صاحبة القبر مع حلي رأسها النفيسة وعقود اللؤلؤ بحالة تامة غير منقوصة وهي « السيدة شوباد » حيث امكن قراءة ذلك على ختم اسطواني من الذهب وجد في نفس الحجرة . كما وجدت الجثث الاخرى في هذه الحفرة وعلى الطريق المائل لهذا القبر الثاني المزدوج سليمة لم تمسها يد اللصوص بسوء . ومما تجدر ملاحظته ايضا هو العثور في ارضية الحفرة الثانية ، تماما فوق ثقب سقف حجرة الملك على بقايا اداة خشبية كبيرة . وقد فسر منقب اور ذلك بأنها يجب أن تكون قد تُركت عمدا في هذا المكان من قبل اللصوص لتغطية الثقب ، إلا ان هذا التفسير لا يمكن قبوله . خاصة في عملية كعملية الدفن الثانية التي يجب ان تكون قد تمت باحتفال رسمي . وقد وُجدت حول هذه الاداة الخشبية جميع الادوات اللازمة تقريبا لمجلس الشراب كما تعرف من نقوش اللوحات النذرية في عصر ميزيليم . اضف الى هذا وجود بعض ادوات النجار في احد القبور مثل المنشار والازميل التي ليس من السهل تفسيرها ، اذ لا بد الا وانها قد جسمت قيمة رمزية لانها مصنوعة من الذهب . اننا نعرف المنشار ، من نقوش الاختام الاسطوانية في العصر اللاحق وذلك تماما بنفس شكل المنشار الذهبي المذكور . وهنا يحمل إله الشمس في هذا العصر اللاحق المنشار بيده اثناء ظهوره ثانية من بين الجبال ، أي عند صعوده من العالم السفلي ، ليبدأ من جديد دورته الظافرة في السماء . ونتيجة لذلك تشير جميع هذه الامور الى ان الملك لم يُسرق من لحده على يد لصوص القبور اثناء الاحتفال بعملية دفن ثانية ، بل لقد فتح المرء قبره خصيصا باحتفال ديني لفك اسره من العالم السفلي ولبعثه من جديد . ان

الذي يقودنا لمثل هذا الافتراض هو ان جثة الملك لم تشكل أية قيمة مادية بالنسبة للصوص • ومن ناحية اخرى لقد حرر ايضا نفس تموز من القبر ، حسب ماورد في الاسطورة من قبل اتباعه • ولقد كان نفسه ملك اوروك • وهكذا يعتبر الملك في هذا العصر تجسيما له • واذا مات فانه يموت كاله ليعود فيحيا من جديد • انه لمن الممكن أن يكون دفن شوباد ، التي كانت على الارجح رفيقة الملك في عيد رأس السنة التي فسرت ، وكأنها جزء من اسطورة تموز التي نعرفها باسم « سفر عشتار الى جهنم » حيث سافرت عشتار هابطة الى العالم الاسفل لتنتشل زوجها الحبيب • غير ان هذا التفسير ليس بمؤكد ، لأن جثة شوباد وجميع الجثث الاخرى ، عدا جثة الملك ، كانت لا تزال موجودة في القبر • ومن ناحية اخرى نجد ان هذه الظاهرة ليست الوحيدة اذ يوجد بين القبور المزدوجة في مقبرة اور الملكية ، قبر مزدوج آخر يحوي على حجرتين فوق بعضهما بدلا من أن تكونا بجانب بعضهما • ولا بد أن تكون المرأة هذه المرة الا وأن دفنت في البدء • وقد بقيت كذلك هذه الحجرة في الممرات المائلة وفي الفراغات دون أن تمس بسوء • وهنا لم تفتتح عن عمد سوى مدافن الملوك • وعلى هذا يبدو ان الملك فقط هو الذي كان يمثل تموز في صعوده من العالم السفلي وذلك على الاقل في هذا العصر لسلالة اور الاولى • لقد أصبح لنا الآن دفن الاتباع واضحا ، اذ لم ينزلوا الى القبر فقط انطلاقا من اعتقادهم بالبعث من جديد ، بل لا بد وانهم قد شعروا نتيجة الخوف من الموت بحتمية اختبائهم الى جانب الإله الميت نفسه ، الذي يتلبس دوما شخصية الانسان في الملك • واذا لم يكونوا قد اعتقدوا ببعث ذاتهم من جديد فانهم آمنوا على الاقل بمثل ذلك فيما يخص الإله نفسه • ولهذا لا يمكن النظر لهذه العادة على انها بربرية بدائية التي دفعت بحوالي ثمانين شخصا لأن يضعوا حدا لحياتهم سوية مع الامير وأن نفهمها تقمصا • واذا تأملنا في هذا « الاعتقاد بالموت » بالشكل المؤثر المخيف الذي يحدثنا فيه من باطن هذه المدافن لوجدناه وقد وصل درجة من التطور لا بد وانها شكلت عقبة غير سليمة بالنسبة لتطور الدولة •

لقد بنى السومريون نظرتهم الى الكون على اعتقاد المجتمعات الزراعية لعصور ما قبل التاريخ ، وذلك في الأم الكبرى باعثة الحياة ، وبذا جعلوا الناس لا يخشون الموت ، حيث ان فكرة الحياة تحمل بين طياتها الاعتقاد بالحياة والموت •

لقد تمثلت هذه الفكرة في شخص الراعي الشاب والبطل ، انه الملك تموز • واذا اصبح الموت يوما ما عزاء للانسان ، هكذا تفقد الحياة تلك القيمة ، التي يجب على كل رئيس دولة من جهة اخرى أن يحافظ عليها •

لقد كنا نعتقد حتى قبل بضع عشرات السنين ان المكتشفات الاثرية التي عثر عليها في لاجاش هي من مخلفات عصر سومري مبكر • اما الآن وبعد أن اصبح باستطاعتنا تتبع التطور الحضاري منذ عصور ما قبل التاريخ شاملا العصر الذهبي لفجر التاريخ من حقبة اوروك (الطبقة الرابعة) حتى عصر ميزيليم والعصر التاريخي لحقبة سلالة اور الأولى ، نجد ان خصائص وميزات المكتشفات تشير حقا على انها تعود الى حقبة متأخرة • لقد قادت التناقضات الداخلية الى الانفجار في كل مكان : فعلى مستوى سياسة الدولة ، نشب صراع دائم بين مختلف الآلهة ، اصحاب الدويلات • ولم يكن باستطاعة امير الآلهة إنّيل وكهنوته في نيبور حتى ولا كبير الملوك الذي يمكن أن ينتسب الى سلالات مختلفة ومتعددة لم يكن باستطاعتهم جعل دويلات الآلهة تعيش وتعمل مع بعضها متكاتفة متعاونة •

اما على صعيد السياسة الاجتماعية فقد ظهر التناقض الشديد في الملكية والمناصب خلافا للعادات السومرية الاساسية • لقد تعارضت مصالح ومهام الملوك مع تلك التي للكهنة في معظم المجالات • ثم ان الظلم الاجتماعي ، الذي مارسه الكهنوت المتفسخ على الشعب ، دفع بـ « اوروكاجينا » الى الاصلاح • الا انه اخفق كما فشل من بعده لوجال زاجيّزي في سياسته التوسعية والوحدوية ، لان الشعب السومري كان منهوك القوى •

ان المقومات التي كانت تشكل مصدر قوة هذا الشعب في عصر اوروك (الطبقة الرابعة) ، اي اعتقاده باتّين وتموز ، اعتقاده بالحياة التي تقهر

الموت ، أصبحت اليوم مصدرا لضعفه . ان هذا الايمان بالقدرة الكامنة التي تهب الارض والماء والنبات والحيوان الحياة اصبح يتلاشى شيئا فشيئا . في الواقع حاول الحكام والمتنفذون في الدولة تشجيع عبادة آلهة الكواكب ـ أي الآلهة الكونية مثل ، الشمس والقمر والسماء والنجوم ـ ولنتذكر في هذه المجال الفرق بين اللوحات المذورة في عصر ميزيليم وعصر سلالة اور الأولى . وبالرغم من كل ذلك فقد ازدادت بالتأكيد الانشقاقات الداخلية من جراء ذلك . ان أفضل سبيل لاستعراض أوجه عدم التوازن في هذه الحضارة القديمة يكمن في المقارنة بين الكهنة ، الذين وصفهم لنا اورو كاجينا في نصوصه الاصلاحية وبين ذلك الانسان الذي دفن نفسه حيا في مقبرة اور الملكية . انها نفس الحالة التي دعت الرعاة والسماكة والارامل واليتامى ليقدموا على حساب فقرهم المدقع هبات قيمة في ذلك العصر دعت ايضا الناس زرافات ووحدانا للتضحية بحياتهم وحليهم الثمينة المتراكمة من اجل فكرة مثالية تجلت في الاعتقاد بشيء خالد وجد انعكاسه في شخص الملك .

انا نعرف في فن وصناعات هذا العصر شواهد جلية على العجز والاعياء ، اذ يوجد الى جانب الاعمال الفنية الباهرة التعبير كلوحة العقبان لـ « إي ـ أنّاتوم » او الاعمال اليدوية ذات الذوق الرفيع كالمزهرية لـ « إن ـ تيمينا » ، توجد هناك اعمال فنية رديئة جدا كلوحة «اورنانشي» او اكداس الحلي التي كانت تزين رؤوس الكاهنات والمكتشفة في مدفن اور .

اذا نظرنا الى الحضارة القديمة في القطر المصري في عصر السلالة الاولى ندرك فورا ذلك الاتزان والهيبة الداخلية والظاهرية التي تنطق بهما ، بحيث نلمس بنفس الوقت مدى اختلافها ، عن تلك التي صنعها الشعب السومري ، الذي لا يقل ابدا عن المصريين ابداعا . اننا لا نرى في تلك الاشكال المنكمشة على نفسها في وضعية الخلود للراحة ، اولئك الذين يبقون على صراع جسدي وروحي فيما بينهم ومع الغرباء عنهم ؛ وربما يكمن في هذا بالذات سر قوة تأثيرهم .

الفصل الرابع

الامبراطورية الاكَادية

آ ـ التطور التاريخي

في ظل حكم لوكال زاجِّيزي حاكم مدينة أومَّا الصغيرة بدا وكأن السومريين قد استعادوا قوتهم مرة ثانية ، ليحققوا نهضة جديدة بشكل تنفق وتنظيمهم السياسي لحضارتهم التوسعية • الا ان ذلك لم يكن الا منظرا خدَّاعاً : فحركة لوكال زاجِّيزي التي هدفت تأسيس امبراطوريةعالمية وبالتالي وجوب القضاء على دويلات الآلهة السومرية المستقلة ، لم تكن من بنات الفكر السومري ، بل كانت انما حملته حامية الآلهة - نيزابا على رأسها كما ورد في احد النصوص التي ترجع الى عهد اورو كاجينا • لقد كانت في الواقع محاولة لقهر العدو بسلاحه الخاص ، محاولة لتأسيس امبراطورية عالمية ، وقطع الطريق على الساميين الا كَّاديين الذين هم اهل لها •

لقد اتُّخذ مجددا موقف من النظرية ، التي حاولت أن ترى في التطور ، الذي مرت به بلاد بابل خلال الألف الثالثة ق•م ، على انه نتيجة للصراع والتوتر بين السومرية والسامية • من المؤكد ان الساميين قد نزلوا البلاد قبل أن يكون هناك امبراطورية اكَّادية اصلا • ومن المؤكد ايضا انهم لم يقفوا منذ قرون ضد السومرية وحسب بل تصاهروا مع السومريين واختلطوا معهم ، وتعاونوا معا في جميع المجالات الفكرية بعد أن دخلوا البلاد مسالمين على هجرات متتالية وباعداد متزايدة حتى ان تفوقهم على السومريين كان حقيقة واقعة منذ قرون عديدة كما حدث في ماري وكيش خاصة واننا نملك منحوتات من مدينة ماري تحمل كتابة سامية اقدم من عصر

سلالة اور الأولى • ناهيك عن حضارة عصر ميزيليم ، الذي يشكل الفصل الاخير لعصر فجر التاريخ ، تلك الحضارة التي تجعلنا نفترض وجود مساهمة سامية قوية في بنيانها وذلك على عكس عصر ازدهار الحضارة السومرية خلال حقبة اوروك الرابعة •

ومن الحقائق البينة ايضا يبقى الاختلاف العرقي بين السومريين والساميين ازليا • ان هذا الاختلاف لا يظهر فقط في اللغة، بل يتجلى ايضا في نمط حياتهم ونظراتهم لها • ولقد امتد هذا الاختلاف من الامور المتيافيزيكية حتى شمل ازيائهم ، ومن اعمالهم الفنية كذلك ، التي تخدم فكرة الملك الإله الجديد حتى عمّ اساليب فن تسليح وقتال جيوشهم • كذلك فان قيام امبراطورية جهات العالم الاربعة بشكلها النهائي لم يكن في الواقع الا وجهاً من وجوه فلسفة الاكاديين في الحياة •

لقد تجاوزت سعة امبراطورية اكاد العالمية حدود منطقة الشرق الأدنى وشملت جزءا لا بأس به من المناطق التي كانت خاضعة لنفوذ الحضارة السومرية القديمة ، والتي كانت على تحاك فكري واقتصادي دائم معه • الا ان الاكادية شعباً وحضارة ، استطاعت ولأول مرة أن تضفي على هذا التأثير الحضاري وجها سياسيا •

ينتسب الاكاديون الى اسرة الشعوب السامية البدوية الكبيرة ، التي استوطنت دوما الصحراء العربية ـ الشامية • ولا بد أن يكون موقع ولوج الاكاديين الى اراضي سومر المتمدنة إلاّ في المنطقة التي يقترب فيها الدجلة والفرات اليوم اقترابا شديدا من بعضهما وتماما في المناطق المحيطة بمدينة كيش القديمة (سابقة مدينة بابل) • من هنا ومن مدينة الشمس زيبار الواقعة الى الشمال منها لا بد إلاّ وأن انطلق الاكاديون في تغلغلهم باعداد متزايدة الى قلب الاراضي السومرية نحو الجنوب ومن ثم نحو الشمال حيث ازدهرت دولة آشور فيما بعد • لقد تمكنوا من نشر لهجتهم السامية

الشرقية ، التي تنصف كبقية اللهجات السامية بالقدرة والمرونة على التعبير ، في منطقة تغلغلهم المحيطة بمدينة زيبار في الشمال قبل أن يستطيعوا فرضها على الجنوب السومري العريق بالمدنية والتراث الديني •

لم تقع الامبراطورية الاكادية ضمن حدود اقليم الشعب الاكادي ، حتى ولا ضمن المنطقة التي انتشرت فيها اللغة الاكادية فقط ، بل شملت الجزء الشرقي من آسيا الصغرى ، لما وراء جبال طوروس والمناطق الجبلية من ايران بما في ذلك بلاد ماجان المورّدة لحجر الديوريت الى الاكاديين • وقد يخشى المرء أن يقول ، ان بلاد ماجان هي مصر ، علما بأنها عرفت فيما بعد ـ حسب نصوص كتابية ـ بهذا الاسم • لقد شملت الامبراطورية الاكادية حقا العالم المتمدن آنذاك من مطلع الشمس حتى مغيبها وامتدت الى جميع جهات المعمورة الاربعة • لم تكن الدولة الاكادية اوسع رقعة من الدولة السومرية فقط ، بل اختلفت عنها من حيث التركيب والنظام ايضا • اذ لم يعد رئيس الدولة ورئيس الامبراطورية العالمية هو إله البلاد ومالكها ورئيس المجمع اللاهوتي بنفس الوقت كما كانت عليه الحال في سومر • كذلك لم يعد الملك نائباً للاله ، بل اصبح نفسه إلها وبهذه الصفة يكون هو رئيس الدولة • ومن ناحية اخرى نجد ان التقاليد القديمة قد بقيت سارية المفعول شكليا ، بحيث سمح الملك لسيد الآلهة إنّيل أن يقلده السلطة ـ وهو اقدم حاكم عالمي عرفناه ـ اول امير بين امراء المقاطعات المحليين العديدين الذي حكم الاقاليم المختلفة الكثيرة بمساعدة موظفين معينين من قبله • لقد تحولت الدولة السومرية التيوقراطية الاتحادية الى دولة مركزية تخضع لسلطة الموظفين ، دولة زال فيها التطاحن بين المعبد والقصر لصالح البيت المالك • واذا كان اورو كاجينا قد ذكر في كتاباته المتعلقة باصلاحاته بأنه اعاد الى نينجر سو تلك الاراضي التي اغتصبها الانزي أي ان الامير قد تخلى عن املاكه الخاصة ، نرى ان الحكام الاكاديين قد فعلوا عكس ذلك تماما ، بحيث اكتسبوا اراضي واملاك واسعة لانفسهم • واذا كانت كريمات الحكام

الاكّاديين قد دخلن معبد إله القمر في اور كعرائس للاله ، كما ذكر احيانا في بعض النصوص ، فعلينا أن نفهم من ذلك ان هذا الاجراء ليس الا مجرد واسطة ، استخدمها الحكام لتقوية نفوذهم في الداخل ، ولتخفيف حدة التوتر بين الكهنة والبيت المالك ومن ثم لتقوية وحدة الدولة الداخلية .

ففي الوقت الذي وجدت الدولة السومرية ركنها الصامد الاخير في ذلك العنصر السرمدي أي في الإله نفسه المنزه عن الاخطاء والضعف البشريين ، نرى الدولة الاكّادية وقد جثمت على اكتاف انسان ، ارتقى الى مرتبة الألوهية نتيجة لاعماله الجبارة . ومن الواضح ان نظام حكم كهذا يعتمد قوامه بالدرجة الاولى اكثر من ذي قبل ، على شخصية الحاكم ، وعلى مواهبه السياسية والعسكرية . ولهذا فان الامبراطورية العالمية الاكّادية ، وهي ايضامن صنع سلالة حاكمة بارعة، فهمت كيف تخلق خلال ثلاثة اجيال متعاقبة نظاما قويا ، وعرفت ايضا كيف توجهه وتحافظ عليه . بهذا فقد تجسمت في نهاية هذه السلالة سقوط الامبراطورية بنفس الوقت . اما من جهة اخرى فنلمس تأثير فكرة تكوين امبراطورية عالمية ، وتأثير اللغة الاكّادية وآدابها مع تأثير الفن الاكّادي الذي استمر لعدة قرون لاحقة .

يعتبر مؤسس الامبراطورية زارجون الأول احدى تلك الظواهر التاريخية التي اختلطت فيها العظمة والحقيقة والشاعرية فالتبست بذلك على معاصري هذا الواقع والاجيال اللاحقة . او على الاصح ، التي تمثلت في هذه الظواهر الحقيقية على شكل مذهل حتى اصبح ينظر إليها او الى صانعها على انها من المعجزات . لقد تحدثت عنه الحوليات التاريخية والكتابات الملكية الاسطورية ، التي تعتبر مصادر تاريخية صحيحة . كما تحدثت عن حياته واعماله اقوال المنجمين ، التي حوت كذلك امثلة ملائمة لتنبؤات تنجت عن فن التنجيم بواسطة الكبد . لقد أبقي أصله مبهما من اجل تعليل منحدره الإلهي. لقد كان والده الحقيقي من اصل سامي واسمه (لا ـ إيبو) الذي لا نعرف اكثر من ذلك عنه . تذكر الحوليات الملكية ان والده كان مجهول الهوية وان

عمه عاش في الجبال . وكانت امه عروسا من عرائس الآلهة ، ومن تلك الكاهنات اللواتي قطعن عهدا على انفسهن بعدم انجاب الاولاد منذ اللحظة التي يوركن فيها . ولكن عندما انجبت رغم ذلك طفلا في مدينة آزوبيرانور ، وضعته سرا في صندوق من القصب والقت به في نهر الفرات .

وهناك وجده البستاني « أكّي » الذي عني بتربيته وحمايته . وهكذا اصبح هذا الطفل بستانيا وترعرع الى أن اكتسب حب الإلهة عشتار التي سبق واحبت بطلي العصور السابقة تموز وجلجامش . وبفضلها فقط توصل الى حكم « ذوي الرؤوس السوداء » أي الاكاديين .

لقد اصبح في البدء «ساقيا» عند زابابا إله الحرب الكيشي ، ومن ثم اصبح على ما يبدو موظفا كبيرا في خدمة آخر ملوك كيش المسمى اور ـ زابابا ، فعمل على خلعه واعتلى العرش بعده . ولا بد أن يكون قد حدث هذا في اللحظة التي بدأ فيها الصراع المحتوم مع لوكال زاجّيزي ملك اوروك ، الذي حكم امبراطوريته وهي الجنوب السومري ، وبعد أن وافق على مضض آخر ملوك سلالة كيش الضعفاء . لقد تذرع زارجون بما أسماه ، المعاملة السيئة التي لاقاها احد رسله في قصر لوكال زاجّيزي ليبدأ الحرب ضده . اننا لا نستطيع معرفة سوى اندحار لوكال زاجّيزي الغازي الكبير ، ولكننا لا نعرف السبب الذي ادى الى هذه النتيجة المدهشة . ويمكننا أن نظن بأن من بين هذه الاسباب ، الى جانب موهبة زارجون القيادية هو التسليح الجديد للجيش الاكادي والتكتيك الحربي الذي اتبعه . ولقد كان من بين هذه الاسلحة الحديثة ، القوس والرمح ، بدلا من الفأس والحربة ، كما نستطيع أن نراه على اللوحات الاكادية النافرة . ومن فنون القتال الجديدة التي استخدمها هي طريقة القتال الإفرادي ، رجل يقابل رجلا، بدلا من الكراديس السومرية التي تحميها حملة التروس ، والتي كانت تلعب الدور الرئيسي في المعركة .

لفترة فيما يخص علامات كتاباتهم . وما دمنا نعرف ان هناك حكاما في بابل نجدهم وقد كانوا دوما في صراع مع عيلام . لأن العداوة التقليدية متأصلة في طبيعة الانسان والاشياء ولا يمكن أن تزول على ما يبدو ، الا في بعض الاحيان ، ولمدة من الزمن حينما يظهر عدو مشترك .

كان الهدف الثاني لزارجون هو احتلال تلك المنطقة ، منطقة الحضـــارة العيلامية وبلاد زاغروس المحيطة بها من الشمال بالرغم من اننا لا نعرف بالضبط خطة الهجوم الزارجوني ومراحل تنفيذها . يبدو انه بنفس الوقت الذي غزا به عيلام التي يرجح أن يكون قد باغتها من الخلف عن طريق مياه الخليج العربي كان قد احتل جزيرة تلمون التى يمكن أن تكون جزيرة البحرين الكبـــيرة .

لم يشكل الغرب والشمال من ذلك العالم القديم مناطق حضارية في عرف الاكاديين، بل نظروا اليها على انها بلاد المواد الخام بالنسبة لهم. فاشتهر الغرب مثلا بغنى اخشابه الكثيرة في جبال لبنان وبمعادنه المتوفرة في جبال طوروس . ولم يكن بمقدور المرء آنذاك ، أن يستثمر الغرب من آمور الا اذا تمكن مـــن السيطرة على الشمال ، على بلاد سوبارتو لتكون جسراً يربط بين الجزئين . لذلك كثيرا ما نسمع ان زارجون قد احتل بلاد سوبارتو بأكملها وعاد بغنائم كثيرة الى اكاد . وعندما قامت ثورة هناك ضد زاراجون اتخذ هذا الملك ذلك ذريعة حيث دمر البلاد تدميرا شاملا حتى ان « العصافير نفسها لم تجد لها مأوى فيها » . اما الشيء الوحيد الذي اكد على ما يبدو مجد زارجون اكثر من غيره فقد كانت زحوفه على « بلاد مهبط الشمس حتى نهايتها » تلك الزحوف التي فتقت خيال معاصريه .

اننا نعرف ما علينا ادراكه من وراء هذه الاقصوصة التي تنص ما معناه : لقد احتل في عدة غزوات ارض الآموريين (بلاد الشام الحالية) ، بعد أن كان قد تجاوز الفرات مارا بـ « توتول » = (هيت) ودولة ماري . وبعد فترة

لقد تم احتلال اوروك ووضِع ملكها في قفص كالحيوان امام معبد إلـّيل في نيبور امام الشعب للخزية منه • واحتل زارجون جميع بلاد سومر بما فيها اور ، وزحف حتى شاطىء الخليج العربي لينظف سلاحه من الدم رمزا للسـلام •

لم يبق زارجون «ملك البلاد» طويلا في مدينة كيش بل اختار لنفسه كأول حاكم في الشرق الأدنى القديم عاصمة خاصة به هي مدينة اكـّاد الواقعة بالقرب من مدينة الشمس زيبار ، التي كانت تتمتع فيها ولـيّته عشتار انونيتو، عشتار السماوية ، كوكب الزهراء ، بتقديس خاص • وهكذا اصبح يطلق منذ الآن اسم هذه المدينة على ارض وشعب ولغة الجزء الشمالي من بلاد بابل • إلا انه وللاسف الشديد لم نستطع حتى الآن تحديد موقع العاصمة اكـّاد الذي قد يكون خربة الدير الحالية •

لقد اتخذ زاراجون من مكاتته كـ « ملك للبلاد » و « مفوَّض إلـّيل » و « ملك كيش » ــ وجميعها كانت القاب لملك الملوك السومري ــ كوسيلة للوصول الى حكم العالم • واصبحت تشكل بلاد بابل القديمة في عهده الجزء الجنوبي من ذلك العالم القديم الذي كان مقسما حسب الجهات الاربع • لم يستطع الا الشرق فقط بمركزه بلاد عيلام مع عاصمتها سوزا آنذاك الدخول في تنافس حضاري مع سومر • اذ نشأت هنا على انقاض مدينة ما قبل التاريخ ، حضارة معاصرة للحضارة السومرية في فجر التاريخ لعصري اوروك الرابع وجمدة نصر ، ولعبت هذه الحضارة دور الوسيط بين الاراضي المنخفضة على الخليج العربي والهضبة الايرانية في تبادل دائم سلمي كان ام حربي • لقد عرفت عيلام بناء المعابد وشحذ الحجارة وصناعة الفخار الملون الراقية ، والكتابة على الالواح الطينية واستخدام الاختام الاسطوانية • لكننا نرى ان اكثر هذه الاشياء ، وخاصة الكتابة قد أخذت عن السومريين علما بأنهم قد حافظوا على طابعهم المحلي فيما يتعلق بآلهتهم الخاصة ، وحتى

من الزمن قطع جبال طوروس ، جبال الفضة وذلك بعد أن كان قد استغاث به رسل من كبار كبادوكيا (القيصرية) ، قدموا الى قصره في اكاد مستنجدين به على عدوتهم التقليدية مدينة بوروش خندا . لقد بالغ الخيال الشعبي في حبك خيوط هذه القصة ، اذ كان مقصودا على ما يبدو أن يكون اجتياز جبال طوروس في نظر الناس وبالتالي محاولة ضم آسيا الصغرى الى الامبراطورية الاكادية (غرورا) او عملا طائشا يتصف بروح المغامرة ، وهذا لا بد إلا وأن يجد له المرء مبررا او عذرا . ان محاولة الانسان في ذلك الحين ، ولأول مرة ، رسم خطة هجوم زارجون على اللوحات الطينية لهو دليل مادي رائع على سعة الافق الجغرافي لانسان ذلك العصر .

لقد حافظ العملاق (زارجون) على كيان الامبراطورية مدة نصف قرن من الزمن ، وفي اواخر ايامه قامت الثورات في جميع البلدان المحتلة ؛ إلا انه استطاع اخمادها بنفسه وبالقوة بالرغم من شيخوخته . وكان على ابنه ريموش أن يستميت من جديد وبكل ما في هذه الكلمة من معنى في سبيل هذه التركة ، وحتى يتسنى له اعادة امتلاكها ، كان عليه ايضا كما فعل والده ، أن يشن حملات على اجزاءمن سومر وعلى عيلام لانقاذ الامبراطورية. ومع ذلك يبدو وكأنه لم يستطع تحقيق الاستقرار الداخلي كليا ، لأنه وقع ضحية اغتيال في السنة التاسعة من حكمه . ولكن ولحسن الحظ ، لم يكن امر المحافظة على الامبراطورية منوطا بشخصية واحدة فقط ذلك ان نسل « لا ـ إيبو » إنما هو نسل ابطال. وهكذا ارتقى العرش بعد ريموش اخوه مانيشتوزو ، الذي وسع الامبراطورية خلال خمسة عشر عاما ، رغم انه كان متقدما في السن عندما استلم زمام الحكم .

اننا نعلم عنه ، من كتابة نقشت على حجر اسود يشبه المسلة . انه لم يشأ أن يرسي قواعد حكمه على قوة الجيش فقط ، بل عن طريق استملاك اراضي واسعة في مدن مختلفة وكذلك عن طريق نَهجِ سياسة داخلية واقتصادية حكيمة .

لقد استطاعت عزيمة هذه السلالة الحاكمـة لجيل آخر من الزمن أن تحافظ بحزم على الازدهار الكامل لتلك الامبراطورية اذ قاد (نارام ــ زِنْ) حفيد زارجون بلاد الشرق الأدنى وسار بها طوال اربعين سنة تقريبا ليس فقط الى ذروة المجد السياسي، بل الحضاري ايضا، وكذلك استطاع أن يعيد بقوة السلاح سيطرته على اجزاء عديدة من الامبراطورية كما فعل اسلافه افراد البيت المالك وأن يحميها من الثورات واعمال الشغب والتصدع ، كما انه دافـع كاسلافه عن كل شبر من مناطق الامبراطورية تقريبا . وخلد ذكر انتصاره على سكان المناطق الايرانية الجبلية المجاورة الذين عرفوا بـ « اللولوبيين » وذلك بأن امر بنحت نصب تذكاري لا يزال موجودا . وعرف هذا النصب فيمـا بعد باسم « نصب نارام ــ زِنْ التذكاري » الذي اختطفه العيلاميون من مدينة زيبار ونقلوه الى سوزا في العصور القديمة . وظهر ايضا في مدينة نينوى رأس برونزي ، كان يشكل جزءا من تمثال برونزي اعتقد انه رأس تمثال لـ « نارام ــ زِنْ » ، لوجود شبه بينه وبين رأس نارام ــ زِنْ المنقوش على نصب تذكاري حجري لهذا الملك اقيم في ارمينيا . واكتشف ايضا في شمال بلاد ما بين النهرين ، في منطقة الخابور ، بين اطلال مدينـة تل براك قصر مبني من اللبن يحمل اسم نارام ــ زِنْ . ان اتساع النفـوذ القوي لهذا الملك القوي ، وانتشاره خارج حدود مناطق السومريين والاكاديين الاصلية ، لتشهد عليـه المستندات والوثائق التاريخية . ولكن كـل هذه الاشياء لا تشكل اعظم منجزاته الوحيدة . لقد كان عمله الفريد ، هـو الانتصار على بلاد ماجان ، بلاد حجر الديوريت ، الذي يستفاد منه في نحت الانصاب وغيرها . لقد ورد اسم بلاد ماجان ، واسم اميرها ماني ، في الكتابة المنقوشة على قاعدة احد تماثيله التي وجد جزء منها في مدينة سوزا وارتبط اسم ماجان في نصوص متأخرة باسم بلاد ميلوحا ، التي كان يستخرج منها غبار الذهب والحجارة التي تحوي السبائك المتبلورة والاجـزاء الاخرى اللامعة (بورفير) . ومنذ النصف الثاني للألف الثانية ق.م اصبح اسـم

فيها « ابناء القصر » الذين يترعرعون في القصر تحت اشراف الملوك ، بأهم المناصب ، بل يجب أن يكون قد حدث على الدوام تطور اجتماعي اعتيادي ، ادى الى قيام دولة الحرفيين ، التي اتسعت فيها شقة الخلاف تدريجيا ، بين الفقير والغني ، بين الحرية والعبودية ، بين الكهنوت والملكية ، بين التجار والحرفيين • ونرى كذلك ان الامراء الكهنة ، الذين احتفظوا بمراكزهم في الجزء الجنوبي من بلاد بابل ، تمشيا مع تقاليد الحضارة السومرية والذين كان عليهم أن يدفعوا الجزية الى البلاط الملكي في اكاد لم يكونوا في الواقع سوى موظفين لدى هذا البلاط •

ب ـ الديـــانــة

يتعذر على المرء أن يفرّق بين الديانة الاكادية والاعتقاد السومري بالآلهة بعد ذلك الانصهار القوي بين عناصر الديانة السومرية والسامية الشرقية ، كما حدث خلال نشوء الحضارة الاكادية • لقد بقيت آلهة الاقاليم القديمــة التي تعود اصولها جزئيا الى عصور ما قبل التاريخ والتي كانت تمثل قوى الحياة والموت واسرار الكون لتصبح بعد ذلك تشكل دعائم الدولةالسومرية، بقيت كمــا كانت في السابق مــدبرة اقــدار الانسانيــة • لقــد كانت مكانتهم في مجمع الآلهة واهميتهم في الحياة السياسية تابعة على الــدوام لوضع دويلاتهم السياسية وكانت اهمية انّين وتاتّا تنخفض أو تزداد اذا سيطرت أوروك أو اور على البلاد سياسيا • والآن ازدادت طبعا مكانة آلهة المدن الاكادية مثل اكاد وزيبار اهمية بعد أن كانت في السابق ثانويــة وبعد أن كانوا لا يتمتعون الا بنفوذ بسيط • ان إله الامبراطورية الاكادية الحقيقي ، هو إله الشمس لمدينة زيبار « شمَش » بن إله القمر « زِنْ » ومع ذلك فاننا لا نعرف تماما مدى الاختلاف بين هذين الإلهين ، وبين اندادهما عند السومريين ، مثل اوتو بمدينة لارزا وناتّا بمدينة اور •ولكنهما يشكلان مع عشتار آنونيتو ، سيدة مدينة اكاد وكوكب الزهراء ، يشكلان معهــا في الواقع ، ما يمكن أن يسمى جوهر ديانة اكادية خاصة ، تتميز بطابعها الكوكبي ، على عكس الاعتقادالسومري الفلاحي الذي يتجسم بالآلهةالارضية• رغم ذلك لا بد من أن تكون الديانتين ، قد نشأتا وترعرعتا سوية منذالقدم، حتى انه لم يعد هناك أي فرق بين زِنْ الاكادي وناتّا في اور • وفيما بعد زال ايضا الفرق بين عشتار السامية ، التي كانت على ما يبدو في الاصل من آلهة النجوم ، وبين انّين في مدينة اوروك التي كانت تمثل في القديم إلهة

ميلوحا يعني بلاد النوبة . وورد اسم ماجان بدلا من اسم مصر في النصوص الآشورية المتأخرة ومع ذلك لم يرغب احد حتى الآن ، أن يستدل من هذا على ان نارام ــ زِن° هاجم مصر وهزم ملكها ماني ، بل رأى الباحثون ان ماجان هي جزء من شبه الجزيرة العربية . اما القول بأن ماجان تعني شبه الجزيرة العربية فان ذلك لا يتفق والنصوص التي وصفت غزو واحتلال ماجان . بما ان هذا يعتبر أكبر عمل قام به نارام ــ زِن°، فلماذا يجب أن يكون في احتلال نارام ــ زِن° جزءا من الصحراء العربية عملا جبارا اذا ما قورن بغزو ارمينيا او مهاجمة زاغروس مثلا ؟ بعد تلك الاعمال العظيمة التي حققها الزارجونيون ، يبقى النصر على مصر فقط ، من الاعمال التي تستحق التقدير والتبجيل . ان المرء لا يشك الآن في قيام علاقات ومبادلات تجارية مع النوبة = ميلوحا آنذاك بعد أن ثبت وجود علاقات قوية بين سومر في عصر فجر التاريخ ومصر في عصر نيكادا الثاني . وعلى كل حال سيبقى تفسير غزو نارام ــ زِن° لبلاد ماجان على انه غزو لمصر تفسيراً هاما ومعقولا فيما اذا اخذنا بعين الاعتبار قلة الشواهد على العلاقات بين مصر وبلاد ما بين النهرين في الألف الثالثة ق.م .

"بعد اقل من مائتي عام ، نرى ان ملامح الشرق الأدنى خلال حكم الاكاديين قد تغيرت تماما، اذ طغت الحضارة الاكادية على اللغة السومرية، وعلى الزي السومري ، وعلى فن الحرب السومري . وانهال الكثير من الثروات الضخمة ، من مختلف أجزاء العالم على اكاد ، ولكنها لم تبق فقط في ايدي الـ « ٥٤٠٠ رجل الذين كانوا يأكلون يوميا امام زارجون » أي في ايدي الجيش العامل ، بل استفادت منها قوافل التجار التي كانت تتبع الجيش في تحركاته الى جميع البلدان . وقدم الملوك الذين كانوا آلهة في سني حياتهم ، الهدايا الى آلهة الدويلات القديمة والمعابد بسخاء . وهكذا يجب أن لا يكون قد نشأ على انقاض اشتراكية الدولة السومرية المبنية على اساس اتحادي تيوقراطي ، امبراطورية مركزية يديرها الموظفون ، ويحتفظ

الأمومة . لقد تمثلت في الاثنتين جميـع صفات الانوثة وصفات إلهـة الحرب ، هذه التي كانت ايضا بنفس الوقت سيدة السماء .

ان ما يثير الدهشة اكثر من ربط نجمة الزهراء بام الكون اتّين ، هـو تشبيه إله الشمس الاكادي باله الخصب الذي يموت ثم يحيي والذي تمثل على احسن وجه بتموز ملك اوروك والانسان الإله . لم يتأكد لنا هـذا التشبيه من وثائق كتابية ابدا بل ان الرسوم المنقوشة على الاختام الاسطوانية الاكادية هي التي تؤكده بدون شك . انها ترينا احيانا إلها تصعد من كتفيه خيوط ترمز الى اشعة الشمس التي هي رمز لـ « شمَش » وهو يركب قاربا يجتاز به مياه العالم السفلي والى جانبه يوجد ما يرمز الى طبيعته كاله خصب مثل المحراث وادوات زراعية اخرى . انها شمس الليل التي تعبر المحيطات السفلية . وتمثل لنا مجموعة اخرى من الاختام الاسطوانية الاكادية نفس الإله ، وهو يصعد من بين قمتي جبل ، ترمزان الى الارض والعالم السفلي الذي هو قبره . وغالبا ما يقبض في يده اليمنى على ذلك المنشار الذي عرفنا نموذجا له ، في مقبرة اور الملكية من عصر سلالة اور الأولى والذي يستعمله حين الانطلاق من القبر والانبعاث من جديد الى عالم الاحياء . وبالاضافة الى ذلك يوجد في بعض الاحيان حتى من يفتح له باب القبر . ان هذا التوحيد بين عبادة قوى الطبيعة وعبادة الكواكب ، الذي زادت أهميته فيما بعد بالنسبة الى تطور المعتقدات الدينية في الشرق الأدنى يبدو وكأن تأثيره قد اخذ مجراه منذ نهاية عصر سلالة اور الأولى ، كما نراه على عدد ضيئل من الاختام الاسطوانية التي ترجع الى اواخر هذا الدور ، والتي نقشت زخارفها باسلوب سومري . وكما ان لوكال زاجّيزي قد تنبأ بنفوذ الاكاديين السياسي كذلك لا بد انه قد تنبأ أيضا بسيطرتهم في كافة المجالات الفكرية الاخرى .

يجب أن تكون قد وجدت منذ فجر التاريخ السومري ، اساطير إلهية واقاصيص بطولية تصف باسلوب شعري العلاقات بين قوى الطبيعة المجسمة على شكل انسان وكذلك العلاقات بين الاشخاص العظماء والآلهة . من حقنا

أن نفترض ذلك ، اذا رجعنا الى مخطوطة من عصور متأخرة وأيضا بالاعتماد على الصور المنقوشة بعناصر فنية معروفة من فجر التاريخ ، والتي يقتصر موضوعها على اسطورة (انّين ــ تموز) • كذلك لم يقــدم لنــا الدور الاكّادي حتى الآن أية وثائق أو أية نصوص خطية تحوي ملحمة إلهية او اقصوصة بطولية • غير ان وجود مثل هذه الاساطير في هذا العصر يتضح بجلاء من نقوش عدة مجموعات من الاختام الاسطوانية التي تحمل صورا اسطورية مثل الصراع بين الآلهة ، او ذبح طائر كبير ، او تقديم انسان على شكل طائر لإله الماء الجالس على كرسي العرش او إله يحرث ••• الخ •

لا يمكن لنا أن نقول ، فيما اذا كانت النصوص الادبية التي تعالج مثل هذه الاساطير قد كتبت على شكل قصائد قصيرة عادية او على شكل ملاحم شعرية تشبه تلك التي تعود الى عصور متأخرة ، ولكن من المؤكد ان الطابع القصصي قد بدأ من جديد السيطرة على الصور الفنية عامة ، خلافا للاسلوب التجريدي الرمزي الذي سيطر سيطرة شبه تامة على الفن في عصر ميزيليم وعصر سلالة اور الأولى •

جـ ـ الفـــن

لا يتضح الانقلاب من عصر سلالة اور الأولى الى العصر الاكادي اكثر جلاء مما هو في الفن ، حتى ولو اننا لا نملك مخلفات فنية كثيرة من هذا العصر . ان ما حصلنا عليه من مخلفات فنية لم يكن من عاصمة الامبراطورية ، بل وصلنا عن طريق رحلات دراسية ، أو تنقيبات اثرية في اماكن تعد من اقاليم الامبراطورية الاكادية .

ان معلوماتنا عن فن العمارة الاكادية ليست بأحسن حظ من معرفتنا عن فن النحت الاكادي بالرغـم من تأكدنا من وجود آثار اكادية في اماكن متعددة مثل اور ونينوى وتبة كورا واشنونا . ولكننا لم نعثر حتى الآن على أي بناء ديني يمكن القول بأنه يتمتع بمخطط اكادي محض . ومع ذلك ليس لنا أن نتكهن عن الابنية الدينية الاكادية ، ما دمنا لم نكتشف بعد في زيبار مثلا أو في اكاد معبداً لشمش أو لعشتار آنونيتو . ولعله ليس من قبيل الصدفة ، بعد تلك التطورات السياسية في الدولة الاكادية ، والتي وصفت اعلاه ، أن يكون البناء الاكادي الوحيد الاصيل الذي نعرفه حتى الآن من خلال اساساته فقط هو قصر وليس معبدا ، بل والاهم من ذلك انه اقيم على انقاض معبد .

لقد اقيم هذا القصر على انقاض معبد يعود إلى عصر جمدة نصر وذلك في موقع تل براك على ضفاف نهر الخابور في الجزء الشمالي من بلاد الرافدين. انه لبناء ضخم اكتشفت اساساته فقط وهو مربع الشكل تقريبا ، وبني من اللبن الكبير المستطيل الشكل الذي يحمل دمغات من كتابات نارام ــ زِنْ الكبير . ان سوره الضخم مستطيل الشكل ، ويبلغ عرضه اكثر من عشرة امتار وله باب واحد محاط بأبراج ، وينفتح على غرفة امامية تنتهي الى باحة واسعة

يبلغ طول ضلع اصغرها عشرة امتار • وما يلفت النظر هو ان غرف القصر صغيرة المساحة بالنسبة الى مجموع المساحة العامة • ومن المؤسف اننا لا نستطيع التعرف على قاعة العرش في هذا الوضع المحزن لهذه الأطلال • وربما كان القصر الذي يحيط به هذا السور الضخم حصنا ايضا • ومع ذلك يمكن للمرء أن يفترض بأن الموقع الذي اقيم عليه القصر قد بقي مقدسا بسبب وجود المعبد الاقدم الذي اقيم عليه ، وان قصر نارام ــ زِن° كان بنفس الوقت تعبيرا عن الوهية هذا الملك حامي الامبراطورية •

يستطيع الانسان أن يلمس التحول الفني الفريد من عهد « إن ــ تيمينا » و « أ ــ انيبادّا » الى عهد زارجون الاكّادي • فبينما نرى ان كثيرا من الاعمال الفنية التي تعود الى عهده شبيهة بـ « نصب العقبان » نجد عدداً آخر منها يعبر عن الطبيعة الاكّادية الحماسية المتزنة التي تختلف عن طبيعة المجتمع السومري الزراعي الذي زخرت حياته اليومية بالاعمال الزراعية ، في حين احتفظ الاكّاديون بالعديد من صفات البدو الرحل •

لا نملك من اللوحات الاكّادية المنقوشة الا القليل ، فلدينا من عهد زارجون عدة كسر من نصب سهمي الشكل ، نحت من الحجر الكلسي ووجد في لاجاش وقد رسم عليه العديد من الاشتباكات الثنائية أثناء القتال • كما خلف لنا نارام ــ زِن° نصبا وجد في منطقة ديار بكر كان قد امر الملك باقامته هناك بعد نصر حققه في بلاد سوبارتو • وكذلك خلد نارام ــ زِن° نفسه على نصبه المشهور الذي اختطف فيما بعد ونقل الى سوزا (انظر صورة رقم ٢٦) • انه يخلد ذكرى انتصاره على قبيلة جبلية ايرانية يمكن انها كانت احدى القبائل اللولبية • اما بالنسبة الى التماثيل المجسمة فهي أقل من هذا بكثير اذ وصل الينا رأس من الحجر الرملي الابيض وجد في ادب (بسمّية) ، وتمثال من الديوريت بلا رأس ودون اطراف علوية لـ « مانيشتوزو » اكتشف في سوزا • كما حصلنا على رأس بديع الصنع ظهر في نينوى ونسب الى نارام ــ زِن° لأنه يشبه وجه هذا الملك على لوحة ديار بكر • الا

ان هذه الاعمال الفنية القليلة سواء أكانت لوحات منقوشة او تماثيل مجسمة، تكفي لأن يلمس المرء التحول الجذري ، الذي طرأ على الفن في هذا العصر ، اذا ماقورن بالفن السومري في العصور السابقة • يشكل تمثال مانيشتوزو النصفي والمشوه والمصنوع منحجر الديوريت ، الذيجلبه الحكام الاكاديون من بلاد ماجان ، حدثا جديدا وفريدا في عالم الفن ، اذا ما قورن بالتماثيل السومرية ، التي تعود الى العصور التي سبقت العصر الاكادي• اننا نرىان العذوق أو الشراريب الصوفية ، قد انتظمت على تنورة التماثيل السومرية في صفوف افقية رتيبة فوق بعضها بينما يختلف عنها تمثال مانيشتوزو بالزي الجديد الذي يتحلى به وايضا بالاسلوب الجديد الذي يمثله• ان التمثال عبارة عن كتلة حجرية من الديوريت ارتفاعها ٩٦ سم ، ينتصب على قاعدة لا تظهر عليها اقدام التمثال : يلتف النصف السفلي من الجسم ، الذي يبدو وكأنه المخروط ، بجلباب مشرئب يحزمه في الوسط حزام سميك • من المدهش حقا ، أن يستطيع الفنان بعث الحياة في هذه الكتلة الحجريةالجامدة باظهاره التجعدات المائلة على سطح الثوب والتي تنساب من اعلى الى اسفل وكأنها تموجات مائية رقيقة • وبهذا يبعث في نفس المشاهد انطباعات يجعله يعتقد وكأن الملك قد ادار بجسمه لتوه وان الثوب لم يعد الى وضعه الطبيعي بعد • لهذا تبدو هذه الحركات الانيقة الخفيفة مخالفة لكل التماثيل السومرية الجامدة ، التي يسيطر عليها التوتر والحملقة • (انظر صورة رقم ٢٧) •

تسيطر الروح الثورية التياودت بنفسها الى الهلاك على نصبنارام ــ زِنْ الذي امر هذا الملك باقامته في الاصل في مدينة زيبار تخليدا لذكرى انتصاره على القبيلة الايرانية الجبلية المسماة بـ « اللولبية » (انظر صورة رقم ٢٦) • لقد فعل إي ــ اناتوم مثل هذا من قبل عندما اقام نصبه الذي يسمى بنصب العقبان • غير ان الاختلاف بين النصبين لا يبدو واضحا من خلال المظاهر الخارجية من لباس وتسليح فحسب ، بل ايضا من هدفالقتال ، الذي يجري هناك في سبيل إله وتحت اشرافه بينما تغيرت على نصب نارام ــ زِنْ

ليصبح من فعل انسان بطل نصف إله • لقد نظر الفنان الذي نحت نصب نارام ــ زِنْ الى عمله بمنظار جديد • فهو لم يحاول ابــدا اعادة تمثيل مراحل المعركة وترتيبها الى جانب بعضها ، بل اختار حدثا واحدا من الاحداث الكبرى ، اختار اللحظة التي وضع فيها الملك قدمه على الاعــداء الصرعى وصوب سهمه الى آخر ولكن دون أن يطلقه عليه لأنه استسلم وطلب العفو • يتبع الملك ، الذي ترتفع قامته على جميع القامات ويسمو فوق كــل شيء متسلقاً بسرعة اعلى ممر في الجبل يقع تحت اعلى قمه ، يتبعه جنوده الذين يتسلقون الجبل بسرعة ايضا في صفوف مائلة اعيد تمثيلها على اللوحة بنقش بارز • فبينما يحاول السومري ضبط تيار الاحداث ضمن شبكة هندسية نجد النحات الاكادي وقد تركها تمر علينا سريعة لتحتشد ضمن اطار يجمع بينها مؤلفة منظرا موحدا •

لو كنا نملك الكثير من اللوحات المنقوشة الاكادية لربما قد لاحظنا ايضا التبدل الذي طرأ على اختيار عناصر الصور • وهكذا يجب علينا أن نستنتج من لوحة منقوشة واحدة ، وجدت في اشنونا ما نستطيع معرفته من الفنون ذات الحجوم الصغيرة وبصورة خاصة من فن صنعها والنقش عليها درجة عظيمة من الرقي بلغه هذا الفن في هذا العصر: وذلك بأن اساطير الآلهة زخرت لأول مرة في العصر الاكادي بمواضيع جديدة متعددة ، على شكل لم يعهده تاريخ الشرق الأدنى الذي سبق الدور الاكادي أو أعقبه • وربما كانت الاختام الاسطوانية بالذات ، هي التي ترينا اكثر من أي شيء آخــر التباين بــين السومريــين والاكاديين خاصة وانها من الاعمال اليدوية الصغيرة ، التي ترتبط ارتباطا وثيقا بتفكير وشعور كل فرد • لقد استمرت في الواقع تلك المواضيع التي كانت تسود نقوش الاختام السومرية ، مثل مجلس الشراب الذي يرمز الى الاحتفال بعيد رأس السنة والاشكال المتشابكة التي ترمز الى تموز المقاتل في العصر الاكادي ايضا • ولم يكن الاعتقاد باتّين ــ تموز قد اختفى كذلك بعد من الشعور الديني عند الناس • وكما سبق وذكرنا قبل قليل ، استنتجنا من

منظر إله الشمس وهو يصعد من العالم السفلي بين الجبال ويحمل بيده المنشار ، على انه يجب أن يعني دمج عبادة تموز مع عبادة شمش إله الامبراطورية • ويدل تمثيل العبّاد ومقربي القرابين العديدة المقدّمة منهم الى الآلهة المتربّعة على العرش على ان تقديس آلهة الدولة الرسمية قد اخذ ينتشر بين الناس ، ويحتل مكانة أهم من ذى قبل •

وعلى كل حال ، تسمح لنا بقايا حطام التماثيل ، واللوحات المنقوشة مع مجموعات الاختام الاسطوانية التي وصلتنا من الدور الاكّادي ، الذي دام ما يقرب من قرنين ، أن نقول بأن الفن الاكّادي الذي لم يقض على التقاليد المقدسة الموروثة قد احتل مكانة خاصة مبدعة في عالم الشرق الأدنى • انه اطال القيود القصيرة التي كانت تضم عناصر الصورة الى بعضها فى العصور السومرية التي سبقته ، تلك العناصر التي اضحت بالتدريج جامدة فاقدة الحيوية • انه فعل ذلك ليخلق المكان الملائم للتعبير عن افكاره باسلوبه الخاص ، ولكن دون أن يؤدي ذلك الى الاستغناء عن محاسن الاطار الذي يوحد الشكل • لقد عاشت المواضيع الفكرية عندهم ، اتساعا عظيما بسبب غزوهم عالم اساطير وملاحم الآلهة لاعتمادهم بالتأكيد على المصادر السومرية التي دخلوا معها لأول مرة ميدان السبق • لقد نافسوا النتاج الشعري الأسبق الذي يُفترض وجوده ؛ وهذا بدوره يقدم لنا اليوم افضل برهان على رد الفعل الفكري الشديد العام ، ضد الحياة الدينية المتزايدة ، كما عرفناها متمثلة في القبور الملكية لعصر اور الأول •

وكما ان الفن الاكّادي قد ارتقى بسرعة الى القمة ، كذلك اختفى ايضا بمثل تلك السرعة دون أن يترك خلفه ــ مع الاسف ــ الا القليل من افكاره والقليل من قواعد اسلوبه في تباعد عناصر الصورة ولكن ضمن اطار جامع موحد •

د ـ انهيار الامبراطورية وحكم الجوتيين الدخلاء

كانت نهاية الامبراطورية الاكادية ، كنهاية النار المستعرة، التي لم تعد تغذى بالوقود. لقد انتهت هذه الامبراطورية عندما لم يتوفر لها حكام اقوياء متحمسون يعرفون كيف يحافظون عليها . وحينما ترك نارام ـ زِن° الجبار ، الملك الإله ، الامبراطورية لولي عهده وخلفه شاركاليشاري ، كانت جميع معالم الحياة في بلاد ما بين النهرين قد تغيرت تماما . ففكرة تأسيس امبراطورية عالمية ، التي حاول لوكال زاجيزي تحقيقها لأول مرة ليتسنى له التغلب على المصاعب الداخلية والخارجية ، التي كان يعاني منها العالم السومري ، كانت قد اتخذت لها شكلا عظيما في هذا العصر . كذلك لم نعد نسمع شيئا عن حلول للمعضلات الاجتماعية التي عانى منها هذا العصر ، تلك المشاكل التي سبق أن ركز عليها اورو كاجينا عظيم اهتمامه . لقد كانت المحاولات جزئية وربما كان يعود ذلك للتركيز على عملية اصلاح جهاز الدولة التي طغت على مشاكل سوء الاحوال الاجتماعية . الا ان السبب الرئيسي والاكيد كان يكمن في تعلق الحكام بمفاتن وشهوة حب السيطرة على العالم بحيث تراءت لهم تلك المعضلات الداخلية كأمور ثانوية . لقد وجد شاركاليشاري نفسه مجددا يجابه مهمة توحيد وصهر الامبراطورية بالوسائل الحربية . بالرغم من ذلك فقد بدا له بأنه لن يوفق مع مرور الزمن في كبح جماح المناهضات الداخلية والخارجية كذلك لم يكن يوجد عند وفاته مباشرة وريث شرعي له . وهكذا بقيت البلاد ثلاث سنوات في حالة من الفوضى والاضطراب الى أن تمكن احد الحكام من تثبيت اقدامه . وهكذا وجب على ابن شاركاليشاري أن يكافح طويلا ضد سومر ، التي ارادت ثانية أن تستعيد استقلالها . غير انها لم توفق في الواقع الا بتأسيس سلالة حاكمة ضعيفة في اوروك

لم تكن مؤهلة مطلقا لتولي مهـام الامبراطورية الاكادية وتحقيق حـكم موحد وشامل فيها •

وهكذا لم يعد بالامكان وقف مسيرة المصير المحتوم الذي كان يخيم كالغيوم الدكناء في سماء العـالم السومري ـ الاكادي ، بالرغم من ان نارام ـ زِ زن كان قد جنب البلاد خطر وقوعها عندما انتصر على قبائل اللولبيين الجبلية واقربائهم المتحالفين معهم في غربي ايران •

لم يرافق أية من الهجمات العديدة التي تعرضت لها بلاد ما بين النهرين ، سواء من الشمال أو من الغرب أو من الشرق تلك الزحوف البربرية المخيفة التي لازمت غزو الجوتيين ، الذين كانوا في عداد تلك القبائل نصف الوحشية ، التي كانت تقطن مثل اللولبيين جبال زاغروس في منطقة لورستان الحالية • لقد وُصفوا فيما بعد كما ورد في احدى كتابات الشعوب المقهورة : « تنّين الجبال الذي اغتصب من الرجل زوجته ، ومن الوالدين اطفالهما ، والذي نقل المَلَكية من سومر الى الجبال » • لقد ظلوا ايضا في اذهان الأجيال القادمة كمخربين ومدنسين للمعابد • لقد احرقوا اوروك عاصمة السلالة السومرية الحاكمة آنذاك دون أن يلحقوا على ما يبدو الضرر الشديد بالمدن السومرية الجنوبية الاخرى ، كما فعلوا في المدن الاكادية الشمالية حيث نهبوا من زيبار تمثال انونيتو ـ عشتار المحاربة •

لقد تمكن هؤلاء الدخلاء من اغتصاب الحكم في البلاد لمدة من الزمن • فكتب ملوكهم بالاكادية ، وكانوا يسمون انفسهم « ملوك الجوتيين » أو ايضا « ملوك الجوتيين وملوك جهات العالم الاربع » ليبرهنوا بذلك على انهم خلفاء حكام العالم الاكاديين • اننا لا نعرف شيئا عن لغة او عرق او التنظيمات السياسية لهذا الشعب ولا حتى عن وضعه الاجتماعي • كما اننا لا نستطيع أن نستنتج حتى ولا من بعض اسماء ملوكهم أي شيء يدل على اصلهم • لقد نذر ملكهم « لازيراب ؟ » دبسة قتال وارسلها الى زيبار وهي تحمل

كتابة تذكارية جاء فيها : « إن إلهي الجوتيين هما عشتار وزِن » ، وهذا يعني ان الجوتيين كانوا يعبدون بصورة رئيسية إلهين كانا على الاكثر شبيهين بعشتار وإله القمر •

لقد كانت مخلفاتهم الاثرية ، اقل بكثير من مخلفاتهم الكتابية • فهناك عدد من الاختام الاسطوانية ذات الاسلوب المنحط ، الذي حوّر الطريقة الاكادية ، التي اعتمدت قولبة الاجسام وابرازها عند نقشها على الاختام الاسطوانية ليتبع الاسلوب التخطيطي البحت ، كما اتصفت مواضيعها بالفقر لمدقع بحيث اصبح كل هذا علامة فارقة للاختام المنسوبة الى الجوتيين •

لقد رأى المرء احيانا في تمثال اورربابا مؤسس سلالة انزي الجديدة في لاجاش انه نحت على اسلوب الجوتيين وذلك بسبب عدم الدقة والعناية في الانجاز ، كما رأى المرء أيضا ان التغيير الذي طرأ على الملابس في العصر الذي اعقب العصر الاكادي وظهر فيه رداء جديد يشبه العباءة ، وقبعة من الفرو انما كان بتأثير من الجوتيين ايضا • غير انه لا يمكن البرهان على كل هذه الاشياء بسهولة ، لأن تمثال إن ــ تيمينا الذي وُجد في اور ، والذي يعود الى عصر ما قبل الجوتيين لا يُعد من ناحية اسلوب نحته اقل رداءة في الصنعة من تمثال اورربابا الذي وجد في لاجاش • ولقد شاع من ناحية اخرى أيضا استعمال العباءة وقبعة الفرو في الجنوب السومري بصورة خاصة ، في الوقت الذي بقي فيه هذا الجنوب بعيدا عن التأثير الجوتي •

وما من شك في ان البلاد الجنوبية الواقعة على الخليج والتي هي بلاد سومر الحقيقية ، قد رفضت بحزم البربرية الجوتية الا انها كانت حليفة الجوتيين ضد الاكاديين • لقد كان على زارجون قهر آلهة السومريين في عقر دارهم ، أي سحق وكلائهم في عواصم الدويلات القديمة الممثلة بالانزي واللوكال ، والذين كانوا يتمتعون بالسلطة والاستقلال حتى يتسنى له تحقيق هدفه الاكبر • اما الآن فقد عاد هؤلاء الى الظهور والذين كانوا القوة المحرضة

لتلك الثورات المتعددة ضد الحكم الاكادي • لقد كانوا هم الاعداءالداخليين للامبراطورية الاكادية • وهذا هو السبب الذي جعل اوروك تنجو من الحكم الجوتي وتبقى سالمة تقريبا من اعمالهم الوحشية •

ولكن عندما خفت حدة النزاع بين الامبراطورية الاكادية الموحدة وبين حكام المدن السومرية ، لم يعد بالمستطاع تجنب وقوع النزاع بين الجوتيين وحكام مدن الدويلات السومرية • لقد أدى هذا النزاع في النهاية وبعد قرون من الزمن الى طرد الحكام الدخلاء والى يقظة السومريين من جديد • وهكذا بقيت الحقبة الجوتية دون نتائج ايجابية بناءة على الاقل كما تتراءى لنا ضمن الاطار العام لتاريخ الشرق الأدنى القديم • غير ان هذه الحقبة كانت في الواقع فترة من تلك الفترات الضرورية التي تحاول فيها الشعوب تجميع قولها من اجل يقظة جديدة •

أن السومرية لم تكن في عصر هذه اليقظة الجديدة وعلى الاخص في عهد سلالة اورنامو المسماة سلالة اور الثالثة ، لم تكن سوى قناع أو غطاء ديني سياسي يتستر به التحول الفكري والعضوي الذي شعر به كل انسان • اما الاكادية نفسها التي تخطت الآن محنة الغزو الجوتي ، فقد رأت نفسها من جديد امام خطر مجموعات بشرية جديدة ، اي امام خطر تسلسل قبائل سامية من بني جلدتهم قادمة من الغرب وغريبة عن النظام الاجتماعي الاكادي ـ السومري ، لأنها كانت لا تزال متعلقة بنظم الحياة القبلية البدوية •

لم تتحقق امبراطورية زارجون العالمية بصورة فعلية الا بعد احتلاله لبلدان الاموريين • ففي هـذا العصر سعى الساميون الغربيون بادئ الامر الى تقويض الامبراطورية بتطوعهم في الجيش كمرتزقة • وبعد ذلك بنى حفيد اورنامو المسمى شو ـ زِنْ جداراً آموريا ليحمي البلاد المتحضرة من غزوات البـدو •

لقد نعمت في البدء الامبراطورية الاكادية ـ السومرية بالاستقرار النسبي مدة قرن من الزمن ، تمكنت خلاله من القيام بمنجزات شهدت ازدهارا ظاهرا ليس من الذاتية في شيء وذلك كما هو الحال غالبا في آخر مراحل تطور كل حضارة •

لقد حاول هذا العصر بقيادة اورنامو أن يكتفي بامبراطورية تضم عدا سومر واكاد شمال بلاد الرافدين وأجزاء من عيلام دون أن يتبنى اية فكرة خلاقة • حيث ان هذا العصر كان منهوك القوى من جراء التوترات الداخلية التي دامت قرون عديدة ومن جراء الهلع الذي سيطر علي بشره نتيجة حكم الدخلاء ، كذلك تحاشى هذا العصر كل انواع الفتوحات الكبيرة • وفي عهد ابنه المسمى شولجي ، والذي دام نصف قرن من الزمن لم تتوسع حـدود الامبراطورية وإنما اتجهت النية مجددا في الواقع لاعادة امراء المدن المستقلين الذين تمتعوا بقوة عظيمة في ظل اليقظة السومرية ، الى مراتبهم كموظفي

الفصل الخامس

اليقظة السومرية

آ ـ الاحداث السياسية

لقد تمكن احد امراء اوروك المسمى اوتوشيكال من قهر الحكام الدخلاء بعقده العزم على مهاجمة آخر ملوك الجوتيين المسمى تيريجان فهاجمه في الشمال وهزمه في المعركة وأخذه اسيرا مع زوجته وابنه بعد أن تخلى عنه جيشه المهزوم . اننا لا نعرف فيما اذا كان الاكاديون قد وقفوا الى جانب اوتوشيكال الذي لقب نفسه دوما بملك سومر وملك جهات العالم الاربع محاولا بذلك اثبات حقه في ارث زارجون ونارم ـ زِن° . اما ماحدث لاوروك في هذه المرة فيشبه ما حدث لها في عهد لوكال زاجّيزي عندما كادت أن تصبح عاصمة ومركزا لحكومة الامبراطورية العالمية . اذ عندما بدأ اوتوشيكال في تحقيق هدفه انتزع منه زمام القيادة . وبعد أن « داس اوتوشيكال على رقبة الجوتيين واعاد الحكم والقوة الى السومريين » بوقت قصير فشل معه مجددا النظام السومري الاتحادي القديم : فاورنامو أمير اور الذي دعى في اولى كتاباته من اجل حياة اوتوشيكال ملكه الاكبر ، انتفض الآن ضده ونصب نفسه حاكما على سومر واكاد . ولقب نفسه « البطل القوي ، ملك سومر واكاد » . من الممكن أن يكمن في هذا اللقب السبب الذي ادى الى الاطاحة باوتوشيكال الذي حاول التعصب الى السومرية واعطائها مركز الصدارة ، على عكس اورنامو الذي هدف الى ايجاد توازن بين الشمال والجنوب أي بين اقليمي سومر واكاد . لم يعد باستطاعة المرء أن يدعي ايضا وجود تضارب بين الاكاديين والسومريين في هذا العصر وذلك

الملك • وبنفس الوقت ارتقى ملك الملوك ، حسب المفهوم الاكَّادي لسلطة حكم العالم ، الى مرتبة الآلهة وخص لنفسه الكهنة والمعابد • الا ان المرء لا يستطيع أن يخفي شعوره ، بأن هذا الوضع لم يكن الا ضرورة اقتضتها طبيعة الارث ، ولم يكن نتيجة للحاجة الداخلية الملحة • وفي ظل عهود خلفاء شولجي الثلاث امار ــ زِنْ وشوــ زِنْ وأبِّيــ زِنْ ، الذين حكموا باجمعهم مدة تساوي مدة حكم شولجي تقريبا ، بقيت الملكية الإلهية وامبراطورية جهات العالم الاربع قائمة شكليا فقط ، وأخذت هذه التعابير تبتعد شيئا فشيئا عن محتواها الواقعي، حتى اقتيد في النهاية أبِّي ــ زِنْ مكبلاً بالأغلال الى سوزا نتيجة نزاع نشب مع عيلام•وبهذا انتهت الامبراطورية السومرية ــ الاكَّادية وانتهت آخر محاولة سومرية لتسلم القيادة السياسية في الشرق الأدنى وذلك على شكل مسرحي محزن • لم يكن سقوط سلالة اور الثالثة وامبراطوريتها ، كسقوط الامبراطورية الاكَّادية العالمية ، لأنه لم يتوفر لها حكام ابطال ، بل لحرمانها من قوة الدفع الذاتية البناءة•ففي حوالي عام ٢٠٠٠ ق•م تقريبا ، وبعد انقضاء الف عام تقريبا على قيام اول حضارة سومرية ، اختفت تلك القوة السياسية عن المسرح نهائيا وبقيت منجزاتها الحضارية تؤثر في غيرها قرون طويلة • ولم تكن مساهمة عصر اليقظة السومرية عند نهاية الألف الثالثة ق•م في كثير من الجوانب اقل من مساهمة العصور السومرية المبدعة لفجر التاريخ في ارساء قواعد هذا التأثير • فكثير من المنجزات قد اكتملت أو انتهى تسجيلها أو تنقيحها في هذا العصر • ولولا هذا لم يكن لها أن تحظى بتلك الاهمية البالغة ، حتى اننا اليوم كثيرا ما نحكم على ظواهر تتعلق بالتاريخ السومري بالاعتماد على مستندات من هــذا العصر المتأخر لليقظة السومرية المتميز بغناه الحضاري من النواحــي الادبية والعمرانيــة والفنية • اذ يوجد الى جانب المخلفات الحضارية في العاصمة اور وغيرهــا من المباني الملكية في المدن الاخرى ، تلك المنجزات التي حققتها سلالة الانزي المجددة في لاجاش منذ عصر الجوتيين •

حتى قبل تأسيس الامبراطورية السومرية ـ الاكادية في عهد اورنامو ملك اور ، وبنفس الوقت الذي وصل فيه الجوتيون الى السلطة في الشمال الاكادي دون أن يتمكنوا من اخضاع الجنوب السومري كله لسلطتهم لا بد أن تكون السومرية في لاجاش قد تحررت • وبعد أن جرى بالتأكيد تعيين العديد من امراء المدن السومرية الجنوبية كموظفين من قبل الملوك الاكاديين اصبح اوربابا من جديد انزيا بكل معنى الكلمة : لقد احصى في كتاباته المنقوشة على تمثاله المعابد التي اقامها تكريما لآلهة المدن والاقاليم القدماء • وهكذا بنى معابد لنينجرسو إله المدينة ولنينخور زاج ام الآلهة ولبابا واتين إلهتي الأمومة المتشابهتين ولايا وغيرهم من الآلهة الاقل منزلة • لم يرغب الحكام السومريون في هذا العصر المتأخر أن يكونوا ابطالا محاربين كالملوك الاكاديين أو كبعض انزيي لاجاش القدماء ، بل كان اسمى هدف يسعون له هو تسمية انفسهم بـ « بناة المعابد » • وكان اكبر بانٍ للمعابد المقدسة من بينهم (هو جوديا) ، اكبر انزيي مدينة لاجاش الجدد ، والذي جلس على عرش لاجاش بعد أن اعتلى العرش اثنان أو ثلاثة من خلفاء اوربابا الضعفاء ؛ ولربما كان جوديا مغتصبا للعرش او صهرا لاوربابا • لقد خلف لنا كثيرا من تماثيله الكثيرة وكتاباته المفصلة بحيث جعلته اكثر الحكام السومريين وضوحاً لنا • يجب أن يقع حكمه الطويل ، الذي دام عشرات السنين في المدة ما بين نهاية حكم الجوتين وبداية حكم سلالة اور الثالثة تقريبا • فعلى الصعيد السياسي لا بد وأن يكون جودياً وحده المستفيد من العداوة اللدودة بين الاكاديين والجوتيين ، ويبدو ان ابنه اورنينجرسو قد خضع من جديد لملك الملوك في مدينة اور •

لقد كان الدافع لبناء المعبد عدم حدوث الطوفان الموسمي الذي يبعث الخصب في الارض في ربيع كل عــام : « لم يرتفع ماء الطوفان ولم يظهر كالمعتاد في مدينتي • لم يسطع الماء العالي ولم يثر بريقه • لم يجلب طوفان إنّيل الماء الجيد كالدجلة • يجب أن ينبىء الملك المعبد (إي ــ نينئو) بأن تعليمــاته يجب أن تراعى في السماء وعلى الارض » • هكذا تكلم نينجرسو إله لاجاش ووالده إنّيل ملك الآلهة والذي يحدد الاقدار • في الفاقة يقدم جوديا قربانا ويبتهل الى ملكه نينجرسو •

« أمره هذا ليبني له معبذه : وجّه عينه الى إي ــ نينئو صاحب الاقدار العظيمة • جوديا الذي لا تدرك قرارة قلبه شكى هكذا : خير ، أريد التكلم هذه الكلمات أريد أن اطرحها • انا الراعي ، قدمت لي السلطة كهدية ، أتاني عند منتصف الليل شيء في الحلم • لا أعرف معناه • اريد أن أقول حلمي لأمي • عسى أن تؤوله مفسّرة الاحلام ، التي تعرف سريرتي ، وعسى أن تخبرني معناه إلهتي نانشي » •

غير ان الإلهة نانشي لم تستطع ركب القارب ، لأن القنال التي تؤدي الى مدينتها قد نضب ماؤها • لذلك عاد جوديا الى نينجرسو مع الرجاء التالي :

« محارب ، حيوان كاسر لا مثيل له ، نينجرسو ، انت الذي تحت الارض انت امير نيبور ، محارب ، أي الاوامر يجب ان انفذها باخلاص ! نينجرسو معبدك سأشيده ، التعليمات سأنفذها ، أترغب أختك ، ... الملكة المفسّرة لدى الآلهة ، أترغب إلهتي نانشي أن تضع القدم في قاربها ؟ » •

استجاب نينجرسو لجوديا الذي ادار وجهــه ايضا الى الهة لاجاش جاتوم دوج • وبعد أن قدم قربانا في مخدعها افصح عن الابتهال التالي : « ملكتي ، ابنة السماء الصافية انتِ ، يامن تنصحين الاتقياء ، أنتِ ، يامن تحتلين المرتبة الأولى في السماء ، انتِ ، يا من جعلت الارض حية ، أنتِ ، الملكة ، الأم ، يا من أسستِ لاجاش • والشعب الذي تشملينه بنظراتك فانه

يزخر بالقوة ، والتقي الذي تنظرين اليه ، ستطول حياته . ليس لي أم : أنتِ أمي . ليس لي أب : أنتِ أبي ... ولدتني في المعبـد . يا إلهتي جاتوم دوج ، أنتِ لك معرفة كل المحاسن... عندما اذهب الى مدينة نانشي، هكذا يذهب امامي الى هناك ، المقرَّب اليك اوتوكُّو ، يقتفي أثري المقرَّب اليك لامازو . خير أريد التكلم ، سأطرح هذه الكلمات ، أمي سأسرد لها حلمي ، أترغب مفسرة الاحلام ... ان تفسره لي » .

استجابت جاتوم دوج لابتهال جوديا ايضا ، ولذلك ذهب الى نانشي في محلتها ووجه اليها الرجاء التالي :

« يا نانشي أنتِ يا ملكة ... يا سيدة الأحكام القيمة يا ملكة ، التي كـ « إنّيل » توزع الحظوظ ، نانشي يا من أنتِ لي ، كلمتك موثوقة ... أنتِ مفسرة الاحلام عند الآلهة ، أنتِ ملكة البلدان . يا والدة مفسرة الاحلام، في حلمي أمرني رجل ، تبلغ قامته السماء ، وتبلغ قامته الارض ، الذي هو حسب تاج رأسه إله ، وكان الى جانبه الطائر الإلهي الامدوكود ، وتحت اقدامه اعاصير ، ويربض الى يمينه والى يساره أسد ، أمر أن ابني له بيته : لم اعرفه . ارتفعت الشمس من الارض . انها انثى تُرى من هي ! من هو ليس هي ؟ ــ تمسك باليد قرطاساً ، تحمل رقيـم نجوم السماء الطيبة ، تحمل النصيحة بنفسها . رجل ثاني كالمحارب : يحمل في يده لوحا من الحجر الأزرق ، رسم مخطط بناء معبد كانت موضوعة امامي النقالة النظيفة ، وضع فوقها الآجر : لقد كانت آجرة القدر بهذا الشكل ، حمار كان مطروحا على الارض الى يمين ملك . لقد اجابت الانزي امه نانشي : يا راعيَّ ، حلمك سأفسره لك : الرجل ، الذي تبلغ قامته السماء ، وتبلغ قامته الارض ، الذي كان حسب رأسه ، إلهاً وكان الى جانبه الطائر الإلهي الامدوكود ، على اقدامه اعاصير ، والى يمينه ويساره اسد رابض ، انه لأخي نينجرسو : هو الذي امرك لتبني بيته إي ــ نينتُّو . الشمس التي ارتفعت من الارض امامك فذلك هو الهك الخاص نينجيزيدا : الذي يرتفع كالشمس من الارض . الانثى

ب ـ جوديا راعي نينجرسو المتـوج

تلقي الكتابات التي خلفها جوديا وحدها الاضواء على مشاعر هـذا العصر المنهك من جراء المنازعات الداخلية والخارجية • لقد نقش جزء من هذه الكتابات على تماثيله الواقفة والجالسة والمصنوعة من حجر الديوريت او من حجارة اخرى والتي وضعها في المعابد التي بناها اوجدها لآلهةمختلفة، رمزا لابتهاله اليهـا سعيا وراء العيش الطويل (انظر صورة رقم ٢٨) • وتعتبر جميع كتاباته التي نقشها على ما يسمى بـ « اسطوانات البناء » أي على اجسام طينية اسطوانية الشكل ، او بالاحرى برميلية الشكل ، كانت توضع في اساسات المعبد ، تعتبر بالنسبة لنا حتى يومنا هذا اغنى واكثر الكتابات تفصيلا واقدمها نصوصا باللغة السومرية التي لا تتمتع بقيمة تاريخية وحسب بل باهمية ادبية بالغة ايضا •

لا يمكننا وصف منجزات وطبيعة هذا العصر المسالم نسبيا ، الا بالاعتماد على كلمات جوديا ، حول انشاء واتمام المعبد الرئيسي في لاجاش المسمى معبد إي ـ نينثو للاله البطل نينجرسو سيد المدينة • لا تعتبر كلمات جوديا تاريخا شخصيا له ، بل اننا نرى فيها ان المجتمع بأكمله كبـاني معابد قد سخر لخدمة الآلهة • ان ما يقرب من مائتي الف انسان كانوا تحت رعاية جوديا المتوج راعي نينجرسو ملكه • لقد كان عمل هؤلاء ، بغض النظر عن امر تدبير شؤون حياتهم من مأكل وملبس ، لا يتعدى اشادة الابنية الكبيرة للآلهة وللكهنة ، وحفر اقنيتهم وبناء السفن والعربات المقدسة ، ونحت التماثيل والنصب للمعابد وجلب مواد البناء من بلدان سيدة ، هؤلاء البناة الذين مهد نينجرسو لهم الطريق ، من أعلى الى اسفل ، لأجل جوديا ، وذلك كما ورد في النصوص •

الفتيـة التـي تحمل بيـدها اداة الكتابة ورقيـم النجـم الطيـب ، والتي تحوي في ذاتها النصيحة هي اختي نيزابا : اوحت لك بالنجم الصافي لبناء المعبد . الرجل الثاني ، الذي يحمل في يده لوحا من الحجر الازرق هو نين ـ دوب : رسم مخطط المعبد ... الحمار الذي يستكين الى يمين ملكك ، هو انت : في إي ـ نينئو ... تستكين على الارض . (تطلب) من الخدم التنظيف ، وفي حي جرسو في بيت خزينته لاجاش ستضع قدمك : انزع الاختام عن كنوزك ، اخرج الخشب منها ، اصنع عربة لملكك ، وشدها الى الحمار . زيّن هذه العربة بالمعادن النقية والحجارة الكريمة . يجب أن تلمع السهام في الجعبة كالنهار ... جهز بيرقه المحبوب ، واكتب اسمك عليـه . قيثارته المحبوبة ... آلة نصائحه الرنانة والمشهورة ادخلها الى المحارب ، الذي يحب الهبات ، الى ملكك ، السيد نينجرسو ... كلماتك الصغيرة ، سيتقبلها منك كالكلمات الفخمة . السيد الذي لايدرك قراره ككبد السماء . نينجرسو بن إنّيل ، سيعطيك الرحمة . سوف يوحي لك بمخطط معبده ، المحارب ، الذي تكون قراراته عظيمة ، سيباركك ... لقد كان الراعي الشرعي جوديا حكيما : وحنى رأسه باجلال للكلمات التي لقنته إياها نانشي » .

لقد اخرج جوديا بعد ذلك الاخشاب الضرورية من مخزنه وصنع العربة ، وربط الحمار في مقدمتها . لقد صنع البيرق وحفر اسمه عليه . كما أمر بصنع القيثارة ، ثم جلب الهدايا الى معبد نينجرسو . وأخذ يذهب الى المعبد في الليل والنهار . ذبح الحيوانات وأحرق الاخشاب ذات الرائحة العطرة في مواضع الرعب ، أي اماكن المحاكمات التي يرى منها نينجرسو البلدان . ويسجد أخيرا أمام الإله ويردد الابتهال التالي ليأذن باشارة البدء في بناء المعبد .

« يامليكي نينجر سو ، ياسيد ، الذي يوقف المياه الصاخبة ، ايها السيد المقدس الذي خلق من الجبل الكبير (إنّيل) ، الشجاع ، الذي لا يخاف ، يانتجرسو ، أريد أن ابني لك معبدك . لم تعط لي اشارتي . يا أيها البطل انت تتنبىء

ما تفعله الاخطار ، ابن إنّيل ، السيد نينجرسو ، انا لا اعرف القصد من ذلك انك لتصعد مرتفعا كاعماق البحر وامواجه العاتية وتنتصب صلداً كشجرة الـ « اوشو » وتزداد كالماء الفوار ••• وتجتاح بلاد الاعداء كالاعصار • يا مليكي قلبك كالماء الفوار ، الذي لا يسترخي ، يا بطل ، انت ككبد السماء لا قرارة له • ابن إنّيل السيد نينجرسو ، انا ! ماذا اعرف أنا ! » •

وهنا يعِد نينجرسو جوديا أن يعطيه الاشارة حيث ستترنح السماء أمام معبده وسيغطي الضياء البلدان • ويعطي نينجرسو جوديا الامر بالتفصيل ، وكيف يجب عليه أن ينفذ بناء جميع حجرات المعبد ، ثم يتابع فيقول : « في اليوم الذي يضع فيه الراعي الشرعي جوديا يده الطاهرة على إي ــ نينثو ، على معبد مملكتي ، ستنبىء ريح في السماء بالأمطار : بعدها يجب أن يأتيك من السماء الخير الفائض ويجب أن تغمر البلاد بهذا الخير • وعندما توضع اساسات معبدي ، عندها يجب أن يأتي الخير الزائد • لتنبت لك الحقول الكبيرة الغلال ، او لترتفع مياه الاقنية والسواقي • لتنبع المياه من شقوق الارض • لتصب الزيوت بوفرة في الصيف ، وتتزان الصفوف بزيادة فائضة ••• في اليوم الذي يضع فيه الـ « انزي » يده الطاهرة على معبدي ، سأضع قدمي على الجبال ، على المكان الذي يقطنه الاعصار ، من موطن الاعصار من الجبال ، من المكان الطاهر ، سأرسل لك الريح ، التي ستبعث نفس الحياة في البلاد » •

لقد بلغ مضمون الكتابة الذروة الحقيقية بوعد نينجرسو هذا وانتهت صيغته ايضا •

يصف الجزء الثاني من هذه الكتابة تنفيذ الامر الإلهي من قبل جوديا وسكان المدن • وانتهت المنازعات بين الناس وبين الأم وابنها ، وبين السيدة ووصيفتها ، ونظف جوديا المدينة من الاشواك والاعشاب البرية وجلس صندوق الآجر المقدس • لقد تصاعد دخان القرابين ، ورفعت الدعوات في

الليل والنهار . وقدّمت النذور السخية للآلهة . واحضرت مواد البناء من عيلام ومن بلاد الشام ومن مصر . ولقد جهز جوديا الآجرّ ورسم مخطط البناء ، وكرس جهده وفكره لاتمام بناء المعبد حيث ساعدته بذلك الآلهة . اقام جوديا سبعة نصب في بوابات وساحات المعبد ، ووجد بعضها في حالة يُرثى لها . لقد ذكر في الكتابة كل شيء عن الحجرات وأثاثها الثمين . لقد غطى بريق إي ـ نينثو البلدان كالمعطف .

يصف نقش على اسطوانـة طينية ثانية لجوديا دخول الإله نينجرسو معبده ، وتنصيب مختلف الكهنة وموظفي المعبد ، وأخيرا يحتفل نينجرسو وبابا بعرسهما « طوال سبعة أيام تساوت الوصيفة مع سيدتها ، وسار العبد وسيده جنبا الى جنب ؛ في المدينة جلس الاقوياء والضعفاء جنبا الى جنب ؛ تحولت الكلمات السيئة من على اللسان البذيء الى كلمات طيبة وأُبعدت الشرور عن المعبد ... لم يعتد الغني على اليتيم ... لقد شعت الشمس العدالة ».لو كانت التماثيل ـ واقفة أو جالسة ـ في الشرق القديم صورة طبق الاصل عن أصحابها ، كما كانت عليه الحال في الفن الروماني مثلا أو الفن الاوروبي منذ القرن الرابع عشر ب.م ، لعرفنا ملامح جوديا وشكل وجهه أكثر من أي انسان شرقي آخر . وهكذا فان تماثيل جوديا العديدة التي وصلتنا والمصنوعة من حجر الديوريت أو الالباستر ، هي أقل من أن تكون مشابهة لهيئته الحقيقية ، وانما تعكس تجسيدا لتوسل جوديا للآلهة وخاصة نينجرسو طمعا في اطالة حياته . لا تحمل تماثيله نقوشا كتابية تشهد فقط على جليل أعمـاله في خدمة الآلهة طمعا في الحيـاة الاطول ، بل تحوي أيضا جملا تفسيرية لأسماء مثل : « لقد بنيت لمليكي معبده ، فليكن أجري الحياة » أو « السيدة ، البنت المحبوبة للسماء الطاهرة ، الأم ، الإلهة بابا ، التي أهدت جوديا الحياة في معبدها » . ان أكبر تماثيل جوديا ترينا هذا الانزي جالسا كباني للمعابد المقدسة ومعه على حضنه المخطط والذراع والاوتاد حيث يشبه بذلك بناة كنائسنا في العصور الوسطى الذين يحملون في أيديهم مجسما للكنيسة المراد تشييدها . فكيف يرسل نينجرسو الرياح الماطرة التي ستبعث

الحياة ، كما يُذكر في النص الذي أوردناه قبل قليل ، اذ بدأ جوديا في بناء إي ـ نينّو ، يرينا ذلك أحد تماثيل جوديا وهو يمسك بكلتا يديه وعاء تفور منه المياه ، عنصر الحياة ورمزها الذي لا تحمله عادة الا الآلهة ، وأنصاف الآلهة كتموز . ان هذا التمثال قد نذر أيضا الى « كيشتين ــ آنّا » أي كرمة العنب السماوية وأخت تموز خاصة ويحمل هـذا التمثال التعبير التالي « كيشتين ــ آنّا تهب الحياة » . وأية حياة هي المقصودة هنا ؟ ان هذا يجب الا يكون موضع تساؤل طالما اننا نعلم ان « كيشتين ــ آنّا » قد لعبت دورا هاما في اسطورة العالم السفلي لانّين وتموز . اذ تنزل مع انّين الى العالم السفلي لتحرر باعث الحياة من جديد . وبالاضافة الى ذلك اذا علمنا أيضا ، ان الإله نينجزيدا ولي جوديا الشخصي ، هو ابن « ايا » مثل تموز وأنه ايضا إله من العالم السفلي . نعم وان نينجرسو نفسه ليس الا مظهرا من مظاهر التعبير البطولي عن فكرة تموز كما ان انّين وبابا ملتحمتان مع بعضهما في ماهية واحدة ، وبذا ندرك ذلك التوازي العام مع طقوس انّين ــ تموز في اوروك .

يحتل بناء المعابد المكان الاول من بين الاعمال الجليلة التي نفذها جوديا تكريما للالهة . ولو ان الكشف عن لاجاش لم يجر في ذلك الوقت ، الـذي كان فيه علم التنقيب عن الآثار في بلاد غرب آسيا في طور التأسيس ، لعرفنا اكثر من ذلك عن هذه المعابد . لذلك نجد انفسنا ملزمين لان نكوّن فكرة عن معابدها بمقارنتها لمباني مكتشفة في المدينة المجاورة اور ، والتي تعود ايضا الى عصر ملوك سلالة اور الثالثة ، الذين يشكلون في الواقع فرعا خاصا بهم بالنسبة الى مجرى التطور في بلاد غرب آسيا . وبالرغم من ان هذا الفرع يشكل في الواقع اتجاها آخر غير الذي لجوديا ، الذي نعتبره في اكثر المجـالات المنفّذ أو المحقّق لمشاريع اوروكاجينا ، الا ان اور ولاجاش متقاربتان ومتلاحمتان حضاريا وزمنيا ، على نحو تستطيع معه المدينتان بالتساوي مساعدتنا في تكوين صورة عن ذلك العصر السومري المتأخر : فاذا ما قدمت لنا لاجاش نصوصا ، ومنتوجات ، رأينا اور تجود علينا مقابل ذلك بمباني وقبور أبدية .

جـ ـ فن العمـارة وديانة الدولة

اهتم عصر النهضة السومرية بتشييد المباني الابدية ، مثله بذلك مثل جميع الحضارات في حقباتها المتأخرة • لقد كان ملوك سلالة اور الثالثة وفي مقدمتهم اورنامو معماريين من الطراز الاول ، وإن خُيِّل للمرء بأن أبنيتهم كانت تعبيرا عن حب العظمة لديهم ، اكثر من أن تكون معبرة عن قلب تقي ، كما هو الحال بالنسبة الى جوديا • غير ان فن البناء في لاجاش من حيث المظهر الخارجي في عصر جوديا ، لا يختلف عنه في اور أو اوروك أو اريدو أو نيبور في عصر اورنامو ، وشولجي • كيف كان شكل إي ـ نينُّو (معبد نينجرسو) ، الذي غطّى بهاؤه البلدان كالعباءة ، فاننا نستطيع أن نتصوره الآن اعتمادا على ملاحظة او دراسة بقايا معبد إله القمر في اور ، الذي كان إله الامبراطورية في عصر سلالة اور الثالثة • لم يبن اورنامو في عاصمة ملكه فقط ، بل شيد وجدد بناء معابد لجميع كبار الآلهة في البلاد ، لإلّيل في نيبور ، وانّين في اوروك ، وايا في اريدو • لقد اصبحت ساحات المعابد الآن محاطة بأسوار وصفوف من الغرف يسكنها الكهنة ويُخزن بها تموين المعبد ، ويرتفع في وسط الساحات بيت الإله الحقيقي والمتعدد الحجرات • وينتصب فوق كل هذا ما يسمى بالزيقورات ، أي المعبد العالي ، الذي تطور في هذا العصر ولأول مرة من المصطبة في العصور السالفة الى معبد يشبه البرج • لقد استخدم اورنامو اللّبن المشوي في عاصمة ملكه اور ، وذلك لتغطية سطح البناء الخارجي على الاقل ، بينما استعمل اللّبن المجفف للبناء في بقية انحاء البلاد كما كان معهودا • فلذلك نرى ان زيقورات إله القمر نانّا قد احتفظت بسماتها المعمارية أحسن من أي بناء آخر في بلاد ما بين النهرين (انظر صورة رقـم ٢٩) حيث بقي الكثير من اجزائها قائما •

ومما لا شك فيه ان معبد اور العالي هذا ، افضل دليل على فن البناء السومري ـ الاكادي المشترك ، الذي يزيد في هيبته منظر البادية المحيطة به الآن . لقد أقيمت على كتلة سفلية علوها ١١ م ومساحتها ٦٢×٤٣ م ارضية" مرصوفة بحجارةسطوحهاالخارجية محدبة قليلا ومائلة نحو الداخل ومضلعة الجوانب . ثم يعلو هذه الارضية طابق ثاني مساحته ٣٦ × ٢٦ م وارتفاعه ٦ م تقريبا . هذا ويفترض وجود طابق ثالث فوقها مساحته ٢٠ × ١١ م ويبلغ ارتفاعه عن سطح ارض مساحة المعبد ٢٠ م تقريبا . يتوج الطابق الرابع أو المعبد الحقيقي المرتفع كلّ هذه المنشآت ، كما وهناك درج مستقيم يصعد الى المعبد حيث يلتقي عند نصف ارتفاعه تقريبا بدرجتين جانبيتين . من المؤسف انه لم يبق شيء من اساسات المعبد او جدرانه محفوظا . ويمكن للمرء أن يشاهد من فوقه ثلاثة ابنية مربعة الشكل تقريبا، هو معبد نينكال قرينة إله القمر، وبيت الخزنةالذي يشبهالحصن ، (أو المعبد العادي الخاص بالإله او الملك ـ الاله «اورنامو» أو «شولجي»؟) وجميعها تقع ضمن سور حيّ ناتّا المقدس . وبهذا فقد استمر الازدواج في الابنية الدينية بوجود معبد عال الى جانب معبد عادي . وربما وصل هذا الازدواج الى غايته الجديدة الآن وذلك بعد أن اتخذت مصطبة المعبد العالي شكل البرج . وتغير شكل الهيكل الرئيسي المقدس في المعابد العادية اذ اتخذ من الآن فصاعداً الشكل المستطيل الذي يتمتع بمدخل في الوسط ومحراب غير عميق نسبيا في الجدار الخلفي وهيكل امامي مستطيل غالبا وقليل العمق يقع تماما في محور الباب . والجدير بالذكر ان هذا الشكل الجديد للهيكل قد ساد في المعابد البابلية فيما بعد . واذا أمعن المرء النظر في الامتداد الكبير وتشابه اشكال الغرف في مثل هذه الوحدات المعمارية المقدسة واشكال حجراتها وأدرك في ذلك كيف ان أبعاد ومقاييس أبنية اور بصورة عامة أقل من تلك التي توجد في اوروك مدينة اتّين الكبيرة ، لشعر حقا بالطابع التيوقراطي الذي لا يزال يسيطر على المجتمع السومري منذ ولادته بحيث يحق للمرء أن يصفه بمجتمع بناة المعابد الذي يمكننا مقارنته مع مجتمعات

د ـ عبـادة الملوك والاعتقـاد بالموت

لم يساعدنا فن عمارة عصر سلالة اور الثالثة في القاء نظرة على عبادة آلهة المدن الكبرى فقط ، بل وعلى عادة تقديس الملوك والموتى ايضا التي لا تقل أهمية عن الاولى .

لقد لقب ملوك سومر ـ اكاد ، اورنامو وخلفاؤه الاربعة ، أنفسهم ملوك جهات العالم الاربع ايضا . لقد كانوا يجسدون فكرة الحـكم السومري القديمة ، التي حاولوا احياءها ثانية كردٍّ فعلٍ على ماوصلت اليه الامبراطورية الاكادية العالمية المتداعية . إلا ان الواقع كان أقوى من أن يتنكر له المرء ؛ فغالبية الشعب السومري لم تكن ذلك الحين الا عظمة مضى عليها التاريخ بعد أن طغى الدم السامي على هذا الشعب مؤكدا ذلك منذ زمن بعيد حتى ان إسمـَي° آخر ملكين في سلالة اور الثلاثة شو ـ ز ِن° وابـِّي ـ ز ِن° كانا ساميين . وهكذا فقد ورثوا منذ عهد شولجي التركة السياسية لحكام العالم الاكاديين بالرغم من ان اوضاعهم أضعف من أن تتحمل ذلك العبء الثقيل . وبناء على ذلك فقد تجنبوا تمثيل انفسهم على المنحوتات والنقوش وهم يرتدون التـاج المزين بالقرون أو وهم يرتدون الثوب الصوفي المكشكش ، كما فعل يوما نارام ـ ز ِن° خاصة اذا علمنا بان هذين النوعين من الالبسة كانا بعرف السومريين شعارا لآلهة الدولة ، الا انهم كانوا يضيفون الى اسمائهم المكتوبة العلامة التي تكتب عادة امام اسماء الآلهة . لقد امر شولجي وشو ـ ز ِن° ببناء معابد لهم في اور ولاجاش واشنونا وعينوا لها كهنة برتبة انزي ، وكأنهم من آلهة الدولة ، ولقد كشفت لنا الحفريات الاثرية عن مثل هذه المعابد في مدينة اشنونا .

لا يختلف المعبد هنا عن أي بيت من بيوت الآلهة العادية والشائعة البناء في هذ العصر : بناء مربع الشكل يبلغ طول ضلعه ٣٠ م تقريبا ، ومحاط بسور

المدن المسيحية في اوربا خلال العصور الوسطى • ولكننا ندرك بنفس الوقت وبمرارة ان معلوماتنا حول هذه الاشياء لاتزال بعيدة عن التفهم الحقيقي لها بالرغم من ان كتابات جوديا المستفيضة حول بناء معبد نينجرسو ، وبقايا معبد نانّا في اور ، متممة لبعضها بشكل يمكنها أن تزودنا بفكرة صادقة عن ضخامة واتساع مثل هذه الابنية • الا ان المغزى الديني في الكثير من دقائقه وخصائصه سيبقى غامضا مبهما علينا •

ضخم زُيّن سطحه الخارجي بمضلعات ومحاريب ، وتأخذ زواياه كالعادة وجهة الجهات الاربع وتؤدي بوابته الضخمة المجنحة ببرجين الى قاعة امامية يصل المرء منها الى ساحة متوسطة ، واخيرا الى الهيكل المقدس المستطيل ، الذي يحتوي جداره الخلفي على محراب عميق تقريبا حيث يصعد المرء اليه بدرجتين والذي كان معداً بالتأكيد لوضع تماثيل لآلهة فيه . هذا وتحيط بالباحة المركزية الغرف الجانبية ، ومن المحتمل أن يكون الملك قد تربع على عرشه في الهيكل المستطيل ، عندما كان يستقبل الخاشعين له ، خاصة اذا علمنا بان الموضوع الرئيسي في منحوتات ونقوش هذا العصر وهو ما يسمى بتقدم المتشفعين من الرب كان يرينا كيف يحل الملك ـ الإله محل كبار آلهة المجمع اللاهوتي في استقبال المتشفعين ، ولا يختلف عنها الا في ثوبه ولباس رأسه وكرسي العرش الذي يتربع عليه .

ان الملكية ـ الإلهية المتمثلة عند حكام سلالة اور الثالثة متحدة بالنيابة الإلهية عند السومريين ، فهي تشكل بالتالي استمرار إحياء الانسان ـ الإله تموز الملك الاسطوري لمدينة اوروك عاصمة السومريين في عصر فجر التاريخ . هذا ونعلم من خلال جزء لمديحة تخص شو ـ ز ن° انه كملوك عصر اورك الرابع وعصر جمدة نصر ، يمكن أن يمثل تموز أو من يشبهه أثناء عرس الإلهة الأم في عيد رأس السنة . فضلا عن ذلك فان اضرحة ملوك سلالة اور الثالثة التي تعتبر بحق الأوابد الضخمة الوحيدة من نوعها في الشرق الأدنى القديم ليست الا استمرارا لتجسيد عظيم لفكرة قبور ملوك سلالة اور الأولى الارضية التي اعتبرناها من وثائق الاعتقاد باثّين ـ تموز والاعتقاد السومري بالموت . تشكل قبور ملوك سلالة اور الثالثة مُجمّعاً معمارياً مؤلفاً من مركز وملحقين جانبيين قوامهما قبو تحت الارض وطابق علوي على سطح الارض . هذا ومن الصعوبة بمكان أن نخص كل حجرة باحد ملوك السلالة الثالثة بشكل محدد . اما فيما يتعلق بكونها مقابر للملوك فهذا ما نستقرئه من خلال الطبعات المختومة على الآجر باسم « شولجي » وخليفته . إن افضل وأضخم

نموذج لمثل هذه القبور الملكية يتجلى في البناء المركزي الذي يشغل جزؤه العلوي مساحة قدرها ٣٠×٢٥× م ٠

يعتبر هذا الضريح القائم فوق الارض آخر حلقة في بناء المقبرة ككل ٠ وكما هي الحال لدى مقابر سلالة اور الأولى فقد تم احداث حفرة عميقة تحت الارض قبل البدء في اشادة مبنى الضريح ٠ وبما ان هذه المقبرة تضم اقبية مزدوجة فقد اتخذت الحفرة في مخططها شكل زاوية قائمة يتصل بها ذراعان احدهما ٣٠م والآخر ٢٠ م وعرض كل منها ٤ امتار ٠ (انظر صورة رقم ٣٠) ٠ لقد شيدت اقصى نهايتي ذراعي القبو من الآجر المشوي المكحّل بعناية بمادة الاسفلت اما السقف فقد اتخذ شكل العقد ٠ ينزل المرء الى حجيرات الدفن التي تقع على عمق ١٠ م تحت سطح الارض بواسطة دَرَج مزدوج يبدأ من عتبة تقع على مسافة قصيرة تحت سطح الارض ويتفرع منها ذلك الدرج المزدوج باتجاهين متعاكسين ٠ لقد بقي الكثير محفوظا من هذه المقبرة مما جعل تأثيرها كآبدة ضخمة لا يزال قويا حتى يومنا هذا ٠

اننا لم نستطع العثور على أي اثر يشير الى ان الاتباع قد دفنوا مع ملوكهم في هذه المقابر ولكن من المحتمل أن استعاض المرء عنهم بدفن الضحايا ضمن طبقتين سمكهما متران تحت ارض القبو ٠

وبما أن عدد ملوك سلالة اور الثالثة اقل من عدد القبور التي اكتشفت ، فانه يحق لنا أن نفترض بأن القبور المزدوجة كانت للملك والملكة ، حيث كانا يُدفنان على مرور السنين منفصلين ، وكانت ابواب المدافن تغلق بالحجارة من ناحية الدرج ثم يقام بناء مؤقت فوق البناء الذي يضم الدرج حتى يتسنى لأقرباء الموتى النزول الى امام القبور وتقديم الضحايا لهم ٠ وبعد مضي وقت من الزمن يُبدأ باشادة الطابق العلوي نهائيا بعد أن يُزال البناء المؤقت السابق ٠ يقوم الطابق العلوي فوق القبو ولكنه يشغل مساحة اكبر منه وبالتالي يتخذ شكل مخطط واضح لبناء سكني فخم وليس

لمخطط معبد • انه المسكن المقدس للانسان ــ الإله تموز ، الذي وجـد تجسيده في كل ملك سومري ، وليس بيتا من بيوت الآلهة المخصصة للملك ــ الإله الاكادي الأصل والذي بقي مستمرا لدى ملوك الدولة السومرية الجديدة بنفس الوقت •

وقبل أن يستخدم المرء البيت العلوي المقدس أُلغيت القبور الارضيـة وذلك بطمرها بالتراب وسد مدخلها بالحجارة تماما بشكل ضاعت كل معالمها• ولكن قبل هذه العملية مباشرة كانوا قد اقتحموا ابواب تلك المدافن واخرجوا محتوياتها من جثث وأدوات ملازمة لها • بهذا لا يعتبر في الواقع هذا العمل نهبا بل شبيها لما كان يحدث لقبور عصر سلالة اور الأولى اذ يجري تخليص الدفناء ، طبعا الملك وعقيلته ، من قبورهم أي من حياتهم في العالم الاسفل بعد مضي وقت على دفنهم ، وذلك كي يتسنى لهم العيش مع الاحياء في بيتهم العلوي المقدس • وهنا تـُمنح لهم الحياة ، تلك الحياة التي ابتغاها جوديا من الآلهة مقابل اعماله التقية ، حياة الانسان ــ الإله الأبدية ، حياة الملوك ، التي كانت الضمان الاكيد لمقومات الشعب الخالدة •

الفصل السادس

الساميون الغربيون كحكام في بلاد ما بين النهرين

اولا ـ الصراع مع عيلام من اجل السلطة ـ السلالات الجديدة في إيي ـ زِنْ ولارزا وبابل وماري واوروك واشنونا

عندما وقع إبيّ ـ زِنْ ، آخر ملوك اور ، في أيدي العيلاميين أدى هذا الى زوال وحدة الامبراطورية الاكادية ـ السومرية • وكان الكثيرون قد تخلوا عن فكرة حكم جهات العالم الاربع وعادت حكومات المدن القديمة الى الظهور من جديد في كل مكان واستلم الحكم فيها امراء دخلاء ليسوا من أبنائها • وكان من هؤلاء نسبة قليلة من العيلاميين الذين تأسّموا بشكل قوي منذ العصر الاكادي وشكلوا مقاطعة من الامبراطورية الاكادية ـ السومرية ولكنهم مع ذلك عرفوا دوماً كيف يحافظون على شخصيتهم • اما العدد الاوفر من هؤلاء الامراء فينتسب الى البدو الذين استوطنوا الصحراء ثم دخلوا البلاد كموجة سامية جديدة تميزت عن الساميين الشرقيين أي الاكاديين بلهجتهم وأسماء العلم لديهم ولكنهم كانوا أقرب الى الكنعانيين الذين استوطنوا غرب بلاد الشام •

لقد استخدمت كلتا القوتين الاجنبيتين أي العيلامية والسامية الغربية أقرب المدن اليها كمنطلق لأعمالهما التوسعية القادمة ، وهكذا انطلق العيلاميون من مدينة إله الشمس القديمة « لارزا » والساميون الغربيون من مدينة « عشتار » ماري الواقعة على أواسط الفرات •

لقد كان الساميون الغربيون أعظم بأسا وأشد رغبة في التوسع من العيلاميين لأنهم كانوا يحصلون على المدد البشري المتزايد من الصحراء كما هي الحال بالنسبة الى جميع القبائل البدوية ٠ وإن لم يكن بمقدورهم جعل لغتهم هي السائدة في بلاد ما بين النهرين فان قوتهم العسكرية لا بد أنها كانت كبيرة ، بشكل مكنتهم من السيطرة السياسية على البلاد الممتدة من ماري حتى لارزا ٠ لقد استلموا زمام القيادة في إي ــ زِن° ولارزا وبابل وماري وبعدئذ في آشور أخذوا يتخاصمون فيما بينهم ويقيمون الاحلاف ويشنون الحروب كل ذلك للوصول الى السيطرة التامة ٠ لقد وجد الطرفان أي العيلاميون والساميون الغربيون في ريم ــ زِن° وحمورابي بعد ١٥٠ ــ ٢٠٠ سنة تقريبا القائدين الشديدي البأس ورجلي الحكم الداهيين حتى تمكن أخيرا الاقوى منهما وهو حمورابي البابلي من أن يعيد ولو لفترة قصيرة وحدة وزهاء الامبراطورية السومرية ــ الاكَّادية العالمية ٠

اذا تتبعنا الامر بالتفصيل نجد ان التطور السياسي للقرون الثلاثة الأولى من هذه الألف الثانية ق٠م ، لم يكن الا سلسلة طويلة من الدسائس والمؤامرات بين الامراء الجدد٠ وقبل أن يتم القضاء على إبِّي ــ زِن° انتهز إشبي ــ إرّا السامي الغربي من مدينة ماري الفرصة ليستولي مع انصاره على مدينة إي ــ زِن° الصغيرة الواقعة في وسط بلاد بابل والقريبة من نيبور ٠ ومن هنا قاد هجوما خاطفا واحتل جزءا كبيرا من اقاصي الأراضي الجنوبية حتى وصل اور ٠ في الواقع كان إشبي ــ إرّا يعتبر أقوى رجل في البلاد الا انه لم يستطع الانفراد بالسلطة ذلك لأن ساميا غربيا آخر يسمى نبلا ــ نوم كان قد انتصر على مدينة لارزا وضواحيها وثبت أقدامه فيها ٠ ومع ذلك فقد احتفظت إي ــ زِن° بالسيطرة المطلقة على البلاد طوال عهود أربعة خلفاء لـ « إشبي إرّا » انحدروا من سلالته وبهذا بدا وكأن وحدة الامبراطورية السومرية ــ الاكَّادية قد تحققت من جديد وذلك بفضل الاعتماد على الساميين الغربيين في ماري ٠ لقد كان آخر خلفاء إشبي ــ إرّا المسمى

«ليبيت ــ عشتار» مشرعا مرموقا الا انه طُرد لتحل مكانه عائلة حاكمة أخرى •

ان الدليل الذي يبرهن مدى انصهار قوى هذه العائلات الساميّة الغربية الحاكمة في بوتقة الحضارة السومرية ــ الاكّادية القديمة نجده في اسطورة ذات طابع نصف تاريخي تدور حول شخصية أحد حكامها المسمى إلّيل ــ باني الذي كان بستاني الملك إرّا ــ إميتّي من إي ــ زِنْ • لقد رأينا سابقا مدى أهمية عيد رأس السنة في الحياة الدينية والسياسية للشعب السومري • انه عيد انبعاث الحياة من جديد في الكون والدولة بعد صراع إله الحياة والنظام ضد قوى الفوضى للعالم الأسفل وفي مقدمتها « تيامات » التي تمثل ماء البحر • وبمناسبة هذا العيد السنوي يقوم بطل الآلهة وإمامها إلّيل بتوزيع الحظوظ ويعقد اجتماعاً لكبار الآلهة ويسير موكبها الى معبد خارج الاسوار • وتُرفع جميع النظم حتى الاجتماعية منها ويتبادل السيد والعبد أدوارهما وهكذا يتوجب على الملك أن ينزل من عليائه وينذر لنفسه أن يسمح لرجل عادي أن يجلس على عرشه لوقت قصير • وعندما أجلس إرّا ــ إميتّي بستانيه إلّيل ــ باني على كرسي العرش في مثل هذه الاعياد ثم مات فجأة احتفظ إلّيل ــ باني بالعرش وطرد الوريث الشرعي وبالتالي تمكن من قيادة الحكم طيلة ٢٤ عاما • لقد تناقلت الاجيال هذه الاسطورة عبر القرون ، ووصلت الى شعوب أجنبية وانتشرت في اوروبا عن طريق أحد الرواة اليونانيين ولكن بعد أن فقدت مغزاها الحقيقي •

لقد أخذت قوة سلالة لارزا تتعاظم بمرور عشرات السنين وعلى الأخص منذ أن انتهى حكم سلالة إشبي ــ إرّا في إي ــ زِنْ وهكذا فقد تكاثرت الحروب والمنازعات خلال القرن التاسع عشر بين « إي ــ زِنْ » و « لارزا » التي استفاد منها أمراء مدن أخرى واستغلوها للتمرد أكثر فأكثر على الملكية العليا وبالتالي انتهاج سياسة مستقلة بهم • ففي الجنوب حاولت اوروك عاصمة السومريين القديمة التحرر على يد حاكمين من حكامها كانا يتمتعان باسمين ساميّين هما « نونْ ــ كاشيد » و « زِنْ ــ كاميل » • وفي الشرق

تزعم أحد الأمراء العيلاميين المسمى كودور ـ مابوك احدى مناطق الحدود الواقعة في الجبال الايرانية الغربية والمسماة ياموت ـ بال وهو نفس اسم والده • ويعتبر هذا الامير من الوجوه اللامعة في الدولة العيلامية •

ومن الامور التي لا تقل أهمية بالنسبة لتطور الاحداث فيما بعد أن سيطرة سلالة إي ـ زِنْ على مدينة بابل الصغيرة ونواحيها بدأت تتزعزع شيئا فشيئا حيث نصب أمير سامي غربي اسمه سومو ـ آبوم نفسه أميرا عليها واستقل بادارة شؤونها • الا انه لم يكن هو المؤسس الحقيقي للامبراطورية البابلية في بابل مدينة الإله مزدوك بل هو خلفه سومولا ـ ايلو الذي حكم ٣٦ سنة فيها • لقد تغلب هذا الامير على منافسيه أمراء المدن المجاورة كيش وكاسالو ويبدو انـه كان مثل ليبيت ـ عشتار أمير إي ـ زِنْ وربما أيضا مثل أمير آخر أقدم منه زمناً هو بيلا ـ لاما أمير اشنونا ، قد وضع الاسس الاولى للتشريع •

ثانيا ـ الامبراطورية الآشورية القديمة ومستعمراتها التجارية كحاميــة للتقاليد المحليــة

يبدو ان أمراء المدن الآشوريين كانوا أول من استفاد من ضعف حكم « ملك الملوك » في « إي ـ زِنْ » و « لارزا » • فبعد أن كان أمراؤهـا المحليون سابقا أتباعا لامبراطورية الجنوب السومرية ـ الاكَّادية ، أسسوا منذ عهد إلو ـ شوما وابنه إرِّي ـ شوم مملكة مستقلة ووسعوا منطقة نفوذهم نحو الجنوب ونحو الشرق والغرب • إلاّ ان هذا لم يحدث دون وقوع اصطدام مع الحكم الفتي في بابل • والدليل على ذلك يتجسم في الحرب التي نشبت بين سومو ـ آبوم البابلي وإلو ـ شوما الآشوري • لقد رأى حكام ما يسمى بالامبراطورية الآشورية القديمة في صراعهم مع ملك الملوك ومع الامارات المجاورة أكثر من كونه مجرد عملية انعتاق من سلطة ملك الملوك في « إي ـ زِنْ » و « لارزا » • إذ لا بد أن يكونوا قد شعروا بأنفسهم حملة لواء الحضارة السومرية ـ الاكَّادية العريقة • وتأكيدا لذلك فقد كانوا في عصرهم الملوك الوحيدين الذين لم يجر في عروقهم دم غريب ، عيلامي كان ذلك أم سامي غربي • لقــد كانت جميع اسماء ملوك هــذه السلالة أكَّادية محضة حتى ان حفيد إرِّي ـ شوم كان يسمى شاروكين « زارجون » وهذا هو نفس اسم البطل مؤسس الامبراطورية الاكَّادية العظيمة العالمية ، نعم ذلك الاسم شاروكين الذي لا بد أن رافق اصداءه برنامج سياسي • ان المرء ليجد نفسه أمام هذا السؤال : لماذا قال إلو ـ شوما في كتاباته ، بعد أن احتل أجزاء كبيرة من بابل والاراضي الواقعة شرقــي دجلة انه أعاد « الحرية » الى مدن هذه المقاطعات ؟ ترى ألم يعني بذلك

انه حررها من حكم العيلاميين والساميين الغربيين ؟ • من الوجهة الوطنية فقد كان من حق أمراء آشور أن يفكروا ويتصرفوا انطلاقاً من هذا المبدأ كذلك فانه من المحتمل أيضا انهم خططوا لانشاء امبراطورية عالمية ينطلقون بها من آشور ؛ وما اسم شاروكين الا أفضل دليل على ذلك • بالرغم من ان ذلك لم يظهر بعد في ألقابهم كذلك قد لا يجوز لنا أيضا أن نرى في العلاقات التجارية الوثيقة التي كانت قائمة آنذاك بين آشور وآسيا الصغرى لما وراء جبال طوروس دليلا على تنفيذ خطتهم • لقد عثرنا على العديد من الالواح الطينية المكتوبة في خرائب كيل ــ تبة في شرق آسيا الصغرى بالقرب من قيصرية اليوم ، وكلها تعود الى ارشيف لوثائق تجارية • تدل الاسماء المدونة عليها بانها من مخلفات أجيال خمسة تقريباً ، عاشت في الفترة الواقعة ما بين حكم إلو ــ شوما وزارجون الآشوري • لقد كتبت هذه الوثائق باللغة الآشورية التي كانت تسمى باسماء كبار الموظفين وذلك على عكس ما كان متبعاً عند السومريين والاكاديين حيث تعرف السنوات باحداثها العظام ، ومما لا شك فيه ان هذا لدليل على قيام أوثق العلاقات بين آشور وآسيا الصغرى • غير انه من المستحسن الا نستنتج منه قيام امبراطورية آشورية كبيرة في وقت كانت فيه آسيا الصغرى احدى مقاطعاتها • فمن المعلوم ان آخر التنقيبات الاثرية التي تمت في كيل ــ تبة قد دلت على انه من المحتمل أن تكون تلك المراكز التجارية قد تأسست خلال عصر سلالة اور الثالثة اضافة الىذلك لم يسكن التجار الآشوريون ضمن مدينة كيل ــ تبة بل خارج أسوارها كرعاع مجردين من كل حماية • ولو ان آسيا الصغرى لم تتبع في ذلك الوقت منطقة نفوذ الامبراطورية الآشورية القديمة ، فلا بد أن تكون هذه الامبراطورية من القوة بحيث كانت تستطيع حماية الطرق المؤدية الى هناك وبالتالي صد الساميين الغربيين عن شمال بلاد الشام وماري • قد يكون الهدف من وراء الوصول الى كنوز آسيا الصغرى يكمن في رغبة الملوك الآشوريين بالظهور كورثة لحكام الامبراطورية الاكادية العالمية • لقد كان

العبور الى بوروش ـ خندا ، المدينة الواقعة في شرق آسيا الصغرى أعظم فخر للفاتح الاكادي الكبير • لم يكن بمقدور الشعب الآشوري الذي كان عدده قليلا نسبياً المحافظة إلى الابد على الطرق التجارية المؤدية الى آسيا الصغرى • إذ بوفاة شاروكين الآشوري انتهى استقلال الامبراطورية الآشورية من جديد ، وأصبحت آشور نفسها منطقة تتنازع عليهـا قوتان خارجيتان هما العيلامية والسامية الغربية •

ثالثا ـ السيطرة العيلامية . كودور ـ مابوك وابناه

« واراد ـ زِنْ » و « ريم ـ زِنْ »

لقد بدا أول الامر خلال القرن الثامن عشر ق.م وكأن الشرق قد ينقلب على الغرب في صراعهما من أجل السيطرة على بلاد ما بين النهرين . لم تكن العيلامية مدينة بذلك الى حاضرة الحدود القديمة سوزا ، التي كانت آنذاك مسالمة مكتفية بحدود مقاطعتها وانما يعود الفضل في ذلك الى كودور ـ مابوك السابق الذكر والى ولديه « واراد ـ زِنْ » و « ريم ـ زِنْ » . لقد غزا كودور ـ مابوك كـ « أب » لمنطقة الحدود بين عيلام وبابل المسماة بلاد « ياموت ـ بال » في يوم من الايام لارزا بعد أن سقطت سلالة نبلا ـ نوم الضعيفة في أيدي دولة صغيرة أخرى ، فعزل آخر ملوكها زيلّي ـ حدد واعتبر نفسه بعد ذلك حامياً لمدينة لارزا ، ونصب ابنه ملكا على لارزا بينما بقي هذا الملك في ياموت ـ بال .

لقد كان اسما كودور ـ مابوك وأبيه سمتي ـ سلشاك عيلاميين بينما كان اسم حفيده واراد ـ زِنْ اكّادياً ويعني (خادم زِنْ إله القمر) وهذا ما ظهر في أعمال هذا الملك فعلا.فمثلا وسع بسخاء معبد زِنْ في مدينة اور حتى ان أخته أصبحت كبيرة كاهنات هذا الإله . وقد لقب نفسه بملك لارزا وبملك سومر واكّاد ودوّن كتاباته أيضا باللغة السومرية القديمة المقدسة . لقد أدركته المنية باكرا دون أن يحقق كل ما كان يصبو اليه منذ البداية بمساعدة أبيه ، الا ان أخاه الاصغر ريم ـ زِنْ تابع بناء الصرح الذي كان يصبو اليه هذا الملك .

لقد عمل هذا الوريث جادا وبلا انقطاع عشرات السنين على تحقيق هدفه . ألا وهو توحيد البلدان التي كانت تشكل سابقا الامبراطورية

السومرية ـ الاكادية . ان الاشياء التي لم يستطع الوصول اليها بتوجيه ضربة واحدة قاصمة وصاعقة ضد تحالف كبار وصغار أعدائه مجتمعين ،حصل عليه بتأن وصبر عن طريق مناورات صغيرة .

لقد أمَّن له والده كودور ـ مابوك الحماية الضرورية من الشرق كما حققها لاخيه من قبل وبهذا تمكن مع الزمن من احتلال اوروك التي كانت قد بقيت تتمتع حتى ذلك الوقت بشيء من الاستقلال وأخذ بعدها ينتزع من امبراطورية سلالة إي ـ زِنْ المدينة تلو الاخرى ويضمها الى سلطته . الا انه ليس من المؤكد فيما اذا كان قد تحقق له ، ولاول مرة ، اقامة حكمه الاجنبي في آشور ومعنى هذا انه يكون قد قضى بذلك على آخر حصن في الوجود السومري ـ الاكادي . فمن المعلوم ان إسم ريم ـ زِنْ يرد خطأ باسم آخر هو نارام ـ زِنْ في لوائح أسماء الملوك الآشوريين ، خاصة في وقت يمكن أن يكون هذا الملك خلاله في آشور . وكان من أعظم منجزاته العسكرية غزو مدينة إي ـ زِنْ ، التي كان ملكها يعتبر أول ملوك البلاد الى جانب ملك لارزا . لقد استطاع بعد حكم دام ٣٢ سنة احتلال مدينة إي ـ زِنْ وبذا سيطر على جميع أجزاء البلاد باستثناء بابل ومقاطعاتها الصغيرة . لم يكن ريم ـ زِنْ قائدا حربيا فذا وحسب ، بل كان أيضا حاكما اشتهر بحفر الاقنية ، عصب الحياة بالنسبة الى البلاد وببناء المعابد كما « منح » سكان إي ـ زِنْ الحياة والمساكن . وهكذا بدا وكأن بلاد ما بين النهرين قد وجدت في شخص الأمير العيلامي ريم ـ زِنْ الحاكم الذي حقق لها السلام بعد عشرات السنين من الضعف والانقسام السومريين . حتى أن الملك الوحيد المستقل في بابل زِنْ ـ موبليط لم يجرؤ كما يبدو على مخاصمة ريم ـ زِنْ والدخول معه في حرب رابحة .

رابعا ــ حمورابي البــابلي

آ ــ القائد الحربي وخصم ريم ــ زِنْ وشمشي ــ حدد الأول وزيمريليم

كما يحدث أكثر الاحيان في التاريخ ، كذلك عاشه ريم ــ ِزنْ وهو انه لم يستطع قطف ثمار جهوده الكبيرة لشخصه ولبلاده والتي بذلها للوصول الى هدفه . اذ بعــد موت زِنْ ــ موبليط البابلي واعتلاء ابنه حمورابي العرش أصبح ملموسا أن يختطف الثمار من أيدي ريم ــ ِزنْ رجــل أعظم منه وذلك كما حصل لـ « لوكال زاجيزي » السومري ملك اوروك . ويمكن أن يكمن على ما يبدو في هذا التوازي الظاهري لهذه الأحداث معنى عميــق . كان من مهازل القــدر او ان السومري لوكال زاجيزي قد حقق فكرة قيام امبراطورية أكّادية . إن هذا شأنه مثل ذلك الشذوذ التاريخي أيضا لو تم الحفاظ على توغل الساميين الغربيين ووجودهم في بلاد ما بين النهرين على يد حكام من سلالة عيلامية .

يبدو ان حمورابي قد أكد على أصله السامي الغربي ، في الوقت الذي حافظ فيه على أوثق العلاقات بالعادات والتقاليد المقدسة التي عرفها التاريخ السومري ــ الاكّادي . وهكذا أصبحت من جديد جميع أسماء ملوك سلالته سامية غربية بعد أن كان هذا التقليد مهملا لمدة طويلة من الزمن . ان موقف حمورابي هذا ، لم يساعده على كسب عطف الملوك المحليين من بني جنسه ، بل وجب عليه أن يكافح مرحلة بعد أخرى ضد حكام من بني جلدته أو أجانب عنه وكذلك أيضا ضد سكان البلاد القدماء من أصل سومري ــ اكّادي . بعــد سبع سنين من اعتلائه العرش بدا للبعض وكأن حمورابي

سيقضي عاجلا على خصمه الأكبر ريم ـ زن° لأنه كان قد استولى بالفعل على « إي ـ زن° » و « اوروك » وضم أجزاء عديدة من الأراضي الواقعة الى الشرق من دجلة الى دولته • ونتيجة لذلك يجب أن يكون قد ساد من جديد نوع من توازن القوى بين الممالك المتعددة في البلاد حسب ما فهمناه من قسم الوثائق التي وصلتنا • وقد حصل هذا التوازن لأنه لا بد وأن يقف الأمراء الصغار في ماري وآشور واشنونا الى جانب ريم ـ زن° ضد حمورابي وذلك خوفا من بطشه •

بعد طر°د ريم ـ زن° من إي ـ زن° بقي الخصم الرئيسي لحمورابي في آشور ، التي كانت قبل ثلاثين عاما (١٧٥٠ ـ ق•م تقريبا) قد سقطت ولأول مرة بيد حاكم سامي غربي هو شمشي ـ حدد الأول • لقد رحل هذا من تيرقا الى آشور كما تقول أخبار نقلتها الينا الرقم الطينية التي كشفت عنها التنقيبات الأثرية في ماري في أواسط الفرات • أما ابوه إي ـ لوكابكابو فلا بد الا وأن يكون قد دخل قبل ذلك في نزاع مع السلالة التي كانت حاكمة آنذاك في ماري • لقد اختار شمشي ـ حدد مدينة آشور ليجعل منها منطلقا لتأسيس امبراطوريته فاحتل ماري وطمح الى تزعم السلطة على بلاد ما بين النهرين كحمورابي وهذا ما نعرفه من ألقابه•الا انه بنى طموحه هذا على تقليد آخر متوارث يعود الى زارجون الآشوري والامبراطورية الآشورية القديمة في عهد إي ـ شوما وكذلك الى الامبراطورية الاكادية العالمية ، امبراطورية نارام ـ زن° وزارجون الاكادي • لقد لقب شمشي ـ حدد الأول نفسه « والي إلّيل » وذلك كالملوك السومريين والاكاديين العظام واقام لنفسه نصبا تذكاريا في ضواحي ماردين الحالية مثّل نفسه عليه ، وهو يدوس بقدمه على صدر العدو الصريع تماما كما يفعل نارام ـ زن° في الصورة التي يظهر فيها على نصبه التذكاري • لقد امتد سلطان شمشي ـ حدد اذاً الى شمال بلاد الشام ، وهذا يوافق ما نسمعه من نصوص رقم ماري التي تقول بانه عين ابنه الثاني يسمخ ـ حدد نائب ملك في ماري ، وقد حدث هذا

بالتأكيد نتيجة صراع مع سلالة ماري ، تلك السلالة التي قاومها ابوه من قبله • وتخبرنا كتابة أخرى ، وصلتنا صدفة ، عن أعمال البناء التي انجزها في سبيل الإله داجان الاكادي الأصل الذي احتل مكانة خاصة في عبادات الساميين الغربيين • لقد أقام له الأبنية في مدينة تيرقا مسقط رأسه التي تقع على الفرات الى الشمال من ماري • يشكل شمشي ـ حدد اذاً على حمورابي خطراً أكبر من الذي تجسم في« ريم ـ زِ نْ » العجوز الذي اقتصرت مملكته فيما بعد على الأراضي السهلية الجنوبية الضيقة وأقام على ما يبدو مع حمورابي علاقات طيبة لعدة سنوات • لا يمكن حتى الآن تحديد وفاة شمشمي ـ حدد الأول حسب سني حكم حمورابي كما لا يمكن أيضا تحديد الوقت الذي تخلصت فيه بابل من خصم مناوىء لها ، الا ان موته يجب أن يكون قد تم بالتأكيد قبل أسر ريم ـ زِنْ بوقت طويل ، لأن ملكا يدعى زيمر يليم كان موجوداً في ماري في ذلك الوقت ، وكان عدوا لـ « شمشمي ـ حدد » وحليفا لـ « ريم ـ زِنْ » • وعلى هذا يكون ابن شمشي ـ حدد يسمخ ـ حدد قد تخلى عن حكم ماري بعد انتقال والده الى الدنيا الآخرة • أما ابنه الثاني وولي عهده في آشور إشمي ـ داجان فلم يعد باستطاعته المحافظة على استقلاله لمدة طويلة بعد سقوط ماري • وبعد هذا كله اصبح من السهل على حمورابي أن يقضي على الاعداء ولو ان ريم ـ زِنْ كان قد لف حوله ياموت ـ بال وعيلام مسقط رأسه واشنونا وماري أيضا • الا ان حمورابي قضى على هذا التحالف وانتصر عليه في السنة الحادية والثلاثين لحكمه • فاضطر ريم ـ زِنْ للتخلي عن لارزا ، وهرب الى مسقط رأسه حيث لحقه حمورابي وأسره بعد ان كان قد حكم ٦١ عاما • وأخيرا وبعد عامين من هذا تغلب حمورابي على زيمر يليم في ماري ثم أحرق ماري وقصرها بعد ذلك اثر انتفاضة قامت هناك ضده •

لقد عادت الوحدة لبلاد ما بين النهرين من جديد في عهد أكبر قائد وسياسي أنجبه عصره • وحمى هذه الوحدة الساميون الغربيون بقواهم السومرية ـ الاكادية •

ب ـ المنقـذ وداعية السلام

لم تكن حروب وفتوحات حمورابي هي الهدف بـل كانت الواسطة للوصول الى غاية أخرى • فهو لم يضع نصب عينيه الوصول الى امبراطورية عالمية كما فعل الاكّاديون الساميون وكما قصدها خصمه شمشي ـ حدد الأول من قبل ، وانما اكتفى حمورابي بتوحيد سومر واكّاد في امبراطورية واحدة بالشكل الذي تطلع اليه ملوك سلالة اور الثالثة•في الواقع كان حمورابي قد احتل أجـزاء من البلدان الشمالية سوبارتو وأصبحت ياموت ـ بال وعيلام اقاليم من امبراطوريته بحيث صار بامكانه أن يلقب نفسه ملك جهات العالم الأربع • لقد تغنت به أحد أناشيد النصر بما يلي : « يسحق حمورابي ، الملكُ والبطلُ القوي ، الأعداء ، انه صاعقة الملوك ومذل البلاد المعادية ويخمد المقاومات ، ويقضي على الثورات ، ويحطم المناوئين ، كما يحطم صورة من طين »•لابد هنا الا أن يكون وضع نصب عينيه صورة مثالية جديدة لمفهوم الملكية التي نستقرئها من تمثال كبير ووحيد خلّفه لنا حيث مثّل نفسه عليه وهو يتسلم منصبه كراع ومنفذ لوصايا إله الشمس « انظر صورة رقم ٣١ » • يشكل هـذا المشهد الجزء العـلوي من التمثال بينما تغطي نصوص شريعته الجزء الباقي من مسلته التي اشتهرت في العـالم والتي تدلنا بعض أجزاء مقدمتها وخاتمتها على عقيدة حمورابي أيضا • توحد هذه العقيدة بين النظرية الاكّادية في حكم العالم وبين منصب الراعي الذي كان يُمنح للملوك السومريين من قبل الآلهة • لقد كان هذا أيضا مبدأ المصلح أوروكا جينا اللاجاشي والذي عبر عنه فيما بعد وبصورة جلية جوديا أيضا• وبفضل هذه الحقيقة فقد توج حمورابي بنفسه قمة التاريخ السومري ـ الاكّادي ، الذي كان في تضاد منذ البداية حضاريا وسياسيا • لقد كان

هو أيضا حاكم بلدان وشعوب جهات العالم الأربع ، وبنفس الوقت باني المعابد النقي وراعي الناس ذوي الرؤوس السوداء وحامي الضعفاء والمظلومين . وكما ان مردوك إلهه وإله مدينة بابل ، الذي لم يحل فقط في المجمع اللاهوتي محل إنّيل العجوز أمير الآلهة في عهد السومريين بل جمع أيضا بين صفات إله الشمس الاكّادي وصفات إله سومري أرضي من أبناء « ايا » ، كذلك كانت الحضارة البابلية في عهد حمورابي دمجا جديدا للتراث السومري ـ الاكّادي الحضاري الذي كان حمورابي أكبر باعث له . ان كلمات مقدمة حمورابي التي صدّر بها قانونه تنم عن الشعور والرغبة في الوصول الى خاتمة وحصيلة لذلك التطور ، الذي دام آلاف السنين :

« عندما حصر آنوم الكبير ، ملك الأنونّاكو ، وإنّيل ، سيد السماء والأرض ، ومسيّر أقدار البلاد ، عندما حصروا جميعا في مردوك بن « ايا » الأكبر قوة الإله ، التي هي فوق الجميع ، وجعلوه أكبر آلهة السماء ، وبشروا باسمه العظيم مدينة بابل ، وكبروا اسمه في جميع أنحاء المعمورة ، أقاموا في وسط الكون مملكة خالدة ثابتة الدعائم ، ثابتة كالسماء والأرض ، وأكدوا له ذلك . في ذلك الحين أوكلوا لحمورابي ، الأمير الشريف ، خادم الآلهة ، أو كلوالي أنا حمورابي باحقاق الحق في البلاد ، والقضاء على الأشرار والأنجاس ، ومنع الأقوياء من سلب حق الضعفاء ، وابراز ذوي الرؤوس السوداء كشروق الشمس وأن انور البلاد ، اعلم آنوم وإنّيل الناس باسمي تيمنا بالخير ، أنا حمورابي الراعي داعية إنّيل » .

ونعتقد باننا نلمس شيئا من مبدأ نارام ـ زِنْ عندما يصف حمورابي نفسه بانه اعصار جهات العالم الأربع أو رهبة الأعداء أو الجاموس القوي أو شحنة الغضب . وانه إله الملوك وعالم الحكمة . الا أنه لم يكن في يوم من الايام إلهاً كـ « نارام ـ زِنْ » ، كما لم يقدم ليأمر ببناء معبد لنفسه كما فعل شو ـ زِنْ في اور مثلا . وبالاضافة الى ذلك انه لم يرتد قط تاجاً

ذا قرون ولم يكتب اسمه مصحوبا باشارة الالوهية • ونعتقد أيضا بأنه وكأننا نسمع جوديا عندما يقول حمورابي عن نفسه بأن مردوك قد منحه منصب الراعي ، الا اننا نجد ان حمورابي أكثر من أن يكون حصيلة الجمع بين مبدأ الملكية والتسلط القديمين • لقد أصبح المرء يرى فيه ذلك الوقت المنقذ المنتظَر بعد زمن من التفكك الداخلي والحرب الأهلية والدمار الذي مر على البلاد طوال عشرات السنين ، والذي أرسلته الآلهة لهذا الغرض محققا الرفاه والسلام للبشر • وقد ورد في خاتمة ملحق شريعته :

أنا حمورابي الملك الكامل •
لقد أهداني إنّيل
ذوي الرؤوس السوداء ،
وسلمني مردوك منصب الراعي عليهم ،
لم أكن ليّناً عليهم •
لم أضع يدي في حضني ،
لقد بحثت لهم عن أماكن الرفاه ،
خففت عنهم الشدائد وجعلت النور يسطع فوقهم —
لقد قضيت بالسلاح الماضي الذي سلمتني إياه كل من زابابا وعشتار
وبالفَهم الذي منحني اياه ايا كنصيب ،
وبالقدرة ، التي عززني بها مردوك
قضيت على الأعداء ، في الأعلى والأسفل ،
أخمدت المقاومات لصالح رخاء البلاد ،

جعلت الناس الحضر يبهجون (بسلام) على المروج ،

ومنعت الخوف يــأتي اليهم •

وأوكلني كبــار الآلهــة •

هكذا أنــا الراعــي ،

الــذي يحافظ على السلامة وعصاهُ عــادلــة ،

ان ظلي الجميــل يتســع مغطيــاً المــدينة ،

وأخــذت محتضنــاً ســكان بــلاد سومر واكــاد •

وبواسطة نشــاطي وبحيويتــي كــان حظهم الرخــاء •

وأهتم بهــم بــالســلام •

جـ ـ العقيـدة والتطبيق

ليس بمقدورنا أن نقارن بين مبدأ أي حاكم في الشرق القديم وبين اسلوبه في تطبيق هذا المبدأ المعتنق كما هو الحال عند حمورابي الذي وصلتنا عنه عدا شريعته مجموعة كبيرة من الرسائل التي وجهها الى زِن° ـ إدّينام واليه في لارزا . ووصلنا أيضا بنفس الوقت عن هذا العهد العديد من الوثائق الاقتصادية والقانونية ، التي تشبه مثيلاتها من عصر سلالة اور الثالثة والتي تمكننا من مراقبة التطبيق الفعلي واحكامه . لم يدوّن في أي بلد من بلدان العالم من الوثائق كما في بلاد ما بين النهرين سواء أكان ذلك حول الزواج أو التجارة أو التبني أو أية مسألة قانونية أخرى . وحتى تحمى الوثائق ، المكتوبة بقلم القصب على الالواح الطينية ، من التزوير كانت تغلف بغلاف من الطين يُكتب عليه النص مما يسهل معه مراجعة الوثيقة دون الخوف عليها من التزوير . ولا يلجأ الى الكشف عن الوثيقة الأصلية الا في حالات الخلاف الشديد حيث تفحص بذلك الوثيقة المغلفة .

يعتبر الجزء الاكبر من هذه الوثائق الخطية من توافه فن الكتابة وهي بالتالي تدل على ميل الشرقيين الى حب البيروقراطية وتكديس ملفات الوثائق. أما رسائل حمورابي الى زِن° ـ إدّينام فانها أكثر اشباعاً بالحيوية، بالاضافة الى انها تشكل برهانا على صدق عقيدته الملكية الخاصة . ولا يوجد الا القليل من الحكام العالميين ، مثل شارلمان الكبير واوغسطوس ، الذين يمكن مقارنتهم به بحبهم للعمل الدؤوب واحاطتهم بكل شيء وشعورهم الأكيد بالمسؤولية . لقد أمر حمورابي بارسال آلهات بلاد ريم ـ زِن° المجاورة لعيلام وآلهات بلاد ياموت ـ بال مع وصيفاتهن الى بابل على ظهر السفن وأوصى بوجوب معاملتهن بأدب واحسان . كما حدث أن اشتكى طحان اسمه

لالوم مدعيا ان أحد مفوضي الشرطة واسمه علي ـ عيلاتي قد اغتصب منه محصول حقـله من الحبوب • ونتيجة لذلك أمر حمورابي بالتحقيق فورا وطلب التعويض على الطحان اذا ما كان محقا وطلب معاقبة مفوض الشرطة اذا ما ثبت اقترافه للذنب •لقد اهتم بالمحافظة على صحة التقويم السنوي مع اضافة شهر انتقالي ، وكان يذكّر دوما بوجوب ارسال الضرائب الى بابل في الشهر المحدد لذلك • كان يعفي النـاس من الخدمة العسكرية بنفسه فيما اذا كانوا قد سيقوا الى الخدمة تعسفا ويوبخ ولاته اذا كان الأمر هاما ، وقد ورد في كتابة له إلى احدهم : « ••• لماذا تستدعي أفراد الطبقة الادارية الى الخدمة في صفوف المشاة ؟ ولهذا فان العمل ، الذي أقدمت عليه ، غير شرعي ! يجب عليك ألا تستدعي بعد الآن أفراد الطبقة الادارية ، الـذين يجب أن يبقوا اداريين ، فهم لا يخدمون في صفوف المشاة ! » وعندما ازداد تراكم الطمي في احدى الأقنية التي تمر في مدينة اوروك وأصبح هـذا خطرا يهدد حركة السفن ، أمر حمورابي زِنْ ـ إدّينام بأن يرسل فورا نجدة ما ، فأرسل هذا حاملي الاثقال الذين كانوا يساعدون في أعمال البناء الهامة في لارزا • لقد كان يهتم ببناء سفن الشحن وتأمين البحارة لهـا ولا يوجد شيء غريب عنه في جميع مجالات الحياة الخاصة والعـامة اذ كان عمليا قد « احتضن أولاد سومر واكّاد كالأب » • ففي الوقت الذي تسمح لنـا فيه رسائل حمورابي الى زِنْ ـ إدّينام بأن نلقي نظرة على مشاكل الحياة اليومية الحقيقية وأهميتها بالنسبة الى الحاكم والمحكوم يظهر لنـا من جهة أخرى ان شريعة حمورابي الشهيرة أو جزءاً منها على الأقل انما يدور حول أمور عقائدية نظرية لا علاقة لها بالشؤون القانونية الفعلية • لا تتغنى فقط بداية وخاتمة نص هذه الشريعة التي صيغت بقالب شعري بمديح ملكية حمورابي ، محسن الآلهة والبشر ، والتـي كانت موازية لملكية مردوك ، وانما جسم المقطع الأوسط من هذه الشريعة ، أي القانون الحقيقيي ، بالاضافة إلى جمع وتسجيل القـانون فيه جسم ايضا بالدرجة الأولى على الارجح اصلاحاً معيناً •

لقد وردت حماية الضعفاء كعلامة فارقة في كثـير من مواد الشريعة : اذ يجب حماية الفلاحين الصغار من الديون المتراكمة وتأمين الاجرة اليومية للحرفيين والعمال اليوميين ، كذلك حددت الفوائد وضرائبها الى جانب تأمين القروض العينية كما فُضّلت أيضا فئة من كاهنات مردوك • لم يكن هذا كله الا مبادىء مثالية حددها القانون • فالوثائق القانونية الحقيقية التي وصلتنا لا تتفق ونصوص هـذا القانون في الأمور التي قضت بها • اذ نرى ان ضريبة الانتاج ومردود التأجير تخالف مواد القانون • وجرى التبني وفق قواعد أخرى • ان اصلاح حمورابي قد قصد جزئيا اهدافا اجتماعية ولحدٍّ ما أمورا سياسية أيضا • لقد اراد حقا ولأول مرة جمع وتنسيق وتكييف النظم القانونية المختلفة التي كانت سائدة حتى عهـده في دويلات بلدان ما بين النهرين ، وبين طبقات الشعوب المتعددة كما قصد أيضا صهرها جميعا في نظم وقوانين موحدة • وهنا يكمن السر الذي اكسب قانون حمورابي شهرة واسعة حتى في القرون الزمنية اللاحقة لعصره • اذ نجد قوانين مشابهة له باللغة السومرية وضعت قبله بوقت طويل • فاروكاجينا تحدث عن نظم سبقته وخلف لنا لبيت ـ عشتار من إي ـ زِنْ أجزاء من شريعته وصلت الينا سالمة ، وقبل سنوات اكتشف في تل الحرمل بالقرب من بغـداد رقيمان يحملان قانون الأمير بيلا ـ لاما من اشنونا الذي عاصر الملك شو ـ ليشو من إي ـ زِنْ وبهذا يكون أقدم من لبيت ـ عشتار ولكنه صُنف زمنيا بعد عصر سلالة اور الثالثة بسنوات قليلة •

د ـ الدولة والمجتمع

يتصف قانون حمو رابي بأهمية تاريخية عظيمة ، رغم صفته الاصلاحية وضعف التنسيق بين مواده اذا ما قيس بالقوانين العصرية ، كما يمكننا الى جانب ذلك بالاضافة الى الرسائل والوثائق المعاصرة له التي وصلتنا من تكوين صورة واضحة عن تركيب الدولة والأوضاع العامة والعائلية والاقتصادية •

فقبل ألف عام من حمورابي أسس السومريون الفلاحون مجتمعا يسير على نظام اشتراكية الدولة التي يقودها رجال الدين والتي شكلت فيها كل من الحياة الاقتصادية والدينية وحدة تامة • فقد كان الفرد لا يملك شيئا بل كان كل شيء يدار من ممثل الإله لحساب الإله الذي يملك الدولة • وأصبحنا نرى على مر الزمن ان سلطتي ممثل الإله الرئيسيتين وهما الكهنوتية والقيادة العسكرية أي المعبد والقصر تنموان منفصلتين عن بعضهما • وبذا تحتم أيضا ظهور الفوارق بين الغني والفقير بين الرفيع والوضيع بين الكاهن والحرفي • ولقد ساعد على اضمحلال نظام اشتراكية الدولة السومري تغلغل الساميين لما قبل الاكاديين ، والاكاديين انفسهم الذين قدموا من الصحراء مصطحبين نظما اجتماعية أخرى الى الفلاحين وسكان المدن السومريين• ولم يكن تأثير الغنائم التي جلبها معهم المحاربون الاكاديون فيما بعد من البلاد الأجنبية على انقلاب الحياة الاجتماعية والاقتصادية بأقل من تأثير النهب والدمار الذي حدث في عهد الجوتيين أو أكثر ضعفا من التأثير الذي نشأ عن تكوين جهاز اداري مركزي واقليمي وعن ظهور طبقة المحاربين التي تنتسب الى الساميين الغربيين والتي استوجب ارضاؤها اقطاعيات خاصة كما حدث في أواخر عهد الامبراطورية الرومانية •

تتكون امبراطورية حمورابي كما نستطيع تصورها من ادارة مركزية تحوي الى جانب الملك طبقة الموظفين ويوجد فيها الى جانب الاقطاعيين مدن كبيرة وصغيرة فيها مجالس شيوخ وجمعيات حرفيين يرأسها « تاجر » يقوم بدور عميل الملك • ففي الوقت الذي كانت فيه طبقة بورجوازية من الحرفيين والأحرار تعيش في المدن كانت أكثرية الفلاحين في الريف تستأجر الأراضي من الاقطاعيين • لقد ألّف جنود الامبراطورية ، الذين ينتسبون في غالبيتهم الى الساميين الغربيين أو عامة الناس ، طبقة خاصة مُنحت اقطاعيات صغيرة دون أن تصبح ملكا خاصا لها • وكان هؤلاء وحدهم الملزمين بالخدمة العسكرية ، دون المواطنين من الأحرار اذ كانت أسماؤهم تُدوّن في ملفات العشيرة لهذا الغرض • أما أكابر الاقطاعيين فبقي حالهم كما كان عليه في العصور السابقة ، إذ شكلوا الى جانب الملك نفسه آلهة المدن ، التي تملك الاقطاعيات الواسعة وما يتبعها من معابد • وبقيت المعابد وكهنوتها لا تمثل فقط السلطة الدينية الأولى في البلاد وانما كانت تشكل أعظم قوة اقتصادية أيضا • وتبارت القوتان الرئيسيتان في الامبراطورية وهما الملكية والكهنوت أي القصر والمعبد في الصراع بين بعضهما ، وأحيانا نجدهما تتعاونان مع بعضهما في سبيل حماية مصالحهما المشتركة • أما حمورابي نفسه ، الذي كان أقوى ملك بين ملوك الساميين الغربيين ، فقد رأى ان من أولى واجباته والتزاماته الاهتمام بالآلهة ومعابدها في مختلف المدن • فهو لم يسمِّ نفسه عبثا « جامع القشور والبذور » في نيبور ومعيد بناء اريدو ومفرح قلب مردوك ، وباعث الفيضان الى اور ، ومسبب الرخاء لـ « آنوم » و « عشتار » • لقد بقي المعبد والقصر خلال هذه الحقبة عماد اقتصاد الدولة ، الا انهما لم يكونا آنئذ حملة اشتراكية الدولة كما كان عليه الأمر في العصور السابقة • ومع ذلك فقد اتبع كل منهما ضمن القطاع الخاص به مبادىء « اشتراكية » معينة • اذ لم يكتف « القصر » فقط بالحفاظ على اقطاعات جنوده ، بل استخدم كذلك (كما يتضح لنا من الوثائق التي وصلتنا

من مدينة لارزا) صيادي البحر ليصطادوا السمك ويبيعوا نتاج صيدهم لحسابه ، ومنحهم أيضا اقطاعات على شكل حقول زراعية • ولقد صُنف صيادو السمك الآخرون مع مربي الطيور وكانوا جميعا تابعين لمعبد لارزا ، ويخضعون لمراقبين يملكون حقولا أكبر بمرتين من حقول أولئك • لم يكن السماكون اذاً شأنهم شأن الفئات الحرفية الأخرى أحرارا في مهنتهم ، بل كانوا تابعين للمعبد أو للقصر • فنتاج أعمـالهم لم يكن لهم ، بـل يخص مكلفيهم ، ويجب تقديمه الى القصر ، كما كان يُقدم أيضاً صوف قطعان الملك أو محصول حبوب الأملاك الأميرية • وكانت جميعها تحفظ في مستودعات ضخمة يشرف عليها ويديرها موظفون يقومون بعملية المتاجرة بها ، كما هي الحال بالنسبة للمواد المستوردة من البلاد الأجنبية بواسطة قوافل الدولة • نعم كانت توجد مزارع خاصة بالساميين الغربيين الا ان الاراضي والعقارات التي يمنحها الملك للجنود والموظفين تبقى ملكا له دون أن يحق لهم التصرف بها علما بأنهم يستطيعون توريثها لأبنائهم •

وهكذا نرى ان الملكية والكهنوت وريثي منصب نائب الإله ، واللذين كانا منحصرين في يد اللوكال السومري متمسكتان باشتراكية الدولة في سياستهماالاقتصادية • وعلى العكس من هذا يجب أن يكون الشيوخ وأعضاء الأسر المتنفذة وكبار التجار المستغلين والحرفيين قد استوطنوا المدن وضربوا عرض الحائط بذلك النظام ، هـذا اذا لم يكونوا قد انخرطوا في فئات الكهنوت المختلفة فوجب عليهم نتيجة لذلك اتباع نظام المعبد الاقتصادي أو يكون لهم أملاك خاصة •

تبين لنـا دراسة مواد قانون حمورابي تقسيما آخر للمجتمع البابلي ، الذي لم يكن مقسما على اساس الوظائف والحرف أو رجال القصر والمعبد وحسب بل كان يضم منذ زمن طويل عدة طبقات ، على عكس ما كان عليه الحال في دولة الإله السومرية : فهناك الاحرار والخدم والعبيد الذين لا يختلفون فيما بينهم بالنسبة الى أوضاعهم الاجتماعية فقط ، بل توجد لكل منهم قوانين

خاصة به • فعلى سبيل المثال : ان تشويه أي عضو من أعضاء جسم مواطن حر (يسمى بالبابلية مار ــ اقيلوم ــ أي ابن الرجــل) يجب أن يُفتدى بالجزاء الكامل ، وفق مبدأ العضو بالعضو • أما تشويه عضو من أعضاء جسم الخدم (في البابلية موشكينو) فيفتدى بالجزاء المادي • لم يكن الخدم عبيداً ولكنهم شكلوا تلك الفئة التي تدين بحياتها اقتصاديا إلى أحد الأحرار أو إلى القصر • أما الضرر الذي يلحقه انسان بعبد ما فكان ذلك يعني الحاق الضرر بمالك العبد وفي هذه الحالة يجب التعويض على المالك •

لا يحدثنا قانون حمورابي عن تنظيمات المجتمع البابلي انطلاقا من الحرفة والمستوى الاجتماعي والطبقة فحسب ؛ بل يحدثنا أيضا عن آخر وأهم عناصر المجتمع ألا وهي الاسرة ووضعها القانوني • فهو ينبئنا عنها ، أفضل من أي مرجع آخر وصلنا عنها من العصور السابقة • يتم الزواج الذي يقود الى تأسيس العائلة بعد تنظيم عقد شراء خطي يدفع العريس بموجبه الى والد العروس المهر ، وبالمقابل تصطحب العروس معها الى بيت العريس الجهاز ! الذي يستفيد منه العريس أيضا ، ولكن دون أن يصبح ملكا له ، بل يعود الى الزوجة بعد وفاة الزوج أو الى الاولاد بعد وفاة الزوجة • واذا لم يكن لهما أولاد ، يقوم أب الزوجة باسترجاع الجهاز !• لقد كان الطلاق عند السومريين صعبا ، وكان يلقى في النهر بكل امرأة تطلب الطلاق من زوجها • أما الآن فيرينا قانون حمورابي بعد محاولات الاصلاح هذه مقابل القوانين القديمة تقدماً ملموساً • فباستطاعة المرأة الآن أن تطلق زوجهــا في بعض الحالات الخاصة ، وتعود الى عائلتها مصطحبة معها جهازها ! ، الذي اتت به معها من والدها • وكان يحق للزوج في السابق أن يطلق زوجته في أي وقت يشاءه ، على أن يدفع لمطلقته نصف مينة • أما الآن فنجده قد فقد شيئا من هذا الامتياز ، اذ ليس عليــه أن يدفع لزوجته المطلقة بدون ذنب جهازها وحسب والذي هو دوما أكبر من ثمنها بل زيادة على ذلك عليــه أن يؤدي لها نفقة معينة •

تتألف الاسرة من الاب وزوجته وأحيانا من زوجة اخرى وعلى الاخص عندما تكون الأولى عاقرا • وتعتبر الزوجة الثانية زوجة شرعية وأولادها أيضا • يبقى الاولاد الذين تنجبهم الأمَة غير احرار الى أن يعترف الاب بشرعيتهم وهذا ما قاد في هذه الحالة الى أن تضم الاسرة الواحدة أولادا غير أحرار الى جانب الاحرار منهم •

وبينما نرى ان حقوق الوالدين بالنسبة للاولاد وتحديد الارث مشابهة" كثيرا لقوانيننا ، نجد البابليين قد اهتموا كثيرا بالتبني • ان عـدم انجاب الاولاد بالنسبة الى البابلي لا يعني فقط خسارة مادية حيث ليس لديه من يعمل باجر زهيد ، وانما ينفعه بذلك بعد وفاته ساقياً لروحه في العـالم الآخر • ولهذا نرى ان الوثائق التي تتحدث عن تبني طفل ما بدلا من شرائه قد احتلت مكانا بارزا بين وثائق الدولة الاخرى التي تعود لهذا العصر •

هـ ـ الفن والـدين

لو قـُدر للمنقبين الأثريين في بابل التي كانت مدينة صغيرة في العصور السابقة والتي اتخذها حمورابي فيما بعــد عاصمة سياسية ودينية لملكه ، لو قـُدر لهم الوصول الى طبقات المدينة ، التي تعود الى عصر هذا الملك ، لاستطعنا تكوين انطباع أعظم عن الجوانب المختلفة من المجتمع البـابلي ، الذي كان حصيلة ألف عام من التطور مرّت به بلاد الرافدين • إن السبب في عــدم استطاعتنا الوصول إلى تلك الطبقات هو ارتفاع مستوى الميـاه الجوفية ، حيث حال دون الوصول الى تلك الطبقات ، والكشف عن آثار ذلك العصر ، لذلك لم يتمكن العلماء الا الكشف عن آثار العصر البـابلي الحديث • لذا يجب علينا أن نعتمد كليا على المكتشفات الاثرية التي عثرنا عليها في « ماري » و « اور » و « اشتشالي » لنكوّن لأنفسنا صورة عن عاصمــة حمورابي ولنعلم كيف كان شكل الابنية في بابل ، تلك الابنية التي تجسم ثلاثة عوامل رئيسية في المجتمع البـابلي ، وهي معبد مردوك وقصر الملك وبيوت الشعب •

نعرف معبدا اقليميا كبيرا من هذا العصر كشف عنه مؤخرا في منطقة الديالي بالقرب من بغداد ، في تل اشتشالي وهو لعشتار (انظر صورة رقم ٣٢) • ان اعظم قصر نعرفه حتى الآن ويعود الى هذا العصر هو قصر آخر أعداء حمورابي؛ انه قصر الملك زيمريليم في ماري في منطقة أواسط الفـرات • وبالمقابل تشكل ما يسمى بمدينة إي ــ زِنْ ــ لارزا في اور ، أي مدينة اور في عصر سلالات إي ــ زِنْ ــ لارزا أول وأقدم منطقة سكنية منعزلة ومصانة• كما وبقيت تماما بالشكل الذي كانت عليه في عهد ريم ــ زِنْ ، اكبر منافسي حمورابي • ومع ان المعابد والقصور واحياء المدينة كانت تختلف في بابل

عن هذه ، الا ان الاختلاف بينهما انحصر فقط في التفاصيل والجزئيات لا في الاصول والاساسات . لهذا يجب علينا أن نتصور بابل ، أي مدينة مردوك ، وقد نشأت من اتساع وازدياد نفس هذه المنشآت .

عندما يتيسر لنا الاطلاع على جزء من حياة الشعب ، عن طريق اكتشاف حيَّين شعبيين في اور ، نرى ان ذلك من النوادر بالنسبة الى الشرق القديم ، الذي يهيمن على حياته المعبد والقصر . ويعتقد المرء عندما يشاهد الازقة الضيقة والملتوية والمتقاطعة والمتلاقية ثم المتباعدة ، والتي تنساب بين البيوت المصطفة الى جانب بعضها والمشيدة على أراض خصبة قيمة ، يعتقد ان هذه الازقة هي اليوم أيضا أحسن تعبير عن الحياة الصاخبة في مدينة شرقية . والذي يدل على ان الاراضي ثمينة حقا ، هو استحالة حتى توسيع نقاط تقاطع الطرق لتصبح ساحات عامة . تقوم البيوت والحوانيت والمزارات على جنبات الازقة وتلتصق ببعضها دون أن تكون لها واجهات مطلة على هذه الازقة ولذا فهي تدير ظهرها الى الشارع وضجيجه وتنفتح نحو الداخل الا اذا دعت الحاجة الى غير ذلك . ان البيوت هي من ذلك النوع المعروف منذ أقدم العصور بـ « البيت ذي الفناء » ، الذي يتألف من جدار خارجي يصون البيت وتستند عليه من الداخل الحجرات والمضافة والايوان والمطبخ وحجرات اخرى . ويضم البيت في بعض الاحيان مزارا صغيرا ومذبحا خاصا . اما ساحته فتبقى مكشوفة دوما ، حيث تدور داخل هذا الاطار مراحل الحياة اليومية . ويتصل البيت بالشارع بواسطة باب فقط . فهو منقطع عن العالم الخارجي تماما كمعظم البيوت الحديثة الشرقية. أما ما يتجه الى الشارع فانها حوانيت الحرفيين الصغار والبائعين المتجولين .

وبين بيوت السكن والحوانيت تقع مزارات عامة ، التي هي مقدسات في الدرجة الوسطى من الاهمية بين المعابد الرسمية ومزارات عبادة الجدود في البيوت الخاصة . وليست هذه المزارات العامة سوى مقدسات صغيرة ، خصصت لآلهة ثانوية ، أي أولياء التفت حولها قلوب عامة الناس . ومن بين

هذه الآلهة الثانوية هي هندورز انجا المعروفة في التراث الادبي والتي تحمي وتقف الى جانب جوالة الصحراء ويقدم لها سكان اور والغرباء القادمون اليها الهدايا ، التي تحفظ في مستودع خاص يقع في الغرف الامامية من معبد المدينة .

لقد تم تأريخ معبد اشتشالي (انظر صورة رقم ٣٢) البلدة الصغيرة التي تبعت مملكة اشنونا في عصر حمورابي ، بالاستناد على ختم الملك ابيق حدد الثاني بن إبال بل الاشنوني ، وكان هذا المعبد نذرا لعشتار كما ورد في الكتابة المنقوشة على الختم الاسطواني المذكور ؛ ويعتبر هذا المعبد من أحسن نماذج المعابد البابلية القديمة . فهو عبارة عن مجمع مستطيل الشكل تبلغ مساحته ٧٠ × ١٠٠ م ويحتوي على ثلاثة معابد تستند الى جدارين من فناء امامي ضخم مشكلة معهما زاوية قائمة . أما المحراب فيقع على سوية أعلى من تلك التي للفناء الامامي . والشيء الهام بالنسبة لتاريخ العمارة هو اختلاف طراز بناء المحاريب الثلاثة في هذا المجمع . فبينما نرى ان نموذج المحراب العرضاني، الذي ظهر سابقا في دور سلالة اور الثالثة والذي ساد في العصر البابلي ، قد استعمل في المعبد الرئيسي وفي أحد المعبدين الجانبيين نشاهد ان أساسات محراب المعبد الجانبي الآخر قد اتخذت شكلا مغايراً ، حيث يتألف ذلك من حجرة طولانية يزيد طولها عن عشرة امتار مع مقصورة في صدرها . يعتبر هذا المحراب نموذجا جديدا كل الجدة في مضمار بناء المعابد البابلية وهو النموذج الرابع الذي يأتي في ختام المعبد ذي الفناء المستطيل أو المعبد ذي المحراب العريض . وهنا نجد أنفسنا من جديد أمام لغز يصعب حله ، يتجسم في السؤال عن العوامل التي تكمن وراء هذا التطور الجديد ! . هل هي عوامل شعبية أم دينية أم ان مصدرها يعود الى تغير طرأ على الاعتقاد بالآلهة ؟ . ومهما يكن من الامر ، فانه من المستحيل بعد الآن أن نربط بين هذا الاكتشاف الجديد في اشتشالي وبين قدوم الشعوب الشمالية الى ما بين النهرين تلك الشعوب التي اجتاحت المنطقة منذ منتصف الألف

الثانية ق•م • ولهذا لا يجوز الربط اذاً بين هذه الشعوب وبين المعبد ذي المحراب المستطيل • أما اذا أردنا أن نعيد سبب نشوئه الى دخول شعب جديد الى المنطقة فلا يمكن أن يكون هذا الشعب الا من الساميين الغربيين• ان مجمع عشتار كيتيتو في اشتشالي لا يحوي معبداً عالياً ، أي زيقورة ، كما سوف لا نعلم شيئا على الاطلاق عن زيقورة مردوك في بابل التي بُنيت في عصر حمورابي ، لانها تهدمت مع ترميماتها وما أضيف عليها فيما بعـد حيث لم يبق منها الا الاساسات • الا ان الزيقورة كمعبد عال ، بقيت مستعملة بالتأكيد في هذا العصر التاريخي العظيم اذ نجد مثلا ان زيقورة نانّا في اور قد جددت وإنْ كان شكلها لم يتغير كثيراً عمّا كان عليه في عصر سلالة اور الثالثة • ان الدأب على بناء المعابد ، الذي يعود الفضل فيه الى قوة الكهنوت في جميع العصور والذي هو أيضا الشعار العملي لعالم الغيب في جو بلدان الشرق الأدنى ، لم يتغير في هذا العصر أيضا بل احتل مكانة مرموقة بين مختلف المظاهر الحضارية الاخرى • ومع ذلك فانه ليس من نافلة القول الاشارة الى ان هذا العصر قد وجد لنا قصوراً هامة على عكس أي عصر تاريخي آخر •

لا تتوقف أهمية قصر زيمريليم في ماري ، بما فيه من مكتبة للرقم وآثار منقولة وتلوينات جدارية على انه فقط من أهم المكتشفات التاريخية في الربع الثاني لهذا القرن بل لكونه أيضا آبدة تاريخية عظيمة تشهد على عظمة الملكية في معتقد الساميين الغربيين لهذا العصر المزدهر • ومع هذا فـ«زيمريليم» ليس الا واحداً من المتنافسين الثانويين للفوز بقيادة ذوي الرؤوس السوداء ؛ ولذا لم يكن هدفه قط بسط النفوذ السامي الغربي على كافة بقاع ما بين النهريـــن •

لقد شيد هذا القصر ، الذي هو عبارة عن مجمّع ضخم على أرض مساحتها حوالي الهكتار الواحد • الا انه لم يُبن دفعة واحدة وفق مخطط منظم بل نشأ مع السنين من التصاق أبنية خاصة مختلفة واتصالها ببعضها ،

ولذا فهو يختلف تماماً عن قصر آخر ملك معاصر له هو شمشي ــ حدد الأول في مدينة آشور • ومع انه لم يبق من هذا القصر الاخير سوى أساساته فاننــا نستطيع أن نستدل منها على ان البناء قد صُمم ونُفذ دفعة واحدة على غرار مبنى نارام ــ زِن° في تل براك • فبينما نرى ان شمشي ــ حدد قد جمع اقسام قصره المختلفة ضمن مربع أُعد سابقا لهذا الغرض ، نجــد بالمقــابل ان أقسام قصر ماري ذات المنــافع المختلفة قد ألحقت وضُمت الى بعضها دون الاعتماد على تصميم سابق بل حسب الحاجة وطبيعة الارض وتمشيا ومطالب الملكية السامية الغربية وحاجاتها • فهذا القصر ليس مسكناً ملكياً وقلعة وحسب بل يضم أيضا مستودعات ومراكز إدارية حكومية ، بالاضافة الى ان بعض أجزائه تعكس لنا عظمة الملكية •

فلو تساءلنا عن شكل ومخطط قصر حمورابي في بابل لرجحنا القول بانه كان يشبه قصر زيمريليم في ماري أكثر مما هو شبيه بقصر شمشي ــ حدد في آشور • اننا نعلم ان أفكار نظام ملكية شمشي ــ حدد قد استُقيت من نظام ذلك الملك الاكادي العظيم نارام ــ زِن° ، وهذا ما يفسر لنا تشابه هذا القصر مع قصر نارام ــ زِن° في تل براك • وعلى العكس من ذلك لم يُلق حمورابي مباشرة أهمية على فكرة حكم العالم كمــا حددها « زارجون » أو « نارام ــ زِن° » • إننا نعتقد بان قصر حمورابي قد حوى أيضا الى جانب الحرم الملكي ومستودعاته الضرورية ، مثل قصــر زيمر يليم في ماري ، جناحا للمكتبة الذي كان بنفس الوقت مقراً للادارة وكذلك مستودعات ضخمة للمبادلات التجارية الملكية الى جانب بيت مقدس خاص للعبادة • وبالاضافة الى ذلك فقد ضم بين جوانبه أيضاً ساحات وصالات كبيرة كان يظهر بها الملك كحاكم وقاضي أمام جماهير الشعب •

أما الشيء الذي لا نستطيع معرفته ، فهو ما اذا كان حمورابي قد زين جدران ساحات قصره باشكال ملونة من الداخل كما فعل زيمريليم • ومن جهة اخرى تدلنــا نتــائج الحفريات الحديثة ان التــلوينات الجدارية تقليد عــريق

في بلاد ما بين النهرين وان هذا الفن قد وصل في عصر فجر التاريخ الى درجة معينة من الرقي والتقدم • لذلك يمكن للمرء أن يفترض بان الفريسكو في قصر زيمر يليم انما هو استمرار لهذا التقليد ، وان مبعثه ليس نتيجة التأثير الإيجي • وعلى هذا يمكننا الافتراض أيضا بان قصر حمورابي في بابل قد حوى أيضا مثل هذه التلوينات الجدارية • لقد حفظ لنا قصر زيمر يليم أجزاء من تلوينات جدارية تمثل موكبا دينيا يشترك فيه أناس غرباء ، تدل ملامح وجوههم وملابسهم على انهم من الساميين الغربيين (انظر صورة رقم ٣٣) • يمثل المشهد الرئيسي الذي هو عبارة عن صورة كبيرة تقلد سجاد حائط ، الاحتفال بتنصيب الملك زيمر يليم على العرش من قبل الإلهة عشتار واقفة على أسدها يحيط بها مشهد اطار يضم أشجاراً وحيوانات عادية وحيوانات خرافية وآلهة وماء ، على شكل يقود الى الاعتقاد بوجود تأثير أجنبي •

أما فيما يخص المجال الادبي فلم يصلنا الا القليل من التراث الادبي الحقيقي لعصر سلالات « إي ــ زِنْ » و « لارزا » و « بابل » ، ومع ذلك يمكن لنا أن نجزم ، بان هذا التراث الادبي لا يمثل الا مرحلة التحول عن الأدب السومري القديم الجامد ، الذي كان لا يزال عالقا في أذهان رجال العلم ، الذين جمعوه ودرسوه ثم ترجموه الى شعر اكّادي بلغ الذروة بسرعة فائقة • لقد بقيت اللغة السومرية لغة العبادة المقدسة واستُعملت أحيانا في تدوين بعض الوثائق الحكومية التي أصبحت تترجَم فيما بعد الى الاكّادية • اما حمورابي فقد سطر قانونه بالاكّادية حتى يستطيع كل فرد فهمه• وبالنسبة الى التعليم فقد ألِّفَت معاجم لغوية ، وكتبت قواعد تضم بعض الجمل السومرية المكتوبة التي تُرجمت الى الاكّادية ودُونت بها • لقد جرى جمع نصوص المزامير والصلوات والتعاويذ والسحر كذلك الاساطير والملاحم الشعرية باللغة السومرية في دور اليقظة السومرية الاخيرة أثناء عصر سلالة اور الثالثة وحتى في عصر « إي ــ زِنْ » و « لارزا » • كما وُجد الى جانب مراثي تموز السومرية وانشودة عيد رأس السنة بالسومرية لـ « اناتّا »

إلهة مدينة إي ــ زِنْ° والتي تعود الى عهد الملك إدِّبن ــ داجان الإيزيني ٌوجد مزمور لمردوك بالاكَّادية ُيستدل من أفكاره على انه يعود الى عصر حمورابي ، خاصة وان الفكرة الاجتماعية العميقة التي يمثلها تنسجم انسجاما تاما مع روح العصر الجديد ، أي مع عقيدة حمورابي الملك المرسَل الذي كرس ملكه لخدمة البشرية .

تثبت هنا نص ابتهال مردوك كُتب بلغة شبيهة بتلك التي كتبت بهـا حواشي قانون حمورابي أي مقدمة وخاتمة القانون :

. . . .

جليل ، عظيم أنت يا ابن البكر لـ « ايـا » ،

. . . .

يا راعي البلاد ، الذي حمى كافة الشعوب مهما بعدت ،
ايها الحاكم المطلق لكافة اماكن العبادة ،
يا من اسمك على لسان جميع البشر بالمديح والخير !
يا مردوك ايها السيد العظيم ، بأمرك الأميري
علني أبقى سالما صحيحا ، لاسبح بحمد الوهيتك !
اجعـل رغبـاتي تتحقـق !
اجعلنـي انطق بـالحق !
اجعـل الخـير يسـكن فـي قلبي !
يجب أن يبشـر الحرس والرسـل بالخـير !
اجعل وليِّي ، الإلـه ، أن يقف الـى يمينـي !
اجعـل وليتي ، الإلهـة ، أن تقف عـلى يسـاري ،
لعل الإله الذي يبقيني سالما ، أن يبقى الى جانبي دوماً !

. . . .

يامردوك ، أيها السيد العظيم هب لي الحياة ؛
واجعـل الحيـاة تنطق فـي نفسـي ؛

وأن اظهر أمامك مبتهجا أشبع نفسي من الدوران حولك •

كذلك يجب أن تكون الملحمتان الرئيسيتان في الانتاج الأدبي لبلاد مابين النهرين ، وهما ملحمة الخليقة وملحمة جلجامش قد ظهرتا بشكلهما الكلاسيكي النهائي في عصر حمورابي وكتبتا باللغة الاكّادية مع الاشارة الى ان جذورها والحانها تعود بالتأكيد الى العصر السومري • يمكن أن نستنتج من وضع ملحمة جلجامش ، ان جزءا من رقمها على الاقل ، يعود الى العصر البابلي القديم • أما فيما يخص ملحمة الخليقة حيث لا بد وأن يكون بطلها في العصر السومري سيد العالم وخالقه إنّيل إله نيبور ، فتعود أيضا الى هذا العصر نظرا للدور الذي يلعبه فيها مردوك ، الذي كان بالاصل إله بابل المحلي • ومنذ أن أصبح هذا الأخير إله الامبراطورية نجده قد احتل مكانه في اسطورة إنّيل كموجه للعالم •

وبينما تشكل ملحمة جلجامش انتاجا فنيا شعريا ، أكثر من أنها تعبر عن وثيقة دينية ـ هذا اذا أمكن الفصل بين الامرين في الشرق ـ تكون ملحمة الخليقة أقرب الى نوع الأدب الكهنوتي الفلسفي الديني • انها قصة التكوين البشري الرسمية الحكومية المعتبرة ، وعلى هذا الأساس يجري تقويم درجتها الروحية في كل عصر : فملحمة الخليقة ُتعتبر وثيقة هامة جدا بالنسبة الى تاريخ العصر ، فهي ترشدنا الى تنظيم آلهة العالم الأكثر قدما وطريقة عبادتها حسب ما ارتأته الحكومات وترينا تكوين العالم وطريقة حكمه ، وتدلنا على طريقة الأعمار والأقدار وأخيرا تعلمنا أيضا كيف ُخلقت البشرية وُأسست الملكية • ان ملحمة جلجامش عمل شعري يسمو على الزمن ، وهي أيضا أقدم ملحمة بطولية في التاريخ ، وُتعتبر من حيث التركيب مثالا يُحتذى به في الملاحم • ومن حيث الموضوع تتناول أيضا المشكلة الأزلية ، التي تهم الجنس البشري ، أي مشكلة الحياة والموت وبالتالي جدوى الوجود الانساني أو عدم جدواه ومن ثم خلق وفناء الانسانية على أيدي الآلهة •

ان المشكلة الرئيسية ، التي تدور حولها ملحمة جلجامش هي بلوغ مرتبة الحي الذي لا يموت وذلك بعد التعرف على الموت • لقد عولجت هذه المشكلة و'حلت على نحو يجعل من هذه الملحمة الشعرية الرفض القاطع لعقيدة تموز — اتّين ، وعلى الأخص ما يتعلق منها بالملك الذي 'يبعث ثانية بعد الموت • ويعود جزء من أسباب هذا الرفض الى ان علاقات أخلاقية واجتماعية معينة كانت غريبة عن الديانة السومرية المتمثلة بالهة الأمومة وعشيقها تموز •

كان جلجامش ملك اوروك الأسطوري وذلك شأنه شأن تموز • وكان يمثل الصورة الأولى والصادقة لقوة الحياة ، وقد استغل رجال ونساء مدينته وشيد بتسخيرهم في العمل أول سور مدينة في العالم • لقد 'أحضر إنكيدو ، بطل البادية المتوحش الذي يعيش مع الحيوانات ويذهب معهم الى مناهل المياه، ليشل قوة جلجامش ويلهيه • وهنا أعادت عاهرة الى إنكيدو الشعور بالحياة والقوة ، مما دعا حيواناته للهروب منه ، وعندما حضر الى أوروك ليبارز جلجامش ، انتهت هذه المبارزة بين القوتين المتعادلتين الى وفاق وصداقة ، حيث بدلاً من أن يتقاتل الاثنان اتفقا فيما بينهما على تحطيم الشرير خوم — بابا في غابة الأرز الكبيرة وذلك لخير البشرية • اما مساعدهم في عملهما البطولي هذا فكان الإله شمش ، الذي خول حمورابي أيضا اصدار اصلاحاته التشريعية لخدمة الانسانية • وهنا تدخلت كبيرة آلهة الحياة عشتار السامية نديدة اتّين في اوروك في شؤون حياتهما ، ووعدت جلجامش بأن تقدم له نفس الامكانيات ، التي قدمتها لتموز في سبيل الوصول الى الحياة الأزلية • وهنا يرفض جلجامش الذي اخلص لصداقته مع إنكيدو هذا العرض المقدم من الإلهة • وهنا يتطاول إنكيدو على الإلهة وينزل تجريحا بعشاقها ، ومن بينهم تموز • وما أن نفذ صبر الإلهة حتى صممت على الأخذ بالثأر فارسلت ثور السماء لمنازلتهما ومصارعة البطلين اللذين انتصرا حقاً على ذلك الثور بحيث قذف إنكيدو بفخذ هذا الثور على الإلهة • غير ان هذا التصرف كان بمثابة حد 'وضع لحياته •

ومع انتقال إنكيدو ، أعز أصدقاء جلجامش ، الى الحياة الآخرة ظهر في جلجامش ولأول مرة الاحساس بالموت والشعور بعدم جدوى الحياة الدنيا التي لا تدوم ، وأصبحت مهمته الكبرى ، بعد تأبين الفقيد إنكيدو والاحتفال بدفنه تتركز في العثور على الحياة الأزلية سواء أكان في الحياة الدنيا أو في الحياة الآخرة .

فبعد أن رفض البطلان ـ جلجامش وإنكيدو ـ طريق تموز ، أي الارتباط بالأم الكبرى اتّين ، جرب الآن سلوك الطريق التي يسيرها يومياً وليثه الإله شمش ، والتي تقود عبر العالم السفلي من الغرب الى الشرق ، أي طريق غيابه وظهوره اليومي من جديد ، إذ اتخذ إله الشمس لنفسه ، منذ العصر الاكادي دور تموز حامل لواء العقيدة بتجدد الحياة الدائم . ولقد تمكن جلجامش حقا ، من الوصول الى مكان ظهور الشمس اليومي ، بعد مسيرة لا نهاية لها عبر الظلام . وهنـاك على شاطىء المحيط الذي يموج بمياه « الأموات » الواسعة تقع حديقة الآلهة ، حيث تزهر الاشجار وتحمل ثمارا من الحجارة الكريمة وعلى الشاطىء الآخـر توجد جزيرة أهل الجنة حيث يعيش أوتنا ـ بيشتيم ، الـذي يعتبر نوح الاكاديين والسومريين ، وحيدا متمتعا بالحياة الأزلية . واليه يرغب جلجامش ليطلب منه عشبة الحياة . فتحاول ساقية الآلهة مـرة أخرى اقناعه بعدم جدوى رحلته اذ تتكلم اليه ، قبل سفره الطويل الى أوتنا ـ بيشتيم ، تلك السفرة التي قرر القيام بها بمساعدة البحار اورشانابي . وهنا تحدثه كلاما يُعتبر من صلب مبـدأ التشاؤم الذي يسيطر على موضوع الملحمة . انه لنفس مبدأ الملاحم البطولية المعاكس لفكرة أبطال الاعتقاد السري الأرضي الغامض، هؤلاء الابطال الذين يقدمون للناس فكرة الاعتقاد بعدم الفناء . نعم انه حتى نفس مبدأ التشاؤم بالحياة الذي امتزج باشعار هومير الجرمان البطولية :

« جلجامش ! الى أين المسير ؟
لن تجد الحياة التي تبحث عنها !
عندما خلقت الآلهةُ البشرية ،
خصتها بالموت ،
وتركت الاعمار بأيديها .
انت جلجامش ، علكتكون مُشبَع المعدة
علك تفرح ليلا نهارا !
أقم كل يوم حفلا مبهجا !
ارقص والعب في الليل وفي النهار !
ثيابك نظيفة ورأسك مغسول !
عليك أن تغتسل بالماء !
انظر الى الصغير على يدك
والزوجة تجد المسرة في احضانك ! »

أما أوتنا ـ بيشتيم ، الانسان الوحيد الذي أنقذه ايا بدافع العاطفة الانسانية من الطوفان ، وزوده بعشبة الحياة الخالدة فقد قال لـ « جلجامش » بكلمات أخرى نفس ما ورد أعلاه :

« لا يُصد الموت المكروه :
أنبني هنا بيتا على الدوام ؟
أنبقى هنا على الدوام ؟
أنتآخى هنا الى الأبد ؟ » .

ومع ذلك فقد عطف أوتنا ـ بيشتيم على البطل فزوده بالعشبة العجيبة التي تُخلّد الشباب ، الا ان أفعى سرقتها منه أثناء العودة . وهكذا عاد بطلنا خائبا الى اوروك بعد جهد جهيد ليجد عزاءه في صرحه الكبير الأزلي ، انه سور المدينة الذي بناه ، **مؤمنا بالنهاية ان العمل اخلد من الانسان !** .

لاتشكل أفكارملحمة جلجامش معنى اقليميا وانما انسانيا بصورة عامة و يعتبر محتواها وثيقة تسمو على الزمن ، انها لعميقة المعنى بالنسبة الى نظرتها الكونية انها عالمية اكثر منها شرقية • يظهر ان الشاعر الذي وضعها باللغة الاكادية كان من عبّاد إله الشمس ، ومع ذلك فهو لا يدافع عن عبادة آلهة الدولة الكوكبية كما انه لا يتعصب لتعاليم تموز ــ اتّين ، أو عقيدة شمش الباطنية • وكذلك يبدو وكأنه قد تجنب بصراحة التعرض لمواضيع اخلاقية ، رغم بعض الغضب الذي يبديه ضد النواحي الخلقية في عبادة اتّين أي عشتار • فهو بهذا يخالف ما توخاه حمورابي في نصوص مقدمة وخاتمة شريعته • ان الآلهة التي ترد في اسطورته ليست من المخلوقات ذات الكمال غير المدرك أو قدوة للانسان في النواحي الخلقية ، بل انها تتأثر بالعواطف والمزاج والارادة الانسانية وتنساق معها تماما كما هو الحال بالنسبة لبقية الآلهة في الاساطير السومرية ــ الاكادية • ورغم سعة انتشار ملحمة جلجامش تظهر نسختها الاكادية وكأنها اجنبية لا تنتسب الى الأدب المقدس الحكومي الكهنوتي •

لقد كانت ديانة ما بين النهرين ، منذ فجر التاريخ ، مرتبطة بالسلطات المحلية التي فرضت على البلاد تقسيمات سياسية معينة • ولهذا كان مجمع الآلهة السومري مؤلفا من عدد كبير من الآلهة المتجانسة التي منها ما يمثل الطبيعة والكواكب ومنها ما يخص المقاطعة أو المدينة أو العائلة • ثم خضع الاتجاه اللاهوتي بالطبع الى سياسة الدولة الخاصة التي تقضي بتوحيد الديانة وتجميع السلطات المدنية • الا ان الأشياء التي تحققت في المجال السياسي خلال قرون ، ولو عن طريق الصراع المرير الداخلي والخارجي من أجل وحدة الأمبراطورية البابلية ، بقيت بعيدة المنال على الصعيد الديني • لان قوة المعابد الاقليمية والكهنة المشرفين عليها كانت تعمل دوماً ضد هذا الهدف • وحتى في عهد حمورابي هذا ، الذي وصل فيه تمركز السلطة السياسية أشدها وبدأ فيه التنظيم الديني وتصنيفه ، فقد حافظت الديانات

المتعددة في المدن على أهميتها التامة . واكبر دليل على ذلك انما هو مقدمة شريعة حمورابي حيث يصف نفسه في هذه المقدمة على أنه رسول وحامي كل ديانات المدن القديمة في جميع أنحاء البلاد . وقبل حكم الساميين الغربيين للبلاد ، كان قد جرى ترتيب كبار الآلهة فوضع كل في مقامه ، وصُنفوا حسب مبدأ فلسفي اتخذ العلاقات الموجودة في العائلة البشرية قدوة له . اذ صنفوا في فئتين ثالوثيتين : السماء (آنو) ، الأرض (إنّيل) ، الماء (ايا) ؛ يقابلهم القمر (زِن°) ، الشمس (شمش) ، والزهراء (عشتار) . كما حُددت في ذلك الوقت أيضا رئاسة مجمع الآلهة هذا ، فكان إنّيل إله مدينة نيبور كبير الآلهة ، فهو خالق العالم وموجهه . و«إنّيل» هذا ، هو الذي قاد هذا الجيل من الآلهة السماوية في كفاحه من أجل تنظيم الكون ضد قوى العالم الأسفل القديمة وعلى رأسها تيامات التي تمثل المحيط ، فأنقذهم بذلك وبنفس الوقت استولى على رُقم الاقدار .

وخطا بعد ذلك توحيد مختلف المعتقدات الدينية خطوة جبارة أخرى تمثلت في شخص مردوك ، الذي كان بالأصل إله مدينة بابل . ان تطور سلالة الساميين الغربيين ، الذين استوطنوا المدينة الاقليمية بابل وبالتالي تسلمهم السلطة نهائيا في الامبراطورية ، التي كانت عاصمتها بابل ، ترك أثره في ملحمة خلق العالم وذلك بتنازل إنّيل عن ملكية مايسمى بـ«إنّيلوتوم» أي الآلهة الى الإله الشاب البطل مردوك إله بابل . فبينما كان إنّيل فيما سبق قاهر قوى الفوضى التقليدية ومحتم الاقدار ، أصبح يُنظر الآن الى مردوك كمنقذ لنسل الآلهة الجديد ، أي آلهة النظام ، من جور تيامات الفظيع وحلفائها قوى الشر . ان الذي منح مردوك الحق لأن يكون ملكا على بقية الآلهة هو قوته ودهاءه وليست نزاهته الساميَة العالية .

فاذا ما أراد مردوك الخروج الى القتال انتزع الموافقة علـى الاعتراف بسلطته من قبل الآلهة مجتمعين في حفلة احتسوا بها الخمرة حتى ثملوا . وبعد أن انتزع آلهة الفوضى رُقم الاقدار مهرها بالختم وربطها الى صدره ،

حيث انصرف بعدها الى خلق الكون ومن بعده الانسان • لقد تسلم مردوك جميع سلطات إنّيل فتغيرت بذلك كامل طبيعته : فعندما كان إلهاً محليا اتخذ بالاصل مظهرا من مظاهر إله الشمس الذي قد يكون إله شمس الربيع • ثم اتخذ من هذه الصفة الأصلية سبيلا للوصول الى تجسيم صفات أخرى في شخصه ، وبينما كان إنّيل يمارس الملكية على الآلهة الكبار كرأس ثالوث الكون : السماء والأرض والماء ، كان إله الشمس « شمش » لا يشكل فقط ذروة ثالوث ثان هو ثالوث الكواكب ، الشمس والقمر ونجمة المساء بل احتكر لنفسه أيضا دور الإشراف على عبادة العالم السفلي • وكما رأينا سابقاً كان شمش يمثل في بعض الأحوال أحد مظاهر الاعتقاد القديم بالدورة الحياتية من موت وحياة بسبب الجمع بين عبادة النجوم وعبادة الخصب • وبما انه كان لمردوك صفة إله الشمس بالأصل ، لذلك لم يصعب عليه فيما بعد أن يجسد بشخصه هذه الجوانب من التفكير الديني ، وأن يمثل الشعور بها • وهكذا جمع في شخصه اوسع المعتقدات الدينية وطبائعها خاصة في جو كجو بلاد ما بين النهرين الذي كان مهيئا لذلك • لقد جمع في شخصه كل شيء عرفته وقدمته المعتقدات الثلاث الرئيسية ، الاعتقاد بالخالق سيد العالم ، بسيد السماء ، وأخيراً بباعث الحياة والموت • لقد وضح هذا من خلال التنظيم اللاهوتي أو التسلسل الإلهي الذي جعل فيه مردوك ابن ايا أي أخ تموز • ومع اننا لا نعرف مردوك كاله يموت ويحيا الا من نصوص متأخرة ، فانه مما لا شك فيه ، انه قد انتحل هذه الصفة في عهد حمورابي إن لم يكن في عصر سابق له ••

وهكذا تلتقي في شخص مردوك كافة المعتقدات الدينية الكبيرة في بلاد ما بين النهرين حيث يمثل مردوك بذلك قمة التطور في المعتقدات البابلية• غير انه يجب علينا أن نبين انه لا يمثل قيما أخلاقية وصلت درجة أعلى مما مثلته الديانات السابقة • ومع انه يبدو ان الاخلاق الدينية قد برزت في مقدمة قانون حمورابي وفي الاشعار الدينية الاخرى ، الا اننا نرى الربط بين الاخلاق والديانة انما قد تم في حقبة زمنية لاحقة •

خامسا ـ زوال الامبراطورية البابلية في عهد خلفاء حمورابي

ولمحة عن تاريخ السومريين والاكاديين والبابليين

وصلت سلطة الساميين الغربيين السياسية في بلاد ما بين النهرين القمة في عهد حمورابي وارتقت أيضا بنفس الوقت المدنية السومرية ـ الاكادية التي بلغت الألف سنة من العمر في هذا العهد حتى تبوأت آخر درجات كمالها . الا انه فبقدر ما كان الطريق الى هذا وعرا وصعبا كان السقوط سريعا ومفاجئا . حقا لقد تعدد حكام الساميين الغربيين الذين أتوا بعد حمورابي وتربعوا على عرش بابل حيث حكموا أكثر من قرن ونصف من الزمن غير انه كان على هؤلاء جميعا أن يواجهوا الأعداء في الداخل والخارج دون أن يتحقق لهم النصر في النهاية لضعفهم ولأن قوتهم لم تكف لاحراز هذا النصر . فمنذ بداية هذه المرحلة الثانية من التاريخ البابلي ظهرت غيوم سوداء فوق رؤوس هؤلاء الحكام مصحوبة بعواصف رعدية فسبب نزولها الدمار الشامل . لم تكن الهجمات التقليدية الموسمية الاعتيادية التي تأتي من الشرق أو من الغرب هي المسببة لذلك بل كانت هجرات بشرية عارمة اجتاحت غرب آسيا من البحر الأبيض المتوسط حتى الخليج العربي .

لقد ترك الضغط الشرقي أثره في عهد سمسو ـ إلونا بن حمورابي ، واستغل الأعداء الداخليون هذا الضغط لمصلحتهم ، مما دفعه لأن يصدر في السنة الثانية من حكمه قانونا خفض بموجبه الضرائب قاصداً من وراء ذلك تخدير أعصاب الشعب . وكان عليه أن يقاتل طلائع الكاشو التي انحدرت من شعوب مناطق الحدود في السنة التاسعة لحكمه . وكان موطن هؤلاء

كالجوتيين في جبال ايران المجاورة وعلى وجه التقريب في منطقة لورستان • ولم يكن هذا هو الاعصار بعينه بل بوادره ، اذ ظهر من جديد وفي نفس الوقت ريم ـ زِنْ الذي قاد الاجانب من الجبال ودخل بهم البلاد وتمكن من البقاء في الجنوب ردحا من الزمن • ونحن لا نعرف فيما اذا كان ريم ـ زِنْ هذا هو نفسه ريم ـ زِنْ الأول عدو حمورابي التقليدي أو قريبه • ولقد استطاع سمسو ـ إلونا أن يردع الخطر ثانية • وبعد حين تحرك عدو ثان هو إلوما ـ إلو وريث آخر حكام سلالة إي ـ زِنْ الذي ثبت أقدامه أولا في الاقليم المسمى بـ « بلاد البحر » في تلك المنطقة المستنقعية على الخليج العربي ثم أخذ في التوسع نحو الشمال حتى وصل نيبور • لم يعد بالامكان تغيير هذا الأمر الواقع فانقسمت الامبراطورية من جديد الى قسمين منفصلا عن بعضهما بسلسلة من التحصينات • لقد أسس إلوما ـ إلو في بلاد البحر سلالة استقلت في سلطتها قرونا عديدة من الزمن •

لم يأل ابن سمسو ـ إلونا ولا خلفاؤه الثلاثة جهدا في الحفاظ على الامبراطورية من الداخل والخارج • وطرأ في عهد سمسو ـ ديتانا حدث لم يجلب لفاعليه نجاحا دائما وانما رمز الى ذلك الوضع المتغير كليا أو بالاحرى المقلوب رأسا على عقب في الشرق الأدنى ، اذ قبل قرون غزا زارجون الاكادي آسيا الصغرى واجتاز طوروس ، اما الآن فنرى قائد جيش بربري يأتي من منطقة مجهولة تماما ليسلب حياة وعرش آخر ملك بابلي • انه مورشيلي الأول من حاتّوشا على نهر الهاليس الذي أخذ معه الغنائم الكبيرة الى بلاده البعيدة • وبهذا تداعى وانهار صرح زارجون وحمورابي •

لقد انبثقت عن مجتمع القرية الفلاحي المتطور ، الذي ساد بلاد غرب آسيا من شمال بلاد الشام حتى الهضبة الايرانية ، انبثقت عنه قبل ألف عام تقريبا ، أي في القرون الأولى للألف الثالثة ق٠م حضارة راقية قوية مركزها الأراضي المنخفضة على الخليج العربي وروائدها الشعب السومري

الذي لا يُعرف منشأه ولا يمكن ربط لغته بلغة أي شعب آخر . كما عرف هذا الشعب كيف يحول بدفعة واحدة حضارة المجتمع الفلاحي التي سادت عند نهاية العصر الحجري ــ النحاسي ، الى حضارة متطورة زاهرةوعرف كيف يختار لمجتمعه شكلا فرضته عليه لحد ما طبيعة الأراضي الزراعية . لقد انتظم الفرد والجماعة في هذا المجتمع ، وتنسقت مصالحهم الروحية والمادية على نحو متكامل . ومن خلال هذا الترابط بين الإله والدولة والشعب رأى الفرد من واجباته بانه انما يعيش لنفسه وللمجموع ، وانه أمَّن على حياته ومستقبله . وكتعبير عن هذه العقيدة في فهم العالم ظهرت أول الأوابد العمرانية وأقدم المنحوتات ذات الصبغة القصصية وأول كتابة معروفة.غير ان الدوافع الغريزية عند كل فرد وطموحه نحو التطور والتبديل كانت تقف باستمرار عائقا أمام هذا الوضع المثالي للمجتمع الذي يقوم على أسس اشتراكية الدولة التيوقراطية (الدينية) . وزاد في ذلك حدة وجود جماعات غير سومرية في البلاد . لقد عاش السومريون مع الساميين بالتأكيد منذ زمن طويل وكان الساميون بدوا في بادية الشام واتصلوا بالحضر عن طريق المقايضات الاقتصادية الضرورية ، ثم اخذ هؤلاء في التحول تدريجياً الى حضر ، واستقروا على الأخص في الاجزاء الشمالية للجزء الجنوبي السهلي من بلاد ما بين النهرين عند موقع مدينة اكاد ، حيث شكلوا هنا الأكثرية منذ زمن بعيد . ولم يمض وقت طويل حتى توتّر الوضع بين السومريين ودولتهم وأفكارهم الدينية من جهة وبين الساميين سكان البادية من جهة أخرى الذين لهم أفكارهم الخاصة التي تقوم على أساس حرية الفرد منسجمة وطبيعتهم في حب الغزو والتنقل غير المشروط . فهي تترك للفرد حرية العمل وجمع الثروات من جهة ، بينما تميل من جهة أخرى الى فرض الارادة الخاصة على الغير . وعندما أخذت العقلية السومرية التنظيمية تدور في حلقة مفرغة وتميل نحو الزوال وبالتالي عندما عجزت عن تلبية المتطلبات والرغبات الخاصة سارع

الساميون الاكاديون من جهتهم الى اتخاذ الاجراءات الضرورية الحيوية والواقعية في هذا المجال ليسدوا ذلك الفراغ ٠

عندما أصبح نظام حكم الإله الاشتراكي في دويلات المدن السومرية الأولى وفي معابدها المركزية يشكل نظاما سياسيا اجوفاً وتشكلت فعلا في مختلف المدن حفنة من الكهنة والموظفين التي وضعت يدها على كل الاراضي والعرصات والملكيات الأخرى وتمتعت بامتيازات خاصة ، وعندما انفصل الملك اللوكال (نائب الإله) عن الكهنوت الأعلى ، تحول اتحاد دويلات الآلهة السومرية الى امبراطورية اكادية عالمية يقوم على رأسها حاكم متأله ٠ وهكذا قايض هذا الحاكم المتأله المنجزات الحضارية والفكرية للموطن السومري ـ الاكادي الأم ، مقابل ثروات بقية أجزاء بلاد غرب آسيا الخاصة، وأوصل تأثير المدنية السومرية الى الأصقاع البعيدة ، وعن طريقه أيضا ازداد حقا وبشكل واضح نفوذ العالم السومري ـ الاكادي السياسي ٠

لقد اعتمدت هذه الامبراطورية الاكادية العالمية بصورة رئيسية على جدارة فرد عبقري في النواحي السياسية والعسكرية ، مما أفقدها القدرة على البقاء الطويل ٠ اذ عندما وهنت هذه القدرة دفعة واحدة تحطمت هذه الامبراطورية العالمية بشكل مذهل وذلك على يد قبيلة غريبة لم تصلها تأثيرات حضارة ما بين النهرين الجنوبية ٠

لقد كانت هذه القبيلة هي الشعب الجوتي البربري ، الذي نزح من جبال ايران الشمالية ـ الشرقية ونزل في بلاد ما بين النهرين ٠ وجاءت اليقظة السومرية كرد فعل على سياسة الاكاديين التكتيكية التوسعية على يد جوديا اللاجاشي ، باني المعابد المتدين حامل الفكرة السلمية اللاتوسعية وبذا جسم في شخصه المثال الحي المعادي لفكرة القوة التي اعتمدها الملك ـ الإله الاكادي ٠ لم يكن عصره وعصر ملوك سلالة اور الثالثة الا فترة انكماش وانعزال قصيرة في مجرى التطور العام ، التي دفعت بها من جديد والى

الامام موجة سامية غريبة مع شعوب بلاد غرب ايران ، ولكن يجب أن لاننسى ان القبائل العيلامية والساميين الغربيين الذين انطلقوا الى البلاد من أواسط الفرات ومع مجرى هذا النهر كانوا جميعاً قبل الآن على اتصال وثيق بالحضارة السومرية ـ الاكّادية •

ومن خلال صراع الفئتين حول احتلال الأجزاء الجنوبية المنخفضة بكنوزها الحضارية ، نشأ مجتمع جديد بقيت فيه رواسب من نظام اشتراكية الدولة ، منها على الأخص مكانة المعابد الكبيرة وادارة القصر • كما وُجد فيه أيضا الى جانب ملاّك الأراضي الكبار مدن عاش فيها الأحرار والأتباع والعبيد • وظهر في هذا المجتمع أيضا المرتزقة وطبقة الموظفين الذين مُنحوا أملاكا وعقارات • وبالاضافة الى هذا وذاك فقد اكتسبت فكرة الملكية فيه شكلا جديدا • اذ بعد سقوط نظام نائب الإله السومري ، وحاكم العالم الاكّادي ، وجوديا المتدين وخادم الإله ، تشوق أناس بلاد ما بين النهرين الذين مروا بحروب لم تنته وعرفوا الدمار ، الى محقق للسلام ومنقذ من الاضطراب •

فبينما نرى ريم ـ زِنْ بن كودور ـ مابوك « أب الكازالّو » يفتخر بأنه لم يهدم المدن التي احتلها معبراً بذلك على حبه للبناء والسلام ، نرى نده الكبير حمورابي البابلي الذي وصلت الحضارة السومرية ـ الاكّادية في عهده وفي مدينة بابل وإلهها مردوك الى القمة والكمال بعد ألف عام من التطور تقريبا ، نراه وقد أشفى غليل شوق ريم ـ زِنْ في تحقيق هذه الأمنية •

الفصل السابع

حول تاريخ الاحداث التاريخية في بلاد غرب آسيا

نعتمد في تحديدنا لسني حكم الملوك والسلالات وتأريخها على لوائح بأسماء الملوك والسلالات مقترنة بعدد سني حكمهم ، وكذلك على وقائع حولية ، أي سجل للسنين ، التي كانت تسمى عند البابليين بأسماء أحداث مشهورة وعند الآشوريين باسم موظف كبير بارع . ولقد وصلتنا جميع هذه اللوائح مشوهة بالاضافة الى انها بالنسبة لأقدم العصور اسطورية أو مغلوطة نظرا لورود أسماء سلالات ملكية وراء بعضها بينما ثبت انها كانت تحكم فعلا في وقت واحد .

ومع ذلك فقد أمكن منذ وقت طويل تثبيت العصور التاريخية الأخيرة للبابليين والآشوريين في الألف الأولى ق.م وتحديد مددها الزمنية بدقة . اذ استطاع المرء أن يربطها بعصر البطالمة ويثبتها بمساعدة نقطة انطلاق زمنية هي كسوف الشمس الذي وقع عام ٧٦٣ ق.م وكذلك بمساعدة سجل الوقائع السنوية (ليموس) للموظفين الآشوريين التي تصل عام ٩٠٠ ق.م تقريبا ، أمكن للمرء أن يعود بتاريخهم الى هذه الحقبة الأقدم زمناً . أما بالنسبة الى ما سبقها من العصور فقد بدأ الاختلاف في تأريخها على سنوات ثم على عشرات السنين ، وأخيرا في الألف الثالثة ق.م على قرون زمنية ، اذ لم تكف المعاصرة بين حكام بلدان الشرق الأدنى من جهة ، وبينهم وبين ملوك مصر في الالف الثانية ق.م من جهة أخرى لازالة الغموض الذي يعتريها .

ولقد أتتنا المساعدة خلال السنوات الأخيرة على تصحيح تأريخ العصور التاريخية في الألفين الثانية والثالثة من اكتشافات جرت في موقعين أثريين .

ففي أولهما اكتشفت بعثة أميركية نقبت عن الآثار في عاصمة آشورية للعصر الحديث هي دور ـ شاروكين (كورس آباد) رقيما يحوي على قـائمة بجميع أسماء الملوك الآشوريين تقريبا ، وتسرد القائمة كافة الملوك الآشوريين حتى عصر الملك السامي الغربي الكبير شمشي ـ حدد الأول حيث تثبتنا بتسلسلهم ومدد حكمهم • واذا حسب المرء سني حكم الملوك جميعهم يرى ان شمشي ـ حدد هذا قد حكم في الفترة ما بين ١٧٤٩ ـ ١٧١٧ ق•م• وعلى هذا يكون المرء قد تجنب الوقوع في خطأ يستحق الذكر اذا استثنينا مدة حكم الملك اشور ـ رابي ، التي لم تذكر في القائمة والتي تقـدر باختلاف يتراوح بين الصفر والعشرين عاما •

قد لا تفيدنا القائمة الملكية الآشورية الخاصة في تحديد حقبات التاريخ البابلي والسومري والاكادي الأقدم زمنا ، لولا اكتشاف مشابه حدث في نفس الوقت تقريبا في مدينة ماري في أواسط الفرات • لقد استطعنا أن نستنتج من هذا الاكتشاف الذي هو عبارة عن وثائق خطية ان شمشي ـ حدد الأول الآشوري لم يأت ، كما كان معروفا حتى ذلك الحين ، الى الحكم بعد موت حمورابي بعشرين عاما تقريبا ، بل كان أقدم معاصر لحمورابي • وعلى أي حال فقد تأكد ان حمورابي قد حكم في حوالي ١٧٠٠ ق•م ويكون هذا التحديد بنفس الوقت المنطلق الجديد الثابت ، الذي نستطيع معه أيضا تحديد العصور التاريخية السومرية ـ الاكادية الأقدم حيث يمكننا تتبع توالي الحكام حتى زارجون الاكادي تقريبا مع تقـدير سني حكمهم بما يقارب الدقة •

لقد أصبح من المؤكد ان حمورابي قد قضى نهائيا على أكبر خصومه وهو ريم ـ زِن° من لارزا في العام الواحد والثلاثين من تولّيه الحكم • وبهذا يكون عصر سلالة لارزا قد زال نهائيا بعد عام ١٧٠٠ ق•م بقليل • أما ريم ـ زِن° هذا فقضى على آخر ملوك إي ـ زِن° في عام ٢٤ لتولّيه

الحكم • وبما ان جميع ملوك سلالتَي «لارزا» و « إي ـ زن » معروفون لدينا فنستطيع بذلك تحديد بداية حكم هذين البيتين الملكيين عند منتصف القرن العشرين ق•م • أما اورنامو الذي حكم قبل إشبي ـ إرّا ونبلا ـ نوم بمائة عام تقريبا فيكون بذلك قد بدأ حكمه عند منتصف القرن الواحد والعشرين ق•م • وكان اورنامو هذا معاصرا لـ « اوتوشيكال » من اوروك الذي انتصر على الجوتيين ويحدثنا ان هؤلاء قد سيطروا على بلاد سومر واكاد حوالي مائة عام تقريبا • وبهذا يكون الجوتيون قد غزوا البلاد قبل عام ٢١٥٠ ق•م بسنوات قليلة • وتتيجة لذلك يكون زارجون الكبير قد أسس امبراطوريته أيضا قبل الجوتيين بحوالي قرنين من الزمن تقريبا ، أي حوالي عام ٢٣٥٠ ق•م وهذا يُعتبر أقدم نقطة في العصور التاريخية التي أمكن تحديدها بشيء من الدقة• أما بالنسبة الى العصور السابقة للعصر الاكادي مثل حقبة سلالة اور الأولى وحقبة ميزيليم وجمدة نصر والطبقة الرابعة في اوروك فلا يمكن لنا تحديد أزمانها الا بشكل تقديري معرّضين بذلك الى الوقوع في الخطأ • فلو سرنا حسب التقديرات التي كانت مُعتمَدَة قبل تخفيض عصر حمورابي ، لوصلنا بتقديرنا لزمن أول حقبة في تاريخ الحضارة السومرية الخلاقة ، أي عصر فجر التاريخ ، الى عام ٢٨٠٠ ق•م تقريبا ، وعصر ما قبل التاريخ الى عام ٣٠٠٠ ق•م • مضافا له بالتأكيد كذلك جزء من نهاية الألف الرابعة ق•م • وبما أنه توجد صلات وثيقة بين عصر فجر التاريخ السومري وعصر ما قبل السلالات المصرية ، فلا بد اذاً وأن تكون الحقبتان متعاصرتين •

واذا كان للاكتشاف ، الذي أثبت ان شمشي ـ حدد الأول الآشوري معاصر لحمورابي نتائج هامة اثرت على طريقة تأريخ عصور تاريخ بلاد ما بين النهرين القديمة ، فان له بالنسبة الى تطور مجرى الأحداث التالية في الألف الثانية ق•م أهمية تفوق تلك التي تخص مسألة التأريخ • اذ أن المؤرخين كانوا يقولون حتى ظهور هذا الاكتشاف ، أن هناك فترة انتقالية مظلمة

دامت قرنين من الزمن دون أن تترك لها مصادر في أجزاء بلدان الشرق الأدنى المختلفة • لقد ثبت خطأ هذه النظرية وأعقب سلالة خمورابي التي انتهى حكمها عام ١٥٣٠ ق٠م مباشرة ذلك الانقلاب السياسي الشعوبي الكبير الذي غير وجه تاريخ بلاد ما بين النهرين في الألف الثانية ق٠م تغييرا شاملا •

القسم الثاني

عصر حكم الشعوب الجبلية حتى عام ١٢٠٠ ق.م

الفصل الأول

مسرح التقلبات السياسية والبشرية وصانعوها

ظلت منطقة الشرق الأدنى كمسرح للتطورات التاريخية ، كما كانت عليه في العصور السابقة ، منحصرة في تلك البلاد الشاسعة ذات التركيب الجغرافي المتنوع والممتدة بين البحر الابيض المتوسط وحدود جبال ايران من جهة وبين جبال ارمينيا والخليج العربي من جهة اخرى . الا انه لم يعد يتحكم في هذه المنطقة المترامية الاطراف بعد ذلك التقسيم التقليدي الى مركز ومحيط . ذلك لأن مسرح الحوادث لم يعد يوجهه مركز تشرئب اليه أعناق سائر المناطق المحيطة به متلقية منه تلك الايحاءات النشيطة والارساليات الحضارية الحيوية والموجّهة كما كان الامر عليه في العصر الكلاسيكي عهد الحضارة السومرية ـ الاكادية . بل أصبحت منطقة الشرق الأدنى مقسمة الآن الى مناطق كبيرة تختلف باختلاف شعوبها وذلك كما كانت عليها الحال في عصور ما قبل التاريخ لهذه المنطقة . أما الصفة المميزة لهذه الشعوب الآن فتكمن بوجودها الدائم في تنافس مستمر مع بعضها البعض من أجل توجيه دفة القيادة . بيد انه كثيرا ما كان يؤدي هذا النزاع الى توازن في القوى حيث غالباً ما تعادلت الاطراف المتنازعة . ان هذا التطور التاريخي يشبه ذلك الذي عاشته بلدان اوروبا عند نشوء الدول الجرمانية والرومانية ذات الصبغة القومية اثر هجرات شعوبها اليها أي منذ أن تحول مركز الثقل من بلاد اليونان وروما ، مركزي الحضارة الكلاسيكية ، الى بلدان الشعوب الاوروبية الفتية الناشئة .

ان وجه الشبه هـذا لا يشمل في الواقع التقسيم الجغرافي ، بقـدر ما يشكل صفة التوازي لخطوط التطور التاريخي في كل من بلدان الشرق والغرب . وهنا نرى تلك الشعوب الفتية التي قدر لهـا أن تصبح قائدة التطور التاريخي للشرق الأدنى عقب سقوط سلالة حمورابي وقد اصطحبت معها نظاما اجتماعيا جديدا ، يمكن مقارنته بنظام الفروسية والاقطاع للعصور الوسطى في اوروبا . وبعد غزو هـذه الشعوب لمناطق الشرق الأدنى ، استقر كل منها في موطنه الجديد منفصلا عن الآخر ليدخل بطبيعة الحـال في صراع فكري ومادي حاد مع الحضارة السومرية ـ الاكادية . لذا غيرت هذه الشعوب معالم وجه الشرق القديم ، لتحل محل الوحـدة المتجانسة المتراصة مجموعة معينة متفككة من الشعوب على مستوى متشابه من التنظيم الشعبي والسياسي . ولهذا كان لا بد لها إلا أن تتحد تارة أو تتصارع باستمرار مع بعضها البعض تارة أخرى وكل يأمل في الوصول الى القيادة المطلقة لهذه المنطقة من العـالم .

يمكن تصنيف الشعوب التي طغت على الشرق القديم وحكمت سكانه سياسيا في النصف الثاني من الألف الثانية ق.م والنازحة الى هذه المنطقة من الجنوب ـ الشرقي والشرق والشمال ـ الغربي ، الى المجموعات التاليـة :

١ ـ استطاع الكاشيون تثبيت أقدامهم في بلاد بابل اثر قضاء الملك الحثي مورشيلي على آخر ملوك سلالة حمورابي باجتياحه العسكري الخاطف لبلاد ما بين النهرين .

٢ ـ أما المناطق الواسعة الممتدة من ارمينيا الى فلسطين ومن الحدود الغربية لايران حتى ساحل البحر الابيض المتوسط الشرقي فقد اجتاحتهـا الشعوب الحورية منذ النصف الأول من الألف الثانية ق.م . لقد كان مركز ثقلهـم ينحصر في شمال ما بين النهرين حيث استطاعوا تدريجياً الحد من

توسع الساميين الغربيين ، الذين سبقوهم الى استيطان اواسط الفرات وبلاد الشام • وقد بلغ من شدة تأثير الحوريين في هذه المنطقة درجة استطاعوا معها فعلا تطعيم الشعب الآشوري عرقيا والتغلغل حتى جبال ايران • وقد يدفع هذا كله مع عوامل اخرى بالبعض للظن أحيانا ان حكام الهيكسوس غزاة مصر حوالي ١٧٠٠ ق•م انما ينحدرون الى حد ما من أصل حوري • ومهما يكن الأمر ، فان الحوريين يبقون كقوة سياسية ـ شعبية أكبر عظمة حيّة ـ توسعية عرفتها الألف الثانية قبل الميلاد ، قوة قدر لها أن تمتد من بلاد فارس حتى فلسطين ، ولو افترضنا جدلا عدم استطاعة البرهنة على هذه النظرية •

٣ً ـ أما الشعب الثالث فقد جعل من منطقة شرق آسيا الصغرى وطنه الجديد • وقد اعتدنا تسمية هذا الشعب بالحثيين انطلاقاً من تسمية اضفاها هؤلاء بأنفسهم على سكان البلاد الاصليين قبلهم ، أي سكان منعطف نهر الهاليس[1] •

فمن ناحية الصفات البدنية يمكن تصنيف الحثيين في الدرجة الثانية بعد الحوريين ، المجاورين لهم شرقاً بيد ان مواهبهم العسكرية والسياسية كانت تفوق هؤلاء ، اذ استطاعوا بواسطتها الصمود بكل نجاح امامهم في شمال بلاد الشام وشمال بلاد ما بين النهرين ومقارعة السلطة المصرية أيضا •

لقد تشكلت من هذه الشعوب الثلاثة لأول مرة في الشرق الأدنى ـ بصورة غير مباشرة ـ معالم اسرة من الشعوب ذات أهمية عالمية في التاريخ ، تشابه أهمية اسرة الشعوب السامية في الصحراء الشامية ، الا وهي اسرة العنصر الهندي الغربي • واذا ما قدّر لشعب هندي صاف لحد ما التأخر قرابة ألف سنة حتى استطاع السيطرة على مصر والشرق معا ، فاننا نرى انه لا بد لشعوب الشرق الأدنى الجديدة بالرغم من اختلافها في النوعية والاصل

(١) نهر يقع في القسم الشرقي من آسيا الصغرى ويسمى الآن بنهر « كيزيل أرماك » .

إلا أن احتكت حتى في الألف الثانية ق٠م بعناصر هندية غربية ٠ وقد تجلّى ذلك في اسماء العلم أو التركيب اللغوي أو الثروة اللفظية وفي النظام الاجتماعي أو في بعض الشخصيات الإلهية والمفاهيم الدينية ٠

ففي مناطق آسيا الصغرى ، وخاصة في ما وراء جبال طوروس وفي كيليكيا حيث يسيطر العرق الهندي الغربي نجد ان اللغة السائدة هناك كانت الهندية الغربية ٠ وعلى العكس من ذلك نرى ان شمال بلاد ما بين النهرين وبلاد بابل آنذاك قد تأثرتا بالطابع الهندي الشرقي ذي الصبغة الهندية ٠

ولما كان من المتعذر فهم هذه العلاقات المتشابكة وغير الواضحة تماما الا من خلال الدراسات التفصيلية لكل من هذه العناصر البشرية التي استطاعت منذ منتصف القرن السادس عشر ق٠م قيادة وتوجيه سياسة الشرق الأدنى ، لذلك يترتب على من يريد دراسة تحليلية لتاريخ الشرق الأدنى في الحقبة الزمنية ما بين ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق٠م ، أن يراقب ويتفحص تشعب الامور في مجاريها الزمنية المتعرجة العامة والمعاصرة ٠ كما يتوجب على المرء ايجاد السبل لصبها في قالب واحد ، بحيث تدور حول تبوؤ دول الشعوب الثلاثة مكان تلك الحضارة البابلية ، التي كانت تحتل مركز الصدارة ٠ ان تشابك الحقائق والوقائع الفكرية والاقتصادية والسياسية هي في الحقيقة أشد ارتباطا مما توحي لنا الظن به للوهلة الاولى ثلاثية هذه الشعوب القائدة ٠ ومن ناحية أخرى لم تشكل هذه الشعوب في الاصل مجموعات بشرية متكاملة بل كانت وحدات نشأت تدريجيا من اتحاد فئات بشرية متباينة ٠ ولقد استمرت الى جانب هؤلاء من وراء الستار الطاقات الشعبية والسياسية لسكان البلاد الاصليين ٠

ان القسم الجنوبي من بلاد بابل الواقع على الخليج العربي والمسمى ببلاد البحر ، ارض سومر الحقيقية ، كان قد استقل تحت حكم ملوكه المحليين في عهد خلفاء حمورابي الضعفاء ٠ واستطاع هذا الجزء لوقت ما أن يضم قسماً

ملحوظاً من أرض بلاد بابل اليه . واستمرت سلالة بلاد البحر بالحكم في الحقبة الأولى للسيطرة الكاشية تحت قيادة حكام اطلقوا على أنفسهم القاب سومرية قديمة طنانة رنانة لا يمكن اعتبارها في الواقع سوى مهزلة تاريخية.

أما بلاد عيلام ، العدوة والمنافسة التقليدية لبلاد بابل ، فنراها تدخل منطقة الظلام لمعظم العصر الكاشي . ولم تستطع أن تسترد قوتها أو ازدهارها سوى تدريجيا وذلك في القرن الاخير من حكم الكاشيين وخاصة في نهايته والى جانب بلاد البحر وبلاد عيلام فقد بقيت آشور تتمتع بحياتها السياسية ، ولو كان ذلك تحت حماية أهم دولة حورية هي المملكة الميتانية . وبذا أصبحت ـ ولو بصور موقتة ـ دولة مغلوبة على أمرها وظلا تابعا للمملكة الميتانية . بيد انها استطاعت منذ ١٤٠٠ ق.م الاستقلال تبعا لموهبتها السياسية وقوتها العسكرية وتمكنت حتى من تبوؤ مركز قيادي في الشرق الأدنى جنبا الى جنب مع الشعب الحثي .

ورغم ان الكاشيين لم يضطروا للاحتكاك مع الاقوام الهندية الا بشكل سطحي فقادهم على الاقل للتماس مع الديانة الهندية ، نجد ان طبقة من الاشراف الهنود قد حكمت وقادت الشعب الحوري ، بدليل ان اسماء جميع ملوكهم قد اقتصرت على أسماء هندية صرفة .

وقد استطاع الشعب الحثي الذي تألف من اقوام هندية غربية شقيقة تثبيت دعائم لغته في شرق آسيا الصغرى . بيد انه لم يستطع القضاء كلياً على لغة الحاتي للسكان الاصليين أو امتصاصها . ولكننا اضفينا هنا على الغزاة ـ مغالطة ـ اسم السكان الاصليين « الحثيين » . اما فيما يتعلق بالساميين الغربيين والحوريين سكان شمال بلاد الشام ، التي أصبحت في بداية القرن الرابع عشر مستعمرة حثية ، فقد حافظوا بكل تأكيد على لغتهم ودياناتهم وعاداتهم زمناً طويلا .

فبصرف النظر عن اولئك الاعداء الضعفاء للدولة الحثية على ساحل

البحر الاسود وفي غرب آسيا الصغرى ، فاننا لا نستطيع أبدا غض الطرف عن تلك العلاقات السياسية والبشرية المتداخلة والمتشابكة في بلاد الشام ، التي برهنت عليها نتائج الحفريات الأثرية في رأس الشمرا وتل العطشانة وأكدتها المراسلات الملكية المتبادلة ، التي عثر عليها قبل عشرات السنين في تل العمارنة (مصر) • وبهذا أصبحت مصر أقوى من أي وقت مضى ، لدرجة أصبحت معها جديرة بأن ندرجها في حقل بحثنا لتاريخ الشرق الأدنى•

انه لمن المستحيل اعطاء صورة حية ذات تفاصيل وافية عن الشعوب المختلفة لتاريخ الشرق الأدنى خلال الحقبة الواقعة ما بين ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق•م وأن تتعقب بنفس الوقت أيضاً تشابك الحوادث الدولية والحقائق جاعلين منها وحدة تامة ، ذلك لأننا نرى التوازي الزمني للروايات التاريخية يتحول الى ترادف فيها • وهكذا لم يبق لنا ــ مع الاشارة الى الخطورة في تكرار الحوادث التاريخية ــ سوى مخرج واحد ، وهو معالجة تاريخ كل دولة أو شعب قيادي على حدة ، بعد أن أشرنا الى الخطوط الرئيسية لمجرى التطور العام للتاريخ السياسي •

الفصل الثاني

لمحة حول التطور العام للشرق الادنى

خلال العصر الحثي

لم يشكل غزو مورشيلي الحثي لبابل وبالتالي موت سمسو ـ ديتانا آخر ملوك البابليين ، سوى نقطة انطلاق لتغيير شامل في الشرق الأدنى . وكان قد "مهد" لهذا التغيير من الناحية البشرية قبل مدة من الزمن للتغلغل وتثبيت النفوذ ، سواء أكان هذا عن سبيل مسلح أو سلمي .

ولقد وجب على سمسو ـ إلونا ، كما ذكرنا سابقا ، رد الكاشيين على أعقابهم أثناء محاولتهم التغلغل في بلاد بابل . نعم انه لمن الممكن أن يكون الملوك الكاشيون الاوائل ، الذين وردت اسماؤهم في لوائح الملوك ، أمثال «جانداش» و « آجوم » و «كاشتيلياش» كمعاصرين في حكمهم لآخر الملوك البابليين ولو ان ذلك قد اقتصر فقط على جزء من بلاد بابل .

كذلك لا بد وأن يكون الحوريون الأوائل قد انطلقوا من جبالهم في ارمينيا نازحين نحو الجنوب الحثي حيث وصلوا شمال بلاد ما بين النهرين. ان الحجة التي تدعم ذلك تتجلى بالعثور في ارشيف مدينة ماري على نصوص ذات معان دينية كتبت باللغة الحورية وتعود الى عصر زيمريليم ، ملك ماري وخصم حمورابي .

هذا وترينا الاسماء الحورية التي عثر عليها في تلك الآلاف من الصكوك الادارية ، والتي تعود الى حقبة أكثر قدما من سلالة حمورابي ، أي الى عصر سلالة اور الثالثة (عام ٢٠٠٠ ق.م) انهم قد نزحوا الى جنوب بلاد بابل بطريق سلمية .

واعتقد المرء ان الشعب الحوري ، لم يكن قد اجتاز آنذاك حدود منطقة شرق دجلة باتجاه الغرب أو قد توغل في جبال زاغروس عبر الشرق • كما أجاز المرء لنفسه الاعتقاد ان مملكة حورية ما ذات شخصية سياسية يمكن أن تكون قد عاشت حتى أثناء العصر الاكادي في هذه المنطقة بعد العثور على مسمار تأسيسي[1] في شمال بلاد ما بين النهرين يعود إلى « تيشاري ملك اوركيش » خاصة وان شكل كتابة هذا الاثر تحمل طابع هذا العصر •

أما بالنسبة للحثيين فهناك دلائل عديدة أمدّتنا بها نصوص حثية وما قبل الحثية ، تتطرق لهذا الشعب الفتي الثالث والصانع لتاريخ الشرق الأدنى وذلك حتى لمرحلته التاريخية التي سبقت غزو بابل •

هذا والمفروض أن تكون مناطق النفوذ السياسية والبشرية قد تحددت وتأصلت معالمها لحد ما خلال القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر ق•م • فالحثيون قدموا من الشمال ، الارجح من منطقة شواطىء بحر قزوين ، وليس من الغرب كما اعتقد سابقا ، باحثين عن وطن جديد لهم • وهكذا استقروا في منعطف نهر الهاليس في القسم الشرقي من آسيا الصغرى ، حيث اتخذوا من مدينة حاتّوشا (بوغازكوي) عاصمة لهم • أما الحوريون فقد نقلوا مركز تجمعهم وسيطرتهم الى منطقة شمال بلاد الشام وشمال بلاد ما بين النهرين وتوغلوا باتجاه الشرق داخل الاراضي الآشورية حتى جبال زاغروس • ولقد بلغوا في النصف الثاني من القرن السادس عشر قوة سياسية ذات أهمية كبيرة ، ولو أن حكامهم الكبار لم يخلفوا لنا مباشرة أخباراً تتعلق بأنفسهم أو بمنجزات ذات أهمية تاريخية كبيرة • بيد اننا نعلم ان تحوتموس الأول ، فرعون مصر ، مؤسس أول امبراطورية مصرية ذات

(١) المسمار التأسيسي : قطعة من البرونز على شكل مسمار حفر عليها كتابة دينية تنص على بناء بيت كهدية لاله او ملك او للاستعمال الخاص . وقد كان مثل هذه القطع يوضع في اسس الابنية .

شهرة عالمية وغازي فلسطين وبلاد الشام ، قد اضطر خوض معركة قاسية ضد ملك النهرين ، ملك بلاد دجلة والفرات أي ضد البلدان الحورية آنذاك ، ليستطيع تأمين فرض سيطرته على الشرق الأدنى ٠

أما فيما يتعلق باصطدام مصر عند نهضتها الأولى حوالي ١٦٠٠ ق٠م أي في عصر تحوتموس الأول مع القوة الحثية ، فلم تتوفر مناسبة لذلك ، بسبب اغتيال الملك والقائد الحربي مورشيلي وبسبب ذاك الصراع الحاد بين أعضاء الأسرة المالكة الحثية من أجل العرش ٠ ولهذا كان من المستحيل توفر الوقت الكافي للمتنافسين على عرش حاتّوشه ليفكروا جديا بأمر اعادة استعمار شمال بلاد الشام ، الذي كان الملك حاتّوشيلي الأول قد بدأه بصراعه مع حلب في فجر القرن السادس عشر ٠

ومما لا شك فيه ان الامراء الحوريين قد حاولوا اغتنام فرصة ضعف المملكة الحثية ، ليضعوا يدهم مجددا على شمال بلاد الشام وليجعلوا من الامارات المحلية الصغيرة القائمة هناك دويلات تابعة لهم ٠ إلا ان السياسة الخارجية التي سلكها الفرعون المصري تحوتموس الأول والتي اتصفت بالحكمة والاناة منعتهم من تحقيق رغبتهم في انجاح هذه المحاولة ٠

وكذلك الامر بالنسبة للكاشيين فقد استطاع هؤلاء قطف ثمار تلك الحرب التي شنها مورشيلي على بلاد بابل فعمدوا لاستغلال فرصة الصراع بين القوى السياسية لمنفعتهم الشخصية في انجاز تلك المكاسب التي حصلوا عليها بشكل فاق اعتمادهم على قدرتهم الذاتية الضعيفة ٠ وبصورة عامة لا يمكن اعتبار النصف الثاني من القرن السادس عشر ق٠م في بلاد بابل ، بالنسبة للكاشيين ، سوى عصر التمركز وتثبيت دعائمهم هناك ٠ ولقد كانت هذه المرحلة من الظلمة بحيث لم يستطع الملوك الكاشيون معها تزويدنا بأي شيء حتى عن أنفسهم بعد مدة طويلة من الآن ٠ ووصل الامر الى درجة

لا نكاد نعلم معها عن ملوكهم الأوائل أكثر من الاسماء ولم نستطع حتى التأكد من كيفية تتابعهم في تبوء العرش الكاشي •

اما فيما يخص القرن الخامس عشر ق•م فنرى مجراه يتسم باختلال في توازن القوى نتج عن تثبيت تحوتموس الثالث فرعون مصر لسلطته الدائمة في فلسطين وبلاد الشام ، اللتين كان سلفه قد احتلهما بحرب خاطفة• ومقابل ذلك نجد الخصم العنيد للتوسع المصري في بلاد الشام قد أصبح الآن الشعب الحوري أيضا ، ليجابه هذا التوسع متحدا لأول مرة في تنظيم سياسي تحت ظل الدولة الميتانية بعد أن كان منقسما على نفسه في دويلات عديدة وهكذا نجد هذه الدولة تتمتع بشهرة عالمية بتبوئها لقرابة قرن من الزمن مركز القيادة في الشرق الأدنى •

لقد أصبح ذلك الشخص الذي مارس حق الوصاية على ملوك عديدين تابعين له من دويلات بلاد الشام الشمالية باقطاعه لهم أراضي هذه المنطقة ، ملكا على رأس الدولة الميتانية ، والذي بلغ من القوة بحيث تبعت له حتى آشور سياسياً •

هذا ويبدو وكأن نوعا من الائتلاف قد تم بين المصريين والميتانيين وكذلك الكاشيين في بلاد بابل بينما بقي الحثيون في آسيا الصغرى وبلاد آشور في الشرق كحاجز حماية لهذه الدول •

اثر وفاة شمشي ــ حدد الأول أصبح كيان بلاد آشور السياسي لثلاثمائة سنة ، أي حتى حوالي ١٤٠٠ ق•م لا يتعدى الوجود الاسمي : أولا كمقاطعة من مملكة حمورابي ، وبعد ذلك دخلت تدريجياً في منطقة نفوذ ضغط الزحف الحوري ، المعاصر تقريبا لشبيهه الكاشي ، الذي شهدته بلاد بابل • وفي خلال القرن الخامس عشر ق•م لم تكن بلاد آشور أكثر من منطقة نفوذ للمملكة الميتانية • أما المملكة الحثية في آسيا الصغرى فقد بدأت الآن وبالتحديد منذ نهاية القرن الخامس عشر ق•م تنتعش سياسيا بعد ذلك

الانحلال الداخلي الذي حل في السلطة نتيجة لتلك المشاحنات والاغتيالات بين الاخوة في الاسرة المالكة في نزاعهم على العرش •

اما التحالف المذكور أعلاه للدول الكبرى والقائدة فيذلك العصر: مصر والميتانيين وبلاد بابل فقد وجد تعبيره كذلك بالمصاهرة بين الاسر المالكة بتقدمة بعض كريمات ملوك الكاشيين والميتانيين كهدية لبلاط فرعون مصر •

ومن ناحية أخرى نجد القرن الرابع عشر ق•م قد تميز برجحان كفة ميزان القوى لصالح الحثيين في الصراع من أجل القيادة في الشرق الأدنى وذلك بنجاح أكبر ملك لهم وهو شوبيلوليوما بتحطيم المملكة الميتانية وجعلها دولة تابعة له • ولقد بلغ من أهمية عمل شوبيلوليوما هذا بتحطيمه للدولة الميتانية أن وضع حجر الاساس للسياسة الدولية في الشرق الأدنى لمائتي سنة تاليتين ، فكان بهذا أيضا منطلق لتحرر بلاد آشور من اغلال السيطرة الحورية • كما مهد ذلك بنفس الوقت الطريق « لتحثيث » شمال بلاد الشام وبالتالي للاستعداد الحثي للمعركة الفاصلة ضد تغلغل النفوذ المصري في الشرق الأدنى •

لم تكن هذه الحقبة ، التي اعتاد المرء غالباً تسميتها بعصر تل العمارنة نسبة الى مدينة المصلح الديني الكبير امينوفيس الرابع ، تتصف باديء الامر بالعظمة السياسية لوادي النيل ، لأن زمام المبادرة على الصعيدين العسكري والدبلوماسي قد انحصر في يد آسيا الصغرى • لقد أصبحت هذه البلاد في عهد شوبيّلوليوما الوطن الأم للحثيين وكمركز احيط من أكثر جهاته بسياج حام من الدول الصغيرة التابعة • بيد ان استطاعة شوبيّلوليوما دك عرش منافسته ، المملكة الميتانية ، وتحطيم سلطتها ، قاد بشكل حتمي لظهور منافس جديد للامبراطورية الحثية في الساحة الا وهو آشور المتحررة • لذا لم تمض مدة طويلة حتى بدأت هذه الأخيرة تشعر وكأنها دولة عظمى بقيادة ملك كبير • وهذا ما ظهر في مراسلاتها مع فرعون مصر ، الذي كثيرا

ما كان الملك الآشوري كالملوك الكاشيين والحثيين يخاطبه كتابيا بتعبير « الأخ » اشعارا منه بمقامه الرفيع المساوي لهؤلاء الملوك • ولما شعر الحثيون بهذا الخطر لجأوا الى اسلوب عزلها موقتا باقامتهم علاقات حسنة حتى مع الملوك الكاشيين الضعفاء ومن ثم باعادة تأسيس مملكة ميتانية على حدودها كحاجز يفصل بين « حاتّي » و « آشور » • والى جانب جهد الحثيين للابقاء على ضعف السلطتين الميتانية والآشورية كانت المهمة الرئيسية للمملكة الحثية تنحصر أيضا بالسيطرة على شمال بلاد الشام وجعلها مستعمرة لهم • وفي هذه المهمة بالذات تجلت فاتحة عظمة الحثيين ليصبحوا قوة كبيرة وليحكموا عالم الشرق الأدنى المتحضر • أما احتلالهم لشمال بلاد الشام وبالتالي احتفاظهم بها فقد أوجب عليهم بطبيعة الحال تحديد موقفهم بوضوح من مصر ، التي استطاع سابقا فرعونها تحوتموس الثالث التوغل بفتوحاته حتى الفرات • إذ فما دامت أفكار اخناتون الدينية تشكل شغل مصر الشاغل ، لم يجد الحثيون صعوبة في الاحتفاظ بمركزهم السياسي والبشري في شمال بلاد الشام • وقد غدا هذا عسيراً للحثيين وذلك في عهد احدى السلالات المصرية الا وهي التاسعة عشر ، التي أدركت من جديد أهمية شمال بلاد الشام كعقدة مواصلات عامة ومركز حساس للمصالح المصرية على الصعيدين السياسي والاقتصادي • ووجد هذا التوتر الذي كان سائدا بين الدولتين لعشرات من السنين مضت صداه في ناحيتين : فمن جهة كان ذلك في النزاع المسلح الذي دار في أهم معركة حربية عرفتها الألف الثانية ق•م في قادش ومن جهة أخرى ــ وليست بأقل أهمية ــ في معاهدة للصلح بين الطرفين انهت هذا النزاع ليحل محله سلم دائم باعتراف كل منهما بمناطق نفوذ الآخر في هذا الجزء من العالم • ففي حين اننا نجد رعمسيس الثاني من جهة يصور لنا نتيجة معركة قادش على انها انتصار مصري ويمجدها بمشاهد للمعركة نقشت على الصخر ، نراه من ناحية أخرى يقتسم مع الحثيين الشرق الأدنى

الى مناطق نفوذ للدولتين المتنازعتين فيترك للحثيين شمال بلاد الشام ويحتفظ لمصر بفلسطين والقسم الجنوبي من بلاد الشام كمنطقة حيوية لمصر •

ففي الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية الحثية خلال القرن الثالث عشر ق•م في وضع يسمح لها أن تكون سيدة الموقف في شمال بلاد الشام وأن تحتفظ بها كأهم مستعمرة تابعة لها بحيث استطاع اسم الوطن الام فيما بعد أن يبقى ملتصقا بها أكثر من أرض الوطن نفسه ، نجد هذه الامبراطورية لم تستطع لمدة اطول الاحتفاظ بمركزها كسيدة الامر مقابل آشور في شمال بلاد ما بين النهرين أرض المملكة الميتانية سابقا •

اما في القسم الشرقي من الشرق الأدنى فقد مهد القدر للمملكة الآشورية في عهد زلما ـ نصَّار الأول وخاصة في عهد توكولتي ـ نينورتا الأول، أن تلعب دورا سياسيا فعالا مشابها لدور المملكة الحثية في الغرب • بيد ان أي اصطدام فاصل لم يحدث بين حاتّي وآشور طوال حياة الامبراطورية الحثية أي إلى أن زالت هذه نهائياً من الوجود حوالي ١٢٠٠ ق•م نظرا لانشغال كل منهما بحروبهما الجانبية ضد أعدائها الاقل خطرا من العدو الرئيسي • ففي حين ان الحثيين كانوا في نزاع مع جيرانهم القاطنين في غرب آسيا الصغرى انهمكت آشور قبل كل شيء في خصامها مع كاشيي بلاد بابل •

وهكذا وفي خلال العقد الاخير من القرن الثالث عشر ، وقبيل هجرات الشعوب الجديدة للشرق الأدنى (مثل هجرة الشعوب البحرية ، والهجرة السامية الثالثة التاريخية أي الآراميين من صحراء بلاد الشام) نشأ نوع من التوازن الدولي في نظم دول الشرق الأدنى ، بين الشرق والغرب ، أي بين حاتّي وآشور • وعلى اساس هذا التوازن اقتسمت هاتان المملكتان مناطق النفوذ ، فأقرت كل منهما الامر الواقع بسيادة الأخرى على عدد من الشعوب الصغيرة والكبيرة مع اعترافهما بسيادة مصر على فلسطين وجنوب بلاد الشام •

لم يرتكز هذا التوازن في القوى بالدرجة الأولى على المجالين العسكري والسياسي بالقدر الذي كان عليه في القرون السابقة • أي انه لم ينشأ كحصيلة للنتائج الحربية ، التي قررتها ساحات المعارك ، وانما اتصفت هذه الحقبة التاريخية في الشرق الأدنى ، التي نحن في صدد بحثها الآن بما نستطيع تسميته بـ « قوة الشعوب » •

حقا لقد عقدت معاهدات بين دولتين في القرون الماضية ، لنفكر في أمر « نصب العقبان » التذكاري الذي لم يكن في الواقع الا كمعاهدة بين « لاجاش » و « أومّا » • غير ان هذه ليست بالشكل الذي نعرفه الآن حيث أخذ المرء يبتكر تعابير وصيغ حقوقية معينة لنصوص المعاهدات السياسية الدولية • كما لقد تطورت القوانين الدبلوماسية وكذلك لهجة المخاطبة ، التي أخذ يتبعها العالم المتمدن آنذاك بما في ذلك مصر أيضا • فلغة السياسة كانت ذلك الوقت الاكادية ، أي الكتابة المسمارية حتى لدى مصر ، التي كانت تقف قبل هذا الوقت موقف الغرور والتعالي من سكان الشرق الأدنى هؤلاء «البرابرة» • انه ليوجد الآن مجتمع دولي مقسم كالجسم الحي تقسيما عضويا : فهنالك ملوك كبار ، وملوك توابع ودول محمية • ولقد انعكس ذلك أيضاً على تصنيف حكام هذه الدول تجاه بعضها تصنيفا حسب القوة والاهمية ، وفي تبادل الهدايا وسياسة التصاهر بين اسَرها المالكة •

ان شدة احتكاكات السياسة الخارجية والتشابك الاقتصادي المعقد ــ بين الدول ــ هي التي تكسب لاول وهلة عصر « تل العمارنة » في الشرق الأدنى الوحدة المتناسقة • الا ان هذا لا يتعدى الشكل الخارجي والانطباعات الظاهرية السطحية • اذ لو تعمقنا في نظرتنا الفاحصة لهذا العالم لوجدناه اكثر تشعبا وتناقضا عما كان عليه في العصر الكلاسيكي عصر الحضارة الاكادية ، وذلك لظهور عناصر شعبية جديدة « على مسرح السياسة » ، هي في الواقع أكثر تفككا مما تبدو فيه •

وحتى على صعيد السياسة الداخلية نجد هناك ظاهرة تجمع بين اقطار الشرق الأدنى في الحقبة ما بين ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق٠م الا وهي مبدأ نظـام الاقطاع • ولقد كنا شاهدنا هذه الظاهرة قبل هذا العصر عند الساميين الغربيين (الآموريين) ، حيث قام ملوكهم باقطاع جنودهم المرتزقة أراضي يستغلونها لانفسهم • أما هنا ــ في هذه الحقبة ــ فقد نتج مثل هذا العرف عن طريقة اغتصاب الغازي لاراضي السكان الاصليين في البلاد المغلوبة على أمرها فاصبحت ملكا له وجعل من أصحابها الاصليين تبعا له • يقوم الامير الغازي المنتصر باقطاع بطانته الخاصة من الاشراف الفرسان الذين قادوا الحرب على عربات تجرها الخيول ، جزءاً من الاراضي التي أصبحت من نصيبه • إلا ان الامر لم يقتصر على ذلك بل اعتمد على فرض نوع مـن الجزية ومهام معينة على قسم من السكان الاصليين الذين خسروا الحرب فجعل منهم تبعا له • وما لبث أن اخذ مبدأ نظام الاقطاع بالتراجع والانحسار تدريجيا لحساب مملكة مركزية ذات جهاز اداري • وفي الواقع سادت فـي هذه البلدان انواع من النظم الاجتماعية المتشابهة والمتقاربة نتجت عن تلك التطورات المتوازية التي تعمينا أحيانا عن ادراك حقيقة جوهر التركيب الاجتماعي الذي يختلف في الاصل من بلد الى آخر • كما يمكن أن يشغلنا أيضا عن ادراك الفرق الكبير الذي يفصل بين بلاد آشور الجادة والطامحة عمداً لتبوء مركز هام في السياسة الدولية ، وبين تلك الدويلات المحميـة التابعة أو عن ذلك البين الذي يفصل الوطن الأم للحثيين عن بلاد بابل ذات الطابع التجاري البارز تحت حكم الامراء الكاشيين الضعفاء •

فالى جانب تلك الصفات المشتركة في الحقـوق الدولية والاشـكال الاجتماعية لعالم الشرق الأدنى خلال الألف الثانية ق٠م ، نجد أموراً فكرية وراثية أخرى نشأت عن جذور مشتركة ، تبدو أيضا وكأنها تصبغ الشرق القديم بطابع الوحدة • ويكفي أن نفكر فقط في أمر الاكادية لغة الدبلوماسية والعلم وكذلك في أمر الكتابة المسمارية التي استخدمت حتى في المراسلات

الخارجية مع مصر • ولذا لم يعد هناك مجال للشك ان هذه اللغة وهـذه الكتابة قد لعبتا دور الوسيط في نقل عالم الفكر السومري والاكادي حتى ولو كان ذلك لم يتعد أحيانا خطوطا عامة إلا انها واضحة • لم تشتهر فقط تلك الشخصيات الرئيسية من آلهة وانصاف آلهة للديانة السومرية ـ الاكادية في بلاد الشام وآسيا الصغرى ، بل تعدى الامر ليشمل أمورا فكرية أخرى كملحمة جلجاميش مثلا ، التي تُرجمت الى جميع لغات ذلك العالم ، بحيث تُعتبر أكبر مثال حي حطم حدود الشعب الواحد ليتخذ صبغة الفكر العالمي •

اذا ما أراد الانسان معرفة وادراك حقيقة جوهر عـدد من الاخوة والاخوات ، فلا يكفيه من أجل ذلك الكشف عن وجه الشبه الذي يجمع بينهم أو بينهم وبين والديهم ، ومن ثم التركيز عليه • بل يجب عليه أن يلاحظ ويدرس بالذات الميزات التي انفرد بها كل منهم فجعل منها علامته الفارقة لتفصل بينهم في الاطار العام دون أن ينحصر ذلك في وجه الشبه ضمن الأسرة الواحدة • هكذا يترتب علينا أن ننظر الى تلك الفروق التي تفصل بين أعضاء الاسرة الكبيرة لشعوب الشرق الأدنى • واننا سنرى انه لا يوجد فقط آلهة كاشية خاصة وحورية خاصة وحثية خاصة وحتى آلهة خاصة بآسيا الصغرى ما قبل حثية ، بل سنجد الى جانب ذلك النوع المذكور أعلاه من الحقوق الدولية كتباً قانونية حثية وآشورية تختلف عن بعضها البعض في موقفها وتحليلها الفكريين • كما وسنفهم تماما بان المملكتين الآشورية والحثيـة تختلفان في حقيقتهما عن بعضهما وان لكل شعب كبير في هذه الحقبة لغة خاصة به لها آثارها الادبية • حتى ان الحثيين كان لهم مثلا منذ البدء كتابتهم الخاصة الى جانب الكتابة المسمارية • ومن ناحية اخرى نجد المناطق التي تقع على نهري دجلة والفرات قد تميزت باحتفاظها بالاختام الاسطوانية ذات الاصل السومري الى جانب الرقم الطينية والكتابة المسمارية • بينما نرى كفة ميزان الاختام المسطحة هي الراجحة في شمال بلاد الشام وبلاد الحثيين • كذلك تختلف اسس البناء وتتعدد أشكال الأبنية من شعب الى شعب وتُعطي كلها

أفكارا وتعابير ناطقة معبرة عن شعور جو سكناها ومعناها الروحي والديني على حد سواء • بينما نجد بالمقابل فن النحت يحدثنا بكل وضوح في أسلوب عرضه ومحتواه عن تنوع تفكير واحساس عالم الشرق الادنى المتجدد دوماً • كل هذا سيُعرض علينا بالتفصيل خلال بحثنا لكل شعب من هذه الشعوب على حدة ، والذي سننتقل الآن الى خوضه ، بعد أن قدمنا عرضا تاريخيا سريعا للحقبة ما بين ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق٠م •

الفصل الثالث

بلاد بابل تحت حكم الكاشيين ـ التطور السياسي

لم يترام الينا أي خبر مكتوب عن احتلال كاشي عسكري لبلاد بابل ، سوى ما ذكره خليفة حمورابي البابلي سمسو ــ إلونا في السنة التاسعة لحكمه عما أسماه بطلائع الكاشيين • غير ان وثائق القرن السادس عشر ق•م تذكر الكثير من أسماء لكاشيين عملوا في مواسم الحصاد أو كانوا كمستخدمين على الحقول • وهذا ما يدفعنا الى الاعتقاد ان هذه الهجرة انما تمت بصورة سلمية • لقد حدث هذا على الارجح حتى في الوقت الذي كان فيه رؤساء القوم الاشداء ما يزالون يقيمون في موطنهم الجبلي ، بلاد الإله كاشو ، الذي ظل اسمه بعد ذلك لمدة طويلة مقترنا بمنطقة لورستان ، أرض العصر الكلاسيكي « كوساي ــ اوي » • ولم تكن هذه المنطقة الموطن الأول للكاشيين ، في الوقت الذي يجوز فيه أن يكون اسم إلههم على علاقة باسم بحر قزوين • وبالاضافة الى ذلك تبدو أيضا تلك البقايا القليلة للغتهم التي وصلتنا على شكل فهرس مع ترجمتها الاكادية وكأنها ترينا نوعا من القرابة مع اللغات القوقازية • كذلك تدلنا على الأقل أسماء آلهتهم التي بقيت حية في أسماء العلم لديهم الى تلك العلاقة مع القوقاز • الا اننا لا نستطيع أن نرسم لنا سوى صورة شاحبة اللون لماهية هذه الآلهة • وحتى هذا لا يتم الا بصورة غير مباشرة وذلك عن طريق فهارس المقارنة المكتوبة التي تعدد هذه الآلهة مقابل ما يوازيها من آلهة السومريين والاكاديين • كما تقودنا بعض أسماء آلهة الكاشيين مثل شورياش ، الذي ربطه بعضهم وبحق مع إله الشمس الهندي سريا ، ومثل ماروتاش (ماروت الهندي) أو مثل بورياش (اليوناني)

الى الظن ان الكاشيين كانوا على صلة بالهنود الغربيين • وتأكيداً لذلك نجد ان قسما من طبقة أمرائهم القياديين كان من الهنود الغربيين • وللاسف الشديد فان كل شيء كاشي يبقى لدينا مظلما بسبب الطغيان الشديد الكاسح للحضارة البابلية ، الذي أقعدهم عن تطوير أي نوع من الادب الخاص بهم سواء كان تاريخيا أم دينيا •

* لقد اتصف كامل العصر الكاشي في بلاد بابل بميزة في منتهى الغرابة ألا وهي عدم التطور نعم التشنج والجمود لدرجة يشكل معها هذا العصر تناقضا كبيرا اذا ما قيس مثلاً بالعصر الاكادي • وقد ينتابنا شعور يوحي وكأن ما من توترات قد صبغت العلاقة بين الغزاة وأهل البلاد الاصليين نعم وكأن كل شيء في خمول وركود • ولا يكاد يوجد من بين الحكام الكاشيين من خرج عن هذه المجموعة من الملوك أو شذ عن هذا الخط العام ليبرز بصفات خاصة به • حتى ولا يكاد يوجد بينهم من خلّف أثراً يشيد بانجازات هامة له •

لقد أضفى أحياناً ملوك الكاشيين الاوائل « جانداش وآجوم وكاشتيلياش الأول » على أنفسهم اللقب الملكي القديم « ملك جهات العالم الاربع ، ملك سومر واكاد ملك بابل » • لقد حدث هذا في الوقت الذي وجب عليهم الكفاح حتى من أجل الاحتفاظ بعرشهم • ولقد كان هذا الكفاح ليس ضد البابليين الذين بدوا وقد استنفذت كافة قواهم الحربية ، وإنما ضد حكام السلالة الحاكمة لبلاد البحر في بلاد ما بين النهرين • ولذا فقد ظل الكاشيون في نزاع مستمر مع هؤلاء إلى أن استطاع الملك الكاشي الثاني عشر أولام بورياش التغلب على آخر ملوك « بلاد البحر » ايا جميل وطرده الى بلاد عيلام • وعند ذلك بالذات استتب الأمر للكاشيين فاصبحوا وكأنهم السكان الأصليون في بلاد بابل وأصحابها الشرعيون •

قلما توجد حقبة في تاريخ بلاد بابل تتصف بالغموض وقلة الوضوح كالحقبة الكاشية • حتى لو انطلقنا في تحديدنا الزمني للحقبة الكاشية من

نظريه التأريخ القصيرة لبلاد ما بين النهرين ، التي أنزلت عصر حمورابي البابلي الى حوالي ١٧٠٠ ق٠م بحيث قَصَّرت زمن الحقبة الكاشية الى قرابة ٤٠٠ سنة ، فاننا لا نعلم عنها الشيء الكثير • وهذا لا يتعدى أيضا بعض خيوط من النور تنصب في وسط الظلام لتكشف لنا عن نقاط قليلة من بعض جوانب التاريخ الكاشي وحتى بعد تأقلمهم في بلاد بابل واستتباب الامر لهم فيهـا •

وهكذا نرى ملكا يدعى كارايندداش عاش في منتصف القرن الخـامس عشر ق٠م يترك نطاق الظلمة فيدخل منطقة الضوء ليصبح اكثر وضوحا أثر ما أباتنه لنـا التنقيبات الاثرية في العاصمة السومرية اوروك (الوركاء) التي كشفت عن معبد صغير كان قد بناه هذا الملك هبة منه الى الربة اتّين (اتّانا) • وبالرغم ان هذا المعبد ليس بذلك المبنى الكبير الجبار ، اذا ماقيس بابعاد تلك الأبنية الكبيرة السومرية والاكّادية في اوروك ، الا انه يرينـا باسسه وارتفاع جدرانه صفات خاصة تميزه عن فن البناء الاقدم عهـدا في بـلاد بـابل •

يتألف المخطط العام للبناء من غرفة طولانية الشكل مع صالة امـامية • ويحيط بالأولى قاعات جانبية صغيرة • وبالاضافة الى ذلك يتميز المعبـد بارتفاع واجهته الامامية المبنية من آجر يؤلف صفوفا متناوبة باشـكال بارزة تمثل آلهة الجبال والمياه ، التي تستقبل الناظر اليها وجهاً لوجـه (انظر صورة رقم ٣٤) • ولتبلغ مكانة هذا المعبد مهما بلغت من البساطة ، فانه يبقى كبرهان حي جلي للحضارة الكاشية الخاصة وعلاقتها مع حضارة الشعوب الجبلية •

واذا ما تفحصنا عن كثب مستوى الحكام الكاشيين على الصعيـد السياسي ، بالشكل الذي نقلته الينا مراسلات « تل العمارنة » ، نجده ليس باحسن حظ من مستواهم الحضاري • فبالرغم من وجود عدد من رسائل

ُوجهت من الملوك الكاشيين للحكام المصريين التي تبين لنا تساوي الملكين منزلة ، مخاطبا كل منهما الآخر بتعبير « أخ » تبقى الحقيقة المحزنة واضحة ، هي ان الملوك الكاشيين كانوا يرسلون بناتهم الى دار حرم فرعون مصر . كان يحدث ذلك ولو كانت تمضي سنون عـديدة على وجودهن في مصر دون أن يتلقى آباؤهن منهن أي خبر عن مصيرهن . أما الواقع فكان الشاغل الرئيسي للملوك البابليين هو كيف تصل يدهم الذهب المصري، وأن يستطيعوا تثبيت أقدامهم في الحكم وبالتالي تبوئهم مرتبة الملوك الكبار اذا ما حظوا بشرف الزواج من اميرة مصرية . ولما كان الحاكم المصري لم يقتنع بفكرة زواج احدى بناته من ملك كاشي ، نرى هذا الاخير يضطر لاجئا لمحـاولة اقناع فرعون مصر بأن يرسل على الأقل مصرية جميلة الى بابل، ليصار الى جعلها اميرة شرعية يفتخر بها البيت الكاشي وكأنها اميرة من البيت المصري المالك . وهنا يلمس المرء الفارق الشاسع بين عظمة حضارة عريقة في القدم يمثلها الملك المصري وبين بيت مالك لا يزال يعيش على ضوء وتحت ضغط الحضارة البابلية القديمة يسعى جاهدا للاعتراف به بشكل تام *

وقد برهنت آخـر الحفريات التي أجريت في خرائب عقرقوف ، التي تبعد بضع كيلو مترات الى الشمال من بغداد ، في المكان الـذي كـانت ترى فيه دوما زيقورة عالية الارتفاع ، ان الملوك الكاشيين قد اتخذوا سنة لهم كالملوك الآشوريين بتأسيس مقر جديد لملكهم . يجب أن يكون المؤسس الأول لهذه المدينة الملك كوريجالزو الأول أحد ملوك القرن الخامس عشر وسلف الملك كارايندداش . أما المجدد والمتمم لبناء المدينة فقد كان ملك آخر يحمل اسم الباني الأول وأحد خلفائه وهو كوريجالزو الثالث . وبالرغم من ذلك فقد بقيت المدينة تحتفظ بلقب بانيها الأول فسميت «دور كوريجالزو» . وهنا نرى ان الطابع المعماري البابلي القديم في فن العمارة يتجلى في الكثير من معالم هذه المدينة . بيد ان هناك بعض الميزات الفنية الخاصة بالكاشيين كالرسوم الملونة على الجدران مثلا ، التي تذكرنا بفن الشعوب الجبلية الاخرى المعاصرة والغازية أيضا لارض الشرق الأدنى .

ولقد قُدر لِما يُسمى بالـ«كودورُّو»، أي علامات من الحجر لتحديد الاراضي الزراعية ، أن تنير لنا بعض الشيء جانبا آخر من الحضارة الكاشية وذلك في المجالين الاقتصادي وتاريخ الفن • انها انصاب تعد من أقدم ما عرف أولا عن هذه الحقبة التاريخية • لقد عُثر على العديد منها في مدينة سوزا ، عاصمة عيلام ، حيث نقلت من بلاد بابل كغنائم لتلك الحرب التي شنهـا أحد ملوك عيلام على بلاد ما بين النهرين فيما بعد : تتميز هذه القطع بشكلها الطولاني المخروطي الذي يتسم أغلب الاحيان بعدم الاتقان في نحت جوانبه ولقد صنعت هذه الحجارة في الاصل خصيصا لتكون علامات مقدسة تفصل بين تلك الحقول الزراعية ، التي قام الملك باقطاعها لموظفين كبار أو كهنة أو وقفها للمعابد • وكثيرا ما ارتبطت في هذه الحجارة الى جانب ذلك امتيازات خاصة كعدم دفع الرسوم والضرائب مثلا على هذه الاراضي الزراعيـة التي تحددها • تحمل هذه الحجارة بلا استثناء نص اقطاع الارض وبجانبه نقشاً يمثل صفاً طويلاً من رموز الآلهة أو شعارات لها كشهود على صحة نص الوثيقة (انظر صورة رقم ٣٥) •

ان ميل الكاشيين الى طريقة ابراز آلهتهم بالرموز المجردة بدلا من الشكل البشري دفع بهذا القسم الضئيل المتبقي لدينا من الرسم لهذا العصر لأن يفقد أيضا جانبا من وضوح محتواه •

أما فيما يتعلق بالاختام الاسطوانية الكاشية فانها لا تستطيع أن تكون بديلا عن الفن التشكيلي من الاحجام الكبيرة التي يفتقر اليها هذا العصر ، وذلك لأنها لا تخصص سطحا كافيا للصورة المرسومة عليها بنفس القدر الذي تتركه الى الاسطورة الكتابية المرفقة الى جانب الصورة • وعلى العكس من العصور السابقة أصبحت الاسطورة تنصف الآن بالطول لتعرضها الى ذكر صلوات تفصيلية • وبالرغم من ان الآلهة في عصور اخرى من تاريخ الشرق الأدنى، سواء كانت سابقة لعصرنا هذا كفجر التاريخ أو لاحقة به كالعصر الآشوري الحديث ، قد جسمت باشارات ورسوم مجردة ، نجد ان الابتعاد

الواضح عن تخيل الآلهة ورسمها على صورة انسان في فن الرسم والنحت للعصر الكاشي لأكثر من أن يكون بادرة ظهرت بطريق الصدفة • اذ من الممكن أن يكون لهذه الظاهرة ارتباط بتلك العلاقات القديمة للطبقة الحاكمة الكاشية بالديانة الهندية الغربية وفي ذلك الظرف العام الذي اخذ في تحول ديني شامل مهد له ليشق طريقه الجديد في العصر الكاشي ، والذي لا يمكن تفسيره سوى بتركيز هذا العصر على أهمية السلوك المثالي •

ان مجمع اللاهوت السومري ـ الاكادي وتلك الاساطير الدينية ، التي حيكت حول بعض الآلهة على مر مئات السنين لم تكن كلها سوى تشخيص لقوى الطبيعة ووصفا لجوهر علاقات هذه القوى الخارقة طيبة منها وشريرة في شكل صداقة وعداوة بشريتين : على شكل حب وكراهية أو مساعدة ، وصراع خبث وقوة • كذلك لم تكن اساطير الآلهة السومرية والاكادية في الاصل ، شأنها شأن الاساطير الهومرية ، ذات ارتباط بالمبادىء الخلقية كما لم يكن الصراع بين الجيل الجديد لآلهة الفضاء ضد الجيل القديم لآلهة دار الفناء في الحقيقة صراعا ذا طابع اخلاقي ، وانما كان يدور حول مشكلة قيادة السلطة وأحقية كل منها في تنظيم الكون • لم ير قانون حمورابي على مسلته التي هي اقدم نصب تذكاري عرفته الحضارة البابلية في الآلهة عنصرا بشريا خالدا في منتهى الخلود وحسب بل وجد فيها ايضا اسمى ماهية الكمال الاجتماعي • غير ان الشيء الذي نعرفه هو ان هذا القانون لم يكن الا ليجسد نظرة مثالية في عصره دون أن يكون له أي معنى من الناحية التطبيقية • فالاساطير الدينية القديمة بقيت على قيد الحياة حتى في عصر حمورابي كما كانت عليه سابقا • وهكذا نعتقد بأننا على حق عندما نشير الى ان العلماء من الكهنة هم الذين اخذوا ينقحون الملاحم الدينية في النصف الثاني من الألف الثانية ق•م أي في العصر الكاشي ، ونتيجة لذلك فقد حذفت من الملاحم الدينية تلك الاساطير ، التي تؤكد بصورة خاصة على الصفات البشرية للآلهة• ولذا نجد الطرف يغض هنا عن صراع الآلهة ضد بعضهم البعض في تلك

المواقف التي تلعب بها الآلهة دور حامية الخير ضد الشر . فعلماء اللاهوت لم يخلفوا لنا اذاً سوى تلك الاساطير الدينية التي ترتكز على معنى خلقي مثالي . ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى ملحمة جلجاميش ، التي لم تحافظ على مستواها من الاهمية ـ بالرغم من تجردها عن أي هدف مثالي ـ الا تبعا لعمق نظرتها العامة بتحليلها للمشاكل الانسانية .

وكما هي الحال غالبا عند حكم الاجنبي ، كان ايضا عصر الحكم الكاشي الاجنبي بالنسبة للشعب البابلي عصر اليقظة وعصر العراك مع مصيرهم المحزن . لقد وجب أن يوجد تعليل اعمق وابعد مدى لتلك الصدمة العنيفة التي ظهرت معالمها في تقييد الحرية السياسية وفي الانهيار الاقتصادي . ولم يستطع المرء ايجاد سبب ذلك وادراك حقيقته سوى في ابتعاد الآلهة عن اتباعها وغضبها عليهم . وبالمقابل لا بد الا وأن يكون هناك من سبب لهذا التخلي من جانب الآلهة عن الشعب والذي كان هو الاثم الذي اقترفه الشعب البابلي بحق آلهته . ولما كان مفهوم الآلهة قد تطور كما رأينا ، حيث ارتفع ليتطرق الى المبادىء الاجتماعية الخلقية العامة ، لم يعد بعد باستطاعة المرء التكفير عن الخطيئة المقترفة فقط باتباعه تطبيق سبل كيفية العبادات والطقوس الدينية المادية من اقامة الافراح الدينية وغيرها من الاضاحي . اذ اخذت الآلهة ، التي تجسد مبادىء السلوك المثالي الكامل للخليقة ، منذ الآن ترسم وتحدد للفرد وللشعب بأجمعه اسسا لعلاقاته وطرقا وانظمة لسلوكه الاجتماعي العملي . وتتيجة لذلك لم يعد بالامكان البحث عن علة هذا الانحطاط الشعبي سوى في ذنب واحد عام ، هو اقتراف الخطيئة المسلكية .

ان الآلهة لتطلب من البشر مقابل حمايتها التي تنعم بها عليهم ، روابط مسلكية خلقية تحدد علاقاتهم مع بعضهم البعض . وإذا ما قدر للآلهة التخلي عن هؤلاء ، فان ذلك لبرهان أكيد على اقترافهم للخطيئة .

ولما كان شعور الانسان البابلي بالذنب والخطيئة قد تيقظ لهذه الدرجة

فقد فتح بذلك الطريق للغلو والتطرف فيه لدرجة بلغ بها الاحساس المتواصل بالنقص والتعقيد النفسي البشري العام امام الآلهة • ولقد قدر لهذا الشعور أن يبلغ بعد ذلك درجة من الاهمية عند سكان بلاد ما بين النهرين ، لا تقل عما اصبحت عليه عند اليهودية والمسيحية • ونتيجة لذلك تولدت النظرة بان كل عذاب ليس الا عقوبة لخطيئة سواء أن اقترفت قصدا أم سهوا •

وقد وردت بعض هذه المعاصي ، في فهرس يعددها اثما اثما ، التي على الانسان أن يقطع على نفسه عهدا مع الإله بعدم ارتكابها ويقضي بلوم مرتكبها في المجتمع ، تبعا لوصية الإله • وعلى سبيل المثال فان قطع مثل هذا العهد لا يقتصر فقط على تحريم الفتنة بين اعضاء الأسرة الواحدة بل كذلك بتحريم عدم الاخلاص للاصدقاء ونكران الجميل وكذلك بمنع الكذب والافتراء بشتى انواعها والحض على قول الحقيقة غير منقوصة ، نعم حتى وتحريم استخدام القوة ضد اسرى الحرب ، أي معاملة الاعداء معاملة حسنة • ان هذا التركيب المسلكي للعلاقات الإلهية ـ البشرية يتطلب بالمقابل وجود مبدأ حتمي آخر معين معاكس هو : اذا ما كانت المصيبة بمثابة عقوبة لمعصية ارتكبها الانسان فيجب أن تكافأ البراءة والطهارة بانقاذ البريء من المصيبة • وفي الواقع لقد نشأ نوع من ادب الحكمة يشابه لحد ما الحكم والامثال المصرية القديمة واليهودية يبحث عن مسلك ينير للانسان كيف عليه أن يعيش دون أن يصطدم مع وصايا الإله الاجتماعية وليبقى بخير وسلام • وستجد كل هذه الاشياء منبعها الفكري في نفسية الشعب البابلي المعذبة تحت براثن الحكم الكاشي • بيد انه لا يوجد في ادب الحكمة ما يستطيع أن يغير من الحقيقة ـ شأن الحال عند اليهود ـ ، ان الصالح يصاب بالكوارث في بلاد بابل بينما ينعم الظالم بالسعادة وبخيرات هذه الدنيا •

لقد شكل التناقض الرئيسي بين العدالة والجهود الإلهي من جهة ونكبة الانسان البريء والصالح من جهة اخرى ، نفس المشكلة التي تتعرض لها قصة ايوب بعد ذلك ، شكل مادة حية رئيسية لمزمور كبير ، حتى في بلاد

بابل لنهاية الألف الثانية ق٠م ٠ ولا يوجد هناك من مخرج لهذه الحيرة ، سوى في الايمان ، بعجز التفكير البشري امام الارادة النهائية المسلكية للاله الأكبر٠ اما الشيء الذي لا يمكن فهمه فهو سبب تلك الآلام الكثيرة التي يعانيها المستغيثون آملين الخلاص عن طريق قوة مردوك الخارقة وخاصة في الوقت الذي بدت فيه قوته وكأنها قربت من الزوال ٠

ولذا فقد بدأ أحد اناشيد التظلم بالكلمات الآتية :

أريد تقديس سيد الحكمة

٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

نظرت خلفي فاذا بالصعاب تطاردني
وكأن ما من قربان قد قدم لإلهي مني
أو لم يسمَّى باسم إلهتي عند الطعام ،
وكأني لم اخر على وجهي راكعا وكأن سجودي لم يكن للعيان واضحا
أو كامرىءٍ خرس لسانه وسُد فوه عن الترجي والصلاة
وابطل الاعياد وأهمل التضحيات

٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ذلك الذي لم يناج ربه ملتهما حتى طعامه
تاركا ربته دون أن يقدم رقيما طينيا لها
مقسما بالهه المقدس بكل خفة وبساطة

هكذا ظهرت أنا
ولكني لم افكر إلا بالتوسل والصلاة

لقد كانت الصلاة احساسي والقربان واجبي (الأول) في الحياة
كان يوم تقديس الإله رغبتي القلبية
وعرس الربة لي ربح وغنى (وحمية)

كانت الصلاة من اجل الملك لـــي فرحـــة
والعــزف عــلى الاوتــار لـــي رغبـــة

• • • • • • • •

الا ان ما يبدو للانسان خيرا فعنـــد الله محتقـَــر
ومــا يُهمــل في قلبــه فعنـــد الله خـــير
من يعلم ارادة الآلهة في السماء ويحيط بخططهم الحكيمــة ؟
كيف يستطيع الناس البلهاء الاحاطة بتغير (ارادة) الآلهة
فالــذي يعيــش ليــلا ، قديصبحفي النهارميتا صريعا
لقــد أظــلم فجــأة فيســحق ســريعــا
في لحظــة مــا (تراه) يغـــني ويلعـــب
لتجده بعدها في الـ« نو » يولول « كالأم » الثكلى
وكما تتبدل الضياء والظلمة تتغـــير الارادة

ان خاتمة هذه الحكمة ليست في الواقع إلاّ استسلام الانسان للاله الاعظم واراداته ، التي لا يحيط بها علم ومن ثم عجزه عن التمييز بين الخير والشر • وبذا يجوز لنا الاعتقاد ، ان تطور التفكير الديني الخلقي للشعب البابلي قد بلغ هذه النقطة في نهاية الحكم الكاشي • وأية طريق ومسافة قطعهما هذا التفكير منذ أن اعتقد الانسان في العصر السومري ، ان المرض والمصيبة ليسا سوى نتيجــة هجوم الجن الشرير على انسان معين دون أن يكون في ذلك أي صدى للموقف الخلقي ؟

ووصلنا شعر آخر على شكل حوار بين صديقين أعاد العلماء تاريخه الى العصر البابلي المتأخر وذلك انطلاقا من اسلوبه البليغ • الا انه من الممكن ايضا أن يرقى زمن هذا الشعر الى اقدم من ذلــك بحيث قد يصل العصر الكاشي • ان هذا السفر الواسع والمفصّل ، كقصة ايوب ، يؤكد كنشيد

مديح حكمة مردوك على العجز الجذري للمقاييس البشرية الخلقية وكذلك على عدم استطاعة البشر معرفة الصراط الإلهي للعدالة .

بالرغم ان درجة السلوك الديني التي وصلها المرء في هذين الشعرين قد تجاوزت حقا تلك القمة التي تنسجم عمليا والاعتقاد الديني للشعب ، اذ لم تعد تلك الدرجة من هذا السلوك تتفق ومصالح الشعب في نظرية العجز البشري التام لمعرفة خبايا القدر ، الا انها تبقى تشكل نقطة انطلاق لتقييم السلوك والورع الدينيين في الشرق الأدنى القديم . كما انها ترينا ايضا بشكل عام **ان التطور الفكري يجب الا يرتبط ابدا بالانهيار السياسي والاقتصادي .**

غير ان الامر الذي لا يمكن ادراكه حاليا هو ما اذا كان الكاشيون ، الذين لم يشكلوا في الواقع سوى طبقة حاكمة بسيطة ، قد اثروا فعلا في الربط بين الدين والسلوك الاجتماعي . إننا نعلم بكل تأكيد ان الكاشيين قد احتفظوا بآلهتهم الخاصة التي اتوا بها من موطنهم الاصلي كونهم استشهدوا بها اول الآلهة عند ابرامهم للعقود . وبالرغم من ذلك فاننا لا نستطيع الظن بأي شيء حول الماهية الخاصة لهذه الآلهة أو حتى شكل كيفية عبادتها او دورها الخلقي .

ومن الممكن أن يكون قد انبثق عن الاعتقاد الديني الشعبي نوع آخر من الاتجاه الديني ، الذي وإن لم يكن قد ادى الى تغيير جذري في الاعتقاد البابلي الديني ، غير انه قاد الى توسع في احد فروعه : كالاعتقاد بعالم الجن والشياطين والسحر والشعوذة وكيفية طرد الشياطين بالتعاويذ وأخيرا قراءة وتنبؤ المستقبل . وقد اتجه الكهنوت الرسمي الآن بالذات الى هذا الفرع ، حتى لا يفقد علاقاته واواصر ارتباطاته مع الشعب . نعم لقد وُجدت الأرواح الشريرة والخيرة بكل تأكيد منذ آلاف السنين في بلاد بابل وبلاد أخرى من العالم ايضا . الا انه لم يكن قد مر قبلا على الشعب البابلي مثل هذا القدر من الشعور ، بانه محاط بالشياطين في كل وقت من النهار والليل كالشعور الذي نشأ اثر التغيرات الجذرية الفظيعة التي حدثت في العصر الحثي .

ونتيجة لذلك فقد وجد الكهنة انفسهم مضطرين ايضا للقيـام بتنظيم عالم الظلمة للارواح الشريرة بشكل يستطيعون فيه مكافحتها ، وذلك بنفس الوقت الذي وضعوا فيه تنظيما معينا لعالم النـور الخاص بالآلهة المحلية القديمـة .

وقد ربط المرء عناصر الشر اللامتناهية العدد التي لم يتمكن المـرء من الاحاطة بها ، بلا استثناء ، بقوة عليا هي قوة آلهة السبع الشريرة مجتمعة ، التي إليها يعود سبب بلية الخليقة . وقد حاول البعض احيانا تفسير هـذه السبع الشريرة بالآلهة السبع الرئيسية لبلاد عيلام .

ثم قام الانسان بجمع نصوص السحر ونصوص ردع اذى الشياطين في سلاسل من النصوص سُميت بسلاسل مقلو وشوربو الشهيرة التي تجمعت فيها الحلول العملية لدفع الاذى المفاجىء بألف شكل من اشكاله .

وقد توسع ذلك حتى شمل داخلية النفس البشرية اذا ما حل بها الشر ، بعد اضطرار إلهها الخاص للتخلي عنها غاضبا عليها لاقترافها بعمد أو سهوا اثما مسلكيا ما . ولقد انتقلت الصبغة الخلقية للـورع الـديني البابلي في جوهرها من العجز عن التنبؤ بارادة الآلهة ومن عجز الانسان ايضا عن الحكم على المقاييس الخلقية الى التطرف والغلو . فتشابكت وتناقضت بذلك تحاليلها للخطيئة وللعدالة الإلهية . وبذا لم تستطع هذه الديانة الكهنوتية الرسمية من خلال ذلك ايجـاد مخرج تعرف به الارادة الإلهية أن تؤثر عليها بواسطة الصلاة مثلا وتقديم القرابين والاحتفالات الدينية والتنبؤ بواسطة القرابين ، وكتمان الاسرار الدينية والسحر ودفع اذى الشر . ولكننا نجد بالرغم من ذلك ان ديانة الكهنة قد بقيت في الحيـاة اليومية متفوقة عـلى الخلق الاجتماعي المنحسر . ذلك ان احوج ما يحتاجه الشعب البسيط هـو نقطة انطلاق واضحة ومفهومة لطريق حياته لا أن يبقى يتخبط محتارا أي طريق عليه أن يسلكه . وهنا تتجسم العلة بالذات : كيف قـدر للشعوذة في بلاد بابل خلال القرون الزمنية اللاحقة أن تشهد توسعا في محتواها ومداها بشـكل لم يُعهد له مثيل في أية حقبة من عصور التاريخ .

الفصل الرابع

الحوريــون

آ ـ الاستيطان ـ التوسع ـ التطور السياسي

لم يكن الكاشيون أو الحثيون الاصحاب الفعليين للمناطق الواقعة بين جبال زاغروس والبحر الابيض المتوسط ، عندما سلم مورشيلي ملك الحثيين بلاد بابل للكاشيين اثر غزوه الخاطف لها • وفي الواقع استوطن هذه البلاد الحوريون الذين نزحوا على الارجح من موطنهم الأول في اقاليم بحر وان عبر مئات السنين ليستقروا بالطرق السلمية في كافة انحاء اعالي بلاد ما بين النهرين ، التي كان السوبارتيون يقطنونها قبلهم • وتشير بعض الاسمـــاء السوبارتية التي تعود الى الألف الثالثة ق•م وكأن لا علاقة لهؤلاء بالحوريين• بالرغم من ذلك لا بد أن يكون تغلغل جماعات حورية في المناطق الزراعيــة المتحضرة من الجنوب قد بدأ فعلا حتى خلال عصر السلالة الثالثة لـ « اور » الموافق ٢٠٠٠ ق•م تقريبا • اما في الشمال فيجب أن يكون قد حدث مثل هذا التغلغل أثناء عصر الاستعمار الآشوري لمنطقة كيل ــ تبه في الاناضول حوالي ١٨٠٠ ق•م • هذا ونلمس وجود التأثير الحوري بعد مائة سنة من هذا الزمن في مدينة ماري في اواسط الفرات مثلا ، التي تعتبر قلب منطقة استيطان الساميين الغربيين • اما هذا التأثير فقد تجلى في بعض النصوص الدينية المدونة باللغة الحورية •

لقد أعقب على الارجح استيطان الحوريين لشمال بلاد ما بين النهرين وبلاد

آشور وشمال بلاد الشام الزحف السلمي لطلائع الشعب الحوري حوالي بداية القرن السابع عشر ق٠م

كما انه من المرجح أيضا أن يكون هؤلاء هم الذين ضغطوا على الكاشيين فدفعوا بهم الى بلاد بابل ٠ هذا ولا يمكننا الجزم ما اذا كان الحوريون قد سببوا غزو الهيكسوس لمصر بضغطهم على بلاد الشام وفلسطين ، خاصة وان هذه النظرية اخذت تفقد يوما بعد يوم الكثير من قرائنها التاريخية واللغوية ٠

يبدو ان الحوريين قد جابهوا صعابا عند توسعهم الكبير في مناطق استيطانهم وأثناء تأسيس رابطة سياسية هامة تجمع بينهم وذلك أقسى من التي لاقاها الشعبان الآخران الغازيان الحثي والكاشي ٠ ومن المحتمل أن يكون الدستور السياسي الداخلي لهذا الشعب هو الذي شكل العائق الاساسي أمام ذلك : فجمهور الشعب الحوري خضع لقيادة طبقة فوقية لا بد أن ينتمي أصلها العرقي الى دم أجنبي ألا وهي طبقة الاشراف المقاتلين على العربات أو ما يسمى بفرسان الخيول ٠ تدلنا تسمية هذه الطبقة بـ « الماريانى » على انها ليست الا تسمية آرية بحتة لاصل هندي ٠ ومما لا شك فيه ان الشعب الحوري قد امتص هذه الطبقة تدريجيا الى أن انحلت فيه نهائيا ٠ ومن المؤكد أيضاً ان هذه الطبقة الحاكمة هي التي مارست بعناية تربية الخيل عند الحوريين ٠ ومما يشير الى ذلك عثورنا على شرح مفصل حول تربية وتأقلم الخيل في عاصمة الحثيين ، ألفه شخص حوري اسمه كيكولي ٠ يضاف الى ذلك استخدام تعابير فنية تحوي ألفاظا لاعداد هندية ٠ ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل تعداه لأن تكون جميع أسماء الملوك الحوريين هندية الاصل ٠ والأكيد هو ألا يكون قد مر هذا بدون عقبات وذلك قبل أن يصبح الحوري بطبقته الهندية الحاكمة قادرا على تشكيل وحدة سياسية فعالة ٠

هذا ولا بد الا وأن وجد في باديء الامر دويلات حورية متعددة خاصة ان هناك نصوصا حثية متأخرة تتحدث عن وجود بلدان حورية ، ولو انه

لم يكن دوما من الوضوح بمكان كيف يتميز مفهوم « الملك الحوري » من مفهوم « ملك الدولة الميتانية » • فالميتانية تسمية نطلقها في القرن الخامس عشر والرابع عشر ق•م على دولة واسعة الاطراف تمتد ما بين زاغروس والبحر المتوسط ومن بحر وان حتى آشور وارّابشا •

ولقد قادت هذه الدولة العنصر الشعبي الحوري والعظمة واللغة والديانة الحورية الى القمة • الا أنه بقدر ما كانت هذه الدولة قوية كانت أيضا قصيرة الاجل • اما ذكر الحوادث التاريخية من القرن الخامس عشر ق•م فتكاد تكون معدومة لدينا ، اذ ان الشيء الوحيد الذي نعرفه هو ان الامارة الصغيرة أرّابشا الى الشرق من نهر دجلة في المنطقة الحالية لكركوك ومن ثم امارة موكيش الواقعة في اقصى الغرب بالقرب من حلب كانتا خاضعتين حوالي ١٤٥٠ ق•م للملك الميتاني شاوشتّار بن بارزاشتار •

وقد تم العثور في نوزي تلك المدينة الصغيرة في مقاطعة أرّابشا وفي الالخ التابعة لمقاطعة موكيش على حد سواء وثائق مكتوبة ، كان قد ذيلها الملك شاوشتّار بخاتمه الخاص أو بخاتم سلفه شوتّارنا الأول الذي يعتبر اقدم ملك ميتاني معروف لدينا حتى الآن • وتبعا لذلك فقد كانت المملكة الميتانية بكل تأكيد مركز الدولة الحورية في شمال ما بين النهرين ، اذ انضم تحت لوائها الدويلات الصغيرة الاخرى في الشرق والغرب • وبصورة خاصة فقد خضعت بلاد آشور الى سلطة الملك الميتاني في القرن الخامس عشر ق•م حيث لم يكن ملوك آشور في الواقع من اشور ــ رابي حتى اشور ــ نادبناحّي أكثر من ملوك اسميين تابعين ، وذلك إن صح ما تذكره تلك المعاهدة التي عقدت بين الحاكم الميتاني المتأخر متّي ــ وازا والملك الحتي شوبّيلوليوما : ان شاوشتّار قد احضر من مدينة آشور بابا من الذهب والفضة ليضعه في قصره في عاصمة بلاد الميتانيين المسماة بـ « واشوكاني » •

واذا استثنينا شاوشتّار نجد ملوكا ميتانيين عديدين لا نعرف عنهم شيئا سوى أسمائهم • يدلنا ارشيف تل العمارنة ان علاقات ودية ومصاهرة قد

اقيمت بين البيوت الملكية المصرية والميتانية في عهد تحوتموس الرابع وامينوفيس الثالث • كما ونجد أيضا ان شوتارنا الثاني ، الخلف الثاني لـ « شاوشتار » يبعث بصورة الربة الكبرى عشتار إلهة نينوى الى فرعون مصر ليتبارك هذا بها ولتجلب له الصحة والعافية • وهذا ما يثبت لنا أيضاً ان بلاد آشور كانت تتبع المملكة الميتانية •

وبعد وفاة شوتارنا الثاني كان لا بد من بدء النزاع المحتوم حول العرش ، حيث تميز به الشرق القديم والذي مكن توشراتا من تنصيب نفسه على العرش الميتاني • الا اننا لا نستطيع التأكد إن كان ذلك قد تم بطريقة قانونية ، أي انه حقا هو الخليفة الشرعي أم بلغ ذلك عن طريق اغتصاب العرش • ومهما يكن من أمر فلقد تجسمت في شخصية هذا الملك خاتمة عظمة السلطة الميتانية ــ الحورية الكبيرة وزوالها بنفس الوقت • اننا نعرف عن هذا الملك أكثر مما توفر لدينا حول كافة الملوك الميتانيين مجتمعين • فمن خلال رسائله مثلا الى امينوفيس الثالث والرابع نستقرىء السعادة والسلام حيث كانا مخيمين على مملكته خلال الحقبة الأولى من حكمه • ومن ناحية أخرى ترينا مقدمة المعاهدة ، التي اضطر متي ــ وازا بن توشراتا الى عقدها مع الملك الحثي شوبيلوليوما ذلك التحول التام المفاجىء ، الذي ساد الوضع في نهاية حكمه والذي قاد ايضا الى انهيار السلطة الميتانية •

كما وتشير هذه المقدمة ايضا لوجود ملك حوري اسمه ارتاتاما كان يحكم الى جانب توشراتا ملك الميتانيين • بيد اننا لا نستطيع معرفة ما اذا كان هذا أخا لـ « توشراتا » أو ملكا مسودا تابعا له • وبذا لا نستطيع أيضا في هذا المجال التمكن من توضيح علاقة المفهومين « الحوريون » و « الميتانيون » مع بعضهما البعض • وعلى كل حال لقد كان في اقامة علاقات دبلوماسية بين ارتاتاما الحوري هذا وبين شوبيلوليوما الحثي ، السبب الذي دفع بـ « توشراتا » الى الحرب ضد « حاتوشا » ، بيد أن حتفه كان في ذلك ، اذ اكتسح شوبيلوليوما منتصرا شمال بلاد الشام ،

محور النزاع بين الدولتين ، وعبر الفرات حيث احتـل عاصمة توشراتّا ، واشوكاني ، بالقرب من رأس العين على نهر الخابور • وما كان من شوتّارنا ابن ارتاتاما الا أن استغنم هـذه الفرصة ليزرع الدمار والخراب في بلاد الميتانيين • اما الغريب في الامر فهو ان العرش الميتاني لم يصبح من نصيب الاب الحوري حتى ولا من حظ الابن • بل على العكس لقد استطاع متّي ـ وازا بن تواشراتّا الهرب الى آسيا الصغرى حيث نصبه شوبّيلوليوما على عرش والده وعقد قرانه باحدى بناته • وكصهر لشوبّيلوليوما وملك اسمي للميتانيين اصبح متّي ـ وازا ، اعتمادا على محتوى وهوية المعاهدة المشهورة والمذكورة اعلاه ، تابعا للملك الحثي • كما اصبحت المملكة الميتانية الصغيرة كحاجز حماية دفاعي للمملكة الحثية ضد اخطر منافس لها يصبو لزعامة الشرق الأدنى ، والمنافس الذي أصبح حرا مستقلا اثر نهاية توشراتّا الا وهو آشور •

وهكذا اصبحت البلاد الميتانية كدويلة تشكل جزءا من المنظومة الكبيرة من الدويلات التي اتصفت بها الامبراطورية الحثية • وبذا غدا متّي ـ وازا الى جانب ابن الملك الحثي ، بياشّيلي ، الذي كان يحكم كركميش ، أهم حليف لـ « شوبّيلوليوما » • كذلك ضم متّي ـ وازا الى الاسرة المالكة الحثية فأصبح وكأنه احد افرادها • ويحدثنا متّي ـ وازا في المعاهدة كيف حاول شوتّارنا قتله أيضا : « ••• ولكني فلت من يـده ، فاستغثت بآلهة الشمس بشوبّيلوليوما ، بالملك الكبير ملك بلاد حاتّي الملك البطل ، حبيب تيشوب ، هذه الآلهة التي قادتني على طريق خال من المخاطر ••• وعلى نهر مارشانستيا (الهاليس) القيت بنفسي على اقدام الشمس شوبّيلوليوما ، الملك الكبير ، ملك بلاد حاتّي ، الملك البطل وحبيب تيشوب • وما كان الملك الكبير الا أن احتضنني بيديه وسُرَّ بي سرورا عظيما ، فاستفسر مني عن كافة احوال البلاد الميتانية ، وعندما سمع وضع احوال البلاد الميتانية تكلم عندئذ الملك الكبير ، الملك البطل :

« اذا ما انتصرت على شوتكارنا وعلى البلاد الميتانية ، فسوف لا اذلك
بل سأجعل منك ابنا لي وسأنصّبك على عرش أبيك ... » وبذا فقد حصل
متّي ـ وازا على البلاد الميتانية كهدية اقطاع من شوبّيلوليوما ، كما
أنعمت عليه اثمن الهدايا من سيده الجديد وهذا ما يحدثنا به متّي ـ وازا،
أيضا « وانا متّي ـ وازا ، ابن الملك ، عندما ذهبت الى الملك الكبير كان
يحوزتي من الملك فقط ثلاث عربات ، رجلان حوريان ومرافقان ، كانوا
بصحبتي . كما لم يكن لدي سوى ثوب واحد كان علي ، ولا اكثر من ذلك ،
ولقد أشفق الملك الكبير على حالي فاعطاني : عربة مغطاة بالذهب واحصنة
وحوائج مطبخ ... ابريقين من الفضة والذهب مع كؤوسهما من الفضة
والذهب أيضا وثوبا ثمينا ، أعطاني كل هذا ، وقطع مجوهرات وكل مايخطر
على بال ، اعطاني هو ... » وبهذا فاننا نرى ان المملكة الميتانية قد زالت
من الوجود . بيد انه لقد قدر لاهميتها الحضارية أن تعمر على وجودها
السياسي متخطية الحدود الجغرافية والزمنية .

ب ـ الفن والدين في المنطقة الحورية

نتيجة لأحدث الابحاث اخـذت حضارة الحوريين تتضح مجـددا في منطقتهم بعض الشيء وببطء ، ولو كان ذلك ضمن خطوط عامة غبر واضحة الحدود والمعالم • واقد تمكن المرء بالتدريج الكشف عن تركيب اللغة الحورية حتى وعن قسم كبير من مفرداتها • ولكن بالرغم من ذلك يظل الرصيد الادبي المتبقي لدينا ضعيفا ومحدودا ، بشكل نضطر معه اللجوء للترجمات الاكادية والحثية من الحورية لكي نستطيع أن نصدر حكما على التآليف الحورية • وتتعلق الترجمات الاكادية بالمعاهدات الدولية مثلا اما الحثية منها فتخص نصوص الملاحم والاساطير •

وبالرغم من ذلك فلقد كان عصر ازدهار القوة الحورية ــ الميتانية مـن القصر وانقراضها من الفجأة ، بحيث لم يصلنا ذلك القدر الكافي من مصادر الفنون التشكيلية والمنابع الادبية الواسعة • وبما انه لم يُستطاع حتى الآن العثور على عاصمة المملكة الميتانية ، لذا كان على معظم ابحاثنا التاريخية التي تعالج الحضارة الحورية أن تعتمد بصورة رئيسية على مناطق المحيط من المملكة أو على الآثار المكتشفة بطريق الصدفة •

فبالرغم ان لدينا بعض منتجات الحرف اليدوية من المخلفات الحورية ، الا انها لا تحدثنا سوى النذر اليسير عن حضارة هذا الشعب • ومثلنا على هذا ذلك النوع من الفخار الملون الذي كان منتشرا في جميع انحاء البـلاد الحورية الواسعة الاطراف من زاغروس حتى البحر الابيض المتوسط : تتميز التربة التي صنع منها هذا الفخار بالصفرة الفاتحة المدهونة بخطوط سوداء غير لامعة ، رسمت عليها عناصر نباتية باللون الابيض (انظر صورة رقم ٣٦) واننا لنصادف وجود هذا النوع من الفخار في نوزي (بالقرب من كركوك) ،

وفي آ شور ، وفي نينوى وفي تل حلف (على الخابور) وفي بقاع عديدة اخرى من شمال بلاد ما بين النهرين • كما عثر عليه أيضا في اقصى الغرب في الالخ (تل العطشانة) بالقرب من انطاكية حيث احتك هذا النوع من الفخار بتأثيرات العالم الايجي فأصبح بذلك على تماس بزخارف الفخار الميكيني •

ويبدو لأول وهلة من جملة ما فضله الحوريون ايضا الفخار المدهون اللامع او الخزف (الفريت) • ومن الممكن أن يكون استخدام هذا الخزف ليس الا بديلا عن الاحجار الثمينة كاللازورد حيث ازداد استعماله بكثرة في صناعة المجوهرات والاختام الاسطوانية • وعلى هذا لا بد الا وأن اثّر ذلك على تطور وتهذيب الفن وبصورة خاصة صناعة الاختام •

لما كان تصورنا لاسلوب فن العمارة الحوري ـ الميتاني لا يرتكز على مخططات لمعابد حورية صرفة ، من قلب البلاد الحورية ، نظرا لافتقارنا لها حتى الآن ، كان لا بد لنا اذاً من الاستعاضة عن ذلك ببنائين لقصرين كشف النقاب عنهما في اقاصي المملكة أولهما في الشرق في مدينة نوزي وثانيهما في الغرب في مدينة الالخ • فالأول يشكل مسكن والي مدينة نوزي والثاني دار الامير الصغير نقمي ـ با في الالخ • ان تاريخ كل من البنائين يعود الى عصر الملك شاوشتتار أي عصر اوج عظمة المملكة الميتانية • ويؤكد هذا التحديد الزمني عثورنا على الخاتم الاسطواني لهذا الملك في كلا القصرين • يبلغ المخططان الرئيسيان لمركز البنائين درجة كبيرة من الشبه بشكل يجيز لنا الاعتقاد انهما من نماذج فن البناء الحوري • فالغرفة الرئيسية تتميز في كليهما بشكلها الاسطواني مع وجود موقد على عرضها • كما نجد على كل من عرضيها غرفا قائمة تعادل مجتمعة عرض الغرفة الطولانية • اما المدخل لهذه الغرفة الطولانية فيقع في نهاية طولها ، كذلك يوجد امامها مجموعة من الغرف مع قاعة تشكل المدخل الى مجموعة اخرى من الغرف الجانبية • وفي الواقع يحوي هذا المنظر من العمارة في هذين البنائين جميع خصائص البناء المسمى

بالـ « هيلاني » ، بالشكل الذي سنتعرف عليه لاحقا في شمال بلاد الشـــام وما بين النهرين أي في بداية الألف الأولى ق•م •

اما ما تبقى ، والذي يحمل في طياته خصائص حضارية حورية واضحة ، فيتجسم بكامله في المجال الديني •

فالديانة الحورية هي بلا شك كالتركيب العضوي ذات طبقات كثيرة نشأت من عناصر متعددة قامت على مر مئات السنين ، لقد اقتبست بعض هذه العناصر من العالم السومري ــ الاكادي ، بينما تسرب اليها القسم الآخر من منابع جديدة ذات صفة سامية غربية • يضاف الى ذلك القسم الذي اصطحبه الشعب الحوري معه وما اتت به الطبقة الهندية الغربية الحاكمة •

اما فيما يخص التأثر بالبابليين فلدينا نصوص حورية وجدت في ماري في قصر زيمريليم ، الملك المعاصر لحمورابي والتي تتألف من نصوص لتعاويذ بابلية الصفة تُرجمت الى الحورية لهدف الاستعمال الخاص بالحوريين • ولم تكن تلك الكسر من الرقم الطينية لملحمة جلجاميش باللغة الحورية التي عثر عليها في عاصمة الحثيين حاتوشا سوى البرهان القاطع ، على ان الحوريين لم يكونوا دؤوبين على اقتباس الحضارة البابلية وحسب ، بل قاموا ايضا في كثير من المجالات الاخرى بدور الوسيط في نقل هــذه الحضــارة الــى شمال ــ غرب وغرب الشرق الأدنى •

لم تقتصر الديانة الحورية بتأثيرها من خلال الشخصيتين الرئيسيتين في مجمعها اللاهوتي وهما إله الطقس تيشوب وزوجته شيبات فقط على شمال بلاد الشام ، بل تعدته بصورة خاصة وبشدة على الحثيين انفسهم ، وخاصة في الحقبة الاخيرة من حياة المملكة الحثية • كذلك لم يعد هناك مجال للشك ، من ان رسمي الإلهين الرئيسيين لرتل الآلهة الاحتفالي في ياتسيليكايا ، بالقرب من العاصمة حاتوشا ، هما « تيشوب » و « شيبات » ، وذلك اعتمــادا على الاسم المنقوش بالكتابة الحثية الهيروغليفية الى جانب كل إله في هذا

الرتل (انظر صورة رقم ٣٧) . كذلك لا بد أن تكون الربة عشتار ايضا (إلهة نينوى) قد اصطبغت بالصبغة الحورية ، خاصة اذا علمنا بأن حتى فراعنة مصر قد مجدوا فعالية بركتها وبالتالي اثرت بمفهومها الحوري على الديانة الآشورية ، طالما انها على صلة بالربة الحورية شاوشكا التي هي بمنزلة عشتار .

واستنادا على مجموعة من بقايا نصوص كتابية وجدت في جاتّوشا وعلى التراجم الحثية من الحورية التي وصلتنا يبدو ان تأثيرات ابي الآلهة الحورية كوماربي كانت اكثر بعداً واشد عمقا ، حيث وصل به المطاف ليكون المحور الرئيسي لاسطورة حورية . كما ويوجد اوجه شبه قوية بين كوماربي هذا وبين كرونوس اليوناني ابي الآلهة أيضا بالشكل الذي وصف به الأخير من قبل هيزيود بحيث يجب أن يكون هناك ارتباط بين الاثنين . ففي حين أن اعتقد المرء سابقا ان نَقل عناصر الاساطير الدينية الحورية الى المدن اليونانية في آسيا الصغرى انما قد تم عن طريق التَرجمات الحثية ، اصبح من المرجح الآن ، ان مثل هذا الاتصال بين الحوريين واليونانيين انما قد حصل عن طريق الساحل الفينيقي ومنطقة كيليكيا . وترجيحا لذلك فقد ثبت مثلا ان نصوص الاساطير الدينية الفينيقية التي وجدت في رأس الشمرا على ساحل بلاد الشام والتي كتب بعضها بالخط المسماري الابجدي الخاص برأس الشمرا (راجع ص ٢٥٣) كثيرا ما تتعرض لذكر اسم جبل صافون . ومن جهة أخرى فليس هذا الجبل في الواقع سوى جبل حَزِّى من جهة الذي نجد ذكره في مزمور اولليكومي لاسطورة كوماربي ومن جهة أخرى فهو جبل مونس كاسيوس (الأقرع) الذي تذكره قصة تيفون اليونانية .

لم يكن هذا الجسر الواصل بين الحوريين واليونانيين عن طريق الساحل الفينيقي ، كما استطعنا هنا بالتأكيد اعادة تركيبه ، على الأرجح ، الا واحدا من صلات وصل متعددة . ولو استطعنا الكشف عن عدد مشابه له ، لبانت

لنـــا على الأرجح جوانب أخرى من فجر الحضارة اليونانية اكثر وضوحا بتسليطنا عليها اضواء كشافة أخرى .

والى جانب القوى العليا ، أي الآلهة الحورية المذكورة اعلاه ، التي شكلت بنفس الوقت ركائز الطقوس الدينية للدولة وجوهر الاساطير المنظمة والمنقحة من قبل الكهنوت ، يعود فيظهر في فن الاعتقاد الشعبي القـــديم قوى إلهية أخرى اعتقد بهـــا الانسان والتي تجدّد بعث استمرار الحياة من الموت وفوق الموت متخطية حدوده .

فبالرغم ان الاختام العائدة الى عصر المملكة الميتانية الكبرى هي في الواقع غير كافية ، بغض النظر عن القطعة النفيسة للملك شاوشتار ، لتعطينا صورة واضحة حتى عن القدرة الشكلية الظاهرية للحوريين ، الا انها تنير لنا فكرة هدف الاندفاع والتأويلات الدينية . ان الاعداد الضخمة من الاختام الاسطوانية المعروفة والمصنوعة من الخزف وكذلك طبعاتها على الرقم الطينية التي وُجدت في جميع انحاء المحيط الحوري ـــ الميتاني لتقدم لنا رصيدا ضخما من رسوم تخص لحد ما تصوير آلهة الدولة فتعرضها لنا في وضع الصلاة أو في رتل قيادي (انظر صورة رقم ٣٧) . اما من ناحية أخرى فنجد جميعها تقريبا يعود فيعتمد الاعتقاد السومري القديم وتعابيره التصويرية الرمزية المجردة ، مذهب اتّين ـــ تموز ، الذي كنا قد نوهنا عنه سابقا .

يشكل المشهد القديم للاعتقاد ببعث الحياة بعد الموت أي الشجرة التي تقع بين حيوانين أليفين محور المواضيع التي تطرقها الاختام الحورية . ولقد عاش هذا النمط من الاتجاه الديني كما رأينا تطورا طويلا الى أن تجسد في ممثله الأول مردوك الإله الأكبر والاعظـــم لمملكة حمورابي . الا ان الفن التصويري البابلي كان قد تحاشى ، بالقدر الذي نستطيع الحكم عليـــه ، حصر جميع الصفات بشكل تصويري منظور ، والتي يمكن أن تدلنا على ماهية مردوك السرية المعقدة فيما بعد . اما الاختام الحورية فنجدها على

العكس تماما اذ وضعت على ما يبدو ولأول مرة رموز تصويرية لكافة التخيلات الدينية ، التي حق لنا قبل الآن تصورها عند إله كمردوك مثلا في عصر حمورابي • وكما نرى ان صلة الوصل المعنوية بين إله الشمس وبين إله يموت ويُبعث تتجسم نظريا بالإله مردوك للعصر البابلي ، نجد اكثرالاحيان ان هذه الفكرة تجسده على الاختام الحورية ، بالشكل المحوّر أو الطبيعي لشجرة الحياة المرتبطة بقرص مجنح للشمس لينشأ منهما وحدة تامة متراصة • ولتكن جهة مصدر الشمس المجنحة في الفن الحوري ايا كانت ، فان معناها كرمز لإله الشمس يبقى واضحا لا يداخله الشك • ولذا فاذا ما وجدنا الشعار القديم للشجرة بين حيوانين ، الشعار الذي هو رمز الإله الحي للعالم السفلي ، متصلا اتصالا وثيقا برمز لاحد آلهة الشمس ، فيكون بذلك وجه الشبه بينهذه الفكرة التصويريةوإله بمنزلة مردوك واضحا لايحتاج الى نقاش • هذا ولا يصادفنا فقط على الاختام الحورية مشهد تلك الشجرة بين الحيوانين والشمس المجنحة ترفرف فوق الجميع ، بل اننا لنجد ايضا الكثير من العناصر الجانبية التي تشكل كلها مجموعة من الصور لذلك الاعتقاد القديم للعالم السفلي • انها تعود الآن الى الظهور بشكل رئيسي بعد أن قدر لها أن تلعب فقط دورا ثانويا لمدة طويلة خلال عصر السلالة السومرية الثالثة والسلالات السامية الغربية •

فعلى الخاتم الاسطواني لـ « شاوشتّار » نجد شجرة الحياة وكأنها كالعلم تتوجه شمس مجنحة (انظر صورة رقم ٣٨) • ولا نجد على جانبيها كما في العادة حيوانات اليفة ، بل اعداءها التقليديين الا وهم الاسود ، الذين نعرفهم منذ العهود القديمة رمزا للموت والفناء • وعلى مكان آخر من الختم نجد أيضا المشهد القديم الثاني لمذهب اتّين ــ تموز الا وهو صراع البطل مع الاسد • كما لا تخلو اكثر الاختام الحورية العادية من مشاهد الصراع بين الاسد والثور ولا من العناصر التصويرية للحيوانات الخرافية المجنحة كأبي الهول مثلا والطير الخرافي والاسد المجنح التي كثيرا ما نرى استخدام

رسومها يزداد في الفن منذ عصر الساميين الغربيين في شمال بلاد ما بين النهرين •
اضف الى ذلك استخدام مشهد الحراس الآدميين الذين يقفون على جانبي الشجرة المقدسة ، كما نراهم يرسمون احيانا مزودين بأجنحة ، ومثلهما أيضا ذلك البطل المصارع الذي يهم بقهر اسدين معاً • اما تموز فقد انحطت مرتبته هنا ليصبح جنيا مجنحا من الدرجة الثانية • وبهذا نعثر هنا على كافة جوانب عالم الارواح الخيرة والشريرة التي تحمي وتهدد الحياة هنا في دار الفناء وهناك في دار الخلود ، حيث تظهر الآن بكثرة وبوضوح في اشكال صور هذه الحيوانات الخرافية • وبالاضافة الى هذا نصادف كذلك احيانا على الاختام الحورية رسوم منظر المدامة أي المشهد القديم للحفلات كاختصار رمزي تصويري لاعراس الآلهة المقدسة ، التي كانت تشكل احدى المواضيع الهامة في الفن التصويري الديني القديم عند السومريين • ومن ناحية أخرى فاذا ما ارتبط مشهد الصراع على العربة مع مشهد شجرة الحياة ، فيجوز لنا الظن تنيجة لذلك ، أن نرى في القتال على العربات حتى عند الحوريين صراعا رمزيا للملك ضد قوى الظلام والفوضى وضد الموت تماما كما اصبح عليه الحال مؤخرا عند الملوك الآشوريين • وعلى ما يبدو فقد اثر هنا نمط الحياة الخاص للفروسية الحورية ــ الميتانية باعادة رسم مشاهد لتخيلات دينية قديمة عندهم •

وفي الختام تبقى تلك الصورة التي استطعنا رسمها للحضارة الحورية ــ الميتانية شاحبة متداخلة الالوان متعددة المشاكل لاضطرارنا الاقتصار ، عند انطلاقنا في البحث حول التاريخ الحوري ــ الميتاني ، على تلك النتف الصغيرة والكسر المبعثرة من هذا الفن التي انبعثت من جوانب المنطقة الحورية • وبالرغم من ان الحفريات لم تستطع أن تقدم لنا حتى الآن شيئا أثريا من قلب هذه المنطقة ، فاننا نلمس في كل خطوة نخطوها ، على عكس العالم الكاشي ، قوة الحياة الديناميكية الجبارة تحدو هذا الشعب وطبقته الحاكمة لتغير معالم الحياة الحضارية لكافة مناطق شمال مابين النهرين بمافي ذلك بلاد آشور وشمال

بلاد الشام ، وذلك من خلال الكنز الحضاري الذي خلفوه لشعوب الشرق الأدنى في كافة المجالات الحضارية الخصبة الغزيرة . ومن ناحية أخرى فلا يمكننا البت فيما اذا كان الفضل الأول والكبير في ذلك يعود الى الشعب الحوري نفسه ، أم الى طبقته القائدة من الهنود والتي تنتسب اليها السلالة الميتانية المالكة . وكذلك هو الحال بالنسبة الى جوابنا على السؤال التالي : الى أي مدى استطاع الاعتقاد الديني الهندي بالآلهة التأثير على كافة جوانب حضارة الشعب الحوري، في الوقت الذي نعلم فيه فقطان الآلهة : « إ ندرا » و « ميترا » و « فارونا » وكـذلك الـ « نازاتيا » كانت تعد من بـين « آلهة قسَمٍ » الامراء الميتانيين .

الفصل الخامس

الامبراطوريـة الحثيـة

آ ـ تطور السياستين الداخلية والخارجية ـ الملكية ـ دولة الاقطاع ـ القانون ـ الوضع الاجتماعي ـ التأثير الهندي الغربي في القانون وطقوس دفن الاموات ؟ ـ التوسع في بناء الامبراطورية الكبرى ـ الحس التاريخي ـ النهـاية المفـاجئة

لما كان كل شيء نعرفه عن اللغة الحثية سواء من تركيبها أو ثروتها اللفظية يشير الى قرابتها مع اللغات الهندية لمجموعة الكفنتوم الغربية ، فقد قـاد هذا الى الاعتقاد ، ان الحثيين قد نزحوا من جهة الغرب من مناطق البلقان عبـر الهليسبونت والبوسفور باتجاه الشرق ليستقروا في موطنهم الأخير الذي يحدده المنعطف الواسع لنهر الهاليس • الا ان ابحاثا أخرى جديدة تبدو مؤكدة رأي بعض العلماء القائلين ، ان الحثيين قد قدموا كبقية القبائل الهندية الغربية الأخرى الى منطقة الشرق الأدنى نازحين من الشمال عبر المنطقة ما بين البوتتوس وبحر قزوين حيث ان الانشقاق الذي حدث بين الهنود الغربيين والشرقيين لا بد وأن يكون قد تم فعلا قبل هذا الزمن بمدة طويلة •

كما يجب أن يكون هؤلاء قد احتكوا خلال استيطانهم لهذه البـلاد حتى في بداية الألف الثانية ق•م مع الساميين الغربيين الذين استوطنوا شمـال بلاد الشام وشمال بلاد ما بين النهرين وكذلك مع الحوريين الذين دُفعوا من قبلهم الى الجنوب • ولقد قدر لهم أيضا في ذلك الزمن الاحتكاك لأول مرة مع الحضارة واللغة البابليتين فاقتبسوا على الارجح خلال ذلك الكتابة المسمارية من الساميين الغربيين من « كيل ـ تبه » حتى قبل وصولهم آسيا

الصغرى . واذا ما اردنا أن نعتبر بان فجر بناء الامبراطورية الحثية الكبيرة لم ينبثق على اساس وحدة تامة بل نشأ بالتدريج عن اتحاد دويلات عديدة ، فان انقسامهم آنذاك الى قبائل مختلفة يشبه ايضا نفس الحالة التي كانوا عليها في الحقبة المعاصرة للمستعمرات التجارية الآشورية في الاناضول لعهد الملك زارجون الأول الآشوري . اما فيما يتعلق باقدم ملوك الحثيين فيحدثنا رقيم طيني ، وُجد في مدينة بوغازكوي ، نقشت عليه نسخة نص قديم ، ان اقدم الملوك الحثيين هو أنتا وابيه بيتشانا وان مقرهما كان مدينة تدعى كوشتار . وقد استطاع أنتا انتزاع الزعامة المطلقة لنفسه على عدد من دويلات المدن الصغيرة : زالبا ونيشا وحاتوشا في منعطف الهاليس وكذلك على شالاتيوار وبوروش ـ خندا الى الجنوب من الاولى . ويصب أنتا اللعنات على كل امرىء يعيد ثانية سكنى مدينة حاتوشا ، المدينة القديمة التي تعلو خرائبها وسط معالم مدينة بوغازكوي . حقا اننا لنجد اصل الحكام الحثيين المتأخرين ، الذين جعلوا من حاتوشا عاصمة ملكهم ، يعود الى مدينة كوشتار . ومن ناحية أخرى فان المعلومات التي تواردت الينا عن فجر تاريخ تلك السلالة التي أسست الامبراطورية الحثية منطلقة من حاتوشا عاصمة السكان الاصليين لما قبل الحثيين ، تتركز بصورة رئيسية على رقيم طيني آخر وصلنا ولحسن الحظ عن ملك متأخر هو تيليبينو .

لقد قام هذا باصلاح جذري عندما وضع نظاما ثابتا للتعاقب في وراثة العرش وذلك حتى يستطيع ايقاف تفسخ وتدهور الدولة اللذين نتجا عن الانشقاق والمشاحنات التي سببتها الاغتيالات والفساد بين اعضاء السلالة المالكة . ويفتتح تيليبينو تقريره حول هذه المشكلة بمقدمة تاريخية تحليلية لينتقل بعدها الى ذكر ثلاثة اسماء لاشخاص عظام حكموا الامبراطورية الحثية القديمة وهم : لابارنا وحاتوشيلي الأول ومورشيلي الأول .

لقد كان لابارنا ، الذي حكم بعد توتحاليا الأول وولديه اللذين لم يصلنا اسمهما الا بالصدفة كان الملك الأول ، الذي وسع رقعة البلاد الحثية وجعل منها دولة كبرى ، ونشر سلطة مملكته الى الغرب ووصل على ما يبدو

الساحل باتجاه الشمال والجنوب . وبذلك قدّر لاسمه أن يصبح قدوة وشعارا لجميع خلفائه على العرش الحثي لدرجة اصبح معها يُستعاض عن اسمه بلقب « المَلِك » بدلا من لفظ اسم لابارنا . بكلمة أخرى انه المؤسس الحقيقي للامبراطورية الحثية . وتنيجة لأعمال لابارنا المجيدة للدولة والامكانات الجبارة التي كانت تحت تصرفه ، اصبح موقف الملك الحثي بصورة عامة تجاه الاشراف في وضع اقوى مما كان عليه . اما الملك فكان يُنتَخب بادىء الامر من قبل الاشراف . الا انه اكتسب تدريجيا حق تسمية من يخلفه على العرش ، الذي كان اكثر الاحيان احد ابنائه .

لم يصعب على حاتّوشيلي الأول بن لابارنا ممارسة سياسة خارجية قوية لأول مرة وذلك لتمكنه من الاعتماد على تلك الاسس المنظمة التي خلفها والده . انه الملك الحثي الأول الذي نعلم انه حاول عبور جبال طوروس باتجاه الجنوب وضمّ أمارة حلب الى مملكته ، الامارة التي كنا قد سمعنا عنها حتى في عصر حمورابي البابلي في مراسلات زيمريليم ملك ماري . وبذا فقد خرج حاتّوشيلي الأول بهذه الخطوة من مسرح السياسة المحلية الضيقة لآسيا الصغرى ليدخل في مدار العلاقات الدولية المتشابكة لعالم مصر ــ الشرق الأدنى . بيد ان الحظ لم يحالفه في ذلك ، اذ مات نتيجة هذا الزحف ضد حلب .

اما فيما يتعلق بوراثة العرش فقد رأى حاتّوشيلي نفسه مضطرا لاحتقار اقرب المقربين له وهما الملكة وولي العهد فجردهما من سائر القاب الشرف ليُنصِّب بديلا عنهما ابنه الثاني خلفا له .

ولقد بقي ايضا هذا الملك مدينا حتى بعد مماته لمجلس الاشراف الـ « بانكو » في تعليل الاسباب التي دفعت به المخلاص من الملكة الشرعية ومعها ولي العهد . اذ مما يجب الاشارة اليه ان وضع الملكة الـ « تاواناننّا » ، الاسم الذي ظلت تُلقب به الملكة الحثية قدوة بأول ملكة حثية كانت تحمل

ذلك ، كان يختلف عما كان متعارفا عليه في الشرق القديم • لقد كانت احيانا تقرر السياسة بنفسها مستقلة ، كما وتبقى ايضا في منصبها حتى بعد ممات زوجها • اما سلطة الملك الحثي فلم تكن ابدا تلك السلطة الفردية المطلقة • وفي هذا المجال يمكن أن تكون المفاهيم الهندية الغربية للمَلَكية ورواسب حقوق الوالدة في آسيا الصغرى لعصر ما قبل الحثيين قد تفاعلت سوية لتؤثر في خلق هذا المفهوم •

وعلى ما يبدو فقد كان اجل عمل انجزه حاتّوشيلي الأول لشعبه هو تسمية ابنه مورشيلي خليفة له بدلا عن ابنه الاكبر لابارنا • ولقد اقدم على اتخاذ هذا القرار عندما كان طريح فراش الموت في مدينة كوشّار • ان ليس في هذا من المغالاة بشيء طالما ان استطاع مورشيلي قيادة حتّي ليجعلها ولأول مرة تحتل مركز الصدارة بين الدول في الشرق الأدنى • ان اكتساحه الخاطف لبلاد بابل يشابه في الجوهر زحف قياصرة الالمان على روما • ان كلا الحالتين لم تكونا من السياسة الواقعية بشيء ، التي تهدف كسب غنائم مادية واحتلال مناطق تقع مباشرة تحت سلطة المملكة الغازية ، وانما كان هدفها تأكيد شرعية الزعامة والوصاية على شعوب عديدة في جزء من العالم • واذا ما كانت احدى التأريخات المَلَكية البابلية تتحدث عن زحف الحثي على بلاد اكّاد في عصر الملك سمسو ــ ديتانا ، فان هذا يبقى ليعني اكثر من انقضاض فوري مفاجيء على بلاد بابل كالهجوم القوطي او غارة أية قبيلة ما مجاورة ولو انه لم يجلب معه للحثيين أي مكاسب سياسية دائمة • ولكي يستطيع مورشيلي الوصول الى بابل ، كان عليه أن يوجد قاعدة انطلاق له في شمال بلاد الشام وهذا ما حققه فعلا بغزوه لها • وبهذه المناسبة لم ينس مورشيلي الانتقام من حلب ثأرا لوفاة والده • وليبلغ هذا المأرب وجب عليه الهاء الحوريين كي يستطيع الزحف على بلاد بابل • وهكذا اصبح اسمه رمزا للتحول التام في تاريخ الشرق الأدنى لعصر الشعوب الجبلية في هذه المنطقة •

فبالرغم من استطاعة حاتّي الاحتفاظ بشمال بلاد الشام بما فيها حلب حتى بعد بناء ذلك الصرح الذي استنفذ كامل حياة مورشيلي ، الا ان نظـام المَلَكية الحثية ، بالشكل الذي اصطحبه الحثيون معهم الى آسيا الصغرى، برهن على عدم صلاحه لحكم مناطق بعيدة مترامية الاطراف وشعوب غريبة ذات حضارة ارقى مستوى من تلك التي للحثيين انفسهم • نعم لقد برهن هذا النظام بأنه غير قادر حتى على حكم شعبه الخاص • لقد كانت المَلَكية الحثية على ما يبدو حتى ذلك الوقت منصبا مغريا يتنازع عليه عدد كبير من عائلات الاشراف ذات الحقوق المتساوية • كما اصبح هذا المنصب اكثر اغراء كلما ازدادت وقويت السلطة المرتبطة بالمَلَكية وكثرت معها الثروات حصيلة غنائم الحروب الخارجية • ولذا فقد ذهب مورشيلي الأول ضحية اغتيال من هذا النوع : وبالرغم من استطاعة صهره حنتيلي الاحتفاظ بشمال بلاد الشام وكركميش على الفرات امام الحوريين ، الا انه اضطر للتخلي عن مدن دينية مقدسة مثل نيريك على جبال البونت لصالح عـدو عريق تجسم في قبائـل الكاشكا المتوحشة • لقد بلغت الاغتيالات قمتها واشتدت الفتن والمؤامرات نزاعا على العرش خاصة بعد موت حنتيلي حيث زاد ذلك في الانحلال الداخلي للسلطة الحثية • وبذا اصبحت الاغتيالات تحدد العلاقة بين الاخـوة والآباء في الاسرة المالكة وتعتبر مفتاح الوصول الى العرش لدرجة عجزت معها الأسرة المالكة عن تقديم أية شخصية تستطيع قيادة هذا الشعب • وبهذا لم يستطع اذا سوى الاصلاح الدستوري الخروج من هذا المأزق بانتزاعه نظـام الملَكية من الخصام القائم بين الاشراف والعائلة المالكة • ان هذا الاصلاح ليعتبر اعظم مأثرة للملك تيليبينو والشرط الاساسي لتتنفس به السياسة الداخلية الصعداء وذلك كخطوة اولى في البدء باعادة ازدهار تقوية السلطة الحثية نحو الخارج • ففي الوقت الذي حددت فيه وراثة العرش على يد سلسلة طويلة من الاغتيالات عاد تيليبينو وثبت ثانية كملك شرعي بعد نجاحه وزوجته بالنجاة من محاولة لاغتيالهما • لقد تمكن تيليبينو في النهاية من

وضع قانون خاص لمي وراثة العرش والتعاقب عليه ، مقابل اضطراره أيضا منح الـ « بانكو » ، أي مجلس الاشراف والمحاربين ، بعض الصلاحيات • وتبعا لذلك فقد استطاع تيليبينو تحديد طريق واضح وثابت لوراثة العرش وذلك كالتالي : يرث العرش بالدرجة الأولى ابن الملك من الزوجة الأولى ليأتي بعده في الدرجة الثانية ابن الزوجة الثانية واذا لم يوجد أي الجانبين « يحق والحالة هذه لزوج احدى بنات الملك من الدرجة الأولى أن يتربع العرش » • اما ذوو القربى البعيدة من الملك المتوفّى فيحق لهم على ما يبدو وراثة العرش ، اذا لم يوجد فعلا أي قريب مباشر لهذا الملك • اننا نستطيع استخلاصه من معاهدات متأخرة تدور حول هذا الامر ، وإن لم يكن قد ذكر مثل هذا في دستور تيليبينو •

اما الاشراف فقد احتفظوا لأنفسهم بسلطة ما يسمى بـ « محكمة الدم » على الملك مقابل تنازلهم عن شرف المُلك لصالح احـدى العائلات الملكية وبذا يستطيع الـ « بانكو » والحالة هذه أن يحذر الملك ، اذا ما كانت تحوم حوله شبهة اغتيال منافية للعرف المتبع • وبهذا يجوز لل « بانكو » حق ادانته اذا ما صدف أن اقترف فعلا مثل جريمة القتل هذه • واننا لا نخطىء ، عندما نلمس بحق في مفهوم الملكية ، كما تواجهنا في نص تيليبينو ، صدى لفئة الهنود الغربيين في الشعب الحثي ، وبصورة خاصة لطبقتها الحاكمة • ففي الوقت الذي نرى فيه من ناحية وجود اوجه شبه جد قوية تربطها بمفهوم الملكية الجرمانية خلال العصور الوسطى في المانيا ، نجدها من ناحية اخرى تحوي مقابل ذلك فروقا كبيرة تميزها عن باقي الملكيات في الشرق القديم • فالملك الحثي قائد مراقب من كافة الاشراف في وقت السلم والحرب • انه يتسلم لحد ما منصبه العالي من يدي الـ « بانكو » وليس كاله كما في مصر ، حتى ولا كنائب للاله كما في بلاد سومر ، أو مثل حمورابي كرسول بُعث به لتنفيذ مهمة إلهية أُوكلت اليه لخدمة البشرية ، بل ان فكرة الامبراطورية العالمية ابعد عن الملكية الحثية مما كانت عند نارام ــ زِنْ أو شمشي ــ حدد

الأول الآشوري • ولهذا السبب وحده فقط لم يتمكن زحف مورشيلي على بابل أن يقود الى بناء تلك الامبراطورية الحثية التي تمتد حدودها من آسيا الصغرى حتى الخليج العربي • وحتى بعد تقوية الحضارة الحثية ونضوجها الداخلي نجد العلاقات التي تربط حاثّي مع الدول التي غزت أراضيها ترتكز على اساس معاهدة اقطاع اراضي البلاد المعينة ، أو حلف حماية أو معاهدة ضمان مشترك • وقد كانت حتى تلك الشعوب الغريبة التي خضعت للملك الحثي تتمتع أيضا بحقوق ضامن الارض أو الحليف • والى نفس هذه الحقبة من التاريخ الحثي ، أي عهد الملك تيليبينو ، تعود على الارجح اقدم محاولة لجمع القوانين في الامبراطورية الحثية ، إذا ما كان اعتمادنا على عدد من كسر الرقم الطينية ، التي عثر عليها في مدينة بوغازكوى ، يشكل منطلقا صحيحا • ان نص القانون كما نستنتج منه هو من وضع ما يسمى بـ « ابو الملك » ، هذا التعبير الذي لا يمكن أن يعود الا الى الحقبة المبكرة من التاريخ الحثي ، ذلك لأن الملوك الحثيين كانوا يلقبون انفسهم فيما بعد بـ « شمشي » • ولو اننا لا نعرف بالضبط اسم الملك ، الذي جمع القوانين الحثية ودونها ، الا ان الامر يحمل في طياته دلائل تدفعنا للاشارة بالبنان الى تيليبينو ، الذي ينسب اليه وضع القانون الملكي •

ليس في نص القانون من وحدة في الاسلوب والمحتوى بشكل لا يمكن أن يكونا قد شكبا في قالب واحد ، بل إن هذا القانون ليس الا نتيجة لتطور طويل يمكن من خلاله ادراك المراحل الكثيرة التي مر بها والاصلاحات العديدة التي تعرض لها ايضا • اذ ان تنسيق ومن ثم تنظيم مواد وفقرات القانون ، هذا إن وجدت ، لم يتما الا انطلاقا من طريقة لا يمكن فهمها الا بصعوبة فائقة • ان مثل ذلك لا يقتصر فقط على القانون الحثي المذكور ، بل حتى قانون حمورابي نفسه فنجده يفتقر الى مثل ذلك لدرجة لا يكاد يمكننا معها ملاحظة هذا التنسيق المعني •

لقد تم تنظيم الزواج والحياة العائلية في القانون الحثي انطلاقا من قواعد

لا تختلف الا قليلا عن تلك السائدة في البلاد البابلية • كما صار تحديد مبدأ نظام الاسرة على اساس حق الاب ، والزواج ما هو إلا قران بيع وشراء كما هي الحال في كافة أنحاء الشرق الأدنى القديم • وفيما يخص الطلاق والتبني فيجب أن يكونا بصورة عامة قد طُبقا أيضاً كما في بلاد بابل • اما زواج الاخوة بالاخوات أو بالوالدة والابنة ، الذي لم يكن غريبا في بلدان أخرى من الشرق الأدنى القديم ، فلم يجد لدى الحثيين سوى الاشمئزاز والاحتقار •

ترينا القوانين شكلا لنظام اجتماعي لا ينحصر فيه حق التملك فقط بالمعبد والملك والاشراف ، بل ان الامر لأكثر من هذا ، إذ انه لنظام يسمح لكل فرد فيه حق الحصول على ملك خاص به • فيجوز لكل انسان في هذا المجتمع الحصول على ارض اما عن طريق استصلاح الاراضي الزراعية أو عن طريق الشراء حتى وعن طريق تملك قطعة ارض زراعية أُهملت فأصبحت بورا • كما ان لكل فرد حق اقتناء العبيد عن طريق الشراء ، وكذلك شراء حيوانات وادوات مختلفة ومنتجات زراعية • وقد بلغ الامر درجة أن سمح هذا القانون حتى للعبيد باقتناء ملك عن طريق الشراء وحتى شراء امرأة حرة • انها لثورة اجتماعية جارية في طريق التطور : فالعبيد ينتقلون الى حياة الحرية تدريجياً بمساعدة ما بحوزتهم من ملك خاص ، وصاحب الحرفة الذي ما زال نصف مرتبط بالاعمال الزراعية التي يعيش عليها ، يشرئب بعنقه الى الاستقلال بفك نفسه من الاواصر التي تربطه بحياته القروية الزراعية • وعدا عن ذلك نرى بين طبقتي الاحرار والعبيد طبقة انتقالية ، هي طبقة نصف الاحرار التي تقابل « مشكينو » العالم البابلي • لقد كان غالب أفراد هذه الطبقة من الجنود ومقتطعي الاراضي الذين حصلوا بناء على امر الملك من سكان القرية منزلا وقطعة ارض مقابل قيامهم بالاعمال الحربية • والى جانب هؤلاء جميعا نجد اولئك من يُسمون باناس « نام ـ را » ، المرتبطين بالمنطقة التي يعيشون فيها • ومن الممكن أن يكون

هؤلاء من اسرى الحرب فهجّروا الى هذه المناطق الجديدة ليرتبط مصيرهم بها . كان هذا التركيب الاجتماعي بصورة عامة نظاما اقطاعيا : من العبيد الى المحاربين نصف الاحرار ، الى المزارعين وأصحاب الحرف على الحقول ، وكذلك الى الاحرار التجار المالكين والكهنة والى الاشراف الاقطاعيين الكبار وحاملي القاب الشرف الملكية . لقد ارتكز هذا النظام على اسلوب اقطاع الاراضي نفس الطريقة التي حددت أيضا صبغة تبعية البلدان الاجنبية للامبراطورية الحثية . الا ان هناك دلائل تشير الى تحول في دولة الاقطاع هذه في طريقها لتصبح دولة الحكام والموظفين . ان هذا الشكل الاجتماعي ، الذي توضحه لنا مخلفات الحثيين من وثائق كتابية تعود الى الألف الثانية قبل الميلاد يجب أن يكون هو نفس النظام الذي ساد عند الكاشيين في بلاد بابل وكذلك في الامبراطورية الحورية ـ الميتانية أيضاً . لقد ساد هذا الهيكل الاجتماعي عالم الشرق الأدنى بعد أن تغيرت معالم وجهه على يد نظام فروسية الشعوب الجبلية ، وذلك بنفس الدرجة التي اصطبغت بها ايضا مجتمعات اوروبا اثر هجرة الشعوب الكبيرة اليها . اما الآن فلا بد لنا من طرح السؤال التالي :

هل كانت هذه التحولات في الاشكال الاجتماعية فقط نتيجة استيطان الاراضي من قبل الشعوب الغريبة الغازية لمنطقة الشرق الأدنى ، أم انها تعود لحد ما الى تلك الصبغة الاجتماعية التي كانت تتصف بها طبقة الاسياد الهندية الغربية الحاكمة ؟

ان قانون العقوبات الحثي يحمل بين طياته على ما يبدو طابع تأثير الطبقة الهندية الغربية اكثر مما هو عليه في قانون الاحوال الشخصية . لم يكن قانون العقوبات « العين بالعين والسن بالسن » المبدأ الذي يسود العالم السامي معروفا لدى الحثيين . وذلك ان قانون العقوبات لم يكن يحمل في الواقع عند الحثيين معنى القصاص بمفهومه العملي وانما كان قانون التعويض . فلم يكن الثأر أو العمل المماثل للاجرام هو طريقة التشريع وانما مساعدة

واقاذ المتضرر والمصاب ٠ اما الامر الذي يشذ عن هذه القاعدة ويُعتبر به الثأر شرعيا فهي تلك المشاكل التي تدعم وتحمي اركان الحياة الاجتماعية للانسان ، كالثأر في حالة الخيانة الزوجية المبرهنة فعلا ٠ اذ يحق للزوج والحالة هذه أن يثأر لنفسه بقتل الخائنين اذا ما اراد ذلك ٠ فمن خلال قانون العقوبات الحثي الذي يختلف اختلافا كبيرا عن القانون الآشوري واليهودي يمكن فعلا استقراء المستوى الفكري للطبقة الحثية العليا الحاكمة ، اللهم الا اذا ما كان الامر يعود في ذلك الى السكان الاصليين لآسيا الصغرى ، أي الى ما قبل الحثيين انفسهم ٠

لقد افسح ضعف الدولة الحثية ، اثر موت مورشيلي الأول ، المجال للشعب الحوري وشكّل بذلك احسن الفرص ليوسع منطقة سيطرته باضطراد نحو الشرق والغرب على حد سواء ٠ وبقي الامر كذلك الى أن وضع تيليبينو دعائم الاصلاح حيث بدا ان الامكانية قد توفرت لتستطيع بها الدولة الحثية البدء ببطء في اعادة تثبيت زعامتها في الشرق الأدنى ٠ اما المرحلة الانتقالية من تيليبينو آخر ملوك الامبراطورية الحثية القديمة الى ما يسمى بالامبراطورية الحديثة فلا نعلم طبيعتها بالضبط والحوادث التي عاشتها ٠ وتُقدر الآن هذه الفجوة ما بين الحقبتين حسب طريقة التأريخ الجديدة بحوالي خمسين سنة (ص ١٦٧) وليس بمائتي سنة كما كان يُعتقد قبلا ٠

لقد اخذ وضع الدولة الحثية منذ عام ١٤٣٠ ق٠م بالتحسن والاستقرار وذلك في عهد الملوك الثلاث : توتحاليا الثاني ، حاتوشيلي الثاني وتوتحاليا الثالث ٠ واذا ما كانت الامبراطورية الميتانية ، كما رأينا سابقا ، قد بلغت في هذا الوقت بالذات ذروة مجد قوتها في عهد شاوشتتار وخلفائه وعرفت كيف تحافظ على تصدرها لزعامة الشرق الأدنى ، نجد من الآن ان الامبراطورية الحثية بدأت تقف أيضا في وجه هذه الزعامة وخاصة على أرض بلاد الشام ٠ فبالرغم ان حكم توتحاليا الثالث قد انتهى بانهيار السلطة الحثية مرة أخرى

الا انه ظهر عقب ذلك للشعب الحثي في شخص شوبيّلوليوما البطل والمؤسس الجديد للامبراطورية اقوى ملك في ذلك العالم • انتهز شوبيّلوليوما فرصة ضعف السلطة المصرية على يد المصلح اخناتون فوجد الوقت ملائما ليضم شمال بلاد الشام حتى الحدود اللبنانية الى المملكة الحثية وليلحق الهزيمة ببلدان آسيا الصغرى وبحطم الامبراطورية الميتانية • وفي هذا الظرف من التوسع بالفتوحات اقدم هذا الملك على القيام بخطوة هامة حوّل بموجبها مركز القوة الحورية ، أي البلاد الميتانية الحقيقية الى دولة تابعة بواسطة زواج سلالي باحدى بناته مع متّي – وازا بن شاوشتّار الكبير (راجع ص ٢٠٦ الخ) • لقد كان الهدف من ذلك أن تقف هـذه الدولة الضعيفة المغلوبة على امرها كحاجز حماية على حدود حاتّي امام آشور التواقة الى السلطة من جديد والمتحررة من قيودها الميتانية • وبذا « حثّثت » منطقة شمال بلاد الشام الآن بصورة نهائية وقُسمت الى منطقتين حلبا (حلب) وكركميش كما ثُبتت الحدود ووُطدت من جهة لبنان امام مصر بوجود عدد من الدويلات التابعة مثل امورّو وكينزا ونوحاشّي • هذا ويمكننا استقراء مدى الشهرة الكبيرة التي وصلتها قوة شوبيلوليوما وعظمته بكل وضوح من خلال تلك الرسالة التي بعثت بها أرملة توتعنخآمون من مصر اليـه عندما كان في طريق زحفه على كركميش اذ كتبت اليه تقول : « لقد مات زوجي وليس لدي ابن لي ويتحدث المرء عن ابنائك الكثيرين ، ولو تقدم على ارسال احد ابنائك لي لاتخذت منه زوجا لي • هذا ولا اريد الزواج بأحد خدمي مهما كان الأمر ، لأنني احتقر أن اجعل منه زوجا لي » • وهنا نرى انه في الوقت الذي كان فيه الفراعنة سابقا يرفضون قران بناتهم من ملوك بلاد بابل ، نرى الآن حتى احدى الملكات المصريات تكتب الى الملك الحثي راجية اياه ارسا ل احد ابنائه ليصبح بعلا لها •

ان هذا المركز العالمي الكبير الذي تبوأه شوبيّلوليوما لمدين به بكل تأكيد على الأكثر الى تلك العبقرية السياسية والعسكرية اللتين كان يتحلى بهما •

كما انه مدين بمثل هذا القدر بالارض التي يقف عليها الى تلك الاصلاحات التي قام بها تيليبينو وكذا ايضا الى تلك المركزية الشديدة التي اتبعت في ادارة قلب البلاد الحثية نفسها . هذا النظام الذي نشأ تدريجيا خلال عصر الامبراطورية الحديثة خلال التحول من نظام دولة الاقطاع الى نظام دولة الموظفين البيروقراطية . ولقد كانت النتيجة الحتمية لمركز شوبيلوليوما العالمي هي انسجام الملكية الحثية مع المفهوم الشرقي ، حيث بدا هذا جليا في اللقب وفي الشعار الكتابي والتصويري للاسم الملكي ، الشعار الذي يقابل ما يسمى بخرطوشة فرعون مصر . واذا ما كان الحكام الحثيون يلقبون انفسهم سابقا وبكل بساطة بـ « الملك » نجدهم الآن يطلقون على انفسهم القاب الشرف الرنانة الخالصة مثل : « لابارنا ، الملك الكبير ، ملك البلاد الحثية ، البطل ، حبيب إله الطقس » . وبالاضافة الى ذلك فان هناك علاقة واضحة بين التسمية « شمشي » التي دائما ما كان ملوك الحثيين يستعملونها لأنفسهم من الآن فصاعدا ، وبين الصورة المعنوية الرمزية التي يعبرون بها عن اسمائهم ، اذا لم يستخدموا لها الكتابة المسمارية المقتبسة بل كتابتهم التصويرية الخاصة : شمس مجنحة (= شمسي) ترفرف فوق رمزين كتابيين يحويان معنى لكلمة « ملك » ويحيطان أيضا بالرموز الكتابية لاسم الملك نفسه . هذا ولما كنا نعلم ان الملوك المصريين هم ابناء إله الشمس وان قرص الشمس المجنحة يوجد في الفن المصري منذ زمن بعيد ، مما يقود الى الظن ان الملوك الحثيين قد اختاروا لأنفسهم لقب « شمسي » ورمز الشمس المجنحة « لخرطوشتهم » على حد سواء وفق النموذج المصري ، بعد أن أصبحوا يحكمون قسما لا بأس به من الشرق الأدنى . الا ان هذا الظن لا يمكنه — على الارجح — أن يعكس الا جزءا من الحقيقة : انه منذ منتصف الألف الثانية ق.م وقرص الشمس مع جناحي نسرين كبيرين يشكل عنصرا تصويريا ذا معنى انتشر في جميع الاقطار من بلاد آشور شرقا حتى النيل في الغرب . ففي المناطق الحورية وفي بلاد آشور نجد الشمس المجنحة على

اتصال وثيق مع الشعار القديم لما يسمى بشجرة الحياة ، التي تحاط أحيانا على الجانبين بحيوانين اليفين أو شخصين مصليين أو جنيين . اما من ناحية أخرى فتشكل شجرة الحياة في البدء رمز إله النبات والحيـاة الذي هو تموز . كما واستمرت معاني تموز تعيش في الملك السومري والبـابلي والآشوري على حد سواء ، حتى ان تموز نفسه كان ايضا ملكا نصف إله . ورأينا بنفس الوقت أيضا اعلاه كيف ان الافكار الرئيسية للايمان بالله في الشرق الأدنى قد تجسمت بكاملها في شخص مردوك ، وكيف اندمج هناك إله الشمس مع إله من العالم السفلي أي مع إله الحياة . غير ان صلة الوصل لم تنقطع قط من جهة أخرى بين إله الحياة وبين الملك . ولما كان الملك الحثي يضع تبعا لذلك فوق رمز اسمه رسـم شمس مجنحة ، فان هـذا المفهوم للملكية في الشرق الأدنى القديم لم يبق دون أن يتلقى ايحاءات من طقوس اوزيريس الدينية . اما ما اذا كان هذا لدى الملوك الحثيين يعود بكامله فقط على ظواهر شرقية أو انه يعود الى ذاتهم فلا نستطيع البت في ذلك الا بصعوبة فائقة . فلم يكن الملك الحثي اصلا ـ طالما هو على قيد الحياة ـ إلها حتى ولا نصف إله ولا وكيل للاله ، بل انه يرتفع ليصبح إلها فقط بعد مماته . ان هذا لمفهوم مرده طقوس عبادة الاجداد اكثر مما له علاقة بالاعتقاد باله يمـوت ويبعث أو بصورة عامة بالايمان بعودة الحياة من جـديد . واذا ما اصبح ملك أو ملكة في بلاد حثي إلهاً أو إلهة ، أي اذا ما مات ، فهناك خطوات معينة تتبع في طقوس مراحل الدفن تذكرها لنا الكتابة التالية . اذ يضحى بثور ويصب الخمر من ابريق يكسر بعد ذلك . ثم يؤرجح فوق المتوفى حيوان من الماعز لينقل بعدها على عربة الى الخارج الى منطقة تنصب فيها خيمة ويحرق الميت في الليل :

« واذا ما اصبح اليوم التالي بضوئه يذهبن النسوة
الى الـ « اكتورى » (ارض حرق الدفين) ليجمعن العظام
ويطفئن النار بعشر من القدور الملأى بالبيرة

وبعشر من قدور النبيذ وبعشر من قدور الـ « فالهي » .
وهناك وعاء الهوبار من الفضة الذي يزن نصف مينة
وعشرة سيكل مملوءا بزيت مصفى ، ويجمعن العظام
في « لبـا » فضية ويضعنها
في الزيت المصفى في الـ « هوبار » الفضيـة
ثم ينتشلنهـا من الزيت المصفى ويلقين بهـا
على كزا النولي من الكتان وتحت الكتان توجد
قطعـة قمـاش ناعمـة
وبعـد ان يفـرغن من جمـع العظـام
يدمجنهـا مـع كافـة الكتـان
وكـذلك مع قطعـة القمـاش فيضعن الكل
عـلى كـرسـي ذي مسنـد
امـا اذا كان (المتوفى) امـرأة فيضعنها
علـى كـرسي ذي ثلاث قوائم (بلا مسند)
وحول الاكتـورى ، حيث يُحرق الميت ،
يضعن اثني عشـرة خبـزة وعـلى الخبـز
دهنا سائلا . ولما كانت النار قد أُطفئت بالبيرة والنبيذ
وامام الكرسي الذي وُضعت عليـه العظـام
يضع المـرء طـاولـة وخبـزا سـاخنـا
ثم يوزع المرء خبز الكوك وخبز الـ (آل) ليُكسر الى اقسام .
فالطباخون وخدام المائدة يضعون القدور في المقدمة
ثم يسترجعونهـا اولا
وجميـع الـذين اتين ليجمعـن العظـام
يحصـلن عـلى الطعـام
ومن ثم يوزع المـرء ثلاث مرات شرابا وكذلك
يستـقى المـرء ثـلاث مـرات »

ومن الغرابة حقا أن يُقام بعد وليمة الدفن هذه بصنع صورة على هيئة انسان من الزبيب والزيتون مضافا الى ذلك ثمار وصوف واشياء أخرى وأن تكون امـرأة عجوز منهمكة بذلك • ويُصب اثر ذلك شراب مسكر على الصورة ، وتوضع احجار كريمة ومعادن اخرى في كفة ميزان ، كمـا تُقدم اضاحي أخرى يُؤتى بعـدها بالعظام الى « بيته الحجـري » حيث تُؤخذ من على المقعد وتوضَع على فراش يوجد امامه مصباح •

ان تفاصيل كثيرة لطقوس هـذا المأتم للملوك الحثيين تذكرنا بحـرق باتر وكلوس وهيكتور في الالياذة • وبغض النظر عن هـذه المقارنة فان الحرق وطقوس جمع العظام يشيران في حد ذاتهما الى الفروق الكبيرة التي تميزها عن سائر المعتقدات الأخرى بالعالم الآخر في الشرق الأدنى • وهكذا يصعب جدا النظر بذلك الى تلك الصلة بين الملك وإله الشمس أو إله آخر يشبه تموز على انها صلة سطحية لا تتعدى الانسجام الصوري مع أشكال عالم الشرق القديم •

ولقـد خلَّف شوبّيلوليوما ، المؤسس الجديد لعظمة السلطة الحثية الكبيرة ، عند وفاته شخصا مريضا هو آرنووانْد ، الذي لم يستطع حتى وباسم والده الا بصعوبة فائقة ولوقت قصير أيضا الاحتفاظ بالامبراطورية • ولم يمكث هذا طويلا حتى مات ليخلفه اخوه الاصغر مورشيلي الثـاني ، الذي كان جديرا حقا بأن يخلف والده ويحكم باسمه • استطاع مورشيلي هذا أن يدير دفة الحكم في الامبراطورية لثـلاثين حولا ، استنفذ ثلثهـا لاسترجاع ، مجددا عن طريق الحرب ، ما كان قد ورثه من ابيه شوبّيلوليوما ومن أجل هـذا وجب على مورشيلي القتال في القسم الغـربي من آسيا الصغرى ضد بلدان الـ « ارزاوا » وفي الشمال ضد قبائل الكاشكا وفي الشرق ضد بلاد الـ « خياشا » • هذا ويبدو انه وقد ظهر للدولة الحثية في اقصى الغرب عدو جديد وذلك في القوة البحرية لبلاد الـ « احي ــ ياوا » التي اراد بعضهم أن يرى فيها ميكينيا اليونانية ، دون استطاعتهم البرهنـة

على ذلك سوى بتشابه نطق الـ « احي ـ ياوا » مغ الآحيين • اما الاصطدام السياسي الفاصل في هذا القرن فقد قدرْ لمورشيلي أن يوفر لنفسه صعابه ، ذلك ان مصر لم تزل حتى في عصره تتخبط في الضعف وكذلك لبقاء شمال بلاد الشام في قبضة اخيه ملك كركميش • غير انه لم يكن هناك مفر من هذا الاصطدام الفاصل عندما بدأت مصر تتنفس الصعداء منذ عهد سيتوس الأول عاملة ثانية وبجهد لتوسيع مدى تأثيرها الحيوي حتى شمال بلاد الشام • ان محور النزاع المباشر كان هنا بلاد امورّو مع عاصمتها مدينـة قطْنا (المشرفة) • ولم يكد رعمسيس الثاني أن يتربع العرش حتى أصبح من المؤكد وجوب بدء الصراع الفاصل من أجل تبوؤ مركز الزعامة على بلدان الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط • ومن ناحيـة ثانية فقد كان على عرش حاتّوشا ابن مورشيلي الثاني وهو موواتلّي ، الذي ادرك أيضا بدوره حول ما تدور الدوائر فاستعد كذلك كـ « رعمسيس » لهذا الصراع الكبير الفاصل بكل حذر وتخطيط ودقة مستغلا ومجندا كافة امكاناته وقوة سائر حلفائه • اما بينتيشينا ملك بلاد امورّو فقد كان لا بد له في ذلك إلاّ وأن ينحاز الى احد الجانبين في هذا الصراع فكانت هذه المرة الجبهة المصرية • اذ وكأن الامر قد بدا له في ذلك اكثر اطمئنانا وامانا عندما اتخذ هذا القرار • بيد انه اخطأ الخيار • وهكذا بدأت المعركة في قادش للسنة الخامسة من حكم رعمسيس حيث دُحر بها وانهزم ، فاستطاع بذلك على الاقل النجاة بحياته عائدا الى مصر ليؤلف عند وصوله اليها تقريرا مطولا عن انتصاراته • بينما نجد بالمقابل المصادر الحثية تحدثنا من جهة أخرى عن مطاردة العدو الهـارب حتى دمشق • أما البرهان الاكيد لصحة المصادر الحثية فهو ان بينتيشينا لم يعد يحكم بلاد امورّو التي عادت الى الملك الحثي بعـد أن نُصّب عليها امير جديد هو زابيلي • ان كسب مو واتلّي هذا لاكثر مدعاة للدهشة ، عندما قام اخوه حاتّوشيلي الذي استطاع أن يتبوأ مركزا خاصا رفيعا في الـدولة اثر انتصاراته على الكاشكا وبواسطة منصبه كملك من

الدرجة الثانية في المـدينة المقدسة نيريك ، بالتعاون سرا مع عدو البـلاد بينتيشينا كما زاد ذلك غرابة عندما استمر هذا التعاون حتى بعد عزل بينتيشينا من منصبه كملك على آمورڤو حتى أنه منحه حق اللجوء الى نيريك التي اختارها مكانا لمنفاه .

واثر وفاة مورواتلي نشأت من جديد مشكلة وراثة العرش ، فبرهن عندها قانون تيليبينو لوراثة الملك على اهميته وفائدته العمليتين . لقد كان الوريث الشرعي للعرش هو اورشي تيشوب بن مورواتلي لزوجته الثانية . انه اول ملك حاتي يحمل اسما حوريا الى جانب عمه الطموح حاتوشيلي وزوجات جده شوبيلوليوما اللواتي يعدن الى اصل حوري . ان هذا لأكبر برهان على التأثير الحضاري لهذا الشعب بغيره من الشعوب حتى أيضاً بعد زوال نجمه السياسي .

لم يستطع اورشي ــ تيشوب في الواقع الصمود امام عمه في النزاع من أجل استلام زمام السلطة الا استنادا على احقيته الشرعية بتبوؤ العرش . وهكذا لم يبق لـ « حاتوشيلي » بادىء ذي بدء سوى أن ينصاع للأمـر الواقع وهو هذه الشرعية وينسحب من حلبة الصراع لصالح اورشي ــ تيشوب . غير ان اورشي ــ تيشوب لم يحاول تجريد حاتوشيلي من امارته على مناطق عديدة من الامبراطورية فحسب ، بل قام أيضاً بسحب الاعتراف به كملك على نيريك . عندئذٍ عاد حاتوشيلي فنقض لأول مرة منذ زمن طويل قانون وراثة العرش فاستأثر لنفسه بالحكم متخلصا من ابن اخيه اورشي ــ تيشوب فأبعده اولا الى نوحاشي في شمال بلاد الشام وبعـدها الى جزيرة ما في البحر الابيض المتوسط مضطرا قضاء بقية حياته هناك .

هذا ويبدو انه لم يترتب على اغتصاب حاتوشيلي للعرش أية نتـائج سلبية بالنسبة للامبراطورية . وليتخذ حكم المرء الشكل الذي يكون حول تصرف حاتوشيلي هذا ، فانه يبقى بالرغم من ذلك وبلا شك اهم شخصية

بين خلفاء مورشيلي الثاني • لقد ادرك حاتّوشيلي كيف يستطيع بكل عناد الاحتفاظ ومن ثم حماية كافة حدود الامبراطورية بعد تلك الهزات الداخلية التي رافقت صراعه مع اورشي ـ تيشوب طالما أن استطاع حتى عندما كان ملكا من الدرجة الثانية في عهـد مرواتلّي انقاذ البلاد من خطـر قبائل الكاشكا • اما الآن فقد اصبحت مهمته الرئيسية تتركز على ايجاد حل مع الدولتين الكبيرتين في الجنوب وآشور في الشرق • لقـد استطاع كبح جماح الاخيرة بتحالفه مع الملك الكاشي الضعيف « كاداشمان ـ تورغو » ريثما صفا الجو بينه وبين زعمسيس الثاني • وبذا فقد قاد حاتّوشيلي خاتمة حالة الحرب التي كانت قائمة بين الحثيين والمصريين طوال عشرات من السنين مضت الى نتيجة مرضية تكللت في عقد معاهدة صلح مع مصر بقي بموجبها للحثيين جميع ما كان الملك الكبير شوبّيلوليوما قد كسبه في بلاد الشام • لقد كانت هذه الخاتمة السلمية اكبر حدث سياسي عرفه القرن الثالث عشر قبل الميلاد والذي حوفظ بموجبـه على السلام في العـالم المتحضر لذلك الوقت •

بيد انه وجب على حاتّوشيلي أن يدفع ثمنا لهذا السلام والصلح مع مصر وذلك في الازدياد المضطرد لقوة بلاد آشور تحت زعامة زلما ـ نصّار الأول الذي استطاع القضاء نهائيا على دولة البلاد الميتالية التابعة للحثيين والحاقها ببلاد آشور • وهكذا اصبح الملك الآشوري الآن وريث الملك الميتاني يطالب أن يُعترف به كـ « أخ » في مستوى حاتّوشيلي • غير أن جواب الملك الحثي كان الاستغراب والنفي في سؤاله الخطي الى الملك الآشوري : « هل ولدنا نحن الاثنان من ام واحدة ؟ » • وعلى هـذا نرى في هذه الكلمات رفض الحثي بادىء الامر محاولة الآشوري ليوضع منزلة في صف حاتّوشيلي • الا انه لم يستطع على مر الزمن ايقاف عجلة التاريخ والحد من بلوغ الملك الآشوري مأربه هذا •

فبالرغم من تأثر الحثيين بالدم الاجنبي المحـلي وبفكر الشرق الأدنى

القديم فاننا نجد هذا الثوب الشرقي عند الملوك الحثيين يسمح مرة أخرى بتسرب صفات هندية غربية من خلال ثناياه • ومثلنا على ذلك تلك الوثيقة المكتوبة التي وصلتنا من حاتّوشيلي والتي ترينا شيئا جديدا في الشرق الأدنى هو ما نسميه بأقدم وصف لمجرى حياة شخص وبنفس الوقت لتبرير اعتلائه عرش الامبراطورية الحثية • تعود هذه الوثيقة الى مجموعة من المخلفات الحثية الكتابية التي يُلمس فيها لأول مرة في الشرق القديم القدرة على عرض الحياة الخاصة وحياة الشعب بترابط ذي معنى تام • انها سرد لسلسلة الاعمال الخاصة واعمال الآخرين وبالتالي وصف لحوادث هامة ينطلق من وجهة نظر معينة ؛ بمعنى آخر انها القدرة على التفكير التاريخي الذي يُعتبر بحق احدى الصفات الهامة التي يتميز بها كل من نظرة وتطور العالم الهندي الغربي لاوروبا عن الشرق الأدنى •

وليكن محتوى قصة حياة حاتّوشيلي مصبوغا بالصبغة الايجابية المجردة أو المتحاملة المقصودة فانه يبقى ليُعتبر بحق تاريخا بالمعنى الدقيق للتاريخ • ان جوهر حياته وجميع اعماله وانتصاراته انما هي تدبير الربة ، الإلهة عشتار الشمّوخية والذي كان بنفسه كاهنها ، بحيث كان يضع يدها ، المسيِّرة والمقدّرة لكل امر ، فوق كل شيء يفرضه القدر • فمن بين اربعة اطفال لأبيه ، وهم ثلاث ذكور وابنة واحدة ، كان حاتّوشيلي اصغرهم سنا • وبعد مرض خبيث اصابه في شبابه طلبته الربة عشتار الشمّوخية من والده حيث يحدثنا : « وهكذا اخذني والدي ـ انا الصغير ـ وسلّمني الى الربة لخدمتها » • وبعد وفاة الوالد واعتلاء الأخ الأكبر سنا موواتلّي العرش « اصبحتُ عندئذ لدى اخي قائدا لمعسكر الجيش ، كما منحني اخي أيضا شرف منصب الـ « ميشيدي الكبير » حتى واعطاني أيضا البلاد العليا لادارتها • وهكذا وُضعت البلاد العليا تحت تصرفي • وكان ابن « زيدا » قد ادار قبلي هذه البلاد ولان الربة عشتار قد رحمتني وقربني اخي اليه ، قام فحسدني الناس لذلك••• »•غير ان وشاية ابن زيدا دفعت بـ « موواتلّي»

ليبدأ بتحقيقٍ ضد اخيه ، الا ان الربة عشتار قامت وانقذت حبيبها من المحاكمة : « ••• واذا ما ساءت احوالي يوما ما رأيت عظمة قدرة الربة بكل وضوح ، خاصة أثناء مرضي حيث سندت سيدتي الربة عضدي في جميع المناسبات وفي كل امر ، ولأنني كنت رجلا لقي مساعدة بهذا القدر وعلى علم بقدرة الإلهة ، لم انطلق قط في عملي من التصرفات الشريرة للبشر •••» •
الا ان مورواتلّي قام فعفا عن اخيه وأسماه قائدا اعلى لمعسكر الجيش وآمرا لسلاح محاربي العربات • وهكذا فقد نصرته عشتار على سائر اعداء الامبراطورية الحثية • فعندما رافق اخاه أثناء الزحف ضد مصر قاد بنفسه القوات المساعِدة من المناطق التي ادارها بنفسه • غير ان زيدا حاول الوشاية ضده ، لذا قام حاتّوشيلي فاستغل المناسبة في طريق عودته من مصر ليحرر نفسه ومدينة الإله شمشّوخا من القذارة التي لحقت بهما على يد عدوه القديم : « ولقد قمت بالطقوس المرعية للالهة وتزوجت بابنة بنتي ـ بشارّي كاهن عشتار اللاوازانتية استجابة لرغبة الربة ••• » •

ويحس حاتّوشيلي بتدخل الربة أيضا حتى في ثورته على الملك اورشي ـ تيشوب بن اخيه الذي نصبه بنفسه على العرش : « ••• ولكن لم تكن الطريقة التي انفصلتُ بها عنه امرا سريا أو انني نهضت ضده من على العربة وثرت عليه داخل البيت ، بل ابلغته بعداء : لقد بدأت النزاع ضدي وانت الملك الاكبر والقلعة الوحيدة التي تركتها لي هذه القلعة انا مَلِكُها الوحيد : انهض ! ، والذي يقرر الفصل بيننا هما الربة عشتار الشمشّوخية وإله الطقس النيريكي • وبما ان عشتار كانت قد خصتني بالمُلك ، ظهرَتْ لزوجتي في هذا الوقت بالمنام قائلة : سأقف الى جانب زوجكِ وثقِ انتِ أيضا بي ، انا عشتار • وعشتار سيدتي عمِلَتْ من اجلي ، وما قالته لي تحققَ أيضا ••» •
وكما استطاع حاتّوشيلي أن يفهم عرض حياته الخاصة لنا ككل ذي معنى عميق ناتج عن ارادة إلهية مُخطَّطة ويرى وجوده الشخصي كجزء هام من مجرى حوادث متكاملة ، تمكن كذلك الملك تيليبينو قبله من الاحاطة بمجرى

تطور شعبه لعصور مبكرة وأن يعرض علينا هذا التطور بواقعيته الحية ٠ وعـدا عن هذين الملكين نجد مورشيلي الثـاني لم يتخلف أيضا عنهما إذ ترك لنا سردا تاريخيا حول السنوات الطوال لحكمه سردا لم نعهد مثله لعصر أقدم في تاريخ الشرق الأدنى ٠ فما من حاكم سومري أو اكادي أو بابلي اعطانا سردا زمنيا منظما متسلسلا يصف فيه أعماله ومشاهداته مثل مورشيلي الثاني ٠ وبالاضافة إلى هذا فقد تجاوز هذا الملك أيضا ذلك ليعرض لنا هذا التقرير في اطار تاريخي منطلقا في اسلوبه من وجهة نظر موحدة كاملة ٠ وبذا أصبح قدوة لجميع التقارير الحولية الملـكية اللاحقة وللمتأخرين من المؤرخين٠ ان هذا لنفس المعنى التاريخي الذي يُعثر عليه في نص المعاهدات الحثية مع الدول الأجنبية : فنص المعاهدة يلد كنتيجة منطقية لسلسلة من الحوادث والاعمال تُسرد في مقدمة تاريخية موجزة كتلك المعاهدة التي أبرمت بين شوبّيلوليوما ومتّي ـ وازا ٠ ان قسما لا بأس به من الانتصارات التي حققها الحثيون على الصعيد السياسي لا يمكن رده لسبب آخر سوى استطاعتهم الاحاطة بمجرى امور هذا العالم وفهم نظامها وقوانينها الداخلية٠ان اعتلاء حاتّوشيلي غير الشرعي للعرش ، مع المحافظة بنفس الوقت على قوة وعظمة الامبراطورية الحثية وبالتالي ابرامه لمعاهدة السلام مع رعمسيس يُعتبران عمليتين لاعظم قدرة سياسية ٠ لقد قُدّر للصرح الذي بناه كل من شوبّيلوليوما ومورشيلي الثاني وحاتّوشيلي أن يعيش بعدهم عشرات السنين وذلك حتى نهاية القرن الثالث عشر ق٠م صامدا امام الضغط من جميع الجهات ٠ ففي الوقت الذي أصبح جار الحثيين المباشر على نهر الفرات اكثر خطرا في عهد الملك توكولتي نينورتا الأول ، نجد اغتيال هذا الملك يضع بصورة مفاجئة حدا لهـذا الخطر ٠

وبالمقابل فقد بذل كل من ابن وحفيد حاتّوشيلي : « توتحاليا الرابع » و « آرنوواندا » الجهد الكبير للمحافظة على الامبراطورية امام اطمـاع الدول المعادية في الغرب وهي احي ـ ياوا وبلدان الارزاوا ٠ ففي عهد

آرنوواندا انفصل كل الغرب عن الامبراطورية تحت قيادة تابع سابق للملكة الحثية وهو مدّو ـ واتا . وبعد ذلك لا نعلم بالضبط ما اذا كان اخ آرنوواندا ، على الارجح شوبّيلوليوما الثاني ، قد استطاع الوصول الى الحكم ، إذ انقطعت مصادرنا وخرست التقارير كصوت انسان اخذته ضربة قاتلة . لقد وصل الشعب الحثي الذي تأقلم خلال خمسة قرون من الزمن على أرض الشرق الأدنى ، في القرن الثالث عشر ق.م . قمة عظمته . وكان هذا الشعب يحتاج الى بضع مئات أخرى من السنين كي يستطيع خلالها خلق توازن بين الحضارة الداخلية الخاصة به والخارجية الغريبة عنه وأن يقودها بالتالي على طريق واحدة . الا انه لم يُفسح له مثل هذا المجال ، اذ أطفىء نهائياً وجوده الحضاري والسياسي على حد سواء على يد سيل شعبي جديد اجتاح الشرق الأدنى منذ حوالي ١٢٠٠ ق.م ، وبصورة خاصة بلاد الاناضول قلب دولته .

وهكذا انطلقت قبائل متجولة هندية غربية وأخرى غير هندية من البلقان عبر اليونان والجزر الايجية وصلت آسيا الصغرى ومصر ، لتلتقي باقوام سامية نازحة من قلب الصحراء في الجنوب ، قُدّر لها أن تغير مجدداً معالم وجه عالم الشرق الأدنى .

لقد اتت جميعها مزودة بطاقات بشرية عذراء تحمل اسلحة العصر الحديدي الجديدة . لقد كان امتلاك هذا المعدن الثمين يكاد ينحصر ذلك الوقت ، عصر تل العمارنة ، فقط في حوزة الامبراطورية الحثية . وكان هذا المعدن أثناء ذلك الوقت نادرا مما دفع بفراعنة مصر معه ليقدموا مقابله للملك الحثي ذهبهم المخزون . ان استثمار وصناعة الحديد كانا معروفين لدى الحثيين منذ بداية عصر امبراطوريتهم . فكانوا أن استخدموا هذا المعدن في صناعة الاسلحة النادرة وتماثيل للالهة أيضا . اما الآن فقد تحولت أسباب قوتهم الماضية ضد أنفسهم بالذات وذلك بتوسع نطاق العصر الحديدي ، الذي تجاوزهم بخطاه ليشمل الآخرين أيضا .

ب ـ التنوع الحضاري والتسامح الديني

في الامبراطورية الحثيـة

يقصد بالمفهوم « الحثي » كل ما له علاقة بتلك المجموعة البشرية الشعبية والسياسية التي نشأت في مجرى الألف الثانية ق٠م تتيجة تفاعل طبقة السكان الاصليين الحثية مع الشعب الغازي ، الذي يعود في أصله الى العنصر الهندي الغربي في القسم الشرقي من مرتفعات الاناضول ٠

ولو اقتصر مفهومنا هـذا على ما كنا عالجناه في الفصل الاخير ، الذي استطعنا تسميته بهذا الشكل انطلاقا من احدث الابحاث التاريخية ، فاننا نجد ان الحضارة الحثية متنوعـة الجوانب ولا تشكل وحدة مغلقة مستقلة٠ واذا كان المرء لا يدرج أيضا تحت المفهوم الحثي ما قصده الآشوريون المتأخرون وما اشارت اليه التوراة أي منطقة المستعمرة الحثية في شمـال بلاد الشمال التي نشأت بعد انهيار الامبراطورية الحثية واذا لم ندرج أيضا تحت هذا المفهوم ما أُعيد اليه الحياة خاصة في تركيا حول فكرة وحدة الفن الحثي الذي يضم في جوهره كثيرا من الخصائص الحورية ، بالرغم من كل هذه المحاولات تبقى حضارة الامبراطوريـة الحثية تشكل تعقيـدا وتشعبا كاملين ٠

ان تشكيل هذه الامبراطورية في الواقع من الوجهة التركيبية أي نظام الدولة الاتحادي يعكس الحقيقة ، ان الفئة الاصلية من السكان المغلوبة على أمرها كانت في كثير من النواحي أكثر تحضرا من الفئة الغازية ٠ اذ لم يوجد في الامبراطورية الحثية فقط لغة واحدة بل لغات عديدة أو خط واحد للكتابة بل خطان ٠ لقد اصبحت لغة الغزاة الهنود الغربيين ، التي سُميت مغالطة

بالحثية نسبة الى شعب البلاد الاصلي ، على مر مئات السنين اللغة الأولى لمعاملات الدواوين الداخلية للدولة • بيد ان التسمية الحقيقية لهذه اللغة يمكن أن تكون على الارجح « النيشيّة » نسبة الى مدينة نيشا ، التي تأسست فيها احدى الامارات الصغيرة في فجر العصر الحثي • والى جانب الحثية تقف السومرية كلغة الطقوس الدينية القديمة كما نجد بصورة خاصة اللغة الاكّادية هي لغة العلاقات الدبلوماسية لذلك العصر • وهناك أيضا اللغة الحورية التي كانت لغة الدولة الميتانية التي شكلت أكبر دولة معادية للحثيين ، بقيت بعد ذلك لغة الدولة الميتانية التابعة • والى جانب هذا وذاك نجد اللغة اللوفية والبالـّية كلغتين اصليتين لقبائل هندية غربية أخرى شقيقة •

أما تسرب الكتابة المسمارية الى آسيا الصغرى فقد حدث هذا قبل تأسيس الامبراطورية الحثية بزمن طويل وذلك عن طريق التجار الآشوريين • وقد انفرد هذا النوع من الكتابة المسمارية لتجار الآشوريين بصفات خاصة ميزتها عن غيرها من نماذج الكتابات المسمارية الاخرى المعاصرة • ولما لم يأخذ الحثيون بهذه الصفات لذلك النوع من الكتابة ، فان هذا يدفعنا الى الاعتقاد ، بانهم قد اصطحبوا معهم على الارجح قبل دخولهم الاناضول ، نوعا من الكتابة تعرفوا عليه خلال هجرتهم واحتكاكهم بالساميين الغربيين المعاصرين لحمورابي •

وقد استخدموا هذه الكتابة باستمرار في اللغات المختلفة في الادارة والطقوس الدينية وفي التدريس وفي مراسلاتهم أيضا • اما اذا ما قام الملوك الحثيون باقامة الآثار ذات الحجوم الكبيرة أو بصنع اختامهم الرسمية نجدهم يستخدمون كتابة أخرى لا تمت بصلة الى الكتابة المسمارية • وقد كانت رموز هذه الكتابة اقرب ما تكون الى أشكال الصور ، فسميت بذلك بالكتابة الهيروغليفية الحثية • ومن ناحية اخرى فاننا لا نعلم من هم مخترعو هذه الكتابة ، هل هم الحثيون حقا أم سكان البلاد الاصليين الذين يُطلق عليهم اسم«حَتّي»، والتي لم نستطع فك رموزها وحتى بصورة محدودة الامنذ

أمد غير بعيد . وعلى ما يبدو كان انتشار هذه الكتابة محدودا في الامبراطورية الحثية الكبيرة ، اذ اننا لا نعرفها سوى من خلال بعض الكتابات المشفوعة بجانب الصور المنقوشة على الصخور أو المسلات وعلى الاختام المسطحة . ويبدو ان هذه الكتابة قد عاشت عصرها الذهبي فقط بعد انقراض الامبراطورية الحثية وكان ذلك في المستعمرات الحثية من شمال بلاد الشام حيث استخدمت هناك للتعبير بلهجة قريبة من اللغة اللوفية . اذ ففي الوقت الذي استخدم فيه الحثيون الكتابة المسمارية المقتبسة من بلاد بابل ومعها كافة العلوم المرتبطة بها ارتباطا وثيقا ، نجدهم وقد رفضوا اقتباس طريقة الاختام الاسطوانية التي تُعتبر احدى المميزات الاساسية لحضارة ما بين النهرين الكلاسيكية . وقد كانت هذه الاختام ، التي لا يمكن فصلها عن الكتابة على الرقم الطينية ، قد دخلت آسيا الصغرى عن طريق المستعمرات التجارية الآشورية . فالحثي لا يختم بالشكل الاسطواني بل بالطريقة المسطحة على شكل محدب أو مطرقي أو على شكل زر أو على شكل مستدير .

بالرغم من ميل حثيي الامبراطورية الكبرى الى منتهى التسامح والانفتاح على العادات والتقاليد الغريبة ، بحيث لا يستطيع المرء معها الكشف إلا بصعوبة ما لديه من العنصر الحثي وما يعود عنده الى العنصر الهندي الغربي ، فاننا نجده يحرص على ما هو أصيل لديه ، خاصة فيما يتعلق بالمظاهر كاللباس وشكل الآنية والتزيينات التي تميزه بصورة رئيسية عن البابلي . وحتى تماثيله الكبيرة المصنوعة من الحجر فانها لا تشير الى أية علاقة مع بلاد ما بين النهرين . وكذلك أيضا المخططات العامة للمدن كعاصمة الامبراطورية حاتوشا مثلا فانها تختلف في جوهر تصميم مخططاتها عن مخططات المدن السومرية والاكادية والبابلية . يشكل مثلا وسط حاتوشا البرج الذي هو عبارة عن حصن لا بد إلا وأن يكون قد أُقيم في الاصل لاغراض حربية . كما وبُنيت معابد الآلهة في جواره وتحت حمايته . اما في بلاد ما بين النهرين فنجد معبد الإله نفسه أي إله المدينة يشغل وسط المدن هناك .

فبناء المعبد في حاتّوشا بفن اسلوبه المتطور في التقسيم المربعي وبمبدأ اساس البناء الذي ينظم اقسام الابنية الى عدد من دور البناء تحيط بغرفة رئيسية ، فهو من الحثية اصالة مثله مثل تغيير معالم انحدار صخري حيث جعل منه موقعا مقدسا بواسطة عناصر معمارية وصورية معينة . وهذه الناحية الاخيرة نجدها ممثلة أفضل التمثيل في ياتسيليكايا ، منذ أن كشفت الحفريات النقاب هنا عن آثار لابنية كانت فيما مضى قد شكلت غرف المداخل وغرف الطقوس الدينية للمعبد الصخري بنقوشه التصويرية الحجرية الكبيرة .

أما في مجال الفن التصويري لعصر الامبراطورية الحثية الكبيرة فقد التقت اتجاهات كثيرة ، بعضها تنبع من تربتها الخاصة وبعضها الآخر من أراضي أجنبية . فاذا ما كانت مداخل مدينة حاتّوشا مزدانة على جوانبها بتماثيل للاسود أو للسفينكس ، فان لذلك علاقة بفكرة السحر ، التي أول ما بزغت ونسقت بكل تأكيد في بلاد ما بين النهرين . فالاسد يجسم بقوته الشعار القديم لكافة القوى المهددة للحياة ، التي تطرد اما بتسميتها أو برسمها . اما السفينكس الذي أول ما يبرهن على وجوده عند الساميين الغربيين لعصور حمورابي ـ ولهذا نجده مفضل الاستعمال جدا في بلاد الشام الكنعانية ـ فانه يعود الى نفس هذا الاطار من التفكير الديني . ولذا نجد أيضا السفينكس في بوغازكوي مرتبطا على الباب برسم يفهم منه شجرة حياة محورة . بينما اذا وجدنا بالمقابل على جانب البوابة الثالثة لسور مدينة حاتّوشا شكلا يزين صورة محارب مقاتل يشهر فأسا ، فان هذا لا يرتبط الا بفكرة من نتاج بنات أفكار آسيا الصغرى المحلية .

ففي « المحراب » الجانبي للمكان المقدس الصخري في ياتسيليكايا القريبة من العاصمة ، توجد تلك الصورة الخيالية لربة في شكل خنجر يشكل قبضته زوجان من الاسود متوجان برأسي انسان عليهما القبعة المحدبة التقليدية للآلهة الحثية . ونرى بصورة مباشرة بالقرب منها رسم المحسن توتحاليا الرابع في عناق مع إلهه الخاص ، إله الطقس . ومن الممكن أن يكون قد

رسم هذا المشهد اقتداء بالنماذج المصرية • وهنا نرى ان لا وجود لذلك الحاجز الفكري الروحي بين الانسان والإله كما يدلنا على ذلك شعار الخنجر المجرد المذكور ، حتى ولا لتلك الهوة الواضحة بين الخالق والمخلوق ، التي تعتبر الصفة المميزة للطقوس الدينية للدولة في ما بين النهرين • واذا ما وجد الانسان نفحة من الهندية الغربية ــ في الفن الحثي ــ التي دائما ما خلقت لنفسها في فنها تعبيرا لعالم الاحساس المجرد ، فانما إن هي الا في هذه الصورة • وفقط نادرا ما يستطيع أيضا فنان النحت الحثي وكما هو الحال هنا ، أن يذلل ذلك العجز المستأثر به في التركيب ، الذي يبدو ليقفز هنا في هذا المثال الفني فوق حدود النقص في القدرة على التنظيم وكذلك حدود النقص في الاحساس على قدرته في تناسق الاجزاء المتناظرة •

ويعاني احيانا التركيب العام للصور الحثية أيضا من العجز في الافصاح عند الرسم عن العظمة الفكرية للشيء المقصود ومن الضعف في قوة التعبير وذلك اكثر من جهله بالتحكم في رسم الابعاد الظاهرية المتنوعة والمتزايدة • وهكذا نرى على جدران المحراب الرئيسي الداخلي في ياتسيليكايا صفين لرتلين من الآلهة (انظر صورة رقم ٣٩) • ففي الوقت الذي يتألف فيه الأيمن تقريبا من رسوم لربات ، نجد آلهة ذكور تشكل الرتل الأيسر • ثم يخطو الرتلان باتجاه بعضهما حيث تتلاقى مقدمتاهما على الجدار العرضاني الداخلي • ويستنتج المرء من شكل الرسمين اللذين يقودان الرتلين انما يشكلان الشخصين الرئيسيين في مجمع آلهة السكان لما قبل الحثيين ، اذ لم يميزهما الفنان عن الآلهة الأخرى سوى بابراز الابعاد الخارجية لرسميهما •

تقف الإلهة الحاتّية الارينية يرافقها ابنها وابنتاها مقابل بعلها إله الطقس الحاتّي • يتبع إله الطقس هذا الإله انارا الذي ساعده في صراعه البطولي ضد الافعى إلّو ــ يانكا ، وكذلك ابنه تيليبينو ، الذي يمكن أن يكون أحد آلهة النبات • فبالرغم من اننا على علاقة هنا بكل وضوح مع مجموعة آلهة تعود الى العنصر الشعبي الاصلي للبلاد الى عصر ما قبل الحثي أي

الى الحاتّية الاصلية وليس الى مايسمى بالحثية ، فقد بُرهن مجددا ان الكتابة الهيروغليفية التي تحملها الآلهة على أحد كفيها كرموزها وبنفس الوقت كتميمة واسم لها أيضا ، لا تقرأ بالحاتّية وانما بالحورية • وعلى الاقل فالثابت هو ان الربة الرئيسية في ياتسيليكايا هي تشيبات وليست إلهة الشمس الارينية • يضاف الى ذلك انه يمكن للمرء رؤية ثورين خلف كل من الشكلين الرئيسيين ، حيث لا يمكن تفسيرهما الا بالثورين الواردين بالنصوص المكتوبة وهما شيري وحورّي اللذان يتبعان ايضا من ناحية أخرى إله الحوريين الرئيسي الا وهو تيشوب ، إله الطقس •

ولهذا فلا مجال بذلك للشك أن المد الاشعاعي للديانة الحورية قد وصل قلب المملكة الحثية ليؤثر على الديانة الحثية في عهد توتحاليا الرابع حيث حفرت في عهده صور ورسوم ياتسيليكايا •

ولقد بلغ هذا التأثير حدا وضعت به إلهة الشمس الارينية ، الربة الحقيقية الكبرى للحثيين ، بمنزلة تشيبات الحورية ، وذلك في الوقت الذي تعتبران فيه عادة إلهتين مختلفتين كما هما حقا في الاصل • وانه يمكن أن تكون طقوس العبادة الحورية قد شعت حتى الى داخل آسيا الصغرى منذ عصر حاتّوشيلي الثالث ، الذي كان كاهنا لعشتار الشمّوخية اكثر من عشتار السامية (شاوشكا) ، حيث وضع كافة اعماله ومنجزاته في خدمة هذه الربة ، وخاصة انه كان بعلا لبودوشيا ، التي تعرف من اسمها الخاص بأنها احدى اتباع تشيبات (راجع ص ٢٣٥) •

فبالرغم من هذه الظواهر فلا يستطيع المرء وخاصة عند الحثيين التحدث عن محاولة لصهر المعتقدات والاتجاهات الدينية • بل ان أشد ما يميز الحياة الدينية للامبراطورية الحثية هو التسامح الفكري ، نعم الورع امام الإله الاجنبي ، الذي منح ــ كأجنبي ــ كامل حقوق الضيف في البلاد • ان هذا ليشبه تماما نفس الدور الذي قام به الحكام الاخمينيون والفرس في عصر

لاحق • ان هذا ليس صَهرا للعبادات وأساطير الآلهة وانما هو ما يمكن تسميته بالاتحاد والانسجام في شكل يشبه دستور مبدأ الاقطاع الذي كان يحدد نظام الدولة • لم يكن لدى الفئات الحضارية والعناصر البشرية المختلفة للشعب الحثي التي لم تشكل يوما ما وحدة حقيقية فقط ، آلهة خاصة مع معابد خاصة في البلاد ، وانما كان لديهم أيضا كهنة خاصين ومارسوا طقوس عباداتهم باللغة الخاصة لمنطقتهم • فالمرء يقدس هنا بالدرجة الأولى وبصورة خاصة القوى الميتافيزيكية الأقرب الى طبعه وماهيته والتي تلقنها الانسان في البيت والاسرة كتقديس الطفل لابويه واجداده ، ولكن يتملك المرء الشعور هو ان شعوبا وقبائل أخرى تقدس أيضا مثل هذه القوى • ولذا فقد وجب أن يوجَد في كل وادٍ إله جبل آخر وإله نهر آخر أو إله طقس يتربع قمة الجبل • انهم لألف إله هم آلهة الحثيين الذين لا يمكن تمييزهم باسماء : ان هذا الشكل المتطرف للشرك يجسم في جوهره اشد التناقضات حدة مقابل مبادىء عقيدة يهوه الغيورة والخاصة ، التي ستلعب دورها بالتأثير على الشرق الأدنى بعد مدة ليست بالطويلة •

لقد ُوجد لدى الحثي اتجاهات فكرية إلهية عديدةتنسجم والأطر التاريخية أو الشعبية • اذ وجدت مجموعة الآلهة السومرية ــ الاكادية والسامية الغربية والمحلية الأصلية لما قبل الحثية ، وكذلك مجموعة آلهة الدولة ، والحورية يضاف الى ذلك ما كان لقبائل اللوڤيين والباليين الشقيقة من آلهتها الخاصة بها • ان مجموعة الآلهة الوحيدة ، التي لم نعد نسمع عنها شيئا في الحياة الدينية ، حتى وأقل أيضا مما هي الحال عند اليونانيين ، هي الهندية الغربية • فلم يعد ُيعثر في العبادة الحثية على أي اثر للآلهة الآرية ، كما كانت الحال عند الكاشيين والميتانيين ولا حتى اسمائهم الاصلية •

فالحثي يقدس عددا من آلهة الشمس الى جانب بعضها البعض • ولم يكن لشمَش الاكادي دورا كبيرا في هذا المجال ، اذ ُأعطيت الاهميــة الكبرى بالمقابل لـ « ملكة بلاد الحثي التي تقود عرش الملوك والملكات في

بلاد الحثي » انها الربة المذكورة اعلاه ، الربة الكبرى للدولة التي ظل اسمها لنا غير معروف حتى الآن • انها إلهة الشمس للمدينة المقدسة القديمة ارينّا « ملكة السماء والارض سيدة ملوك وملكات بلاد حاتّي ، التي تنصب الملوك والملكات » • « واذا ما نظرتِ انتِ إلهة الشمس الارينّية سيدتي ، الى ملك أو ملكة من بلاد حاتّي ، يصبح سعيدا على يد نظرتك » • هكذا ورد في إحدى الصلوات • وفي أحد اناشيد المديح الإلهية يطنب بها المديح على انها السيدة التي تعين حدودَ البلدان : « انكِ تصغين للشكوى انت إلهة الشمس الارينّية ، انكِ لربة رحيمة انتِ ، انك لتحبين الانسان انتِ ، يا إلهة الشمس الارينية •• انكِ لاشد الآلهة قدسية في البلدان ، انتِ اب وام لكل بلاد • انتِ سيدة المحكمة الرحيمة •• وانتِ لاشد من يحتفل به بين الآلهة القديمة الازلية •• انكِ لتحددين نصيب كل من الآلهة القديمة السرمدية ، ان ابواب السماء لتفتح لكِ ••• » •

الا ان هذا لا يمنع وجود إله شمس الى جانب إلهة الشمس الارينية يجسم في ماهيته صفتين كاله الشمس للمنطقة السومرية ــ الاكّادية ــ البابلية ، أي أن يكون بنفس الوقت إله الشمس للسماء وإله الشمس للارض، أي عندما تغرب الشمس قائمة برحلتها الليلية مخترقة العالم السفلي ويكون الإله أيضا مميزا بعلامات فارقة • كما انه يتقلد زعامة آلهة السماء ويدعوها للاجتماع • بيد انه ليس هو في حد ذاته بل انه إله الطقس قرين إلهة الشمس الارينّية • وهذا يدعى ايضا ملك السماء سيد بلاد حثي • وبالرغم من ذلك لا تصطدم في العالم الميتافيزيكي عالم ألف إله هذه التناقضات مع بعضها البعض • فعلماء اللاهوت لم ينظموا بعد عالم الآلهة الحثّية حتى ولم يضعوا لها قواعد أساسية • كما ويلاحظ المرء اتصاف بدء مهمتهم بالحذر ، عندما يريدون مثلا وضع إله النبات تيليبينو بن إله الطقس الى جانب تموز وذلك فقط لان كلاهما على ارتباط وثيق بنمو نباتات الحبوب ، كون غيابهما الموقت يقود الى القضاء على كافة جوانب الحياة عند الآلهة والبشر والحيوانات والنباتات •

واذا ما أُمعن النظر في وجه الشبه الذي يبدو وكأنه يجمع بين اسطورة تيليبينو واسطورة تموز نجد انه لا يتعدى الظواهر السطحية . لقد غاب تيليبينو نتيجة ثورة غضبه وتوارى عن انظار الآلهة والبشر على حد سواء . ان غضبه يمكن أن يكون على الارجح نتيجة لخطيئة ارتكبها احد البشر . وبما ان قوة الحياة تتجسم فيه بالسماء ، فما للطبيعة اذا الا وأن تموت مع كافة آلهتها وبشرها . وهنا تقع ضائقة كبرى تريد الآلهة الخلاص منها بارسالهم مفتشين عديدين بحثا عنه . وهكذا عجز النسر عن ايجاد تيليبينو وحتى إله الطقس لم يستطع بنفسه العثور عليه بأي مكان . وأخيرا فما كان من النحلة التي بعثت بها سيدة الآلهة لهذا الغرض الا وأن وجدته . فبواسطة تعويذة ما أُمكن اغراءه للعودة وباخرى أُخمد غضبه وأخيرا عاد وعادت معه الحياة .

لم يتطرق الحديث في هذه الاسطورة عن الإله البشري الذي يموت حتى ولا عنه ذلك الذي يُبعث مجددا حيا من العالم السفلي ، والذي يشير بصلته مع الربة الام الى امكانية اشتراكه بتوجيه القدر فيما وراء الطبيعة . ونتيجة لذلك يبدو انه لا يُستطاع العثور في اسطورة تيليبينو على شيء من هذا القبيل حتى ولا أيضا بنفس الوقت على الاعتقاد الديني السري .

وكذلك أيضا بالنسبة لإله الشمس الذي يوحّد بنفسه شخصية إله السماء وإله العالم السفلي . فلا نستطيع الجزم ما اذا كان للحثيين فيه إله يصلّون له فقط ، ام رأوا فيه أيضا ، بما يشبه مردوك في بلاد بابل ، إلها يتصف بمهام تموز يريهم طريقا يسلكونه ليشاركوا بواسطتها في فهم ماهية وحقيقة الخليقة . ولكن بالرغم من ذلك فتبدو علاقة الملك ، الذي يلقب نفسه بالشمس ويتوج خرطوشة اسمه بشمس مجنحة ، بإله الشمس تشير الى نفس الاتجاه كما في بلاد بابل . حيث ينوب الملك الإله مردوك ، وكما في سومر حيث ينوب تموز أو في بلاد آشور حيث ينوب الإله

آشور وأخيرا كما في مصر حيث يجسم الملك هناك هوروس ـ اوزيريس .

واذا كان لا يوجد سوى النذر اليسير جدا من الدلائل التي تشير الى أهمية خاصة للاعتقاد الديني السري الذي كان سائدا لدى الحثيين فاننا نجد عكس ذلك الكثير من المستندات التي ترينا انتشار فرع ثالث نطلق عليه اسماً غير لائق هو «الاعتقاد بالخرافات»، هذه المستندات التي ترينا انتشار فرع آخر من المعتقدات ، انه الاعتقاد بالتنبؤ وبقوة السحر ضد الارواح الشريرة التي تهدد الانسان بخطرها في كل مكان . لقد وصل الى الحثيين هذا النوع من الاعتقاد ، الذي اخذ يجتذب اليه كافة الشرق الأدنى بازدياد مطرد الى احساس وتفكير عالم قوته المظلمة منذ الألف الثانية ق.م . (راجع ص ٢٠٠ الكاشيون) وذلك على الارجح عن طريق بابل . ان الشعوذة والايمان بقراءة رموز السحر لظاهرتان بشريتان ، الا انهما لم تنتشرا ولم تُدونا في أي مكان آخر في العالم في مثل هذا التنظيم الشامل وهذه الدقة ولم تصبحا نوعا من العلم الميتافيزيكي كما في بلاد ما بين النهرين . لقد جُمعت تلك الاشارات المحذرة التي توجهها الآلهة الى البشر وذلك في مؤلفات ضخمة مشيرة الى انعامها عليهم بحفظ استمرار جنسهم محذرة بانزال السخط عليهم . ولقد عثرنا على بعض اقسام من هذه المؤلفات بترجماتها الحثية . فالآلهة لا تتحدث بلغة واضحة وصريحة ، ولكنها لا تعطي سوى اشارات تظهر في المنام وفي علامات خاصة بالسماء وعن طريق المشوهين بالولادة وعلى لسان التائهين ، انها لاشارات يجب على المرء فهم معناها . واذا صدف انهم لم يعطوا بصورة اختيارية أية اشارة فيستطيع المرء عند ذلك اجتذابها على يد طريقة فنية بتحليق الطائر وعن طريق الكبد وكذلك بتقديم ضحية حيوانية . وفي هذا يمكن فقط لمن يستطيع فهم تأويل الاشارات تجنب سخط الآلهة . اما اتّقاء مخاطر الجنيات الشريرة التي تجلب للمرء المرض والمصائب فيتم فقط عن طريق التعاويذ والسحر . وفقط عن طريق الشعوذة والسحر يستطيع الانسان أن يُبعد عن نفسه القذارة الملتصقة به والتي الحقها به سخط الآلهة . بيد ان

الإقرار بارتكاب الاثم يضع حدا لمفعول قوة السحر ، كما هي الحال في بلاد بابل الكاشية • ان الشعور والاعتقاد ان الانسان بطبيعته مخلوق مركب على الخطأ ، انما قد عاشا في نفس الانسان الحثّي تماما كما في البابلي ــ الكاشي • اما عدم الطهارة الداخلية ــ أي طهارة النفس ــ التي هي علة كامل شقاء الانسان ، لأنها مدعاة لاجتذاب سخط الآلهة ، لا يمكن التغلب عليها بعد بواسطة الشعوذة ، وانما فقط عن طريق التوبة الحقيقية والإقرار بالاثم امام الإله وامام رحمته وعفوه • ولا يوجد اعترافات أخرى ظهر فيها هذا الاقرار وأُكد عليه افضل فيما يسمى بصلوات الطاعون لـ « مورشيلي » التي وصلنا عدد لا بأس به منها :

يا إله الطقس الحاثّي ، يا سيدي ، واتم يا آلهة ، يا اسيادي
ان القضية كالآتي : لقد اخطأ الانسان
واخطأ والدي أيضا واخترق حرمة كلمة إله الطقس
الحاثّي ، يا سيدي ، اما انا فلم أخطىء بشيء •
وان الامر كالآتي : ان خطيئة الاب تأتي الى الابن •
ولهذا انتقلت خطيئة والدي الي •
ولقد اعترفت بها الآن امام سيدي إله الطقس الحاثّي وامام الآلهة
سادتي • ان الامر هو هذا : لقد فعلنا ذلك
ولانني اعترفت بخطيئة والدي ، أرجو أن يخفف سيدي إله الطقس الحاثّي ،
والآلهة الأخرى سادتي ، حدة غضبهم
فارضوا علي ، واطردوا الطاعون خارج بلاد حاثّي •

ان الشعب الحثي وحضارته عظمتان خاصتان من نوع ذي ميزات جديدة في مجال التطور العام لتاريخ الشرق الأدنى القديم • وانطلاقا لما لدينا من المصادر حتى الآن يعتبران اهم عظمة في ذلك التشابك الملون للقوى وللافكار بعد الهجرة الكبيرة للشعوب في النصف الأول من الألف الثانية ق•م • وفي الواقع فان لهذه الحقيقة انعكاسات ذات صبغة وطبيعة جديدتين

تختلفان تماما عن الحضارة الكلاسيكية البابلية لعصر حمورابي مثلا ٠وقامت هذه الأخيرة أيضا باعادة دمج مختلف العناصر الشعبية والفكرية في اطارها الخاص ، الا انها ركبتها جميعا في جسم واحد تبدو فيه سائر اجزائه وكأنها طبيعية ُصبت بقالب واحد مشترك ٠ فعند حمورابي لا يستطيع والحالة هذه سوى الشخص المختص تحديد خصائص الجوانب الحضارية ذات الاصل السومري أو الاكادي أو السامي الغربي ٠ ولذلك نجد ان لهذه الحضارة وجهها الخاص الجلي وكذلك قانونها الداخلي الخاص ٠ اما الحضارة الحثية فلم تكن في عصر الامبراطورية الكبيرة في جميع مظاهرها، منذ حوالي عصر شوبيلوليوما حتى توتحاليا الرابع ، على الغالب اقل اكتمالا من الحضارة البابلية ، الا انها لم تعكس وجها واحدا بل وجوها كثيرة وذلك بالرغم من رجحان كفة الطبقة القائدة ٠ ولم يستطع احد أن يلمس هذا التنوع في الشعب الحثي والفكر الحثي اكثر من النحات المصري الذي لم يصور ــ مسلحا بعبقرية شعبه في معرفة المهم فقط ــ اعداء رعمسيس الثاني في معركة قادش كوحدة في المظهر ، بل ميز بينهم بدقة بارعة ٠ انه يسهل على المرء التمييز على جدران معبد ابيدوس بين مقاتلي العربات الهنود الغربيين عن ساميي بلاد الشام وكذلك الحاثيين السكان الأصليين لآسيا الصغرى من الحوريين التابعين للدولة الحثية ٠

ليس هذا التعدد في الوجوه فقط عبارة عن نتيجة حتمية لتشعب القوى في عالم الشرق الأدنى القديم وحصيلة لانخفاض مستوى الشعب الحثي الغازي حضاريا مقابل الحضارة المتوارثة لبلاد ما بين النهرين ٠ اذ لو ان الحثيين في امور فكرية كثيرة ورثة السومريين والاكاديين ، الا انهم لم يكونوا مقلدين ٠ بل ان وجود لغات وكتابات وفنون معمارية وديانات واناس مختلفين ، كل ذلك الى جانب بعضه البعض ، ليعد من اصل جوهر وواقع هذه الحقبة الحضارية ، التي لم تستخدم فيها فقط السياسة لخلق التوازن بين القرى وانما اتصفت كذلك بوجود نظرات عقائدية تختلف باشكال تعابيرها الخاصة ُقصد منها حفظ التوازن بينها دون أن تقضي الواحدة منها على الأخرى ٠

الفصل السادس

رد الفعل ضـــد حكم الشعوب الجبلية

آ ـ البلاد الفينيقية : بيبلوس (جبيل) واوغاريت (رأس الشمرا)

نعلم من خلال الحفريات التي اقيمت في جبيل (بيبلوس القديمة) في وسط ساحل بلاد الشام وكذلك انطلاقا من المراسلات الملكية في مدينة ماري ومن موجودات الطبقات السفلى في تل العطشانة (الالخ) بالقـرب من انطاكية ، أن اناسا ساميين غربيين قد قطنوا بلاد الشام على الأقل منذ نهاية الألف الثالثة ق•م • ان هؤلاء لعلى قرابة مع تلك الفئة السامية التي حكمت بلاد ما بين النهرين منذ عصر سلالة إي ـ زِنْ ـ لارزا وحمورابي •

اما من ناحية التسمية الخاصة فنطلق على هؤلاء الساميين في بلاد الشام اسم الكنعانيين • فلغتهم يجب أن تكون نفس اللغة التي اقتبسها اولئك اليهود الذين نزحوا الى الارض المقدسة من السكان الاصليين قبلهم هناك أي من الكنعانيين • وكذلك ينتسب أيضا الفينيقيون الأوائل ، أي سكان السهل الضيق ما بين لبنان والبحر ، الى هذه المجموعة السامية الغربية • غير انهم لم يصبحوا قط ذوي حضارة خاصة مع ان امكانياتهم الشعبية كانت قد تخولهم ذلك • الا ان وضعهم الجغرافي ، بقطناهم الموانىء البحرية وتلك الجزر القريبة من الساحل واختراق جبال لبنان الغربية والشرقية لبلادهم ، جعل منها مضايق سهلية مفتوحة على البحر والى الاجانب • كما خلق منها بالمقابل أيضا بلادا داخلية تواجه الصحراء معرضة الى البدو المصطبغين بطابع

اقليمي خاص ، وبذا كتب لهم بذلك أن يلعبوا بالدرجة الأولى دور الوسيط بين مراكز الحضارات الكبيرة ، مصر وآسيا الصغرى وبلاد دجلة والفرات اكثر مما قدر لهم أن يصبحوا ذات عظمة فكرية خاصة . ففي الجنوب ، في منطقة بيبلوس اصطبغوا ، وبصورة خاصة امراءهم ، بالصبغة المصرية ونقلوها الى غيرهم . بينما نجد عكس هذا في الشمال في اوغاريت (رأس الشمرا) ، حيث غالبا ما يعتقد المرء انطلاقا من بعض الظواهر ، ان الأمر هنا انما يدور حول اقلية من السكان الايجيين في حين نجد التأثير الحوري الشرقي قد اخذ يزداد منذ منتصف الألف الثانية ق. م . وبعد ذلك تأثير آسيا الصغرى الحثي في بقعة كمنطقة تل العطشانة (الالخ) في القسم الشمالي من البلاد الداخلية . فلولا اكتساح الشعوب الجبلية الخاطف والمفاجيء في الألف الثانية (لهذه المنطقة) ومن ثم سيطرة الهيكسوس والحوريين عليها وبعد هذا وذاك « تحثيث » شمال بلاد الشام ، لكان من الممكن أن استطاع الكنعانيون خلق حضارة معتبرة خاصة بهم . يوجد في تل العطشانة قصر غير معروف الأسس يعود الى عصر يريمليم ملك ينخد ، معاصر زيمريليم ملك ماري وحمورابي ملك بابل . كما يوجد أيضا تمثال لـ « يريمليم » هذا وتمثال لرأس إله من جبول بالقرب من حلب . كما لدينا ايضا تماثيل صغيرة من نحاس واختام اسطوانية جميلة الصنع . انها لأشياء كان لها أن تقود الى حضارة كنعانية خاصة كبيرة مزدهرة ، لو لم يقدر لتطورها أن ينتكس . وتبعا لذلك فقد قسمت هذه البلاد ، نتيجة اطماع والاعيب ولف ودوران الدول العظمى ومعها تطاحن اسياد الاقطاع في هذه البلاد ، الى دويلات صغيرة تستمد حتى قوانينها الداخلية من الخارج ومن طريقة تفكير اجنبية غريبة . وحتى ايضا دولة امورو في وسط بلاد الشام ، التي تشير من خلال لفظ اسمها الى ذلك العصر الذي اسست فيها سلطتها هنا في الغرب والتي حاولت حتى لعصر تل العمارنة الابقاء على تقاليدها وعاداتها الوطنية ، لم تخرج عن هذه القاعدة او شذت عن هذا الخط . لقد

كان امير هذه الدولة ازيرو أكثر افتقارا للمثل العليا حتى من كافـة اولئك الذين جعلوا من انفسهم مطية للدول الاجنبية طلبا لرضاها •

فبالرغم من الضغط المتعـدد الوجوه فقد قـُدر لسامية بلاد الشـام ــ وللدهشة ــ أن تصمد بكل صلابة على شريط الساحل في هذه المنطقة التي اعتدنا تسميتها بالبـلاد الفينيقية • لقد اصبحت معـروفة لدينا ليس استنادا على مخلفات الابنية والتماثيل بقدر اعتمادنا على المخلفات الادبية المكتوبة ، التي كشفت عنها الحفريات في اقصى شمال البلاد ، ــ في مدينة اوغاريت ــ التي ورد اسمهـا على الرقم الطينية لارشيف تل العمـارنة وبوغازكوي وماري •

ان الأمر لا يمكن أن يكون صدفة ، اذا ما كانت الكتابة ذات الأحرف الصامتة أي احدى المخترعات التي قادها اليونانيون باقتباسهم لها وباضافة رموز صوتية اليهـا لتصبح ذات تأثير عالمي ، قد اختـُرعت لمرحلتين على الارض الفينيقية • فكانت المـرحلة الأولى على شـكل رموز مشتقة من الهيروغليفية المصرية والأخـرى على شكل رموز من نوع آخـر يتصف بخصائص الكتابة المسمارية • وليكن الجواب ايا كان على المعضلة الصعبة المتعلقة بقـدَمِ الكتابة الفينيقية التي هي اقدم شكل لابجديتنا ، تبقى الحقيقة الأكيدة هي ان المعرفة الأولى في تركيب جميع لغات العالم قد ظهرت ولأول مرة على الارض الفينيقية من اناس قليلي العدد نسبيا • ومن الممكن أن يكون قد استـُند في ذلك على خطوة مصرية أولى • ولا بد إلا وأن تبقى هذه المعرفة هنا في هذه البلاد لحد ما غامضة وذلك منـذ منتصف الألف الثانية ق•م• خاصة وانه قد اكتشف في اوغاريت عـدد كبير من نصوص الاناشيد والملاحم ، التي وُجدت مكتوبة على رقم طينية بكتابة خاصة • فبالرغم ان عناصر هذه الكتابة ، أي الاشكال المسمارية ، تدل بوضوح من حيث شكلها أنها اقتـُبست من الكتابة المسمارية ، الا انهـا تتبع بدقة نفس مبدأ الابجدية الفينيقية المعروفة ، مبدأ الاحرف الصامتة •

ففي هـذه الكتابة المسماة بكتابة رأس الشمرا ، التي تستخدم تسعة وعشرين رمزا في تعابيرها ، وصلتنا اهم المؤلفات الادبية ، التي كشفت عنها الحفريات في اوغاريت : انها الاساطير والخرافات في لغة اوغاريت الخاصة ، التي تقف في خط الوسط بين الساميين الغربيين والشرقيين ، حيث تُعتبر حوالي بداية الألف الأولى ق٠م٠ المرحلة الأولى التمهيدية للكتابة الفينيقية ٠ فاسطورة بعل عليان الطويلة النص تحدثنا ، كيف ينزل هذا الإله الى العالم السفلي ويعود بعدها فيصعد الى السماء بعد صراعه مع إله الحبوب « موت » إله حـرارة الصيف التي تنضج الحبوب ٠ ثم تذهب زوجة (أي اخت) بعل المسمات عنات اثر ذلك الى أب الآلهة ، إيل تسأله النصيحة وتهاجم بعدها موت فتقطعه اربا وتشويه على النار وتطحنه ثم تذري لحمه كبذار الحبوب في الحقول الواسعة ٠ ثم يذهب موت بن إيل ، من جهته الى القبر ٠

يعرف كل من اسم إيل وبعل في رأس الشمرا كأسماء خاصة لآلهة معينة٠ فبعل هو « بعل صافون » ، الذي يعتلي جبل صافون أي جبل الأقرع الذي يقع الى الشمال من رأس الشمرا ٠ انه إله الجبل والطقس وكذلك إلـه الطبيعة ، الذي يعيد الى الحياة بهجتها النباتية في الربيع بواسطة المطـر ، بعد أن يكون قد قضى على « موت » إله الحر ٠

وهناك آلهة أخرى وصلتنا اسماءها عن طريق كتابات فينيقية متأخـرة أو من التوراة كعشيرا وعشتارتي وريشيف وداغون التي تزد ايضا في نصوص من اوغاريت ٠ وتسمح لنا هذه النصوص ولأول مرة بالقاء نظرة على عالم آلهة الكنعانيين الساميين الغربيين ، التي لم نستطع قبل ذلك سوى معرفة الشيء القليل عنها ٠ وحتى هذا لم يتم الا على طريق جد غير مباشرة : لقد ذكر الأب الكنائسي اويزبس بعض المقاطع من مؤلف فيلون الجبيلي (نسبة الى جبيل) حيث كان ــ كما يقال ــ ترجمة يونانية لعلم الفضاء الفينيقي ، الذي كان شخص يدعى زانخونياتون قد دونه لأول مرة في عصر الحروب الطروادية ٠ كان العلم قد شك في صحة هذا الامر واعتبر اكثر الاحيان

ان هـذه الترجمة من ابتداع فيلون الجبيلي • بيد ان آثار رأس الشمرا ، التي تعود الى عصر الحروب الطروادية ، قد فتحت الآن المجال ، ليُنظر الى مؤلف فيلون على انه يتصف بشيء من الصحة •

ان نصوص الملاحم والاساطير من رأس الشمرا تعرض علينا ديانة ترينا فيها كثيرا من نقاط المقارنة مع الديانة المتأخرة الفينيقية والكنعانية واليهودية القديمة ، ولو انه لا يمكن تفسيرها مطلقا على انها نفس هذه الديانات •

وهكذا نرى في اوغاريت والالخ تيارات جورية وايجية وحثيـة تتقابل وتتشابك مع المصرية والبابلية • الا ان ما من شك في الأمر ان سكان الساحل الفينيقي قد حافظوا على طابعهم الخاص ، حتى بعد أن احتل شوبّيلوليوما الكبير مدينة اوغاريت وكل منطقة شمال بلاد الشام ، وذلك في لغتهم الخاصة وبكتاباتهم ذات الابجدية الصامتة وقبل كل شيء في العالم الخاص لآلهتهم ، التي عاشت أيضا في شعرهم المحلي • لقد بقي هذا الطابع بالرغم من جميع التأثيرات الاجنبية احد الصروح الصخرية القليلة الشاهقة التي وقفت دائما سدا منيعا في مقاومتها للشعوب الجبلية الغازية •

ب ـ آشور في العصر ما بين اريبا ـ حدد

حتى توكولتي نينورتا الأول

فكما استطاع الساميون الغربيون الصمود في النهاية وبكل نجاح امام الشعوب الجبلية في شريط القسم الشمالي لساحل بلاد الشام والذي يسمى بالساحل « الفينيقي » وبالتالي المحافظة على عنصرهم الشعبي وعلى لغتهم الخاصة ، كذلك كان امر الساميين الشرقيين في بلاد آشور • وهنا أيضا وجب على سكان البلاد الاصليين ، الآشوريين ، بادىء الامر التراجع سياسياً والتخلي عن بعض الجوانب الحضارية تحت الضغط الشديد الكاسح للغزاة الحوريين • اننـا نعلم ان الملكين الميتانيين « شاوشتتار » و « توشراتا » قد ضما بلاد الآشوريين الى امبراطوريتهم ، كما نعلم أيضا ان الملوك الميتانيين قد وسعوا نطاق حدود امبراطوريتهم الى الجنوب والى الشرق حتى شملت حدودها مدينة آشور أيضا •

وعلى هـذا فلم يكن الملوك الآشوريون اذاً في الوقت ما بين ١٤٥٠ و ١٣٧٥ اكثر من ملوك اسميين : فقد كان اشور ـ رابي الأول واشور ـ نيراري الثالث وكذلك ولدا هـذا الاخير اشور ـ بيلنيشيشو واشور ـ ريمنيشيشو اتباعا للحكام الميتانيين • ان الحدود الجنوبية للنفوذ الميتاني يجب أن تكون قد امتدت حتى وصلت الأراضي السهلية البابلية • ولو لم يكن الامر كذلك لم يقدم اهم ملك كاشي وهو كوريجالزو الأول عـلى بناء مقر حـكمه المحصن دور ـ كوريجـالزو ، في موقـع لا يبعـد في الواقع سوى حوالي سبعة عشر كيلو مترا الى الشمال من بغداد وذلك على انقاض المدينة الدائرة عقرقوف •

وكذلك فقد حكم ايضا اريبا ــ حــدد ، الأبن الثاني لـ « اشور ــ بيلنيشيشو » ، بادىء الامر كتابع الى توشراتّا واطلق على نفسه تبعا لذلك فقط لقب الأمير الكاهن لـ«آشور» • ولم يتبدل الأمر الا بعد ذلك حيث كان ذلك بكل تأكيد بعدموت توشراتّا وتحطيم النفوذ الميتاني • وبذلك نجــد اريبا ــ حدد يتخذ لنفسه في نص آخر لقب « والي إلّيل » ، الذي كان سلفه الكبير شمشي ــ حدد الأول قد لقب نفسه به ولأول مرة ، حيث اشار بذلك الى محاولته الحصول على شرف لقب ملك كبير • ومن الممكن أن يكون قد قام هــذا الحاكم ، بعد زوال نجم الحوريين السياسي على يــد شوبّيلوليوما ، بمحاولات مع الكاشيين في بلاد بابل ليخلق جبهة ضد تفوق القوة الحثية الخطرة • وهذا كل ما نعرفه عن التطور السياسي للبــلاد الآشورية في هذه الحقبة •

أما فيما يخص الحياة الآشورية فتقدم لنا لمحة عنها تلك الوثائق القانونية العديدة التي وجدت في آشور والتي تخص بلا استثناء الامور التجارية والتبني • اما طبعات الأختام العديدة للشهود والكتّاب ، التي وجدت على هذه الوثائق فتشكل بالنسبة لنا أهم نقطة انطلاق للاجابة على السؤال فيما يتعلق ونشوء الفن التصويري الآشوري ذي الحجم الكبير • واذا لم تستطع هذه الطبعات أن تقدم لنا سوى بريق ضعيف من ذلك الفن الضخم الذي كان بكل تأكيد قد وجد ذلك العصر ، يبقى من المهم جدا الملاحظة الى أنه كيف شهد فن صناعة الاختام تحولا في الشكل والمحتوى أثناء حكم اريبا ــ حدد وبصورة خاصة اذا ما كان الامر يدور بالذات حول اختام الملوك والموظفين الكبــار •

ففي الوقت الذي مازال فيه اريبا ــ حدد ، محرر آشور من نير الحكم الميتاني ، يقف في ظل شهرة معاصره الأكبر شوبّيلوليوما اكبر حكام عصره ، نجد بالمقابل ابنه اشور ــ اوبليط الاول قد حقق بعد والده وفي مجالات أوسع ما كان حتى في عهد شمشي ــ حدد الأول يجول في نفس الشعب

الآشوري من آمال سياسية الهبت حدتها على ما يبدو الطبقة الحاكمة الغازية.
لقد كان اشور ـ اوبليط معاصرا للملك الحثي مورشيلي الثاني والمصلح الديني المصري الكبير اخناتون . ومن بين مراسلات تل العمارنة بقيت لنا أيضا رسالتان بعث بهما اشور ـ اوبليط الى اخناتون مطلقا على نفسه في الرسالة الاولى ولأول مرة « ملك بلاد آشور » ، بينما نراه في الرسالة الثانية يظهر كملك كبير ويضفي على نفسه أيضا تعبير « أخ فرعون » .

فتعبير « ملك آشور » يعني ان اشور ـ اوبليط لم يعد تابعا للملك الاكبر ، ملك الميتانيين . اذ فكيف يكون الامر عكس ذلك طالما ان والده قد توصل الى ذلك قبله . اما « أخ الملك المصري » فلا يعني اقل من ان ملك آشور قد احتل مكان الملك الميتاني الكبير ، أي ما كان شوبيلوليوما قد حال دونه في معاهدته مع متّي ـ وازا . أما فيما يتعلق بالحروب التوسعية لهذا الملك الآشوري فقد بدأها في عهد الملك الحثي مورشيلي حيث زحف بجيوشه حتى وصل الفرات امام كركميش فوضع بذلك يده على كافة انحاء بلاد ما بين النهرين العليا ، التي شكلت لوقت مضى قلب الامبراطورية الميتانية . ولقد اعترف امينوفيس الرابع (اخناتون) بهذه الحقيقة في استقباله للوفود التي بعث بها اليه « اخوه » اشور ـ اوبليط . وفي المقابل لم تعد تجدي نفعا احتجاجات الملك الكاشي بورنا ـ بورياش الثاني ضد ما اسماه بتجاوز اتباعه الآشوريين لصلاحيتهم . ولا غرابة في ذلك طالما انهم لم يجلبوا معهم الى بورنا ـ بورياش واولاده سوى الحرب والمصائب وفقدان الاستقلال.
لقد بدأ ذلك بزواج ابن بورنا ـ بورياش من احدى بنات اشور ـ اوبليط واعترافه بنفس الوقت بحماية اشور ـ اوبليط كسيد له . وما كادت تمضي سنة واحدة على ذلك حتى اندلعت حركة كاشية مضادة قضت على صهر اشور ـ اوبليط ، فاتخذ منها الملك الآشوري سببا مباشرا للزحف على بلاد بابل . وبعد ان تم ذلك فعلا قام اشور ـ اوبليط ونصب هناك ابنا ثان لـ « بورنا ـ بورياش» ملكا على بابل وهو كوريجالزو الثاني الذي لم يبلغ

سن الرشد بعد • ولقد استطاع اشور ـ اوبليط عن طريق هذا الملك الطفل الاحتفاظ بسلطته المطلقة اربع سنين متواصلة على بلاد بابل الكاشية •

واذا ما كنا نسمع أيضا ان اشور ـ اوبليط قد ضم الى امبراطوريته بلاد موزري ، التي يعتقد انها كانت تقع اما في حوض الفرات الاعلى أو على نهر الزاب في المنطقة الآشورية ، يبدو كذلك ان اللقب الذي أطلقه على نفسه أيضا وهو « والي إلـّيل » محقا ، خاصة اذا ما كنا نعلم ان إلـّيل يقلد الحكم الى الملوك ولجميع البلدان • ولم يوجد عدا هذا الملك في عالم الشرق الأدنى من يُستطاع تسميته بحق أخ الملك الحثي الكبير والحاكم المصري •

لقد قـُدِّر لمـا قدمه اشور ـ اوبليط لبلاد الآشوريين من خدمات في القرن الرابع عشر ق•م ان يتكرر خلال المائة وخمسين سنة القادمة أي حتى حوالي ١٢٠٠ ق•م • عصر الزحف الشعبي الكبير على الشرق الأدنى ، كي تبقى الامبراطورية لحد ما متماسكة الاجـزاء • ان المهمة السياسية والعسكرية لخلفاء « اشور ـ اوبليط » و « إلـّيل ـ نيراري » وابن هذا إيريك ـ دينيلي وكذلك « حـدد ـ نيراري الأول » و « زلما ـ نصّار الأول » وفي الختام أكبر حكام القرن الثالث عشر هو توكولتي ـ نينورتا الأول كانت تتركز دائما على غزو وضم بلاد حانيكلبات ، كما اصبحت تسمى في هذا العصر المنطقة الميتانية ، الى الامبراطورية • ان هذا لم يتجسم بعد بالقتال ضد الشعب الحوري بقدر ما كان ضد الملوك الحثيين من حاتّوشيلي الثالث حتى توتحاليا الرابع الذين استمروا بلا انقطاع يمارسون سياستهم العدوانية ضد آشور بالاضافة الى تحالفهم مع بلاد بابل الكاشية • ان عليهم طرد الجيوش الآشورية من على شط الفرات بالقرب من كركميش ، اذ ما قـُدر لهم الاحتفاظ بقوة نفوذهم في شمال بلاد الشام • ولو ترقبنا هذه الفترة المهمة من التاريخ الآشوري لوجدنا حظ السلاح قد تقلب كثيرا بالنسبة للآشوريين ، اذ اضطروا أكثر الاحيان التنازل عما قوتل من اجله بمرارة • الا ان الامر الذي اتصف بصعوبة جمة هو شل القوة البطولية للشعب

الآشوري القليل العـدد . فبالرغم من تلك النكسات المتتالية التي اصابت الشعب الآشوري نجد ان هـذه القوة قد عظمت خلال السنين القـادمة بدل أن تنهار نهائياً . لم يعترف ملوك الحثيين والمصريين والبابليين الا مكرهين بلقب شرف « الاخ » للملك الآشوري الصغير . وذلك لعدم استطاعة هؤلاء في الختام غض النظر عن هذه الحقيقة ولو كانت مـُرة بالنسبة لهم . فمن بين المناضلين الكبار على العرش الآشوري نرى الى جانب « حدد ــ نيراري الأول » و « زلما ــ نصَّار الأول » نجد ان توكولتي ــ نينورتا الأول اكثرهم تحمسا وتطرفا . لقد كانت صفات هذه الملك الشخصية تـُعد من بين الطباع ، التي تعتقد ان بقدرتها ليس فقط التحكم بالأشياء المادية بل أيضا بقدرتها على التصرف حتى بملكيتها للأرواح واستطاعتها اكراههـا على السير في مدارها . لقد قام هذا الملك مثلا بتهجير ثلاثين الفا من سكان بلاد حثي من ضواحي كركميش الواقعة على ضفة الفرات الاخرى الى الاراضي الآشورية ووطنهم هناك . كما اعتقد ايضا ان باستطاعته بعد غزوه لبابل أن يعيد غرس روح هذه المدينة بنقل تمثال اعظم قوة لها ، تمثال الإله مردوك من معبده ايزانجيلا الى بلاد آشور .

ليس هناك من قوة تبقيه في مدينة آشور العاصمة القديمة للامبراطورية والتي شكلت المنطلق الأول لتأسيس الامبراطورية الآشورية حيث تقع في اقصى بقعة في جنوب وطن الآشوريين الاصلي ، معرضة نتيجة لهذا الموقع الجغرافي الى ضغط الحضارة البابلية العريقة القدم والمتفوقة عليها في كافة المجالات . ولذا فقد أسس توكولتي ــ نينورتا كأول حاكم آشوري مقرا جديدا له وهو قار ــ توكولتي ــ نينورتا مع قصر ومعبد على الشاطيء الآخر لدجلة مقابل مدينة آشور . ويرينا ذلك القليل مما نعرفه من فن العمارة والرسم على الجدران وكذلك تلك البقايا من فن نحت الاختام لهذه الحقبة ، بأن الآشوريين قد استطاعوا الآن ايجاد اسلوب خاص لهم في فنهم سواء أكان في المعنى أو في الشكل . كما وتعطينا قبل كل شيء الاختام الاسطوانية الصغيرة وطبعاتها

على الرقم الطينية فكرة عن تنوع المواضيع وكيفية رسمها التي تحمل ، حتى في نسب صغر حجم فن الاختام ، الصفة الآشورية المتميزة بصلة الوصل بين النعومة في التفاصيل الدقيقة والقوة الخارقة للأشكال المرسومة •

لقد رأى توكولتي ـ نينورتا الأول بعد قهره العسكري لاعدائه ان احدى مهامه الرئيسية تنحصر بلا شك في خلق فن امبراطوري آشوري خاص كتعبير عن سلطته السياسية وكذلك في استقلال الحضارة الآشورية الفنية عن التقاليد الحورية ـ الميتانية وبالتالي عما هو مأخوذ من التعاليم الدينية والآداب البابلية •

ومن ناحية أخرى فبقدر ما كان سهلا على توكولتي ـ نينورتا الأول القضاء على اعدائه في ساحات القتال كان من الصعوبة عليه من جهة ثانية تحطيم الكابوس الروحي لبلاد بابل على آشور • ومن الممكن أن يكون موقف توكولتي ـ نينورتا المعادي السبب الذي دفع بالدوائر المناصرة لـ «بابل» ولـ «مردوك» في نفس بلاد آشور لتعلن العصيان ويندلع التمرد ليضع نهاية مفجعة لحياة هذا الملك •

وهكذا انشق الشعب الآشوري على نفسه داخليا في موقفه من الشعب البابلي وذلك بما يشبه تلك الحالة التي عاشها الشعب الروماني في موقفه من اليوناني • لقد رأى الآشوريون انفسهم مضطرين من جهة أن يحكموا عسكريا وسياسيا جيرانهم المتفوقين بحضارتهم العريقة ، نجدهم قد شعروا من جهة أخرى بضرورة اكتساب المدنية البابلية ، اذا ما أرادوا الاحتفاظ بسلطتهم على تلك الشعوب المغلوبة على أمرها • ولذلك نرى منذ عهد اشور ـ اوبليط تغلغل اللغة البابلية الدائم في لغة الآشوريين وخاصة في الكتابات الملكية وفي الشعر وحتى في لغة الوثائق اليومية العادية تماما على نقيض تلك الحروب الآشورية المتواصلة ضد بابل • اما الاهم من هذا هو انه كما حدث في روما تقارب ومن ثم اتحاد بين عالم الآلهة الخاصة بها وعالم الآلهة اليونانية ، كذلك اخذت آشور تدريجياً بتفسير آلهتها

الخاصة بالآلهة البابلية السومرية • حتى لقد قدم توكولتي ــ نينورتا الأول ، عدو بابل الكبير ، الدفعة الأولى لهذه الحركة عنــد قيامه بوضع آشور ، إله الامبراطورية الآشورية ، بمنزلة تساوي تلك التي لـ « إنّيل » رأس مجمع اللاهوت السومري ــ البابلي •

أما فيما يخص المجالات الحضارية الاخرى فقد كانت بلاد آشور اكثر تحررا في جوهرها من الجنوب ، وهذا ما يقودنا الى الاعتقاد بأن الآشوريين كانوا منذ البدء اكثر عبقرية في هذه النواحي من الجنوب • كان لبلاد آشور منذ تحريرها من السلطة الميتانية طابعها الخاص وباعها الطويل في الابداع في الفن التصويري مثلا وبصورة خاصة في مجال الرسم المسطح بكافة انواعه والرسم الملون على الجدران والافاريز الحجرية المنقوشة والحفر على الاختام الاسطوانية • ولو ان ليس هناك مجال للشك ، ان العالم الحوري قد اعطى بلاد آشور الشيء الكثير ، على الاقل فيما يخص المواضيع التي يعالجها الرسم، فلن الفنان الآشوري قد سبق قدوته الأولى وطغى عليها جودة في العمل وغنى في الابداع وكذلك في قوة وقدرة التعبير عن الاشكال المرسومة •

الا ان الدولة الآشورية والمجتمع الآشوري قد ارتبطا في تطورهما بعد الخلاص من الحكم الميتاني في عهد الحكام الكبار من اريبا ــ حدد حتى توكولتي ــ نينورتا الأول ، وذلك بما كان قد اصطحبته معها الشعوب الجبلية وطبقتها الخيالة الحاكمة الى أرض الشرق الأدنى أكثر من تأثرهما بما اقتبساه من العالم البابلي القديم ذات الطابع التجاري • فبالنسبة للقانون كان ينقص الانسان الآشوري لهذا العهد حدة التفكير القانوني الدقيق الذي برع به البابلي • فليس لدينا مثلا مما يسمى بكتاب القانون للعصر الآشوري الوسيط ، الذي يُعتبر من أهم البقايا التاريخية الحضارية سوى فقط بعض الرقم الطينية ُوجد معظمها في حالة رديئة • ان أفضلها وضعا هو ذلك الرقيم الذي يعالج الوضع الحقوقي للنساء • انها ترينا بكل وضوح التبعية في أسلوبها ومحتواها ، اذا ما قارناها مع قانون حمورابي • فما يتضح حتى

للشخص غير المختص ، هو عدم الدقة في تركيب التعابير الحقوقية من جهة والقسوة في فرض الاحكام من جهة أخرى • وبذا تشكل هذه النقطة الاخيرة بالذات تناقضا صريحا مع القانون الحثي ، الذي يركز مفهوم العقوبة على مبدأ التعويض للمتضرر (راجع ص ٢٢٤) •

ان الآمر في دولة ومجتمع الآشوريين هم اشراف الأرض المحاربين • وبذا يختلف الأمر تماما عما هو عليه في المجتمع البابلي ، حيث احتل فيه المناصب القيادية كل من الكاهن والتاجر وذلك حتى بعد غزو الكاشيين للبلاد • ولقد بدلت الطبقة الآشورية العليا خصائصها بشدة بعد فقدانها من جهة للمستعمرات التجارية في شرق آسيا الصغرى التي كانت ما تزال حتى لعصر زارجون الأول الآشوري تشكل القوة الاقتصادية للدولة ، ومن جهة أخرى وقبل كل شيء باختلاطها مع الخيالة الحوريين • وبهذا فقد ضعف مركز التجار الكبار ليحل فيه محلهم رجال الاقطاع والعائلات الشريفة التي كانت تقدم عند الحرب محاربي العربات ، الذين كانوا يشكلون الفرق الرئيسية الهامة في جميع العمليات الدفاعية والهجومية • ان قائد فئة الخيالة هذه هو الملك الآشوري ، الذي كان مركزه فيهذا الوقت لايختلف عن الملك الحثي أو الميتاني ، الذي كان يحتل مركز الصدارة بين نظائره من الاشراف • الا انه يعود ليستأنس برأي كباره ، بالرغم من استقلاله في اتخاذ القرارات •

ولو أخذ الملك الآشوري لنفسه بدخوله مصاف الملوك الكبار ، اللقب السومري ــ الاكادي القديم « ملك الجميع » و « ملك الجهات الأربع » ، الا ان طبيعة منصبه تغيرت تغيرا تاما بالنسبة لشعبه عما كانت عليه مثلا في عهد شمشي ــ حدد الأول • فلم يكن الحكام الآشوريون في العصر الآشوري الوسيط نوابا تيوقراطيين للاله كالملوك السومريين ولا حتى آلهة على العرش كالأمراء الاكاديين الكبار ، الذين جعلوا العالم خدما لهم • بل رأوا في أنفسهم بالدرجة الأولى قواد جنود آشور ، يقاتلون من أجل نشر الحق الإلهي • ولقد وصلتنا اعداد كبيرة من قطع لملحمة آشورية من العصر

الوسيط تطرق موضوعا تاريخيا ـ سياسيا ، اذ تصور لنا الملك الآشوري كبطل وهو في مقدمة رجاله ، تصويرا لا يختلف عن الوضع الذي يقابلنا فيه الملوك الهومريون في الالياذة . انه لا يمكننا تصور هذا المفهوم للملكية الآشورية ، الذي لا يشكل الا احدى مفاهيمها الكثيرة سوى باتخاذنا الحاكم الميتاني صورة له وهو بين دوائر فرسانه الـ « ماريانو » . ان هذا ليس إلا ذلك المفهوم الذي انبثقت عنه فكرة الامبراطورية الآشورية العالمية . ويكفي سرد بعض المقاطع من هذه الملحمة لتحدد لنا المعالم الفكرية لهذا العالم الآشوري :

« لقد تبع جنود آشور الدعوة ليقاتلوا وهم يرون الموت في الاعين . انهم يتطلعون الى عشتار راجين رحمتها ، ويمجدون السيدة في معمعة القتال . انهم لمليئون بالحقد والعداء كجوهر إله العاصفة المتقلب ويندفعون بشراسة في حومة الوغى عراة الجزع ، انهم ليكشفون الصدور ، يمزقون الثياب ويجدلون شعرهم ويلوحون بالحراب ... ، لقد رقص الرجال الاشداء الاقوياء في لعبة السلاح الفتاك » .

الفصل السابع

الشرق الأدنى في زوبعة اخرى من الهجرات البشرية الجديدة

لقـد كان العالم المتمدن من النيل الى الفرات قد انتظم حتى حوالي عام ١٢٥٠ ق٠م في ثلاثية كبيرة ، ثلاثية لم تستطع قط حتى ذلك الوقت ان تبلغ هذه الدرجة من التماسك الذي حوفظ عليه ووجّه من قبل ثلاث حكام كبار هم : « رعمسيس الثاني » ، و « حاتّوشيلي الثالث » و « توكولتي نينورتا الأول » ٠ وقد جاور هذه الكتلة من الغرب العالم الميكيني المتأخر الذي بدأ ببطء يركز نفسه كما وحدّها من الشرق « العيلامية » ، التي اخذت تعود بعد قرون من التأكد[1] الى قواها الخاصة ٠

وبعد سنوات قليلة من عام ١٢٥٠ ق٠م ، وقبل نهاية القرن الثالث عشر ق٠م لم يبق سوى انقاض هذا الصرح الضخم الذي لم تتمكن انسانية العالم المتمدن تشييده الا بعد صراع مرير دام مئات السنين ٠ اذ فبعد أن وجد عالم الشرق الأدنى أخيرا السلام الداخلي ، قدّر له أن يغمر بفيضان كاسح وأن يمسح نهائيا على يد هجرة موجات شعبية جديدة قذفت بها اسرتا الشعوب الكبيرتان الهنود الغربيون والساميون ، اللتان كانتا قد غيرتا معالم الشرق الأدنى في النصف الأول من الألف الثانية ق٠م ، قذفت بها الآن أيضا على شكل دفعات جديدة من قبائلها الى هذا الجزء من العالم منطلقة من مركز منطقتها الخصبة ٠ وكان أول عمل قامت فيه بادىء الامر أن قضّت مضجع مراكز القوى الحثية والمصرية والآشورية أو على الأقل اكراه بعض هذه القوى إلى الانحسار والتراجع الى قلب بلادها ٠

(١) التأكد : اي التأثر بالاكادية دما وحضارة .

آ ــ الشعوب البحرية ــ الفريجيون والفلسطينيون

بينما كان ضغط الهنود الغربيين على الشرق الأدنى عند زحفهم الأول عليه قبل ١٥٠٠ ق٠م قد جاء على الارجح من الشمال الشرقي ، نجد سيلهم الآن يكتسح كل شيء امامه آتيا من الغرب والشمال الغربي ، الا انه علينا الافتراض انهم قاموا هذه المرة أيضا الى جانب ذلك بخطوة من الشرق على بلاد ما بين النهرين ٠ اذ ان الميديين والفرس ، الذين بدأوا حوالي ١٠٠٠ ق٠م يؤثرون بشكل جـذري على مجرى الحوادث التاريخية في الشرق الأدنى يجب أن يكونوا قد دخلوا موطنهم الجديد في غرب ايران قبل بضع مئات من السنين ٠ الا انهم لم يكونوا بعد بادىء الامر اولئك الذين حطموا الامبراطورية الحثية حوالي ١٢٠٠ ق٠م واستوطنوا من جديد قلب الاناضول وغربه كما فعل الفيكنجيون الذين اشعلوا النيران من على سفنهم في سواحل آسيا الصغرى وبلاد الشام وحطموا السلطة المصرية في فلسطين وبلادالشام٠ لم تكن الهجرة التي هجمت خلالها الشعوب البحرية على مصر وبلاد الشام وبصورة خاصة هجرة الفلسطنين والذكريين منهم ، الذين غزوا الساحل الفينيقي من بلاد الشام ، سوى قسم لمد حركة هندية غربية كبيرة « تهلّن »[1] في مجراها كل البر وجزر اليونان بشكل تام ٠ وكمـا اتحد الليبيق مع الشارديين واللقيين والتوروشيين وشعوب بحرية أخرى ضد مصر ، كذلك حارب الآن الاعـداء المحليين للامبراطورية الحثية سابقا وبصورة خاصة الكاشكا مع الفريجيين والميزريين ، الذين اكتسحوا آسيا الصغرى قادمين من البلقان ٠ وبهذا اصبحت أهمية بلاد الاناضول لا تلعب بعد إلا دورا ثانويا بالنسبة لتاريخ الشرق الأدنى الحقيقي ، حيث أدارت هذه البلاد وجهها الآن

(١) تهلّن : اي تأثر بالهللينية دماً وحضارة ٠

نحو الغرب على يد الفريجيين ، أهم شعب هندي غربي ، الذي تبوأ الخلافة على انقاض الامبراطورية الحثية .

أما اولئك الهنود الغربيون الذين فاقوا سواهم سرعة باتجاه الجنوب فهم على الأرجح الفلسطينيون الليريون ، الذين لا بد أن يكونوا قد جعلوا قبل ذلك من جزيرة كريتا محطة لهم ، فقد دحروا مع غيرهم من القبائل المتجولة والمتحالفة معهم من قبل رعمسيس الثالث في معركة فاصلة في البر وعلى البحر ، فحال بذلك دون زحفهم خارج بلاد الشام . وبعد ذلك عاد هؤلاء فحطوا رحالهم في السهول الساحلية للجزء الجنوبي من الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط فاستوطنوها واعطوها منذ ذلك الوقت اسمها الحالي « فلسطين » . ولما لم يحصل هؤلاء على مد شعبي جديد مستمر نجد ان القوة الكافية لم تتوفر لديهم بالمقابل ليؤثروا تأثيرا واضحا بالكنعانيين الساميين سكان البلاد الاصليين . بل بالعكس لم يدم الأمر طويلا حتى انحلوا في هؤلاء عرقيا وحضاريا . أما فيما يتعلق بلغتهم فاننا لا نعلم شيئا عنها حتى الآن . وبالمقابل يمكننا أن نتصور منظرهم الخارجي انطلاقاً مما خلفه لنا المصريون في فن رسمهم : يتميز محاربوهم بتاج مزين بريشة يغطي رؤوسهم . انها لعلامة غالبا ما توجد في رمز كتابي لنوع من الكتابة خاصة في فياتوس (كريتا) التي لم تفك رموزها حتى الآن . وبصورة خاصة تؤكد هذه الريشة بالذات على الارجح ارتباط الفلسطينيين بكريتا . كما ومن الممكن أن يكون هذا التاج ذو الريشة العنصر الذي يفسح لنا بالذات المجال لتتبع اصل الفلسطينيين القدماء عن طريق الدوريين الذين يمكن أن يكونوا اقرب الناس اليهم ومن هؤلاء الى الشعب الليري الهندي الغربي . ولقد بلغ الفلسطينيون من الأهمية التاريخية درجة كبيرة لكونهم قد شكلوا القطب المضاد لاولئك الاسرائيليين الذين نزحوا من الشرق في عصر الفلسطينيين ليصطدموا بهم . لقد أخذ الفريقان ، الفلسطينيون واليهود ، يمارسون منذ الآن دق اسفين التفرقة بين مصر وبلاد ما بين النهرين ، فقسم بذلك الشرق

القديم من جديد الى مناطق محلية سياسية وفكرية . وكما تحدثنا التقارير المكتوبة التي خلفها لنا رعمسيس الثالث على ابراج الزوايا واعمدة المعبد في مدينة حبو ، ان الشعوب البحرية الغازية قد دمرت بالاضافة الى هذا كله المستعمَرة الحثية كركميش ومعها الدولة الاموريّة التابعة التي تقع في وسط بلاد الشام . ولقد كشفت التنقيبات الاثرية في اوغاريت (رأس الشمرا) ، المركز التجاري الكبير في الجزء الشمالي من ساحل بلاد الشام ، للمنقبين آثار الهدم والتخريب العائدة الى سنة ١٢٠٠ ق.م . وكما أصبح قلب البلاد الحثية الاصلية في الاناضول ومستعمراتها في بلاد الشام غنيمة للغزاة ، كذلك كان مصير الارض الميتانية السابقة فريسة للقبائل السامية المتجولة والغازية القادمة من الغرب والجنوب . ولقد ذكر تيغلات ـ بيليزر الأول ان عشرين الف موشكي ، احدى قبائل آسيا الصغرى ، قد دخلوا بلاد آشور من حدودها الشمالية ووصلوا حتى حوض دجلة الاعلى وذلك قبل خمسين سنة من حكمه أي حوالي ١١٠٠ ق.م. وذكر أيضا انه اضطر الى القتال ضد قبائل الكاشكا التي وصلت في تغلغلها الى هذه المنطقة ايضا .

ب ـ الفينيقيـــــون

استطاع الشعب الفينيقي التجاري والبحري خلال كافة هذه الهزات الصمود في مدن جزره وسواحله اكثر من أي شعب آخر • فبعد أن صرع رعمسيس في بلاد الشام تلك القبائل المتجولة استطاع هذا الشعب استغلال الوضع المناسب في البر وعلى البحر لنفسه • واقيم عدد من دويلات المدن لكل ملكها ويتصدرها مجلس مؤلف من التجار والاشراف ، كما بلغ بقيادة مدينة صور قوة بحرية سيطر بها على البحر الابيض المتوسط • هذا ولقد أصبح الصيديون ، كما يسمي كافة الشعب الفينيقي نفسه نسبة الى مدينة صيدا ، بالرغم من دورهم الثانوي نسبيا في مساهمتهم في حقل الاهمية الحضارية لعالم الشرق الأدنى أصبحوا بواسطة نشاطاتهم التجارية ولحد ما بواسطة مستعمراتهم على الجزر وسواحل البحــر الابيض المتوسط حتى تارتيسوس في شــرق اسبانيا حقيقة تاريخية ذات وزن عالمي • الا انه من الصعب جــدا التحديد في هذا المجال ما هو الأهم أهو تأثير الناحية المادية أم الفكرية في نقل عالم وافكار الشرق الأدنى القديم الى العــالم الغربي الذي كان ما يزال في طور النمو •

ج ـ الاراميـــــون

في الوقت الذي تدفق فيه سيل القبائل الهندية ــ الغربية ومعها قبائل آسيا الصغرى بشكل مركز على الشرق الأدنى نرى وحدات سامية بدوية جديدة التي اعتاد المرء ان يطلق عليها اسم الآراميين ، تقابلها في التغلغل منطلقة من مركزها في الصحراء العربية متشعبة كالشعاع في كافة انحاء المنطقة الآهلة بالسكان التي تمتد من بلاد الشام الى أعالي بلاد ما بين النهرين وبلاد بابل حتى الخليج العربي ومنطقة شرقي دجلة •

لقد شكا حتى حاتثوشيلي الثالث في احدى الرسائل الى كاداشمان ــ إنّيل الثاني ، من ان الاحلاميين قد هددوا سلامة الطرق ، كما وقد اتى على ذكرهم أيضا « حدد ــ نيراري الأول » و « توكولتي ــ نينورتا الأول » في القرن الثالث عشر ق•م • وكان أول من وجب عليه الزحف لحربهم هو تيغلات ــ بيليزر الأول حوالي ١١٠٠ ق•م • انه يتكلم لأول مـرة عن الاحلاميين الآراميين ممـا يدل على ان ليس جميع الاحلاميين آراميين • كما يحدثنا انه قذف بهم الى ما وراء الحدود حتى كركميش في أعالي الفرات وحتى تدمر (بالميرا) ، الى مدينة النخيل عنات في أواسط الفرات ، وحتى رابيقو على حدود بلاد بابل • بيد ان هـذه الضربات الشديدة للجيش الآشوري ضد الآراميين ذهبت هباء منثورا ، كما هي الحال أكثر الاحيان في محاربة القبائل البدوية ، مما دفع بـ « تيغلات ــ بيليزر » لأن يزحف ضدهم للمرة الثامنة والعشرين حتى ما وراء الفـرات • بيد انه لم يكد يدير ظهره لهم عائدا الى بلاده ، حتى كان يرى الآراميين يتبعونه مرة أخرى الى البلاد محاولين الاستيطان هناك • الا انهـم لم يصطدموا أثناء ذلك في كل مكان بتلك المقاومة العسكرية القوية ، التي استطاعت بلاد آشور ، التـي ما زالت محكمة التنظيـم ، مقابلتهم بهـا رغم هجـرة الشعوب

والهزات التي حدثت في هذه المنطقة • بغض النظر عن نيبوخذ ــ نصّار الأول في منتصف القرن الثاني عشر ق•م • فلم يوجد بعد ١٢٠٠ ق•م شخصية حاكمة ذات أهمية على العرش في بلاد بابل • وهكذا وجد الآراميون منذ نهاية عصر تل العمارنة المجال مفتوحا أمامهم للاختلاط بالسكان على الخليج العربي بطريقة سلمية ، تماما كما فعل اسلافهم الساميون الغربيون والاكاديون قبلهم بقرون زمنية عديدة • وعلى هذا ظهر حتى في النصف الأول من القرن الحادي عشر ق•م احد الآراميين هو حدد ــ أبال ــ إدّينا الذي استطاع أن يحكم ٢٢ سنة وأن يزوج ابنته حتى لمعاصره الملك الآشوري اشّور ــ بل ــ كالا الابن الثاني لـ « تيغلات ــ بيليزر الأول » الكبير ولو كان قد اقترن هذا بهبة كبيرة منه لابنته • وبذا بدأ « تأريم »[1] بلاد بابل يتخذ مجراه المتواصل من الآن فصاعدا بطرق سلمية •

ولقد بحث الفائض من السكان الآراميين عن سبيل آخر يجدون فيه المقاومة الضعيفة ضدهم فكان هذا في اتجاه الشمال والشمال الغربي ، أي ضد خلفاء الحثيين من الدويلات في بلاد الشام وبصورة رئيسية اموروّ وكركميش وكذلك ضد تلك الامارات الكثيرة التي نشأت منذ ١٢٠٠ ق•م• فبالرغم من انهم لم يستطيعوا حتى لوقت طويل « تأريم » كركميش إلا انهم قاموا مقابل ذلك بتأريم ضواحيها • ففي قلب هذا العالم الحوري ــ اللوفي المحلي لشمال بلاد الشام ، الذي أصبحت فيه الآن ولأول مرة الكتابة الحثية التصويرية تستخدم الى جانب الفينيقية والآرامية نرى فيه الآراميين يحتلون الحصن تلو الآخر • ويبرهن على هذه العملية نتائج الحفريات في شمأل (زيند شيرلي) وفي ساقة شي كوتزي وفي مرعش وفي مالاتيا • وبذلك فقد استطاعت الآرامية خلال ٣٠٠ حتى ٤٠٠ سنة الانتصار في كل مكان في هذا العالم ، وختاما في حماه ودمشق ، بينما نجد الغلبة في قره‌تبه (كيليكيا) الى التأثير الفينيقي على الآرامي •

(١) تأريم : اي التأثر بالآرامية دماً وحضارة .

والى القليل نحو الشرق ، الى الشمال من نهر الفرات ، استطاع الآراميون حتى من تأسيس اتحادات من دول تُعتبر لحد ما خليفة الامبراطورية الميتانية مثل بيت ـ اديني وبيت باحياني في أعالي ما بين النهرين • حتى لقد حاول الاتحاد الأخير (بيت باحياني) باقتباسه اسم حانيكلبات ، الذي يعني حتى منذ أيام توشراتّا معنى « الميتاني » ، أي احياء التقاليد والمجتمع الحوري •

د ـ العبريـون

تعتبر اساطير[1] التوراة الآراميين اقرب اقرباء العبريين • وبالرغم ان استيلاء العبريين على الاراضي في فلسطين لا يعد جزءا من الهجرة الآرامية الكبيرة ، الا انه لا يخرج عن كونه حركة من جمـاعات الصحراء رحلوا عنها في نفس عصر هذه الهجرة الكبيرة والتي ترتبط في حد ذاتها بادىء الأمر معها أيضا • وفي نفس مراسلات العمارنة التي ذكر الآراميون فيها ولأول مرة ، يصادفنا ايضا اسم الحابيرو الذي نجده كذلك في نصوص ماري العائدة الى حوالي ١٧٠٠ ق•م كفئة معينة من الجنود لم يختلف اسمها على الارجح عن اولئك العبريين الذين ذكرتهم التوراة • واذا نظرنا الى هؤلاء من الناحية العرقية ، وجدناهم ، كما يُعتقد اليوم على الغالب ، لا يشكلون ذلك الشعب ذا الخصائص العـرقية الموحدة وانما عبـارة عن اتحاد من عصـابات اللصوص الصحراوية التي بدأت حوالي ١٤٠٠ ق•م تنجه الى الارض الكنعانية على الأردن • اما الذي يرجح هذه العلاقة فهي تلك الحقيقة انه يصادفنا في نصوص ماري قبيلة تدعى بينو ــ يمين (ابناء الجنوب) التي لم تحمل فقط بالصدفة نفس الاسم الذي اطلق أيضا على تلك القبيلة في عصور احدث وهي قبيلة بن ــ يمين بالقرب من القدس • ف « بينو ــ يمين » رعوا قطعانهم الى الجنوب من حرّان وهذا ما يمكن أن يتفق جدا وتلك الاساطير التي تحدثنا ان الموطن الاصلي لابراهيم هو حرّان • واذا افترضنا ان الحابيرو والعبرانيين من اصل واحد ، فانه لا يمكننا فصلهم عن قبيلة اسرائيل التي ذُكرت على مسلة النصر التذكارية للملك المصري مير ــ نيبتاح

(١) لا يمكن الاعتماد من الناحية العلمية على هذه الاساطير ، اذ برهنت الابحاث الاثرية على عدم صحة اكثر الاساطير التي وردت في التوراة . كمـا وهناك ابحاث تبرهن عكس هذه الاساطير التي تقول بقرابة الآراميين والعبريين.

قبل ١٢٠٠ ق٠م بزمن قصير ٠ ولو ان طلائع الرحالة الجديدة التي وجدت الطريق مفتوحة امامها بعد سقوط الامبراطوريات الكبيرة حوالي ١٢٠٠ق٠م لم تستطع الا بعد وقت طويل من الاستيلاء على المدن والوديان الكنعانية بسبب الدفاع المستميت لاصحابها عنها الا انها تمكنت من تأسيس مركز لمنطقة استيطان لها وذلك عن طريق قلع اشجار واحراج منطقة كانت تكاد خالية من السكان ، منطقة غنية بالغابات على ظهر جبل «الخليل» حيث شيدت هناك معبدا رئيسيا لالهها يهوه في بيت إيل ٠ وانطلاقا من هذه المنطقة يجب أن يكون الاسرائيليون قد توسعوا وانتشروا في مناطق سكناهم الاخيرة وانقسموا الى منظمات قبلية مختلفة ٠ ولم يخرج عن هذا الطريق سوى القبيلتين الجنوبيتين يهودا وسيمون ، اللتين لم تنشأا من الانقسام الذي حصل قبل ذلك في « الشعب » العبري وإنما نشأتا مستقلتين تماماً عن القبائل العبرية الأخرى ٠ غير أن وحدة الشعب العبري تجسمت لكن في الاسم المشترك وفي شعوره بـ « الأصل » المشترك وفي النضال المشترك ضد السكان الاصليين الكنعانيين وقبل كل شيء في الهه المشترك ، الذي قاده في غزوه لأرض كنعان ٠ وهكذا وجب على القبائل — أو أكثرها على الاقل — التعاون مع بعضها البعض في النهاية ، اذا ما اريد لها أن تربح المعركة الفاصلة ضد الكنعانيين ٠ وبذا لم يستطع الناس الرحل من العيش باستمرار على الجبال ، في الوقت الذي بقيت فيه المدن القديمة في البلاد في أيدي الكنعانيين ٠ وعندما حاول هؤلاء احد الأيام قذف الدخلاء خارج البلاد، كانت بمثابة الاشارة الى ان عليهم القتال سوية مجتمعين ضد العدو المشترك وهو الشعب الكنعاني ٠ ومن هذا الوقت المليء بالصراع وصلتنا اقدم وثائق التوراة وهي انشودة دبّورة ٠ فبقيادة زهيرين دبّورة وياراك بن ابينوام صرعت طلائع جيوش قبائل عديدة الجيش الكنعاني بقيادة سيزارا الذي جرف نهر قيسون قسما من عربته الحربية اثناء عاصفة قوية ٠ وبعد ذلك اغتيل سيزارا على يد امرأة بدوية ، بينما كان يشرب صحنا من الحليب قدمته لـه :

« لقد اتى ملوك للقتال »
« حيث ناضل ملوك كنعان »
« بالقرب من تانك على مياه مجدو »
« الا انهم لم يحصلوا على الفضة» (ـ اشارة الى عدم ربحهم المعركة)
« فالنجوم تصارعت في كبد السماء »
« اذ تصارعت في مدارها مع سيزارا »
« وعركت اقدام الخيل الارض »
« في صيد الابطال الصيادين »
« وهناك التهمهم نهر قيسون »
« النهر المقدس ـ نهر قيسون »

ان اندحار ومصرع سيزارا وانشودة دبورة التي تمجد اندحار الكنعانيين يجب أن تعود الى القرن الثاني عشر ق٠م الوقت الذي فقدت معه مصر كل ارض كنعان ٠ فبالرغم من ان النصر الذي احرزته القبائل الاسرائيلية لم يكن يشكل عند المعاصرين سابقا قيمة كبيرة في الاطار العام لاحتلال الاراضي الزراعية حول صحراء بلاد الشام من جانب قبائل جديدة فتية ، إلاّ انه قدر لهذا النصر أن يكون ذا تأثير كبير على مجرى التطور للعصور التاريخية القادمة ومن ناحية اخرى لقد وجب على هذه القبائل القائدة الاستسلام الى تلك الحضارة الكنعانية العالية ٠ اما في المجال الديني فانهم قد طوروا تعاليم يهوه وحافظوا عليها مع تأثرهم بطقوس العبادات المحلية ٠ وهكذا رأوا في يهوه ، أي في إله النار السينائي ، الذي يتأرجح في سحابة من الدخان ، كلّ قوى الآلهة المحلية ، هو إلوهيم ، الذي رأوه جامعا لسائر القوى الإلهية متقمصا سائر الصفات ٠ كما وجدوا فيه فضلا عن ذلك احتفالهم البدوي ، أي عيد تضحية الخراف « البساح » مع عيد بدء الحصاد الكنعاني الذي يأكل فيه المرء خبز شعير غير مخمر ٠ ولكن حتى انبثق عنه عيد المنقذ ، عيد الانسان الإله المبعوث المسيح ، وجب أن ينقضي اكثر من الف سنة من الزمن ٠

هـ ـ عيـلام

كما أفسح المجـال في القسم الغربي من الشرق الأدنى لتتفتح بذور دويلات صغيرة وشعوب وافكار جديدة بسبب خفة شدة كابوس اليد الحديدية للدول العظمى ، بدت أيضا بلاد عيلام على الهامش الشرقي لعالم الشرق الأدنى القديم تتنفس الصعداء فقط في الوقت الذي اخذ فيه الضغط البابلي الشديد والحكم الآشوري عليها يضعف اثر فوضى عام ١٢٠٠ ق•م•رفبعد أن طورت عيلام صناعة خاصة من الصور البرونزية المجسمة في عصر الحاكم المشهور اونتاش ـ خوبان (اونتاش ـ جال) في النصف الأول من القرن الثالث عشر ق•م• التي نستطيع الحـكم عليها انطلاقا من تمثال زوجتـه نابير ـ ازو والتي لا يمكن أن تكون منفردة لوحدها في مجال الحضارة العيلامية ، وبعد أن وصل بناء المعابد قمته ، التي تستشف فقط من خـلال الكتابات ، وبعد أن بدأ اونتاش ـ خوبان كذلك بالتدوين بلغته الخاصة وبنوع خاص من الكتابة ، بعد كل هذا لم تستمر الحقبة العيلامية الكلاسيكية بالعيش مرة أخرى سوى فقط بعد ١٢٠٠ ق•م • وذلك في الوقت الذي وقفت فيه البلاد ليس فقط امام عدد من حكام بلاد بابل الضعفاء بل أيضا في وقت لم يتمتع به خلفاء توكولتي ـ نينورتا الأول الكبير في بلاد آشور بآية قوة تستحق الذكر • ففي عهد الملوك الثلاث الكبار لـ « أنشان » و « سوزا » شوتروك ـ ناخنُوتني وولديه « كوتير ـ ناخنُوتني » و « شيلخاك ـ إنشو شيناك » وصلت عيلام القديمة أوج قوتهـا ، التي تركت لنا نحن الخلف البرهان الساطع في الحقيقة ، ان مجموعة كبيرة من النصب التذكارية المهمـة للتاريخ الاكّادي ـ البابلي قـد وُجدت في سوزا ، حيث كان قـد نقلها شوتروك ـ ناخنُوتني كغنيمة الى هنـاك : مـن « اشنونا » و « زيبار » و « كيش » احضر تماثيل ونصب تذكارية وكودورو و ومن بينها نصب النصر

لـ « نارام ــ زِنْ » ونصب قانون حمورابي ، حيث اضاف علـى بعضها كتاباته الخاصة واعاد تنصيبها بالقرب من معبد الإله أنشو ــ شيناك في عاصمته سوزا • وبهذا فقد اكتسح ونهب القسم الأكبر من بلاد بابل • ولقـد أقال شوتروك ــ ناخّونتي في مدينة بابل الحاكم الضعيف زابابا ــ شوم ــ إدّينا واسند الحكم هنـاك الى ابنه كوتير ــ ناخّونتي وبالرغم من ان كتّاب التاريخ البابليين قد امتنعوا عن الاعتراف بذلك ، الا ان الخطوة التي قام بها شوتروك ــ ناخّونتي تلاءمت وتوازن القوى سابقا • وعندما وجب على كوتير ــ ناخّونتي أن يخلف والده في الحكم عـلى عرش « سوزا » و « أنشان » ، نقل معه كلا من مردوك من بابل واتّين من اوروك الى سوزا • ولما لم يدم حكمه سوى اربع سنوات فقط ، خلفه اخوه الاكبر شيلخاك ــ إنشوشيناك الذي استطاع كذلك لبضع سنوات أخـرى الحفاظ على مجد العظمة العيلامية الخاصة ، التي امتدت على الأقل حتى المنطقة الآشورية والبابلية والى القرب من العاصمة المتأخرة بيرزيبوليس حتى وصلت بلاد البحر على الخليج العربي أيضا • بيد انه وجب على هذه القوة أن تفسح المجـال الى محاولات جديدة تهدف تأسيس قوة كبيرة للشرق الأدنى بدأ بها مؤقتا ولآخر مرة نيبوخذ ــ نصّار الأول والتي اعتُمدت بعد ذلك من جـديد بتخطيط مُركّز من قبل الملوك الآشوريين •

ولو قُدر لنا أن نعلم في هذا العصر اكثر من ذلك حول تلك المناطـق الايرانية الواقعة في الشمال والشرق من عيلام لاستطعنا على الارجح تتبع قبيلتين هنديتين غربيتين تربطهما ببعضهما أواصر قرابة متينة وهما الميديون والفرس، خاصة عند استملاكهم للاراضي وطريقة استيطانهم، خاصة وانهم ذُكروا في وثائق كتابية تحدثنا عن اصطداماتهم مع الملوك الآشوريين وذلك بعد مائتي أو ثلاثمائة سنة من الآن كاتحادات منظمة في الشمال الغربي من ايران • ومما زاد في اهميتهم انهم لا يشكلون في هذه القرون الزمنية من التحول في الشرق الأدنى القديم فقط طامحا آخر يصبو لتبوؤ مركز القيادة العالمية، بل كانو أيضا قادة

مبشرين لتعاليم ديانة عالمية احتلت مكانها الى جانب العبرية ، واسسوا فيما بعد دولتهم على الارض العيلامية وفي القسم الغربي من ايران .

والآن نعود في النهاية فنعرض باختصار وضع عالم الشرق الأدنى القديم كما تطور خلال القرنين الاخيرين من الألف الثانية ق.م .

لقد قضي تماما على **السلطـة المصريـة** في بلاد الشام ولم تعد تعتبر حقيقة واقعة في تاريخ الشرق الأدنى القديم .

اما فيما يتعلق **بآسيا الصغرى** الى الغرب من جبال طوروس فكان مصيرها كالسلطة المصرية ، اذ انهارت نهائيا ولم يعد لها أي تأثـير على تطور تاريخ الشرق الأدنى .

وفي حين لم تبق **الامبراطورية الحثية** على قيـد الحياة سوى في بقـايا مستعمراتها في شمال بلاد الشام التي انحصرت في تلك الدويلات التي خلفتها هناك ، نرى حكم الكاشيين ، الذي خمل منذ وقت طويل ، يجد نهايته في بلاد بابل في هذا الوقت المتوتر . حتى ولم تستطع تلك السلالة الجديدة التي لقبت نفسها باسم مدينة إي ـ زِن° والتي أنجبت الحاكم المشهور نيبوخذ ـ نصّار الأول أن توقظ تلك البلاد من ثباتها جاعلة منها قوة سياسية حية لتأزم حالة البلاد حيث لم يعد بالامكان انقاذها .

اما بـلاد آشور فبالرغم انها قد فقدت السيطرة على المناطق خارج حدودها الاصلية في بلاد ما بين النهرين الا انها استطاعت بواسطة صفاء عنصر سكانها وقوة تنظيمها العسكري بادىء الأمر صد خطر الآراميين . ولقد وُجد لدى الآشوريين دائما وباستمرار حكام لم تحد اعينهم عن هدف تأسيس امبراطورية عالميـة .

وفي الختام لقد ابقت هجرتا الشعوب الكبيرتان ، الهنود الغربيون الذين قدموا من اوروبا واواسط آسيا قاصدين أرض الشرق الأدنى وهجرة رُحّل

البوادي الجدد ، رحل الصحارى العربية ـ الشامية المسمون بالآراميين واقربائهم ابقوا حدود الشعوب والدول مفتوحة على مصارعها • فالكل في حركة ديناميكية مستمرة وفي تحول اجتماعي بشري مضطرد • وهكذا نجد الانحلال والتفكك في دول عديدة صغيرة تتسابق فيما بينها وتقاتل بعضها البعض يحلان مكان اساليب النظم الاتحادية للدول الكبيرة : وهكذا نجد الآن البلاد الفلسطينية واتحاد القبائل العبرية واتحاد المدن التجارية الفينيقية وممالك الامارات الصغيرة في شمال بلاد الشام التي تختلط فيها من الآن فصاعدا اجناس من آسيا الصغرى وأخرى كنعانية وحورية وحثية وهذه كلها مع الآرامية وبالاضافة الى كل ذلك اقامة اتحاد القبائل الآرامية مثل « بيت ـ اديني » و « بيت ـ باخياني » في أعالي بلاد ما بين النهرين وكذلك بلاد آشور وبلاد عيلام •

وبالرغم من ذلك فقد قدر لهذه الحقبة من الانشقاق والانحلال أن تخلق بنفس الوقت القوى والامكانيات البدنية منها والفكرية مما تمكنت بواسطتها من تجميع ومن ثم توحيد عالم الشرق الأدنى القديم ، نعم حتى وأن تقود الى ذلك من تلقاء نفسها • والى جانب فكرة الامبراطورية العالمية القديمة ، التي استمرت تعيش في الدولة الآشورية وبالهها آشور تبرز قوة الشعب الآرامي المنسقة ولغته العالمية • كما ويقف بادىء الامر ومن وراء الستار الى جانب ذلك ، يقف الموجهون الفكريون « مردوك » و« آشور » و« يهوه السينائي» و « اهورا ـ مزدا إله الآريين » الذين قدر لهم مؤخرا ان يستميلوا قلوب العالم سواء اكان ذلك عن طريق سر الانغلاق والانكماش على النفس أو عن سبيل التسامح •

القسم الثالث

الصـراع حـول القيـادة السياسية والفكرية

الفصل الأول

١ ـ سلطة آشور العالمية

ا ـ مجرى الأحداث السياسية والعسكرية

في غمرة أحداث الهجرات الكبيرة للشعوب ، التي غيرت معالم الشرق الأدنى القديم ، في عصر تل العمارنة ، فجعلت منه خليطا من الدويلات الصغيرة ، كانت بلاد آشور حوالي ١١٠٠ ق٠م تحت حكم الملك تيغلات ـ بيليزر الأول ، الذي أعاد ولأول مرة ، فكرة أكّاد في حـكم العالم الى الحياة ٠ وكما حاول قبل ذلك شمشي حدد الأول، تطبيق هذه الفكرة ، ونقلها وتجسيمها في مدينة آشور ، كذلك قام توكولتي ـ نينورتا الأول خاصة بتطبيقها لتشمل كامل بلاد آشور ، التي تبدلت عرقياً واجتماعياً على يد الاحتلال الحوري لها ، وحصل ملكها في هذا العهد على اعتبار جـديد لشرعيته ٠ وكما هو الحال في الدولة الميتانية والامبراطورية الحثية ، فقد كانت البلاد الآشورية تحكم في هذا الوقت ، من قبل أمير ك « شريف أول » يقود مجموعة من الضباط الاقطاعيين ، وموظفين ذوي مناصب عالية في قلب البلاد ، دون أن يتأثر كثيرا بالأحداث التي شهدها الشرق الأدنى القديم عام ١٢٠٠ ق٠م لم يؤثر اغتيال توكولتي ـ نينورتا الأول ، الـذي كان على الأرجح نتيجة لخلاف في الرأي وقع بين الاشراف حول السياسة الآشورية تجاه بلاد بابل ، لم يؤثر على جوهر الدولة الآشورية وذلك مثل الهجرات الآرامية التي كانت تهدد هذه الدولة ٠ فبالرغم من أننا نستنتج من احدى الوثائق العائدة لعصر الملك الاسمي نينورتا ـ توكولتي ـ آشور (١١٥٣ ـ ١١٥٢ ق٠م) ، الذي نصب

على العرش من قبل الجناح البابلي في بلاد آشور ، أن الأشراف قد حصلوا منذ الآن فصاعداً على امتيازات خاصة ، حيث يؤكد ذلك ـ رسالة لملك بابلي الى الملك الآشوري متطرقاً فيها الى ذكر « ملوك محيطك » ـ بيد أنه لمن الممكن بل على الارجح ان يكون نفس هؤلاء الأشراف ، هم الذين دافعوا عن فكرة سلطة الإله آشور العالمية . وتتيجة لذلك كانوا هم اولئك الذين دخلوا في نزاع مع الملك ، حول الخطة المؤدية لتحقيق هذه السلطة ، وليس حول جوهر القضية . ان مهمة الملك التبشير لسلطة إله الدولة آشور في جميع أنحاء العالم ، وسحق الأعداء بلا شفقة ولا رحمة ، من أجل تحقيق هذا الهدف .

وهكذا تدلنا الحقيقة الواضحة ، أنه بالرغم من تولي احدى الشخصيات الهامة ، وهي نيبوخذ ـ نصّار الأول عرش بلاد بابل ، مباشرة بعد سقوط السلالة الكاشية ، وبالرغم من حكمه لبلاد آشور مباشرة ، فان هذا لم يهدد التطور الآشوري . بل على العكس لم يمض وقت طويل على الأمر ، حتى تبوأ عرش آشور ملك اسمه آشور ـ ريش ـ إيشي ، رجل عملي أعاد لبلاد آشور استقلالها ودافع عنها ، وصد نيبوخذ ـ نصّار، عندما هاجم احدى حصون الحدود الآشورية المسماة بـ «زانكو»، والحق به هزيمة ثانية بعد ذلك. ثم مات هذا الملك تاركاً لأكبر ابنائه تيغلات ـ بيليزر الأول جيشاً قوياً ومدرباً .

تيغلات ـ بيليزر الأول

لقد وجدت الفكرة الآشورية لحكم العالم في شخص تيغلات ـ بيليزر الأول محققها الفعلي ، بعد أن قدر لها على مر ثمانمائة سنة ـ منذ عهد آشور ـ اوبليط في القرن الرابع عشر ق.م ، حتى عهد آشور ـ بانيبال في القرن السابع ق.م ـ أن تجدد المرة تلو الأخرى . وفي كل مرة اكثر قوة وحماساً وصلابة من سابقتها . ولقد بدأ تيغلات ـ بيليزر الأول مباشرة في السنوات

الأولى لحكمه بصورة منظمة ، اعادة تأسيس امبراطورية توكولتي ـ نينورتا الأول . فهو يحدثنا عن ذلك ، في الوثائق المهمة البديعة ذات الشكل الموشوري ، التي خلفها لنا كوثائق بناء تحت الزوايا الأربع لأسس المعبد المزدوج ، الذي شيده لـ « آنو » و « حدد » في مدينة آشور . ولقد شكلت هذه الوثائق في القرن الماضي ، محكاً للعاملين في حقل اللغة الآشورية ، إذ سلمت الى أربعة من العلماء ، فترجمت من قبلهم منفصلين كل على حده ، ترجمة شبه واحدة بغض النظر عن بعض الاختلافات الجزئية البسيطة .

اصطدم تيغلات ـ بيليزر الأول ، اثناء حروبه في المناطق الجبلية الشمالية ، ببلدان النيريين ، أي في الجبال الارمينية ، التي كانت الشعوب الحورية قد انسحبت اليها مع الموشكيين (انظر صفحة ٢٦٧) بين جماعات الشعوب المتجولة . لقد انتصر على الأمراء المحليين في معارك عديدة ، ووصل البحر الأسود ، وأكره مالاتيا في بلاد « حانيكلبات » على تقديم الجزية . وتوجد رسوم منقوشة وكتابة على جدار صخري في يونجالو بالقرب من ميلاز ـ جارد هذا النصر الكبير ، الذي فتح بنفس الوقت للامبراطورية الآشورية الطريق الى شمال بلاد الشام .

فبالرغم من ادعاء تيغلات ـ بيليزر الأول ، انه احتل عند اصطدامه مع مردوك ـ نادي ـ ناخّي ، « دور كوريجالزو » و « زيبار » و « بابل » و « أوبيسر » مع حصونها ، إلا أنه لم يلقب نفسه بملك بابل ، ويعتبر هذا الملك من بين اولئك الحكام الآشوريين ، الذين سعوا لحل النزاع مع الدولة البابلية الشقيقة ذات الحضارة العريقة التي تفوق الآشورية . لقد قدس الآشوريون آلهة البابليين ، كالبابليين أنفسهم ، لذلك فقد أوعز تيغلات ـ بيليزر الأول بنهب وحرق قصور مردوك ـ نادي ـ ناخّي ، الا أنه صان المعبد ولم يقدم على تهجير السكان .

وعندما زحف الملك ، ليقطع في لبنان اشجار الصنوبر لأبنيته ، فضل أمراء بلاد الشام الصغار دفع الجزية له ، ومن بينهم جبيل وصيدا ، بينما امتنعت

صور عن ذلك • ونرى مدينة ارادوس (ارواد) ، تدعو الملك لنزهة على أمواج البحر الابيض المتوسط ، حيث تمكن خلالها من اصطياد حيوان بحري كبير • كما وقد أمر أن يعرض في مدينة آشور ذلك التمساح ، الذي حصل عليه هدية من مصر • ولو تصفحنا أعمال هذا الملك ، فاننا لا نجد مثل هذه الخصال البشرية ، إلا عند القليل من الحكام الآشوريين ، الذين يظهرون لنا في دور حماة ومنفذي وصايا وتعاليم الإله •

انحصرت المهمة الرئيسية للملك ، في دفع الفيضان الآرامي على الفرات (راجع صفحة ٢٦٩) ، حيث استطاع صدهم باستمرار ، ما بين هجوم ودفاع ، عن الضفة اليمنى حتى مدينة عنات ، بينما اضطر أن يترك لهم الضفة اليسرى من النهر باتجاه التيار • ويحدثنا عن نفسه « لقد أحضرت الى مدينة آشور الغنائم والكسائب ، من مدينة تدمر في بلاد أموري ، ومن مدينة عنات في بلاد سوخي ، وحتى مدينة رابيقي في بلاد كار ــ دونياش (بلاد بابل) » •

تبدو امبراطورية تيغلات ــ بيليزر الآشورية في محيطها المتبدل كلياً ، وكأنها بعث لامبراطورية كبرى ، من عصر تل العمارنة ، او العصر الحثي ، فالملك كمنفذ لأوامر الإله وكاهن الإله آشور ، الذي هو « ملك الكل » ، يقف على رأس الجهاز الإداري ، الذي يحكم الوطن الأم والمناطق الأخرى ، ويحيط بالوطن الأم دويلات تابعة ، ترتبط معه بمعاهدة أو قسم او رهائن • وتقع تلك الدويلات في بلاد النيريين ، وفي شمال بلاد الشام ، وعلى الفرات • أما الشيء الذي افتقرت إليه هذه الامبراطورية الآشورية ، فهــو التسامح والرأفة ، التي اتصفت بها الامبراطورية الحثية : من أجل الإله آشور ، الإله الحاكم جاهد الآشوريون في سبيل نشر سلطته بالقوة ، أما الاجنبي فكان عليه أن يختار بين الذل ، او الخراب •

إن الإيمان القاطع بالإله آشور ، وبالمفهــوم الخلقي الاجتماعي لمهمته الإلهية ، مضافاً اليه على ما نعتقد ، النزعــة الخاصة لحب السلطة ، يعلــل

الحيوية القوية للشعب الآشوري ، ويشرح بنفس الوقت أساليبه الحربية القاسية • وبهذا ليس كفاح الشعب الآشوري ومليكه ، سوى نضال وكفاح الإله آشور ، من أجل السيطرة على العالم • وكذلك فان أهمية وقيمة الملك الآشوري منوط بمقدار تحقيق هذه السلطة العليا • تمثل أعماله ضد العدو والحيوانات المتوحشة ، حبه في إرضاء الإله • ويصف الملك هذه الاعمال ، في وثائق مكتوبة مطولة ، على شكل مذكرات سنوية ، تسرد أعماله حسب السنين ، او على شكل مدائح تعدد أعماله حسب المناطق الجغرافية ، والى جانب هذا ، رسائل موجهة الى الإله آشور نفسه •

لا يمكن تعليل الحكم الآشوري للشرق الأدنى انطلاقا من عدد افراد الشعب الحاكم ، ولا على أساس حضاري • وإذا ما كان الشعب الآشوري ، متفوقاً على جيرانه في بعض المجالات ، كالفن التصويري مثلا ، نجد حضارة الشعب الآشوري أقل مستوى من الحضارة البابلية • إن نزعة الشعب الآشوري في ذلك ـ اي في حكم العالم ـ ترتكز بصورة رئيسية على فكرة دينية ، لا يؤمن بها ، سوى بعض المتحمسين لها ، كالملك الآشوري ، وأشرافه من الموظفين وأمراء الجيش ، ولا يمكن تحقيقها الا بطريقة عسكرية • تعيش هذه الفكرة حتى في أوقات الضعف ، شريطة ألا يكون قد قضي على حامليها ، فبعد ممات تيغلات ـ بيلبزر الأول عام ١١٠٠ ق•م ، مر قرنان من الزمن تقريباً ، حتى قدر لبلاد آشور ، أن تحصل على قائد مثله •

توغل الآراميين

لا يعد هذان القرنان من حياة الشعوب المتحضرة القديمة ، وانما من حياة الآراميين الرحل • ففي الوقت الذي لم يصطدم فيه هؤلاء بأية مقاومة مسلحة في بلاد بابل (راجع صفحة ٢٦٩) ، نجدهم بعد عام ١٠٠٠ ق•م قد ابتدوا

عن مدنها الكبرى فقط • وبذلـك سلمت لهم الأراضي السهلية ، فاستمر التفسخ الذي بدأ منذ العهد الكاشي ، حيث نجد الاراضي الزراعية في قحط تام • فتجف الأقنية وتتحول الحقول والحدائق الى مستنقعات ، ويجتاز الآراميون الكلدانيون نهر دجلة شرقاً وخاصة في الجنوب •

أما بلاد آشور ، فنراها قد احتفظت ببلادها الأصلية ، التي اقتصرت على المنطقة الضيقة بين دجلة ونهر الزاب • وبذلك خسرت جميع المقاطعات المحيطة بها ، وكذلك الدويلات التابعة ، ومنها بلاد النيريين • أما أعالي بلاد ما بين النهرين فقد سقطت في أيدي الآراميين ، الذين حكموا بلاد الشام الشمالية ، على شكل امارات صغيرة • وبنفس الوقت ، استغل العبريون ضعف السلطة الآشورية ، ليشيدوا مملكتهم المتحدة من اسرائيل ويهودا •

وبالرغم من أن وضع بلاد آشور ، قد اصبح اكثر حرجاً الآن ، مما كان عليه في القرن الثاني عشر ق•م ، بعد ممات توكولتي ـ نبنورتا الأول ، الا أنها عادت فانتفضت ثانية ، لتحقق فكرتها القديمة الأولى ، وهي حكم آشور للعـالم •

النهضة الآشورية الجـديدة

لقد كان آشور ـ دان الثاني ، الشخص الذي بدأ في نهاية القرن العاشر ق•م ، باعادة تنظيم بلاد آشور من الناحيتين العسكرية والاقتصادية • فهو الذي بعث سلالة تيغلاث ـ بيليزر الأول وأفكاره من جديد • وبعد وقت طويل ، انتقل الى الهجوم ، واضعاً نصب عينيه ، الهدف الرئيسي للسياسة الآشورية ، وهو اعادة غزو بلاد ما بين النهرين ، التي اصبحت آرامية تماماً • فقد قدر للسلالة المالكة ، أن تعمل من أجل هذا الهدف ، قرناً كاملاً من الزمن ، فأوكل الأب الى الابن طيلة أجيال عديدة ، تحقيق رغبة الإله آشور ، فشنوا الحروب الكثيرة السنة تلو الأخرى • إننا نعلم ذلك ، من المذكرات السنويـة المكتوبة بلغة

آشورية لم تتأثر باللغة البابلية إلا قليلاً ، واقتحموا المخاطر وكأنهم رهائن عند الشعوب، باتجاه الشرق، والشمال ، والغرب، دون أن يحاولوا الاصطدام الجدي مع بلاد بابل • لقد قـام بهذا الدور كل من : اشور ـ دان الثاني (٩٣٢ـ٩١٢ ق٠م) ، وابنه حدد نيراري الثاني (٩١١ ـ ٨٩٠ ق٠م) ، الذي يعتبره الآشوريون المؤسس الجديد للأمبراطورية الآشورية، وحفيده توكولتي ـ نينورتا الثاني (٨٨٩ ـ ٨٨٤ ق٠م) ، الذي لم يعش طويلاً ، ثم حفيد ابنه اشور ـ نازيربال الثاني (٨٨٣ ـ ٨٥٩ ق٠م) ، وابنه زلما ـ نصّار الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق٠م) • لم تذهب ضحايا في أي بلد ، خلال عصر ما ، في سبيل إله ما ، مثلما ذهبت في بلاد الشرق الأدنى ، خلال القرن التاسع ق٠م ، حتى وقلما عقدت معاهدات ، وأقسمت الأيمان ، ومن ثم نكثت ، كما في مثل هذا العصر • قد يشعر المرء ، وكأن شعوب النيريين ، والآراميين ، قد نظروا الى تلك الحملات الآشورية الانتقامية ضدهم ، التي ُمثل فيها بأفراد هذه الشعوب ، وخربت ديارهم ، على أنها مصيبة من الإله ، كما ويشعر أيضا ، وكأن الملوك الآشوريين ، قد استولى عليهم الهوس ، سنين طويلة ، فقرروا الثأر من تلك الشعوب ، التي كفرت بالإله آشور • فنجح حدد ـ نيراري الثاني ، باحتلال بلاد حانيكلبات ، ونصيبين أيضاً ، بعد حصار عنيد لهـا • وجعلت نصيبين منذ ذلك الوقت ، مقاطعة آشورية ، نشر الملك فيها « اللغة » العامة للامبراطورية ، كباقي اجزاء الأمبراطورية ، وبهذا يعتبر حدد ـ نيراري الثاني ، مؤسس الادارة في الامبراطورية الآشورية •

اشور ـ نازيربال الثاني وزلمـا ـ نصّار الثالث

عندما قرر اشور ـ نازيربال الثاني ، بعد ذلك بثلاثين حولاً ، اخضاع بلاد ما بين النهرين ، والممالك الآرامية ، التي شكلت هناك ، كان تنفيذه لذلك بمنتهى القسوة ، وقد قام هذا الملك بنقل قصره من مدينة آشور الى تلك

المدينة ، التي كانت قد أسست قبلاً ، ومن ثم انحطت وانقرضت ، وهي مدينة كلخ (نمرود) • لقد كان هدفه جعلها مركزاً حضارياً ، يضاهي مدينة بابل • وعندما زحف اشور ــ نازيربال بنفسه على رأس حملة ، ضد الممالك الآرامية بين الفرات ودجلة ، عاملهم في منتهى القسوة والوحشية ، مما أدى الى عدم قيام أي عصيان ، أو تمرد في هذه المنطقة ضد المملكة الآشورية • ولم يبق على قيد الحياة ، سوى تلك الدويلات الآرامية غربي الفرات ، وفي بلاد الشام الشمالية •

ولقد رفع اشور ــ نازيربال الامبراطورية الآشورية تقريباً الى نفس المستوى ، الذي كانت قد بلغته قبل حوالي مائتي سنة، أي في عهد تيغلات ــ بيليزر الأول • إلا أنه استطاع بقسوته وصلابته ربط أواصر الامبراطورية ، اكثر مما كانت عليه في ذلك الوقت • وبذا اصبحت الامبراطورية وحدة ، تتألف من مقاطعات ، أوكلت ادارتها الى موظفين ، عينوا من قبل الملك ، هم الولاة ، الذين أعطوا مع الملك اسماءهم للسنوات التاريخية • وتقسم هذه المقاطعات الى مناطق ودوائر مع عواصم كمركز لها ، لتدار من قبل رئيس أو أمير صغير • لقد كان على جميع الخاضعين للامبراطورية ، دفع الجزية، والقيام بأعمال السخرة • بيد أن اشور ــ نازيربال ، لم يدمر ويخرب فقط ، وانما بنى أيضاً • إذ أقام مدناً ، وشيد معابدا وقصورا • إن أفضل ما يذكره العالم له ، هو تلك اللوحات الجدارية المنقوشة ، في قصره بمدينة كلخ (نمرود) ، الذي يشكل أول آبدة تجسد فكرة الملكية الآشورية •

كانت أخطر مهمة للحكام الآشوريين ، الى جانب صد هجمات الآراميين ، النزاع الداخلي مع الحضارة البابلية القديمة المتفوقة عليهم ، وذلك في هذا العصر ، الذي بدأت فيه السلطة الآشورية تقوى وتزداد • لقد حاول الملوك الآشوريون ، منذ عهد اشور ــ دان ، حتى عهد اشور ــ نازيربال ، حل هذا النزاع بحذر زائد تمشياً مع موقف الشعب الآشوري من الآلهة البابلية • إذ

كان قد ازداد انتشار تعاليم مردوك الدينية ، في هذه الحقبه الزمنية • يبدو أن نقل مقر الملكية الآشورية ، من أبعد نقطة في جنوب بلاد آشور ، أي من مدينة الآلهة آشور ، التي وقعت بصورة مباشرة تحت الضغط الفكري للعالم البابلي منذ العصر السومري ـ الأكادي ، الى مدينة كلخ (نمرود) التي تقع الى الشمال ، وكأنه عزوف عن البابلية ، وميل الى شمال بلاد آشور في منطقة نينوى ، التي تطعمت بالحورية منذ حوالي ١٥٠٠ ق•م • فبواسطة الآراميين ، الذين وطنهم اشور ـ ناز يربال في مقره الجديد ، بعد ترحيلهم من المنطقة الميتانية القديمة ، أي شمالي بلاد ما بين النهرين ، اقتبست مدينة آشور بعض العادات والتقاليد الميتانية ـ الحورية ، التي لم تصل في يوم من الأيام ، الى هذه المدينة الواقعة على الحدود الجنوبية • ولقد سار اشور ـ نازيربال لأول مرة ، على نمط فن بناء الشعوب الجبلية ، الذين جهزوا ابوابهم بممرات مزدانة الجانبين ، بأسود وحيوانات خرافية ، هدفها حماية هذه الأبواب ، بطريقة سحرية • كما زينوا قواعد جدرانهم ، بصفوف من اللوحات ، أي بصفائح حجرية عمودية منقوشة • لقد طور الآشوريون عبر تاريخهم ، هذه اللوحات ، الى لوحـــات اخبارية مصورة ، تعتبر بكل تأكيد ، أهـــم ما قدمه الشعب الآشوري الى فن الشرق الأدنى القديم •

لم يخلف زلما ـ نصّار الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق•م) والده أشور ـ نازيربال بالحكم ، الا بعد أن تقدم به العمر • ولم يحافظ هذا الملك الجديد لإلهه ، على البلاد التي خلفها له والده فقط ، بل زاد عليها بلاداً جديدة ، وأذلاء جـــدد •

لقد تجاوز حدود اس. اطوريةوالده ، باتجاه الغرب ، والجنوب بعد جهود مضنية ، وتنظيم عملي د° وب كانت نتيجته أن فاق انجازات والده • لقد قام هذا الملك ، بغزوات في حوض الفرات الأعلى على الضفة الشرقية لهذا النهر ، حيث غزا عاصمة الدولة الآرامية الهامة ، دولة بيت اديني ، تل برسيب ، ونقل سكانها الى بلاد آشور ، وأسكن مكانهم آشوريين ، وغير اسم المدينة فقلبها بحصن زلما ـ نصّار •

وهكذا أصبح هذا الحصن المسمى باسمه ، نقطة انطلاق له ، لبلوغ هدفه البعيد المدى ، وهو غزو كيليكيا ، وبلاد الشام • وقام بعد ذلك بحروبه هناك في كيليكيا ، حيث استسلم له أمراء صغار عديدون • وهنا سيطر على منابع الفضة في طوروس ، وغابات جبال الأمانوس • وفي بلاد الشام وقف زلما ــ نصّار أمام حلف مؤلف من اثني عشر أميراً ، بقيادة بر ــ ادري أمير دمشق ، كما انضم لهذا لحلف أحاب الإسرائيلي معاصر النبي إيليا • ولم يستطع زلما ــ نصّار ، الا بصعوبة فائقة ، وبكلمات رنانة في مذكراته ، تغطية الهزيمة التي لحقت به ، أثناء حملته الأولى • وبعد خمس سنوات (٨٤٨ ق•م) زحف مرة ثانية بحملة على بلاد الشام ، ليجد أمامه نفس الحلف بالقرب من حماه ، الذي اضطره للوقوف هناك• وبالرغم من كثرة عددجيشه، لم يستطع أيضا بعد ثلاث سنوات، وفي حملة أخرى، من بلوغ الشيء الكثير • وبذا لم يتمكن هذا الملك من الانتصار والتقدم ، الا بعد أن ظهر مكان بر ــ ادري ، واحاب ، منافساهما حازائيل في دمشق ، ويهو الإسرائيلي في سامرا ، حيث استطاع التقدم حتى دمشق ، بيد أنه لم يتمكن من احتلال المدينة ، فعوض عن ذلك بأن خرب حدائق تمورها المقدسة ، واتجه بزحفه نحو الغرب ، حتى وصل البحر الابيض المتوسط ، فأقام لنفسه نصباً تذكارياً على صخور نهر الكلب بالقرب من بيروت ، واستقبل الجزية من يهو • لقد تحدث زلما ــ نصّار عن هــذا بالكلمات والصور في مسلته السوداء الهامة ، التي عثر عليها في مدينــة نمرود • وبغض النظر عن تلك الحملات المتعاقبة ، التي قام بها ضد بــلاد الشام، تبقى الحقيقة ماثلة أمام أعيننا ، ان شمال بلاد الشام ، كانت قد ضمت نهائيا الى الامبراطورية • أما باتجاه الشمال ، فبالرغم من ان زلما ــ نصّار قد قصد منابع دجلة ، وقدم هناك الأضاحي للآلهة ، وأقام لنفسه تمثالاً، إلا أنه لم يبق للامبراطورية الآشورية هناك ، المجال الحيوي لغزواتها ، إذ ان ساردور الأول ، كان قد أسس الأمبراطورية الاورارتية ، في عهد أشور ــ نازيربال الثاني • ولهذا لم يبق للامبراطورية الآشورية ميدان ثان لغزواتها ،

سوى بلاد بابل ، التي حقق فيها زلما ـ نصّار سياسة والده التوسعية .

عندما مات ملك بابل نيبو ـ أبال ـ أدّينا (عام ٨٥١ ق.م) ، صديق اشور ـ نازيربال لسنين طوال ، فسح النزاع على العرش بين الشقيقين ، مردوك ـ زاكير ـ شوم ، ومردوك بيل ـ أوزاتي ، المجال ل «زلما ـ نصّار» حتى يتدخل عسكرياً في بلاد بابل ، ليس كعدو ، بل كحام ومدافع عن الخليفة الشرعي ، مردوك ـ زاكير ـ شوم ، فزحف الملك مرتين ضد قائد حركة العصيان ، مردوك ـ بيل ـ أوزاتي ، واستطاع أن يطرده باتجاه سلاسل الجبال الشرقية ، وأن يصرعه مع كافة أتباعه . ولقد حدث مرة ، عندما استغاث به مردوك ـ زاكير ـ شوم ، أن قدّم الأضاحي مع جنده في معابد كوتا ، وبابل ، وموررزينا ، شاكراً الآلهة لانقاذها بلاد بابل من هذه الأزمة ، مشاركاً السكان حفلة تقدمة هذه الأضاحي . وبكل شجاعة ، وانطلاقاً من ايمانه بسياسة التوازن بين بلاد آشور وبابل ، التي اتبعها أسلافه اكثر من مائة سنة ، ترك بابل تنعم باستقلالها ، إلا أنه برهن لسكانها من جهة أخرى ، عن عظمة وقوة آشور المتفوقة ، عندما زحف ضد الدويلات الكلدانية ، في أقاصي جنوب بلاد بابل ، حتى وصل بلاد البحر ، التي أطلق عليها منذ الآن اسم حاكمها الآرامي ياكين ، فأصبحت تعرف باسمها الجديد بيت ـ ياكين . لقد أسرع الجميع ، ليقدموا الى الحاكم الآشوري الجزية ، من ذهب ، وعاج ، وجلود الفيلة . وبدون قتال أو صراع مع بابل ظهر زلما ـ نصّار بهذه الطريقة ، كصديق وحام لبلاد بابل .

واستفاد زلما ـ نصّار الثالث طوال حكمه ، الذي دام اكثر من ثلاثين سنة ، من وقوف صديقه المخلص قائد الجيش « الفيلد مارشال » (توورتان) ديان ـ آشور الى جانبه على الدوام تقريباً . فمنذ عام ٨٣٢ ق.م لم يبرز الملك في ساحات المعارك ، لانه ترك القيادة العسكرية الى « تورتانه » . بيد أن حركات العصيان سادت البلاد منذ عام ٨٢٧ ق.م ، حينما جددت سلسلة المعاهدات مع الملك . ولقد استطاع اشور ـ دانين ـ بال ابن الملك ،

أن يجتذب تقريباً سائر مقاطعات الامبراطورية الى جانبه ، بينما نجد الملك ، يقيم فقط في كلخ حتى مماته عام ٨٢٤ ق٠م٠ الا أننا لا نستطيع معرفة ما إذا كان اشور ــ دانين ــ بال ، هو الخليفة الشرعي ، أو شمشي حدد الخامس، الذي وصل العرش بعد ذلك • إلا أنه لا يمكن الاعتقاد والظن ، بأن فقط خلاف الشقيقين حول اعتلاء العرش ، هو الذي دعا جميع الولاة الكبار ، للانفصال عن الملك العجوز • بل يجوز لنا أن نفترض أسباب أخرى لحركات العصيان والتمرد هذه ، التي تشبه معظم الحوادث التي هزت الامبراطورية على مر التاريخ الآشوري • فقد تعود اسباب وعلل هــذه الحركات ، الى الآراء المتضاربة والمتضادة ، حول المشاكل السياسية الرئيسية ، مابين طبقة الأشراف الحكام ، وبين الدوائر الحاكمة في البلاط الملكي •

الانحلال يهدد الامبراطورية بعد موت زلما ــ نصّار الثالث

يمكن مقارنة نهاية زلما ــ نصّار من وجوه عديدة ، بنهاية توكولتي ــ نينورتا الأول حوالي ١٢٠٠ ق٠م٠ بيد أن ممات زلما ــ نصّار ، لم تترتب عليه تلك النتائج السيئة للامبراطورية ، ذلك ان خليفته الذي كان قد اختــاره بنفسه ، وهــو شمشي ــ حــدد الخامس (٨٢٤ ق٠م ــ ٨١٠ ق٠م) ، استطاع مرة أخرى ، وذلك بعد ثلاث سنوات من توليه العرش ، اعادة جمع شمل المقاطعات ، التي انفصلت عن الامبراطورية تحت قيادته المــركزية • إلا أن مثل هذا ، لم يكن ليكتب له النجاح ، لولا مساعدة الملك البابلي مردوك ــ زاكير ــ شوم ، الذي كان زلما ــ نصّار ، قد ساعده وحماه في وضع مماثل •

قد يظن المرء ، دون أن يستطيع البرهنة على ذلك ، ان موقف زلمــا ــ نصّار وشمشي ــ حــدد الخامس من بابل ، كان الدافــع لذلك الانقسام الداخلي ، الذي حل بالامبراطورية الآشورية • تزوج شمشي ــ حدد أيضاً ، بامرأة بابلية ، هي شمور ــ أمات ، التي قدر لها أن تدير دفة الحكم باسم

ولدها القاصر ، الذي لم يبلغ سن الرشد بعد . كما وانها هي الشخصية التي قدر لها أيضاً ، أن تصبح الملهمة لاسطورة سميراميس . لقد استخدمت في كتابات شمشي ـ حدد مرة أخرى ، اللغة البابلية ، كما كان الحال في الالف الثانية ق.م ، ولكن بتأثر بسيط باللغة الآشورية . ولو اتخذ هذا الملك ، ومن بعده ابنه حدد ـ نيراري الثالث ، موقفاً عدائياً من بلاد بابل ، نعم ، ولو انهما غزيا هذه البلاد مراراً ، الا انهما لم يجرأا قط ، على ضم هذه البلاد نهائياً الى الامبراطورية ، لأنهما لا يريدان ذلك . ان ما يسمى بالتاريخ « المتناظر » ، وهو الوثيقة التي كتبت في عهد حدد ـ نيراري الثالث ، يشرح العلاقة ما بين بلاد آشور ، وبلاد بابل من وجهة النظر الآشورية . فهو لا يعترف لأية بلاد باستقلالها ، إلا باستقلال بلاد بابل ، ويتهم بنفس الوقت البابليين ، بكرههم الشديد للآشوريين . وبغض النظر عن كل الهزات والتغيرات السياسية ، فقد مضى «تبـبّل[1]» الشعب الآشوري بلا توقف . اذ يلاحظ في عهد حدد ـ نيراري الثالث ، تركيزاً على عبادة الإله نيبو ، إله بورسيبا ، وهذا لا يمكن فهمه من دراسة التاريخ الآشوري. ولكن يمكن للمرء أن يظن بأن شمور ـ أمات ، كانت من انصار هذا الإله تبعاً لأصلها البابلي ، إذا ما رأينا أن ابنها حدد ـ نيراري ، يدعم بصورة مباشرة طقوس وعبادة هذا الإله ، ويرى فيه الإله الحقيقي الوحيد . ففي عام ٧٨٧ ق.م ، شيد هذا الملك معبداً للاله نيبو في مدينة كلخ . كما ونقش كتابة على تمثال لهذا الإله ، قدمه أحد الحكام ، كقربان للاله نيبو من أجل حياة الملك حدد ـ نيراري ، وتنص هذه الكتابة ما يلي : « ثق بالإله نيبو ، ولا تثق بأي إله آخر » . لم يأت تفضيل هذا الإله الحكيم نيبو على غيره من الآلهة لدى حدد ـ نيراري بالصدفة ، طالما أنه لا يوجد أي إله آخر ، استخدم اسمه في الاسماء الشخصية في العهد الآشوري الحديث ، مثل نيبو.

فبالرغم من مساعيهما للتقرب من الحضارة البابلية ، لم يجد شمشي حدد

---

(١) تببّل : التأثر بالبابلية دما وحضارة .

الخامس وولده حدد ــ نيراري ، أي تقدير من جانب بلاد بابل • ولذا فقد اضطر هذان الملكان مراراً ، لمحاربة هذه البلاد ذات الحضارة العريقة القديمة ، ولم يعاملاها كمقاطعة من الامبراطورية ، بل تركاها تحكم من قبل ولاة محليين • وبذل كل من الملكين ، شمشي ــ حدد الخامس ، وحدد ــ نيراري الثالث ، ومثلهما شمور ــ أمات ، الجهود لإعادة وحدة الامبراطورية ، كما كانت في عهد زلما ــ نصّار والحفاظ عليها ، ولذلك فقد شنوا الحروب باتجاه الشمال والغرب • الا ان ازدهار الامبراطورية الاورارتية ، حال دون تقدمهم في بلاد ما بين النهرين •

أما الحادث الذي اكتسب شهرة تاريخية عالمية ، فهو الذي جرى بين الجيش الآشوري ، والميديين بالقرب من بحيرة اورميا • وبذا دخل الميديون في هذه السنوات ، ولأول مرة المسرح التاريخي • انهم ظهروا هنا كشعب جبلي ذي أهمية ضعيفة ، يقطنون في عاصمة سهلة التدمير والخراب • وبعد أن اصطدم بهم شمشي ــ حدد لأول مرة ، أصبح ذلك تقريباً كعادة عند حدد ــ نيراري الثالث ، لأن يتوجه نحو بلادهم ، وذلك على ما يبدو كتعويض عن تلك الحروب التقليدية ، ضد البلدان النيرية • ففي اورارتو ، وجد الآشوريون أنفسهم ، أمام دولة محصنة متحدة ، في حين ان الميديين ما زالوا منشقين على أنفسهم ، الى امارات صغيرة ، مما أدى الى عدم استطاعتهم القيام الا بمقاومة ضعيفة •

وقبل ظهور الامبراطورية الآشورية ، كقوة عالمية ما بين ٧٥٠ ق•م و ٦٥٠ ق•م ، نلاحظ مرة أخرى ، وجود فترة قصيرة من الزمن ، اتصف بها التطور الآشوري بالركود ، وذلك في النصف الأول من القرن الثامن ق•م• ولقد عرفت هذه العقود الزمنية للنصف الاول من هذا القرن المذكور ، باسم تورتان ــ شمشي ــ ايلو ، أكثر مما كانت باسم الملوك الضعفاء الثلاث : زلما ــ نصّار الرابع (٧٨١ ــ ٧٧٢ ق•م) ، واشور ــ دان الثالث (٧٧١ ــ ٧٥٤ ق•م) ، واشور نيراري الخامس (٧٥٣ ــ ٧٤٦ ق•م) ،

الذين خدمهم أثناء حياته الطويلة • ولم يستطع حتى هذا القائد العسكري درء الأخطار ، التي هددت الامبراطورية من الداخل والخارج على حد سواء • فبالرغم من بعض الحملات العسكرية ، التي قام بها الجيش الآشوري، ضد بلاد الشام ، وفي الجنوب الشرقي ضد الميديين ، فقد مكث الملوك الآشوريون سنين كثيرة في الوطن ، وهم ينظرون الى ملوك اورارتو ، وقد تخطوهم في الغرب حتى شمال بلاد الشام ، وفي الشرق حتى اراكسيس، مستخدمين نفس أساليب وطرق الآشوريين ، التي اقتبسها عنهم الاورارتيون ، مما قاد هذه الامبراطورية الى حافة الفناء • اما في الداخل فقد وقفت الامبراطورية على حافة الانهيار ، عندما اندلعت نيران العصيان والثورة عام ٧٦٣ ق•م في آشور ، وامتد لهيبها حتى أرّابشا شرقاً ، وحتى غوزانا (تل حلف) في شمال بلاد ما بين النهرين غرباً • وقد كانت من الشدة ، بحيث لم يستطع القائد العسكري شمشي ــ ايلو إخمادها ، إلا بعد خمس سنوات • ولقد كان عام ٧٦٣ ق•م عام شؤم أيضاً ؛ حيث حدث فيها ما كان يخشاه إنسان الشرق دوماً ، وهو كسوف الشمس ، الذي أصبح بالنسبة لنا ، نقطة انطلاق دقيقة لتأريخ العصر الآشوري الحديث •

وكدلالة على الوضع السيء ، الذي مرت به آشور ذلك الوقت ، كانت خيانة أحد امراء شمال بلاد الشام الصغار ، وهو الملك ماتي ــ ايلو ، ملك بلاد الآغوزي (بالقرب من ارباد) ، الذي كان قد تحالف مع آشور ــ نيراري الخامس ، حينما تولى هذا العرش(عام٧٥٤ق•م) ، واقسم على الإخلاص له • ولم تكد تمضي سنوات قليلة ، حتى نكث هذا بالوعد ، وانحاز الى جانب الملك ساردور الثاني ملك اورارتو الكبير ، وقاتل الى جانبه ضد الآشوريين•

لقد وضع حداً لهذا الانهيار والتدهور في السلطة الآشورية ، بضربة واحدة وبصورة مفاجئة في عام ٧٤٥ ق•م ، بعد عصيان اندلعت نيرانه في مدينة كلخ (نمرود) ، رجل ما نصب نفسه على العرش الآشوري • اننا لا نعلم شيئاً قبل ذلك عن هذا الرجل ، إذا ما كان بحق ، أو عن عمد

قد اسمى نفسه حـدد ـ نيراري الثالث ، واختار لنفسه تمشياً ومستوى المهمة التي حددها لنفسه ، الاسم الملكي المشهور تيغلات ـ بيليزر • وهكذا يحمل هذا الرجل الآن كثالث من بين الحكام الآشويين هذا الاسم •

تاسيس الامبراطورية الآشورية الحديثة بقيادة تيغلات ـ بيليزر الثالث

انه لمن المؤكد ، ان تيغلات ـ بيليزر الثـالث ، قد تبوأ عرش آشور بالقوة • انها لحقيقة ثابتة ، ولو انه كان حقاً من السلالة الملكية الشرعية • يجب أن يكون هذا الملك قد سلب المدينتين ، آشور وحران ، اللتين كانتا تتمتعان بمركز خاص في الامبراطورية ، حق التمتع بعدم دفع الضريبة • ولهـذا يعتقد المرء أن يكون تيغلات ـ بيليزر الثالث ، قد مثل جنـاحاً عسكرياً ، قضى على امتياز جناح الكهنة ، الذي تمركز في مدينتي آشور وحران • كما ويستنتج العلماء من حركة تيغلات ـ بيليزر الثالث ، انه ناضل من أجل تحقيق برامج اجتماعية اصلاحية ، واراد بخطوته هـذه حماية الفلاحين والطبقة الوسطى من طغيان الرجعية ، التي كانت تتمتع بامتيازات خاصة • الا ان مصادرنا لا تكفي للاحاطة بالبواعث التفصيلية ، التي قادت الى عصيان تيغلات ـ بيليزر ، والى الثورة المضادة التي كان مـن أدنى نتائجها ، اعادة اعفاء مدينتي آشور وحران من دفع الضريبة •

ومهما كان الأمر ، فان تيغلات ـ بيليزر الثالث ، لم يصل الى الملكية عن طريق غير عادي فحسب ، وانه لم يقم فقط بخطوات خاصة على صعيد السياسة الداخلية ، التي كان لها اسبابها ودوافعها ، بل لقد كان أيضاً شخصية لها رأيها ونظرتها في إعادة بناء الامبراطورية ، التي حققها فعلاً • والشيء الجدير بالذكر ، هو حله للمشكلة الآشورية ـ البابلية ، وتنظيمه العـام للامبراطورية على مستوى الشرق الأدنى ، وليس انطلاقاً من نظرة الآشوريين في حب السيطرة •

يصف لنا ذلك النص المكتوب على نصب من حجر الالباستر ، الذي أقامه أحد الموظفين الكبار هو بيل ـ حران ـ بيلي ـ اوزور ، الذي كان على الأرجح مستشار زلما ـ نصّار الرابع ، وبعد ذلك مستشار تيغلات ـ بيليزر الثالث ، حالة الضعف التي كانت عليهـا الامبراطورية عند اعتلاء تيغلات ـ بيليزر العرش • ويحدثنا هذا النص ، كيف بنى بأمر الإله مردوك ، والآلهة الكبيرة مدينة ومعبداً في الصحراء ، الى الغرب من نينوى ، واستثناها من دفع الضريبة ، خطوتان لم تكونا في الواقع سوى من اختصاص الملك نفسه • وإذا كنا نرى تيغلات ـ بيليزر يسمح بهذا ، فان ذلك يقودنا الى الظن ، بأن هذه المدينة التي تحمل اسم دور ـ بيل ـ حران ـ بيلي ـ اوزور ، لم تكن سوى احدى مناطق الاستيطان العديدة ، التي سكن بهـا الأعداء ، الذين هجِّروا من بلاد أجنبية •

وليستطيع تيغلات ـ بيليزر السيطرة على الموقف ، كان عليه حل ثلاث مشاكل خطيرة ، إذا ما أراد أن يخلق من بلاد آشور ، دولة ذات وزن عالمي ؛ وهذه المشاكل هي :

١ ـ أن يعيد النظر في إقامة علاقات جديدة مع بلاد بابل ، التي أصبحت فريسة في يد الآراميين •

٢ ـ أن يجبر المنـافس الكبير ، والخطر الذي يهـدد الامبراطورية الآشورية في الشمال ، وهو اورارتو ، على البقاء وراء حدوده •

٣ ـ أن يعيد بلدان شمال ما بين النهرين ، وبلاد الشام ، وفلسطين من جديد ، تحت لواء الحكم الآشوري •

ان الشكل والطريقة اللتين اتبعهما هذا الملك ، في حل هذه الأمور الثلاث المعقدة ، جعلتا منه أكبر حاكم في التاريخ الآشوري •

فالمهمة الأولى ، وهي إعادة تنظيم بلاد بابل وملكيتها من جديد ، فقد حققها تيغلات ـ بيليزر على مرحلتين • ففي السنة الأولى لاعتلائه العرش

عام ٧٤٥ ق٠م ، رأى في القضية البابلية أبسط هذه المشاكل ، ولذلك بدأ في حلها • لقد كانت المعركة التي بدأها من أجل حل هذه القضية ، ضد الكلدانيين الحقيقيين ، وبقية القبائل الآرامية ، التي استملكت الأراضي البابلية ، ولم تكن موجهة ضد ما يسمى بالملك البابلي نابو ــ نصّار ، الذي كان يدين بسلطته البسيطة ، التي لم تكد تتجاوز أسوار عاصمته، لشهرة الإله مردوك• وهكذا اخضع تيغلات ــ بيليزر ، القبائل الآرامية أولاً ، وهجّرها إلى مناطق أخرى ، بينما لم يمس باديء ذي بدء المدن المقدسة الكبيرة بأذى ، بل على العكس ، لقد اكتفى بتحية آلهــة بابل ، وكوتا وبورسيبا ، وترك نابو ــ نصّار بادىء الأمر يحكم بلاد بابل ، وذلك لادراك تيغلات ــ بيليزر الواضح صعوبة وضرورة حل المشاكل الأخرى ، التي يجب أن يركز قواه لحلهــا •

لم يكن تهجير سكان بلاد بابل شيئاً جديداً في حد ذاته ، بل الاسلوب والعزم ، اللذين اتبعهما تيغلات ــ بيليزر الثالث ، في حل الأمور ، وسار عليهما في اعادة تنظيم عالم الشرق الأدنى القديم من جديد •

انصرف تيغلات ــ بيليزر ، لحل المشاكل الأخرى في عالم الشرق الادنى، ولم يعد ثانية الى بلاد بابل ، الا في أواخر حكمه ، بعد أن أسس دعائم السلطة العالمية للامبراطورية الآشورية في الشرق الأدنى ، وفي الوقت الذي مات فيه نابو ــ نصّار عام ٧٣٤ ق٠م ، وأصبحت بلاد بابل في حالة يرثى لها من الفوضى • لقد كان شيوخ كلدان هم المتسلطون الحقيقيون فيها • وبعد قتالهم مجدداً تغلب تيغلات ــ بيليزر عليهم ، وهجّر سكان عواصمهم ، وقبل خضوع وطاعة مردوك ــ أبال ــ أدّينا زعيم بيت ــ ياكين في بلاد البحر الجنوبية ، ثم عاد ثانية الى بلاد بابل ، ليقبــل يدي مردوك كرمز لملكية تيغلات ــ بيليزر على بلاد بابل • ولم يفعل هذا الملك كما صنع سلفاه تيغلات ــ بيليزر الاول ، وتوكولتي ــ نينورتا الأول ، اللذان جعلا من

بلاد بابل جزءاً من الامبراطورية الآشورية ، بل أصبح ملكاً على بلاد بابل ، ملك بلاد سومر وأكاد تحت اسم « بول » أي ملك الجميع • وانطلاقاً من نظرة تيغلات ـ بيليزر الواقعية ، ان بلاد آشور لم تكن بقادرة يوماً ما ، أن تحكم بلاد بابل ، لأنها كانت تعترف وتشهد ضمناً بسيطرة بلاد بابل عليها من الناحية الدينية والثقافية ، رأى هـذا الملك كحل للمشكلة الآشورية ـ البابلية ، اقامة العلاقات على قدم المساواة بين كلا الدولتين ، وذلك بدمج العرشين الآشوري والبابلي بشخصية الملك الآشوري • لم يكد يمضي ذلك الوقت ، بين حملته الأولى ، وحملته الثانية ضد بلاد بابل والكلدانيين ، حتى كان قد جعل هذا الملك من الشرق الأدنى قوة عالمية بقيادة الآشوريين •

أما فيما يتعلق بـ « اورارتو » ، فلم يصطدم تيغلات ـ بيليزر بادىء الأمر ، مع مملكتها على الأرض الارمينية ، وإنما حدد ارض المعركة على تراب شمال بلاد الشام ، التي كان فيها أهم حلفاء ساردور الثاني ملك اورارتو • ان تسديد ضربة قاضية ضد هؤلاء الحلفاء ، يعني كذلك زعزعة المركز العالمي لـ « اورارتو » • لقد وقف الى جانب ساردور كل من « كومثوخ » و « ميليتيني » و « ماتي ـ ايلو » الأغوزي • ونشبت في كومثوخ على الشط الغربي من الفرات عام ٧٤٣ ق•م ، المعركة الفاصلة بين تيغلات ـ بيليزر الثالث ، وبين ساردور ، الذي لم يستطع الا بصعوبة ، النجاة بحياته مرتداً ومتقهقراً الى بلاده ، حيث ضرب عليه الحصار ، في عاصمته تومشبا (توبر اكالي على بحيرة وان) من قبل تيغلات ـ بيليزر • وبالرغم من أن ساردور لم يستسلم لتيغلات ـ بيليزر ، الا ان عظمة اورارتو ، قد تحطمت • وقبل أن ينهي تيغلات ـ بيليزر مهمته في ارمينيا ، عام ٧٣٩ق•م بيناء عاصمة لمقاطعة أولثوبا ، التي أعيد تنظيمها الآن من جديد ، توجه تيغلات ـ بيليزر ، لإنجاز مهمته الثالثة ، وهي اعادة وحدة بلاد الشام وفلسطين مع الامبراطورية • فبالرغم أن تيغلات ـ بيليزر قد صرع ساردور

هناك ، فقد استمر الأمراء المحليون بعناد في مقاومة تيغلات ـ بيليزر ، وبصورة خاصة مدينة « ارباد » الى الشمال من حلب ، و « حتين » (الآن العمق ، و « ياأودي » شمأل ـ زيندشيرلي ـ ، ومقاطعات عديدة أخرى ، على ساحل البحر الأبيض المتوسط • ولكن وبعد ثلاث سنوات من العمل المضني ، وجدت جميع امارات بلاد الشام نفسها ، تابعة لـ تيغلات ـ بيليزر • كما اخضعت في النهاية كل من دمشق ، وسامارّا فيفلسطين عام ٧٢٤ ق•م ، وبهذا أصبح شمال « اسرائيل » مقاطعة آشورية ، بينما اعترف بوالٍ محلي على « سامارّا » • لقد اضطر ملك يهودا أن يحضر الى دمشق ، مقدماً الطاعة والولاء لـ تيغلات ـ بيليزر • كما أحضر الجزية له جميع الأمراء الصغار ، في جنوب بلاد الشام وفلسطين • نعم لقد قاتل تيغلات ـ بيليزر مع عرب الصحراء ، ثم عهد في الختام لإحدى القبائل العربية القيام بدور حراسة الحدود مع مصر •

وكما اتبع تيغلات ـ بيليزر طريقة المراحل المنظمة والمدروسة ، على الصعيد العسكري ، استخدم أيضاً نفس الاسلوب ، فيما يتعلق وسياسته العرقية مع العناصر البشرية ، التي قطنت الشرق الأدنى • ولما كان الشعب الآشوري ضعيف العدد ، فانه لا يستطيع والحالة هذه ، استعمار كافة أقطار الشرق الادنى • ولهذا فقد سلك تيغلات ـ بيليزر ، بكل وضوح ، سياسة تحطيم وجود الشعوب والاواصر القومية ، التي تربطهم بالأرض التي يعيشون عليها ، وذلك باتباعه سياسة تهجير الشعوب من أوطانهم الى اراض أخرى ، واستبدالها بسكان آخرين • لقد قام على هذا الصعيد بعمليات كبيرة ، من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب • وبهذا وجب على سكان الشرق الادنى ، الا يشعروا بأنهم بابليون ، أو اورارتيون ، أو فينيقيون ، أو اسرائيليون ، بل كمواطني امبراطورية الشرق الأدنى ، التي كان زمام قيادتها في يد حفنة من الآشوريين • كما وجب أن يسود هذه المجموعة وحدة حضارية معينة ، كانت لغتها السائدة هي الآرامية • وكان

لا بد إلا أن تدعم هـذه الوحدة ، وتقوى بتأسيس مدن ملكية جديدة ، تصطبغ بعادات وتقاليد آشورية ، وباقامة إدارة متحدة تحت اشراف ولاة معينين ، خطط لهم بقدر الإمكان ، أن يحلوا محل الامراء المحليين ، الذين كانت تربطهم بالملك ، رابطة قسم اليمين فقط • كما ويبدو ان تيغلات ــ بيليزر قد قوى ادارة المقاطعات الآشورية بالنسبة للسابق بتحسينه لإدارتها •

وهكذا استطاع تيغلات ــ بيليزر الثالث ، أثناء حكمه ، الذي دام فقط ثمانية عشر عاما ، خلق منظمة عضوية سياسية شاملة ، اكتسبت بغض النظر عن عمرها ، بمزيجها الخاص وتوحيدها لجميع العنــاصر البشرية ، أهمية كبيرة في التطور المقبل لتاريخ الشرق الأدنى •

زلما ــ نصّار الخامس

كان لا بد للصرح الدي شيده تيغلات ــ بيليزر الثالث ، إلا وأن يبرهن على صموده امام الهزات ، بعد وفاة بانيه ، على صعيد السياسة الداخلية الآشورية وسياسة الشرق الأدنى عامة • لقد خلف زلما ــ نصّار والده تيغلاب ــ بيليزر الثالث مباشرة كملك آشور وبابل ، وبذلك حمل زلما ــ نصّار تماما مثل والده كحاكم بابلي ، لقبا يختلف عن لقبه في آشور ، حيث تذكره القائمة الملكية البابلية تحت اسم اولولاي •

ولقد نودي به حتى خلال السنة الثانية لاستلامه الحكم الى ساحة المعركة ، اثر حوادث شغب في بلاد الشام وفلسطين • ولهذا اضطر أن يخصص كامل قوته لثلاث سنوات متعاقبة (٧٢٤ ــ ٧٢٢) ، في سبيل اعادة تثبيت دعائم السلطة الآشورية في الغرب ، كما كانت في عهد والده • اذ حدث أن اتفقت اهداف عدد كبير من امراء فلسطين الصغار ، مثل "هنّو" امير غزة ،، الذي كان قد هرب امام تيغلات بيليزر ــ الثالث ، والأمير التابع حوزيــا بن ايلا السامرائي، ومعهما احد الطامعين بالامارة في حماة، وكذلك ارباد ودمشق وسيميرا ، الميناء

البحري • فضم الجميع تحالف إنتظر مساعدة مصر • وهكذا امتنع بعضهم عن دفع الجزية، واراد بعضهم الآخر الانفصال عن الامبراطورية الآشورية•فبالرغم من وجود مصر وقتئذ في وضع الدولة المحتضرة ، فانه لم يرق لها النظر ، كيف تتصرف آشور بجنوب فلسطين ، وأن تبقى هذه تابعــة لها • ولو قدر لـ « زلما ــ نصّار » أن يبقى على قيد الحياة ، لاستطاع بكل تأكيد اعادة تنظيم بلاد الشام حسب المفهوم الآشوري • ان وضع نهاية لحياة زلما ــ نصّار ، لم يأت على يد اعداء من الخارج ، وانما من داخل بلاد آشور ، وذلك عندما كادت الحملة على بلاد الشام أن تشرف على الانتهاء من مهمتها • وبذا لم يكن حكمه الا كمرحلة انتقالية ، نعم كدافع الى تغيير حزبي وقيادي داخل الطبقة الآشورية الحاكمة •

زارجــون الثــاني

يمكن أن يكون الملك الجديد ، الذي سجل لنفسه احتلال سامارا[٦] ومن ثم تهجير سكانها ، والقضاء على آخر معقل للاسرائيلية ، هو احد قواد جيش زلما ــ نصّار • يعلل هذا الملك الجديد تبوؤه العرش عنوة ، بانه اراد بذلك الانتقام لامير الآلهة آشور ، نتيجة لذلك الظلم الذي الحقــه به كل مــن « تيغلات ــ بيليزر » و « زلما ــ نصّار » بسحبهما لتلك الامتيازات التي كانت تتمتع بها مدينة آشور • وكما رأينا فاننا لا نستطيع الجزم ، ما اذا كان الدافع لهذا الاجراء يتجسم في مشكلة ملكية الدولة لرأس المال ، أو أنه نتج عن السياسة الاجتماعية ، أو النزاع الحزبي (الجيش ضد الكهنوت) • ومن ناحية أخرى ، يجب أن يكون الملك الجديد هو ذلك الرجل ، الذي استطاع أن يخلق لنفسه نسبا عائليا اسميا ، ليدعم شرعية استلامه للحكم ، حيث استطاع بذلك أيضا تسمية نفسه شاروكين أي الملك الحقيقي ، زارجــون الثاني الآشوري ، الذي يمثل رغبات ومصالح حزب معين ، ارتبط ارتباطا وثيقا مع العاصمة القديمة آشور ومع إلهها وكهنتها •

وبغض النظر عن ذلك التغير الحزبي الآشوري الداخلي ، فانه لا يظهر أي إختلاف في المشاكل السياسية الخارجية الهامة ، ما بين « تيغلات ــ بيليزر الثالث» و«زارجون الثاني» • وقد لايمكن للمؤسس الحقيقي للسلطةالآشورية العالمية ، لو قدر له الخيار ، ايجاد خليفة له ، اكثر كفاءة من زارجون الثاني ، الذي كان بامكانه متابعة اعماله في بناء الصرح الذي خلّفه • اذ لم تكن حياة هذا الملك الجديد التي ضحى بها في النهاية في ساحات القتال من اجل الامبراطورية ، سوى تكرار لحياة تيغلات ــ بيليزر الثالث •

اما المهام الملقاة على عاتق زارجون ، فقد بقيت نفس تلك التي كانت قبل ذلك •

١ ــ فهناك الدويلات الآرامية في بلاد بابل ، والملكية البابلية •

٢ ــ اورارتو والشعوب الشمالية والشمالية ــ الشرقية •

٣ ــ بلاد الشام وفلسطين • الا ان مهمة زارجون كانت تنحصر فقط في الاحتفاظ بما وجب على تيغلات ــ بيليزر بناءه •

واذا نظرنا الى الوضع العام للشرق الأدنى القديم ، لوجدناه وقتئذ يختلف بعض الشيء ، عما كان عليه سابقا ، لأن المرء بدأ يحس بذلك الضغط الجديد لتلك القبائل الهندية الغربية الآتية من الشمال ، وكذلك من بلاد الاناضول والقوقاز على حد سواء • ولهذا نرى الآن ان احد اعداء زارجون الكبار،قد اصبح ملك الموشكيين (أو الموشيين) المسمى « ميتا » ، الذي ليس للمرء أن يرى فيه ، سوى تلك الشخصية التاريخية ، التي شكلت عند اليونانيين انفسهم ، الخطوط العريضة لاسطورة الملك الفريجي ميداس • وقد كان هذا الملك زعيم وقائد الفريجيين في هجوم جديد على الشرق الأدنى • اما من الجهة الشمالية الشرقية ، فنرى مقابل ذلك الكيمريين (كيمارّاي الآشوريين) يضغطون على الميديين في شمال ــ غرب ايران ، وبصورة خاصة على المملكة الاوزارتية ، التي كان قد حصنها الملك روسا الأول ، حيث الحقوا بهذه هزائم

دموية جسيمة ، كتب حولها زانحاريب الى والده زارجون • فبالرغم من ان زارجون الثاني قد سنحت له الفرصة ، تتيجة ذلك ليهاجم مملكة اورارتو الضعيفة ، تحت ظل شروط موضوعية جيدة وليقضي نهائيا على سلطتها ، إلا أن بلاد آشور لم تبق طويلا ، حتى وقعت تحت ضغط الشعوب الهندية الغربية القادمة من الشمال ــ الشرقي • وكما هو الغالب احيانا في التاريخ، فان زارجون قد خطّ بنفس الوقت تتيجة انتصاراته على اورارتو أسس جدار وقائي عاشت بظله وبحمايته بلاد آشور •

وقد وقف زارجون مباشرة في بلاد بابل ، بعد الانقلاب الذي قام به ، والذي استولى بموجبه على الحكم ، امام اذكى وانشط واعند اعداء بلاد آشور ، انه حاكم بلاد البحر ، أقصى دولة كلدانية في ابعد نقطة في الجنوب على الخليج العربي ، ألا وهو مردوك ــ أبال ــ ادّينا من بيت ــ ياكين • وقد الحق هذا العدو بـ « زارجون » ، وبواسطة حليفه ملك عيلام هزيمة نكراء ، ولم يبق لـ « زارجون » ، إلا أن ينسحب من بلاد بابل، وذلك الى اجل غير مسمى ، وأن يرى كيف يقبل مردوك ــ أبال ــ ادّينا يدي تمثال مردوك ، اشعارا منه بانه أصبح بذلــك ملكا على بــابل • ولم يستطع أن يكرس قواه ثــانية لحل الأزمة البــابلية ، الا بعــد اثني عشر عامــا وبعد غزو باقي اقسام عالم الشرق الأدنى ، وإعادة ضمها الى ملكية الإله آشور • وهكذا وبعد حملة صغيرة إلى الشرق من دجلة ، فصل بواسطتها استراتيجيا بين بلاد بابل وعيلام ، وعبر نهر الفرات الى الجنوب من مدينة بابل، حيث اكره بهذه الطريقة مردوك ــ أبال ــ ادّينا على الهرب باتجاه الجنوب • استطاع زارجون اثر كل ذلك في عام ٧٠٩ ق•م دخول مدينة بابل ، وتسلم الملكية من يدَيْ الإله مردوك وفي السنة التالية تمكن زارجون مــن تدمير مقر مردوك ــ أبال ــ ادّينا المسمى بـ « دور ــ ياكين » ، الواقع في جنوب منطقة الكلدانيين • ولهذا اطلق زارجون على نفسه ، لقب ملك « سومر » و « اكاد » ، وبذا ظهر كخادم متحمس للآلهة ، فاعطى امرا بترميم

البيوت المقدسة في اوروك ، ومدن مقدسة اخرى ، وطبق في جميع انحاء الامبراطورية ، نظام الولاة الاداري الآشوري .

اما بلاد الشام وفلسطين ، فلم تسببا لـ « زارجون » مشاكل كبيرة طوال حكمه . الا انه بالرغم من قيام المحاولات التقليدية هناك لكسر النير الآشوري ، لم تحدث تلك العمليات العصيانية الكبيرة التي هددت كيان الامبراطورية الآشورية . ففي سنة ٧١٧ ق.م استطاع « ميتا » الموشري ، اجتذاب ملك كركميش على الفرات إلى جانبه ، فما كان من زارجون إلا أن اتخذ من ذلك سببا لاحتلال كركميش وتهجير سكانها الذين ظلوا يشكلون تلك البقية الباقية من منطقة الاستعمار الحضاري الحثي، والتي كانت ماتزال حتى القرن الثامن ق.م ، تستخدم اللغة اللوفية، وتكتبها بما يسمى بالخط الحثي الهيروغليفي . وبالاضافة الى ذلك ، فقد حافظت هذه المنطقة على بعض التقاليد الحثية ، بالرغم من « تأشر[1] » و « تأرم[2] » هذه المنطقة . وبعد بضع سنوات من ذلك أملت احدى مدن الفلسطينيين القديمة مرة أخرى وهي عسدود بمساعدة مصر ، لتحاول الانفصال عن الامبراطورية الآشورية ، متعاونة في ذلك مع « يهودا » و « ادوم » و « موآب » . ولقد حدث هذا ، في الوقت الذي كان فيه نفس فرعون مصر « بوكخوريس » ، يقدم الجزية إلى زارجون ، حيث كان ذلك على الارجح ، سعيا وراء مساعدته ضد الملك الاثيوبي شاباكا . إلا ان تنبؤات النبي إشعيا ، صدقت بقولها بعدم جدوى الامل بالمساعدة المصرية . اما زارجون فقد حاول بادىء ذي بدء حل المشكلة ، بأن نصّب ملكا جديدا على عسدود . وبعد أن فعل ذلك ، اغتيل هذا الملك الجديد من قبل السكان، واستعاضوا عنه بأحد الايونيين، أي بأحد اليونانيين من قبرص . وما كان من زارجون ، الا أن اضطر معها إلى احتلال

---

(١) تأشر : اي التأثر بالآشورية دما وحضارة .

(٢) تأرم : اي التأثر بالارامية دما وحضارة .

المدينة ، بواسطة أحد « تورتانيه » أي أحد قوادة العسكريين .

وعندما أصبح زارجون ملكا على بابل ، كان قد انتهى من تشييد مقره الجديد المسمى بـ « دور شاروكين » ، أي حصن زارجون ، وتسمى اليوم بـ « كورس آباد » ، حيث تقع إلى الشمال ــ الشرقي من مدينة نينوى . لا تعتبر هذه المدينة في الواقع ، إلا تمثالا حياً لعظمة هــذا الحــاكم الكبير اكثر من ان تكون مدينة حصينة مزدهرة . إننا مدينون لخرائب هذه المدينة ، لنقلها لنا أحداث هذه المرحلة الهامة من التاريخ الآشوري . ويعتبر هذا المقر في الواقــع كتاج لبناء صرح استغرق تشييده طــوال حياة هذا الملك ، هذا المقر الذي أثر على تاريخ الشرق الأدنى ذلك الحين من جزيرة قبرص حتى جزيرة تلمون على خليج البصرة ، ومن حدود مصر حتى القوقاز ، ومن كيليكيا حتى بلاد الميديين .

ومن جهة ثانية فان السنوات الأخيرة من حكم زارجون ، ليست واضحة المعالم بالنسبة لنا ، إذ لا نعلم شيئاً سوى حملته إلى تابال في شرق آسيا الصغرى ، ومن ثم النهاية المفجعة القاسية وذلك على الارجح اثر هزيمة نكراء له . إلا اننا لا نعلم أين وضد مَنْ سقط زارجون صريعاً . غير اننا متأكدون بأنه لم يدفن على كل حال في تراب الوطن . كما نعلم أيضا بأن ابنه زانحاريب، بذل جهودا قصوى في بحثه عن أسباب غضب الآلهة على مناضل آشور الكبير . ولما كانت الآلهة قد بخلت عليه بدفنه على الأقل في وطنه ، فاننــا نجدها من ناحية أخرى قد رزقته احفادا اكسبوا السلالة اكبر شهرة خــلال القرن الأخير في التاريخ الآشوري .

زانحــاريب

لما اراد زارجون أن يضمن لسلالته الامان ، بذل كل ما بوسعه اثناء حياته ليوكل إلى ابنه زانحاريب القيام بمهام كبيرة . وقد كان زانحاريب ،

عندما كان لا يزال وليا للعهد ، حاكما على « اميد » ، حيث وجب عليه اثناء ذلك حماية الامبراطورية تجاه الحدود الاورارتية • وبالرغم من ذلك فقد كان لا بد ، كما هو في أغلب الاحيان ، أن تتصف علاقة الابن مع الأب بالتوتر وتغلب عليها صبغة العداء • ومهما يكن من الامر فانه لا بد وأن يكون زانحاريب قد تنكر لوالده • الا انـه لا يجوز للمرء الظن ان زانحاريب قـد لعب دورا مـا في موت والـده المفاجيء ، أثنـاء قتـاله خـارج الوطن • ومن ناحيـة أخـرى نرى ان زانحـاريب يتحدث في مخلفاتـه الكتابية ، عن المعاصي التي اقترفهـا والـده ، والتي قـادت ـ حسب اعتقاده ـ الى وفاتـه المحزنة ، دون أن يـذكر إسم والده في أنسابه • وبالاضافة الى هذا وذاك ، فقد أخلى هـذا الملك ايضا وفورا المقر الذي كان زارجون قد وسعه ، كما لم يكمل أيضا الابنية غير المنتهية بعد ، والتي كان والده قد بدأها في آشور ، حتى لا يكون بوسع أي انسان رؤيتهاثانية•

لقد اختلفت الآراء في حكمها حول زانحاريب كحاكم : لقد وصفه البعض من ناحية ، بانه ذلك الرجل ذو البرامج الخيالية المقترنة بعبقرية غير كافية لتحقيقها ، ومن ناحية اخرى كرجـل سياسي متأن وصبور ، فهـم كيف يتحين الفرص ليصل هدف العمر ، وهو تدمير مدينة بابل والاستعاضة عن إلهها الكبير بالإله آشور • ومهما يكن الامر فشخصية زانحاريب التي نستقرئها من خلال المصادر شبيهة لحد كبير جـدا بشخصية الانسـان الجبـار توكولتي ـ نينورتا الأول ، أكثر من شبهها لشخصية هذين المخططين القائدين والقادرين على الانسجام مع الظروف السياسية الواقعية ، وهما « تيغلات ـ بيليزر الثالث » و « زارجون الثاني » • فبالرغم من ان هذين المغتصبين قد غيرا حسب مخططاتهما معالم الشرق الأدنى بتلك القسوة التي اتصفت بها الطريقة الآشورية ، إلا انهما كانا منقادين حتى في هذا الاسلوب من إحساسهما وادراكهما لما هو ممكن • كما وتميزت طبيعة زانحاريب بالميل الى النظريات المادية ، كما يظهر ذلك الى العيان بحبه لكافة المخترعات والتحسينات التكنيكية،

بالاضافة الى القسوة التي لا تعرف الحلول الوسطى • ولما لم تتفق هذه الطبيعة والسياسة في السيطرة على الامور ، لم يستطع زانحاريب إلا بصعوبة جمة ، الاحتفاظ بما كان قد قاتل اسلافه من اجله • واذا تأملنا حياة زانحاريب كملك آشور ، نجد ان الحادثتين الهامتين في حياته ، واللتين خلدتا في ذاكرة العالم بعده ، هما فشله في حصار القدس ، واقدامه على تدمير مدينة بابل فشكل كل منهما الفشل الذريع •

لقد اندلعت حتى في السنة التي اعتلى فيها زانحاريب العرش عام ٧٠٥ ق•م نيران عصيان بين الامراء الصغار في بلاد الشام وفلسطين ، وبمساعدة جيش مصري ـ اثيوبي هب مرة اخرى لمساعدتهم • فبالرغم ان زانحاريب قد استطاع عام ٧٠١ ق•م ، تهدئة القسم الأكبر من بلاد الشام وفلسطين ، وأن يهزم الجيش المصري ، ويقيم بعد جهد جهيد مخيمات جيشه امام مدينة لحج، ليستعد لحصار مدينة القدس ، وبالرغم انه استقبل هدايا الجزية من الملك حزقيا من يهودا ، إلا انه لم يوفق على إكراه سكان القدس على تسليم مدينتهم، ولو انه أكد مرارا على هذا الطلب بواسطة رسل خاصين للقيام بهذه المهمة • اما إشعيا الذي نصح الملك حزقيا بادىء الامر ، ألا يشترك في حلف ضد الآشوريين ، نجده يقف الآن الى جانب حزقيا متنبئا ان زانحاريب سوف « لا يستطيع دخول القدس ، أو يطلق سهما داخلها، ولا يرفع ترسا في وجهها، ولا يبني جدارا ضد هذه المدينة ـ لحصارها ـ » • اما الذي وقف حائلا دون هجوم زانحاريب على القدس ، فلم يكن الجيش المصري الجديد الزاحف لمساعدة هذه المدينة ، وانما كان ذلك « معجزة واعجوبة انقذتا ! » المدينة : « ففي نفس الليلة خرج ملاك يهوه وقضى على ١٨٥٠٠٠ رجل في المخيم الآشوري • وعندما استيقظ المرء صباح اليوم الباكر ، وجدهم جثثا هامدة» • ولهذا قام زانحاريب وعاد فورا الى الوطن • والشيء الأدهى من ذلك هو ان زانحاريب لم يستطع الادراك ، ان فلسطين لا يمكن فتحها أو المحافظة عليها بفتح القدس ، وانما فقط بغزو مصر نفسها •

وكذلك أيضا في بلاد بابل،فان فشل سياسة زانحاريب، لا يعود في الواقع الى عدم القدرة ، أو استحالة تحقيق السيطرة من الوجهة السياسية على تلك الأوضاع المنهارة ، أو التغلب على تلك الاحلاف غير الطبيعية ، التي اصبحت تجمع حتى بين الاعداء ضد الآشوريين • ان علاقة امراء القبائل الكلدانية ـ الآرامية مع الكهنوت البابلي ، كانت مبنية على الدس والطمع ، وزاد في ذلك حدة التحالف العيلامي ضد الآشوريين بشكل لا يطاق • وبعد سنوات عديدة من محاولات زانحاريب ، بوضع حد لهذه الفوضى السياسية في بلاد بابل ، لجأ هذا الملك الى تعيين ابنه اشور ـ نادين ـ شوم كوال على بابل• غير انه لم يمض الوقت الطويل ، حتى وقع هذا في ايدي العدو خلال تلك الاوضاع المتردية ، فكان أن خسر حياته • وهكذا يمكن أن يكون زانحاريب، قد وجد في اغتيال ابنه الاكبر ، الذي ذهب ضحية للمشكلة البابلية ، عذرا مشروعا ليقضي نهائيا على بابل ومعها عبادة مردوك أيضا • ومهما تكن الاسباب الحقيقية ، التي دفعت بـ «زانحاريب» للقضاء على بابل ، تبقى خطيئة هذا الملك واضحة ماثلة للعيان : ذلك انه اراد منذ البداية عدم الاستمرار في تطبيق فكرة اتحاد تاجيّ المملكتين الآشورية والبابلية ، التي رأى فيها كل من « تيغلات ـ بيليزر » و « زارجون » الحل الوحيد للمسألة البابليه • لقد قادت هـذه الفكرة الخاطئة وترفعه عـن التبارك على يـدي مردوك الى العصيان الذي قام به « ابن العبد » ذلك المسمى بـ « مردوك ـ زاكير ـ شوم » ، وأدى أيضا الى ظهور مردوك ـ أبال ـ أدّينا القديم ومن ثم تنصيب وبالتالي انفصال ذلك الشخص البابلي بيل ابني الذي كان قد تربى في آشور • وهكذا قادت جميع هذه الامور الى تسمية الامير الآشوري اشور ـ نادين ـ شوم، كحاكم ومن ثم موته• وهذه جميعها دفعت بدورها «زانحاريب»، بعد أن اغتصب الشيخ الكلداني موشيزيب ـ مردوك العرش البابلي ، ليدمر مدينة بابل ولينقل تمثال مردوك الى آشور • نعم حتى ان ذلك قاده الى نقل تعاليم وطقوس عبادة مردوك الى الإله آشور • كما سببت هذه الامور

جميعها القضاء المعنوي على المدينة المقدسة من خلال تدمير معابدها الرئيسية وغمرها بالفيضان الاصطناعي ، وحتى نقل ترابها المقدس الى جزيرة تلمون في الخليج العربي ، وإلى بيت عيد رأس السنة الجديدة في مدينة آشور • وبالرغم من اتخاذ زانحاريب جميع هذه الخطوات ، فان ذلك لم يغير من الحقيقة ، ان مردوك بقي دوما أشد بأسا واصلب عودا من زانحاريب نفسه •

اسارحدّون

لا نعلم سوى النذر اليسير حول السنوات الاخيرة من حياة زانحاريب• ويبدو على الارجح ، ان زانحاريب قد وجد نفسه مضطرا تحت تأثير زوجته الآرامية ناكيّا ، ليسمي ابنها اسار حدّون وليا للعهد بعده • وهكذا وجب على اخوته الآخرين الاعتراف بتسميته كوريث للعرش • يبدو ان اسارحدّون كان منتسبا الى الحزب الصديق للبابليين في آشور ، حتى عندما كان وليا للعهد ، وانه رسم خطة لاعادة بناء مدينة بابل بما فيها معبد مردوك • هذا ولقد اقدم اسار حدّون ، حال اعتلائه للعرش وتلقيب نفسه باسم ملكي مستعار هو : اشور ــ إتيل ــ إيلاني ــ موكين ــ أبلي (أي اشور حاكم الآلهة ومنصّب الابن) ، اقدم على اضافة تعبير « باني ايزانجيلا » و «مدينة بابل» على هذا اللقب • ومن الممكن أن يكون اخوة اسار حدّون وحزب الإله آشور ، قد اطلعوا على مخطط هذا الملك ، عندما قاموا عام ٦٨١ ق•م باغتيال زانحاريب في معبد ما ، كان على الارجح معبد نينورتا في مدينة كلخ • اما النظرية التي تقول ، بأن اسارحدّون هو الذي قتل والده ، فانها باطلة ، لان اسارحدّون كان غائبا خارج وطنه عندما اغتيل والده • اما الشيء المرجح ، فهو ان اخوة اسار حدّون لم يصفحوا عن والدهم ، مخرب بابل ، لعدم اخلاصه لإلههم القومي وحاكم العالم آشور •

اما اسارحَدّون ، فقد استطاع اثرهذا التمرد، وذلكفي شتاء عام٦٨٠ق٠م، أن يقود جنده المخلص له ، فاصطدم مع جيش اخوته ، وتغلب عليهم فيمعركة فاصلة بالقرب من مالاتيا • وبعد ذلك تابع اسار حَدوّن سيره بزحف صاعق حيث بلغ مدينة نينوى ، فعقد فيها محكمة قاسية ضد المتمردين • هذا ولم يتلق اسار حَدّون المساعدة فقط من والدته ناكيِتّا ، التي لقبت نفسها بالاسم الآشوري زاكوتو ، بل أيضاً وبنفس ذلك الحماس من البابليين، وبصورةخاصة من كهنة مردوك ، الذين انضم اليهم جميع الكهنة الآخرين في بلاد بابل •ومن ناحية اخرى كان على اسار حَدّون أيضا ، أن يخوض معارك محليةفيجنوب بلاد بابل ، ضد ابن مردوك ــ أبال ــ ادّينا ، وضد الآراميين مغتصبي ارض اولئك البابليين ، الذين هجّرهم زانحاريب • الا ان هذا لم يحل بينه وبين البدء فوراًــ اخلاصاً لنيته ــ في بناء مدينة بابل ، بما فيها معبدي « ازانجيلا » و « اتيميناكي » • لم يكن هذا الاجراء كـآلاف الاعمال التي اعيد فيها ترميم معابـد لآلهة عديـدة ، وانمـا كان اجراء ذو معنى تاريخي عـالمي كبير ، أُكدت فيه مرة أخرى اهمية وشهرة مردوك العالميتين •

اما على صعيد السياسة الخارجية ، فقد قاد اسار حَدوّن الامبراطورية الآشورية إلى القمة ، وذلك بغزوه مصر ، الذي لم يُوفق به إلاّ في المحاولة الثانية • فبعد أن اضطر الجيش الآشوري عام ٦٧٣ ق٠م ، أن يتقبل تلك الهزيمة ، التي أُلحقت به على الحدود المصرية على يد الملك الاثيوبي تيرهاكا، عاد اسار حَدوّن زحفه ثانية على أرض النيل ، وذلك بعد سنتين من المحاولة الأولى، حيثأوكل قيادة الجيش الآشوري إلىقائدهالمسمى شا ــ نابو ــ شو، فنجح فعلا باحتلال وادي النيل ، وانهزم تيرهاكا ، وسُلمت مدينة ممنيس بدون مقاومة تقريبا • وبذلك تدفقت ثروات وادي النيل كغنـائم عـلى نينوى • وبعد هذا الاحتلال ، لجأ اسار حَدوّن ، لتنظيم هـذه البلاد من النـاحية الادارية ، فقسمها الى ٢٢ مقاطعة ، تُدار من قبل اثنين وعشرين والياً ، وُضع الى جانب كل منهم حاكم آشوري • ولما عاد اسار حَدوّن من وادي

النيل إلى آشور مارا في بلاد الشام ، أقام لنفسه نصبا على صخور جبال نهر الكلب ، مفتخراً بغزوه مصر في تلك الكتابة التي حفرت على هذا النصب • كما أقام هذا الملك في المدن الصغيرة من بلاد الشام ، نصبا تذكارية أخرى ، ترينا صورة هذا الملك مع ابنيه « اشوّر ــ بانيبال » و « شمش ــ شوم ــ اوكين » • ويعرض علينا منظر آخر يظهر فيه هذا الملك ، وهو يقود بحبل، كلا من الملك الاثيوبي « تيرهاكا » ، و « بعل » امير صور كالحيوانات الاسيرة • غير ان هذا المشهد ، لا يتعدى التعبير الرمزي لانتصاره في هذه الحملة على وادي النيل • ولو تصفحنا التاريخ القديم للشرق الأدنى ، فاننا لا نجد قوة انسان بلغت من الشهرة ، ما بلغته قوة هذا الملك ، لدرجة ان عظمة زارجون الاكّادي عجزت عن أن تبلغ ذلك •

ومن ناحية أخرى ، فلو درسنا وضع عالم الشرق الأدنى القديم ، في عصر اسار حدّون ، لوجدنا هذه الامبراطورية ، بالرغم من ذروة القوة التي بلغتها ، والتي ابهرت الاعداء بشهرة الإله آشور ، قد قاربت حافة الهاوية والانهيار • ولو ان اسار حدّون لم يعط تلك الأهمية الى التنبؤات وحِكَمِ الإله التي صاغها له كهنة إله الشمس المنجمين ، او الى تلك التي ألفها له عرّافو وعرّافات عشتار ربة اربيلا ، التي وصلتنا تامة ، لرأى شخصيا ان النهاية ليست ببعيدة • ولو انه واتباعه قد تفرسوا واقع مملكته الخاصة في بلاد آشور وبلاد بابل ، فلم يكن قد غاب عنه بان انشقاقا وانحلالا داخليين ، قد تغلغلا الى عرش آشور لدرجة صابا معها حتى جذور العائلة المالكة : فمثلا لم تعد والدته آشورية ، وقام كلاهما ــ الوالدة والابن ــ على حد سواء ، فاعادا إلى الإله مردوك حقوقه ، دون أن يتمكنا من الاقدام على اعادة تمثال هذا الإله فوراً الى معبده • لقد قاد اعادة بناء مدينة بابل من قبل الملك الآشوري العالم بأجمعه ، لأن يقر فشل السياسة الآشورية ، خاصة وانه قد اعترف مسبقا ، باتنصار مردوك على بلاد آشور ، ولو ان ذلك لم يتخذ بعد الشكل السياسي • كان على اسار حدّون

أن ينظر بعيـدا ليعرف المستقبل • كـان عليه أن يوجه نظره ليس الى مصـر الضعيفة الهرمة الغنية بالكنوز والعـادات والتقاليد ، حيث فتح الطريق لشعبه الى صناعتها اليدوية وفنها وحِكمها ، وانما كان عليه أن يذهب أبعد من ذلك ، أي إلى الحدود الشمالية والشمالية ـ الشرقية من الامبراطورية ، حيث هددت القبائل الهندية الغربية من هناك، المنطقةالآشورية، أو بدأت بتوحيد نفسها تحت لواء دولة واحدة • وهنا بالذات كمن الخطر ، الذي كان عليه أن يصده الى مناطق أخرى مجاورة • فمن بلدان شمال البحر الأسود قـدمت على الدوام طلائـع جديـدة من الكيمريين الى الشرق الأدنى • اما اورارتو التي كانت فيمـا مضى محط الضربـات الآشورية ، لم تعد تملك ، منذ انتحارها في عهد روسا الأول معاصر زارجون الثاني ، القوة التي تكفي لصد القبائل الهندية الغربية النازحة • ولذا فان اورارتو لم تؤثر الا على اتجاه زحفها ، فوجهت هـذا الزحف نحو الغرب ونحـو الشرق • وهكذا استوطن الكيمريون اقساما كبيرة من اراضي آسيا الصغرى، واعقبهم توغل السيكتيين من الخلف • والى الشرق ، يقف الكيمرويون مع حلفائهم الميـديين ، وذلـك في ضـواحي كيشاسّو عاصمة البـلاد الميدية التابعة للامبراطوريـة الآشورية • وهنا شعر اسار حدّون بالخطر الذي يهدد كيان الامبراطورية فسـأل إلـه الشمس ، ما اذا كـان الاعداء سيزحفون على المدينة ويتوغلون داخلها • إذ الشعور بالعجز امام هذه القوة الجديدة ، ليتبين لنا ايضا من محـاولتـه التحـالف مـع السيكتيين ضـد الكيمريـين والميـديـين • لقـد قـام بهـذه المحـاولـة ليبدل سوءا بسوء آخـر ، حيث ضحى في سبيلها بابنة لـه كزوجـة في « حَرَمِ » قائـد السكيتيين ، الذي ذكره هيرودوت باسم بروتوتياس (= بارتوتوا في الآشورية) • وهكذا اضطر اسار حَدّون ، أن يقف مكتوف اليدين ، دون ان يتخذ اية خطورة في سبيل انقاذ مدينة كيشاسّو من مصيرها المحزن • وفي هذا الوقت على الارجح ، فقدت الامبراطورية الآشورية المقاطعة

الميدية ، التي التحمت فيها كل القبائل الميدية في دولة واحدة مستقلة .

وعندما اصيب اسار حَدّون بالمرض ، بعد وفاة زوجته واكبر ابنائه سنا ، اخذت والدته ناكيَّا تلعب دورا بالتأثير على قضية وراثة العرش ، في حال موت اسار حَدّون. وهكذا أيدت ناكيَّا الامير الشاب اشور ـ بانيبال ، الذي كان من المقدر أن يصبح عالما دينيا وكاهنا ، ايدته في اهدافه السياسية الطموحة ، وذلك ضد الابن الثاني الأكبر لـ « اسار حَدّون » ، وهو شمش ـ شوم ـ اوكين . وهكذا حدث أن قام اسار حَدّون عام ٦٧٢ ق.م ، ليعلن رسميا في اجتماع لـ «كبار الدولة» ، ولاية اشور ـ بانيبال للعهد ، « استجابة لرغبة ووصية الإله آشور والإله نينليل » . وتتيجة لذلك اخذ اشور ـ بانيبال منذ الآن يشارك الملك في الحكم ، بحيث لا يُسند شاغر أي منصب في الدولة لأي امرىء ، إلا وأن يؤخذ رأي ولي العهد بذلك . ولكي يكسب اسار حَدّون الى جانبه الأجنحة المعارضة في البلاط الملكي لهذه الخطوة ، اضطر هذا الملك عام ٦٧٠ ق.م ، أن ينصب ابنه الثاني الأكبر سنا شمش ـ شوم ـ اوكين برتبة شرف ولقب « ولي عهد بابل » . إلا ان هذا الاجراء ، لم يحلْ دون اندلاع نار العصيان ، على يد حزب شمش ـ شوم ـ اوكين التي اخمدت بالقوة .

وهكذا اضطرب الجو ، وازدادت الظلمة حلكة حول هذا الحاكم العالمي ، لدرجة أنه هُدد معها بالزوال سبب شهرته العالمية ، وهو احتلال أرض النيل .

وعندما قام ثلاثة من حكام المقاطعات ، الذين نصبهم اسار حَدّون في وادي النيل ، ومنهم نيخو مع تيرهاكا بانتفاضة ضد بلاد آشور ، لم يعد هناك لـ « اسار حَدّون » من مفر ، سوى ارسال قائده شا ـ نابو ـ شو على رأس جيش الى مصر ، للقضاء على هذه الحركة. ولما لحق اسار حَدّون بهذا الجيش ، مات اثناء زحفه عام ٦٦٩ ق.م . قبل أن تطأ قدماه ارض مصر ، دون أن ينفعه ذلك التنبؤ السري المتفائل على يد إله الشمس .

اشور ـ بانيبال

بعد أن انتهى الأمر على هـذه الحـال ، اصبح الطريق مفتوحـا امام اشور ـ بانيبال ، الذي قدمت له جدته ناكيَّا في بلاط نينوى كافة المساعدات، ودعمته بكل ما اوتيت من قوة • ويبدو ان العناصر المعادية لـ « اشور ـ بانيبال » ، قد اشتؤصلت جذورها اثناء محاولة العصيان ، في نهاية عهد اسار حَدّون ، ليبدأ اشور ـ بانيبال حكمه بكل هدوء ، ودون شغب جانبي يلهيه عن جوهر الموضوع والقضية • وهكذا استمرت حملة شا ـ نابو ـ شو على مصر بعد موت اسار حَدّون حسب مخططها • وفي نهـاية الحمـلة على مصر ، سيق نيخو اسيرا الى نينوى ، حيث استطـاع بذكائه العودة الى مصر ، مثقلا بهدايا ثمينة كتابع للملك الآشوري اشور ـ بانيبال، وذلك عوضا من أن يُقاد الى الموت • كما أُعطيت لابنه بسَامِّيتش ، الذي اطلق على نفسه اسما آشوريا ، هو نابو ـ شيزيب ـ أنِّي ، ولايـة أتريبيس من قبل الملك الآشوري • ففي السنوات التالية حاول خليفة تيرهاكا المسمى تانّات ـ آمّون مرة أخرى ، تحرير مصر من حكم الآشوريين ، الا ان هذه المحاولة باءت بالفشل عام ٦٦٠ ق•م ، واستطاع اشور ـ بانيبال في هذه المناسبة ، تخريب مدينة طيبا ونَقل مسلتين مصريتين الى بلاد آشور • وبعد مدة وجيزة من ذلك ، اثر موت نيخو ، انفصل ابنه بسامِّيتش (نابو ـ شيزيب ـ أنِّي) عن اشور ـ بانيبال محطماً بذلـك النير الآشوري • لقد كان في هـذا ، البرهان على ان الاحتفاظ بمصر بالقـوة العسكرية ، انما يترتب عليه نفقات عسكرية باهظة ، تثقل كاهل الامبراطورية الآشورية • وبالاضافة الى ذلك لقد فشلت أيضا محاولة أشور ـ بانيبال ربط أمراء المقاطعات به باساليب نفسية غير مقترنة بامكانيات كافية •

لقد كانت خسارة الامبراطورية الآشورية لمصر، العلامة الفارقة لتغير اوضاع العالم ذلك الوقت • لقـد كانت النتيجة الطبيعية التجويف البطـيء لجسم الامبراطورية الآشورية • ولم يصبح هذا التجويف واضحاً تماما للعالم ،

الا عندما أصبح لا مفر مـن الحرب بين الشقيقين « اشور ــ بانيبال » ، و « شمش ــ شوم ــ اوكين » ، كما توقعه كبار بلاد آشور • اما اشور ــ بانيبال فقد انتصر في هذه الحرب الأهلية ، كما فاز في حروب أخرى قادها بنفسه ، أو سمح لقواده بامر قيادتها في بلاد الشام ، وخاصة في عيلام • ولقد كانت هذه الحرب الأهلية البرهان القاطع ، على أن بلاد آشور لم تكن قادرة على حل المسألة البابلية • ففي الوقت الذي وقعت فيه الامبراطورية الآشورية ، اكثر من أي وقت مضى ، في شباك الحضارة البابلية وخاصة في شراك دياناتها ، قامت هذه الامبراطورية من جهة أخرى بمحاولات عديدة ، لتنزعم وتقود بلاد بابل سياسيا • وهكذا منذ أن استخدم توكولتي ــ نينورتا قبل مئات السنين ولاول مرة القوة ضد بابل ، استمر التأرجح في السياسة الآشورية تجاه بلاد بابل • ولذا نجد تيغلات ــ بيليزر الأول ، قد اتبع لمرحلة ما ، سياسة اللقاء السلمي مع بلاد بابل • وبعد حقبة طويلة من الضعف ، ركز الملوك الكبار في القرن التاسع ق•م ، مرة أخرى ، على سياسة القوة ضد بابل ، الى أن أتى تيغلات ــ بيليزر الثالث ، فدمج التاجين باتحـاد فيدرالي • واتى بعده زانحاريب متبنيا فكرة تقول ، بانه لا يمكن تدعيم آشور عالميا ، إلا إذا استمدت قوتها من الإله آشور ، وليس من الإله مردوك • لقد وجب على الإله آشور والحالة هذه ، أن يكون خليفة لمردوك • بيد ان هذه التجربة الراديكالية ، قادت الى عكس ماقصد منها في تلك اللحظة ، وذلك عندما اقدم هذا الملك ، على تسمية اسار حدّون ابن المرأة الآرامية ناكيئا ، وريثاللعرش ، ومجددا لتعاليم وطقوس ديانةمردوك• وكانت آخرمحاولةفيهذا المضمار ، تقسيم السلطة بين « آشور » و « مردوك » ، علىاميرين آشوريين ، هما « اشور ــ بانيبال » و « شمش ــ شوم ــ اوكين » ، التي انتهت بافظع حرب اهلية جرت بين الشعبين •

لم يكن شمش ــ شوم ــ اوكين يوما ما بملك حر مستقل على بـلاد بابل ، حتى ولو كان المقصود ببلاد بابل فقط ذلك القسم الشمالي من البلاد ،

وذلك بغض النظر عن القسم الجنوبي ، الذي كان يُدار من قبل الدويلات الآرامية والكلدانية في الجنوب ، التي كانت من ناحية اخرى وبنفس الوقت تحت سيطرة الملك الآشوري مباشرة • ولما كان شمش ـ شوم ـ اوكين قد بقي قرابة عشرين عاما ، مخلصا ومعترفا بسلطة اشور ـ بانيبال ، لذا فانه من الصعب الآن التأكد ما إذا كان شمش ـ شوم ـ اوكين ، هو المسبب والمحرض لاندلاع نار العصيان العام ، الذي اجتاح كافة انحاء الامبراطورية عام ٦٥٢ ق•م ، أو انه اضطر الى الانضمام اليه • وقد كان هذا العصيان العام من الخطورة ، بحيث كان على اشور ـ بانيبال أن يذلل صعاب اخطر موقف سياسي ـ عسكري واجهه طوال حياته • وعندما قرر شمش ـ شوم ـ اوكين ، أن يدخل الحرب ضد اخيه ، وقف الى جانبه كل القسم الجنوبي تقريبا من بلاد بابل ، وبصورة خاصة بلاد البحر بقيادة عدو الآشوريين العنيد نابو ـ بل ـ شوماتي ، الذي يُعتبر مردوك ـ أبال ـ ادّينا الثاني • ولم تبق سوى المدن الكبيرة ، مثل « اوروك » و « اور » و « اريدو » مخلصة للآشوريين ، وذلك لسبب عدم تأرمها بعد ، أي لم يصبح آراميا دما وحضارة ، الا القسم البسيط من سكانها • ووقفت الى جانب شمش ـ شوم ـ اوكين عيلام، ذات القوة العسكرية الكبيرة • كما انضم الى هذا حليف مجاور للامبراطورية من الغرب ، وهو كيكاز الليدي ، الذي كان قد ساعد بسامّيتش المصري ، قبل سنوات قليلة بجنود مرتزقة من الكاريين ، والايونيين ضد الحكم الآشوري • والى جانب هؤلاء جميعا ، انحاز كذلك الامراء الصغار في بلاد الشام وفلسطين ، بالاضافة الى عرب صحراء بلاد الشام •

وبعد اربع سنوات من الحرب المتواصلة ، انتصر اسلوب فن الآشوريين في الحرب ، وقدرتهم الجبارة ، على حلف كبير من الاعداء ، جمعتهم رابطة العداء للدولة الآشورية • كما لم يستطع الآشوريون إلا عام ٦٤٨ ق•م ، نهب وبالتالي تدمير مدينة بابل ، وذلك بعد حصار دام سنتين على الاقل • وقد

تعرضت مدينة بابل اثناء هذا الحصار الطويل ، الى الموت جوعا خلال الصبر غير المجدي ، املا بنجاح محاولات يائسة لمساعدتها ، قام بها حلفاؤها العرب . ونتيجة لذلك قذف شمش ــ شوم ــ اوكين بنفسه في النيران الضارمة ، التي التهمت قصوره ، واعقب ذلك ، أن قام اشور ــ بانيبال بتتويج نفسه على عرش بابل ، تحت اسم جديد هو كاندالانو . وبالرغم من هذا التدمير الكاسح ، الذي أصاب مدينة بابل ، نجد اشور بانيبال لم يتحاش فقط تخريب مدينة مردوك الخاصة ، بل قام بترميم الكثير من الاماكن المقدسة في البــلاد .

امّا على صعيد السياسة خارج بلاد بابل ، فقد قاد اشور ــ بانيبال ، أو ترك قواده كما اصبحت عليه الحال الآن ، يشنون حروبا عديدة ، وذلك حتى قبل وبعد الحرب البابلية . لقد رأى اشور ــ بانيبال اكثر اعدائه يندثرون الواحد تلو الآخر : فهذا كيكاز يفقد عرشه وحياته على يد الكيمريين ، وذاك نابو ــ بل ــ شوماتي الكلداني ، اضطر الى الانتحار ، حتى لا يسلم حيا إلى الأعداء ، بعد حرب ضروس ضد الآشوريين . اما عيلام التي كانت في حرب مع الآشوريين في عهد اشور ــ بانيبال ، فقد هلك عدد كبير من امرائها : لقد مات الملك العيلامي اورتاكو ، الذي كان صديقا في البــدء لبلاد آشور ، وانفصل عنهم اثناء الحملة على مصر ، مات اثناء هزيمة نكراء عام ٦٦٤ ق.م ، لنجد خليفته ، الذي كان بنفس الوقت اخــوه الاصغر ، تويم ــ مان يسقط شهيداً مع ابنه وصهره في المعركة ، التي نشبت على ضفة نهر اولاي ، حيث قدر لعيلام ألا تستطيع تجميع قواهــا بعد الآن . اما اومّانيكاش الثاني ــ على الارجح ابن اورتاكو ــ الذي نصبه اشور ــ بانيبال في سوزا ملكاً عليها ، فقد انضم الى جانب شمش ــ شوم ــ اوكين ، ليخسر بدوره معركة فاصلة ضد الآشوريين ، وهلك بعدها اثناء ثورة كان تامّا ريتو الثاني قد اوقد نارها . اما هذا الاخير ، فقد قام بوجهه اندابيكاش ، فاضطر للهرب الى بلاد البحر ، حيث وقع اسيرا في يد الحاكم الآشوري هناك ، المسمى

بل ــ ابني ، فارسله هذا بدوره حيا إلى نينوى . الا انه استطاع ككثيرين غيره ، تهدئة غضب أشور ــ بانيبال ، وبقي يعيش في نينوى ، كطامح لاعتلاء عرش عيلام . ومن جهة أخرى فقد لقي اندابيكاش حتفه فيعصيان قام ضده ، لنرى اومنّا لداش الثاني قد خلفه على عرش عيلام . وما كان من هذا الملك الأخير ، الا وأن خاض حربا خاسرة ضد قواد اشور ــ بانيبال ، حيث انتهت بتدمير عاصمته وأسره . وهكذا صمتت نهائيا ، كافة المصادر التاريخية العيلامية منذ عام ٦٣٩ ق.م . وبذا نرى رؤوس جميع اعداء اشور ــ بانيبال ، حتى شقيقه ، وقد غاصت بالغبار ، ليبقى الملك الآشوري وحيدا في ساحة المعركة ، لا يجد من يحاربه . اما فيما يتعلق باعداء اشور ــ بانيبال العرب ، فلم يكن مصيرهم باحسن حظ من هؤلاء . وانطلاقا من التردد وقصر النظر في سياستهم ، تقودهم في ذلك مصلحتهم الشخصية الآنية ، فقد وقفوا أولا الى جانب اشور ــ بانيبال ، ومن ثم انفصلوا عنه ، فانضموا الى اخيه ، ورجوا العفو في الضيق ، فاعيدوا الى امكنتهم ، ثم عادوا فنكثوا العهد . ولما كان هؤلاء ليسوا بمنزلة العدو العسكري المدرب ، لمقابلة اشور ــ بانيبال ، فقد انتهوا الى قطعة مسرحية ، كان آخر فصولها الحملة العسكرية ضدهم . ولقد كانت غنائم اشور ــ بانيبال كثيرة وثمينة جدا ، شأنها شأن غنائم عيلام ، حيث كانت هنا تماثيل قيمة ، وهناك جمال وعبيد .

بالرغم من كافة هذه الحروب والانتصارات ، يشعر المرء لدى اشور ــ بانيبال ، ان الملكية البطولية ، التي هي في الواقع حصيلة « بطولة » الإله آشور ، انها لم تتفق بعد وجوهر هذا الإله . اذ ليس فقط دم هذا الملك قد اصبح خليطا ، أي لم يعد آشوريا صافيا ، وليس فقط انه دُرب في شبابه على اشياء اخرى اكثر من ممارسته لقيادة شؤون الدولة ، ــ إذ نعلم انه تمتع بثقافة علمية كهنوتية عالية ــ بل نجد أيضا ان الملكية ، اصبحت تعكس ، كما يفهمها اشور ــ بانيبال ويطبقها ، الفكرة وكأنها لم تعد تلك الملكية الآشورية الصافية ، وانما قد ارتبطت بالملكية البابلية ،

التي ظلت فيها فكرة الراعي الموكل من الإله لقيادة البشر ، هي الراجحة •

وكذلك فقد كان اشبور ــ بانيبال كأسلافه ، المناضل الأكبر من أجل الدفاع عن حق آشور في العالم • فكما ان الإله يصارع قوى الفوضى والشر ، في يوم خلق العالم وتنظيمه، كذلك قام نائبه الملك يحارب أيضا قوى الفوضى، التي هي عدوة الإله آشور • ومن اجل ذلك لسنا بحاجة إلا إلى قراءة كتاباته القيمة ، أو النظر الى تلك الافاريز الحجرية ذات الرسوم الفنية ، التي امر بنحتها واقامتها في قصر جده زانحاريب في نينوى ، أو في بنائه الخاص في القصر الشمالي في نينوى أيضا • ان الشيء الأكيد هو ان اكثر الانتصارات التي يسجلها اشور ــ بانيبال لنفسه ، لم يحققها الا على يد قواده ، الذين احرزوها بانفسهم ، بينما اقتصر عمله في الوطن على القيام بالمنجزات السلمية ، والمؤلفات العلمية والفن • حقا انها ليست بالصدفة أن يكون هو آخر ملك في تاريخ الشرق الأدنى القديم الذي تنبأ بالانهيار الكلي ، فأمر بجمع مكتبة اوصلت الى الاجيال القادمة على الاقل ، قسطا من الانتاج الفكري لعالم الشرق الأدنى ، وها هو يحدثنا بذاته عن نفسه :

« لقد اهداني مردوك ، حكيم الآلهة ، اذنا صاغية ، ونباهة متقدة لاحدود لها • كما اهداني نبو ، كاتب الكون ، حكمته ، بينما اضفى عليّ كل من « نينورتا » و « نيركال » شخصية الرجولة وقوة منقطعة النظير • لقد احطت بتنبؤات « ادَبا » الحكيم ، كما واطلعت على كنز فن الكتابة المحجوب في بيوتات السماء والأرض ، وانني احل اعقد العمليات الحسابية ضربا وقسمة • لقد قرأت الرقم الطينية ذات الكتابة السومرية التزينية ، وكذلك الاكادية المظلمة (دلالة على تعقيدها) ، التي يصعب فهمها • انني افهم النصوص الكتابية على الاحجار، التي تعود الى ما قبل عصر الطوفان ••• » • وبالاضافة الى ذلك فاننا نعلم ، انه الى جانب الفكرة الآشورية التي تتعلق بمفاهيم الملكية ، قامت نظريات اخرى حول مهام الحاكم ، لم تبتعد كثيرا عن افكار حمورابي كرسول للسلام :

« ... لقد نظرت الآلهة الكبرى بابتهاج وسرور الى منجزاتي الخيرة ، وتمشيا مع اوامرها المهمة ، جلست مصحوبا بالحظ السعيد متربعا على عرش الوالد الذي خلفني . وسَّع الكبارُ ، أي القادة ، سلطتي وأحبوا حملي لمقاليد الحكم . ولقد فرحتْ وهلَّلَتَ جهات العالم الأربع ، عند تسميتي باسمي المشهور . وارسل ملوك البحر الأعلى والاسفل ، العبيدُ الاذلاء عند والدي مخلفي ، ارسلوا لي بمناسبة استلامي لمقاليد الحكم رسل (التهاني) والافراح. لقد خرست اسلحة الاعداء المتمردين ، وفك المتمنطقون (احزمتهم) ... ، لقد ركنت رماحهم الحادة الى الهدوء ، ونامت ... اقواسهم ، اصبح الاشرار ضعفاء ، اولئك الذين يخططون لحرب وقتال من لا يستكين لهم . لم يعد في المدينة ، أو البيت أي انسان يغتصب ملك الآخر . ففي جميع انحاء البلاد ، لم يسبب أي انسان لآخر اذى ما . مَنْ طرق المسالك لوحده ، قطع طولها سليما . لم يعد هناك أي لص يسفك الدماء ... ، حتى ولم تقترف أية عملية (اغتصاب) بالقوة ... لقد سكن الناس مناطق امينة هادئة ، وجعلت جهات العالم الأربع كالزيت النقي صفاء ... وحسب رغبة مردوك لم يعد لي هناك من منافس أو عدو ... » .

كان النصر الذي احرزه اشور-بانيبال على أخيه شمش ـ شوم-اوكين، وعلى البابلية سطحيا جدا . ففي الحقيقة أن الملكية التي هي التعبير الأول للشخصية الآشورية قد تطعمت بالأفكار البابلية حتى تغير جوهرها . ان هذه الملكية المتبدلة الناتجة عن صهر منصب الجندي الأول للاله آشور ، مع ذلك البابلي المرسل من الآلهة مصطحباً معه السلام والرخاء ، لهي التعبير الأخير لمساعي الشعب الآشوري التقليدية منذ مئات السنين ، لتوحيد تقاليده الشعبية وقيادته مع القوة الفكرية للحضارة البابلية القديمة الشقيقة . ومما لا شك فيه، ان هذه الوحدة قد تحققت في مجالات أخرى من الحياة الآشورية ، وقادت لحد ما من خلال منجزات الشعب الآشوري في القرن الثامن والسابع ق.م ، الى قمة حضارية في الشرق الأدنى القديم عامة . ومن ناحية اخرى فقد حوى

« تبـّبل »[1] الآشورية ، وبنفس الوقت « تبـّبل » الشعب الآشوري نفسه في المجالين الديني والادبي ، كما شوهد هذا منذ وقت طويل ، في جوهره « لحـد » الحكم الآشوري العالمي •

لم تربط شخصية اشور ـ بانيبال ، التي نعرفها من مصادر الكتابة المسمارية ، أية روابط مع الشخصية الخرافية لـ « ساردا نابال » المتهور ، كمـا نستشفه من المصادر الكلاسيكية • يمكن أن يكون موقف الدوائر الآشورية العسكرية التي ترى فيمساعي اشور ـ بانيبال ، للربط بينالسلطة والحضارة ، خيانة بحق إلههم القومي آشور ، قد شكل المصدر الأول لتزوير شخصيته في العصر اليوناني ـ الروماني • فاذا ما كان ساردا نابال عند « كتيسياس » آخر الحكام الآشوريين ، فان في هذا شيئاً منالصحة، ذلكأن اشور ـ بانيبال لم يبق بدونخليفة له • ان هذا الملك ، الذي دام حكمهاثنين واربعين عاما ، آخر تاج لبناء قديم ، كان حصيلة مئات السنين من الصراع السياسي ، شيده الشعب الآشوري لإلهه القومي آشور ، وذلك بالرغم من قلة عدد افراد هذا الشعب : لقد وجب على كافة شعوب ذلك العالم أن تـحكم في هذا البناء بالقوة العسكرية ، لا بواسطة عقيدة حاكم العالم ومدبر الكون الإله آشور • ان القـدرة الفكرية ، التي يصعب تصورها ، والتي مكنت الشعب الآشوري دوما من الحفاظ على قيادته السياسية ـ الدينية لعـدد من الشعوب والقبائل الكبيرة ، قد استـنـفذت الآن في شخصية اشور ـ بانيبال • ان كلا الشعبين الآرامي والهندي الغربي ، يطمحان بـلا توقف للحصول على السلطة • والى أن تم النصر النهائي لهذين الشعبين ، لم يكن قد بقي في عمر هذه الامبراطورية ، سوى سنين قليلة اتصفت بالوجـود الاسمي للامبراطورية الآشورية •

---

(١) تبـّبل : اي التأثر بالبابلية دما وحضارة .

نهاية الامبراطورية

يبدو ان اشور ــ بانيبال ، قد اقدم مثل والده وجده ، على تسمية أحد صغار ابنائه سنا ، خليفة له على العرش • فبعد موته اعتلى العرش ، ولمدة خمس سنين فقط ، ملك اسمه اشور ــ اتيل ــ ايلاني ، الذي يدين بعرشه للمساعدة التي قدمها له قائد الجيش زِ نْ ــ شوم ــ ليشير • وعلى كل حال ، فقد حصل هذا القائد من الملك ، على أراض واسعة كهدية ، في حين نجد الملك يقيم في حصنه كلخ (نمرود) • وفي الوقت الذي استطاع فيه هذا الملك ، الاحتفاظ حتى الآن بجنوب بلاد بابل ، نجد قائد جيش كلداني ، هو نابو ــ بولاصّار ينتزع السلطة لنفسه في مدينة بابل ، وكذلك يتحول الميديون الآن للهجوم على المنطقة الآشورية • غير ان اشور ــ اتيل ــ ايلاني تمكن من صدهم ، حيث الحق بهم هزيمة نكراء ، قُتل فيها قائدهم فْرا اورتيس • وفي عام ٦٢٠ ق•م ، حاول زِ نْ ــ شوم ــ ليشير تنصيب نفسه ملكا على العرش ، الا انه عزل بعد مدة قصيرة ، على يد ابن ثان لـ « اشور ــ بانيبال » هو زِ نْ ــ شار ــ اشكون •

لقد كان زِ نْ ــ شار ــ اشكون بادىء الأمر ، محظوظاً في صراعه مع كل من الآراميين ، والميديين على حد سواء ، حيث استطاع هذا الملك غزو مدينة زيبار ، وطرْد خليفة فْرا اورتيس المسمى كياكسارس ، إثر حصار هذا له ، بعد معركة ربحها كياكسارس في نينوى ، وذلك بمساعدة جيش سكيتي •

ففي الوقت الذي ضعفت فيه قوة آشور ، تشكلت فورا كتل ذات مصالح معينة • لقد وجدت آشور اصدقاء لها في اولئك الذين كانوا قبلا الد اعدائها • فالميتريون ، احدى قبائل ايران الغربية ، الذين قاوموا دوما آشور ، انضموا الآن كالسكيتيين ، الى جانب الامبراطورية المحتضرة ، يدفعهم الى ذلك الخوف من القوة المتزايدة للميديين الزاحفين • وكذلك مصر ، فقد وقفت الى جانب زِ نْ ــ شار ــ اشكون ، واعية خطورة

الموقف ، تدفعها المصلحة المشتركة في واجبها بالدفاع عن العالم المتمدن القديم .

لقد سار كياكسارس ، بعد فشل هجومه الأول على بلاد آشور ، وفق برنامج منسق منتظم ، إذ قهر عام ٦١٦ ق.م السكيتيين ، واصبحت بذلك يده حرة طليقة ضد بلاد آشور . كما عرف اثناء ذلك ، كيف يجتذب نابو - بولاصّار الى جانبه . وفي نفس الوقت ، الذي تغلب فيه كياكسارس على السكيتيين ، كان نابو - بولاصّار ، قد احرز نصرا على الآشوريين والدول الآرامية في اواسط الفرات . ولكنه لم يستطع الصمود امام جيش آشوري - مصري جديد ، حتى أنه اضطر في السنة التالية ، للتراجع عن حصار مدينة آشور ، الذي كان قد بدأه ، دون أن يتوصل الى أي نجاح . وبعد ذلك ، أي عام ٦١٤ ق.م ، عاد نابو - بولاصّار ، فظهر مرة ثانية على مسرح القتال . وهكذا عقد معاهدة حلف مع كياكسارس ، بعد أن كان الميديون ، قد احتلوا مدينتي « تربيزو » و «آشور» ، وبذا لم يبق سوى وقت قصير ، لتزول الامبراطورية الآشورية نهائيا من الوجود . فبينما لم تحدث عام ٦١٣ سوى مناوشات ضعيفة الاهمية ، سقطت مدينة نينوى عام ٦١٢ ، اثر الهجوم الكاسح الثالث ، في ايدي الميدين والكلدانيين . وفي هذه المناسبة ، حرق الملك زِنْ - شوم - اوشكين نفسه مع اقربائه في قصره الخاص . لقد دُمرت هذه المدينة ، ومعها المدينة الملكية القديمة كلخ ، بصورة جذرية شاملة ، لدرجة لم تستطيع معها الاجيال اللاحقة تذكر موقعها أو وصفها . اما آخر محاولة لانقاذ الموقف ، فقد كانت على يد امير آشوري ، لقب نفسه بالاسم المشهور ، اشور - اوبليط ، حيث حاول تأسيس دولة في مدينة حرّان الآشورية ، التي كانت تتمتع بامتيازات استثنائية خاصة . غير انه اضطر للانسحاب ، تحت ضغط الميديين والكلدانيين . فلم يبق اذا ، الا أن تلفظ الامبراطورية الآشورية المحتضرة النفس الأخير ، هذه القوة التي بقيت مسؤولة ، لألف عام مضت ، عن نظام العالم لذلك الوقت . وبذا كلّت اسلحة آشور .

ب ــ المنجزات الحضارية للامبراطورية الآشـــورية العالمية

بلغت الانجازات الآشورية ، على الصعيدين السياسي والعسكري ، درجة عظيمة من الشهرة ، قادت المرء معها في كثير من الاحيان ، الى أن يغض النظر عن نصيب هذا الشعب ، في الابداع الحضاري لمنطقة الشرق الأدنى ، أو انه دفع بالباحث على الأقل ، الى أن لا يقدّر هذا النصيب من الانجازات الحضارية • فهنالك الكثير والكثير في الحضارة الآشورية ، الذي لا يمكن للمرء تمييزه ، بل قل فصله ، عن الحضارات الاقدم زمنا ، مثل السومرية ــ الاكادية ، والبابلية ، لانه شكل قسما كبيرا من هذه الحضارة • ومن ناحية اخرى ، تحوي هذه الحضارة على صفات خاصة ، ميزتهـا عن الحضارة السومرية ــ البابلية • واذا ما حاول المرء المقارنة بين التضاد الآشوري ــ البابلي من جهة ، وبين اليوناني ــ الروماني من جهة أخرى ، فان على المرء ألا ينسى شيئاً واحدا هو الرابطة اللغوية والدينية ، التي وصلت بين بـلاد بابل وآشـور ، والتي كانت اقوى من تلك التي وصلت بـين الشعبين الكلاسيكيين •

كان الشعبان الكلاسيكيان يختلفان في اصلهما بكل وضوح • امـا بالنسبة لشعبي الشرق الأدنى ، البابلي والآشوري ، فنجد الامر كما يلي : ففي الوقت الذي شكلت فيه العناصر المعروفة لدينا ، بسكان عصر العُبَيد ، والسومريين ، والاكاديين ، والساميين الغربيين ، والكاشيين ، والآراميين ، المجتمع البابلي ، تلاقت في الشعب الآشوري ، بقايا مؤسسي حضارة تل حلف وسامراء ، وبقايا الشعوب التي حُكمت من قبل السومريين ، ورواسب الاكادية ، والطبقة الحاكمة الحورية ــ الميتانية ، وبالاضافة الى كل ذلك ،

الشعوب التي « تأرّمت » ، تلاقت كلها لتشكل وحـدة متجانسة • لقـد استطاعت اللغة الاكّادية ، عند كل من البابليين والآشوريين ، الصمود خلال تلك التقلبات السياسية والعرقيـة ، بغض النظر عن بعض الاختلافات في اللهجات المحلية • بيد ان هذه الفروق بين البابليين والآشوريين ، لم تقتصر فقط على الدّم ، بل تشمل أيضا ، وبنفس الدرجة ، النواحي الاجتماعية • فبينما كان التجار والكهنة ، يشكلون المجتمع في الجنوب ، منذ الألف الثانية ق • م ، نجد على رأس الدولة الآشورية ، منـذ تحريرها من الحورية ، الضباط العسكريين والموظفين من اولئـك الاشراف الاقطاعيين • انهـم يشكلون ركائز المجتمع الآشوري ، الذي ضم فيما بعد ، أي في القرون الأولى للألف الأولى ق • م ، بغض النظر عن اعداد العبيد الكبيرة من اسرى بلاد العدو ، عمادين آخرين ، هما اصحاب المهن الحرة وذوي المهن الفكرية من جهـة ، والناس المعدمين من جهـة أخرى • فمن المجموعـة الأخيرة ، تألف بكل تأكيد الجيش الآشوري النظامي ومعه على الارجح الشرطة أيضا •

لم يصلنا ، وللأسف الشديد ، مجموعة قوانين آشورية ، تعود الى اوج عصر الامبراطورية العالمية ، تبرز لنا الخلاف بين المجتمعين الآشوري والبابلي • وبالمقابل نستطيع تتبع مراحل تطور مفهوم الملكية الآشورية لعدة قرون • وهذه هي افضل نقاط المقارنة مع البابلية • لقد تحدثنا على الصفحات السابقة ، عند بحثنا لتطور بلاد آشور السياسي ، عن مفهوم ملكيتها ، فوجدنا انه قد انصهرت فيه ، صفات ذات اصل سومري ، أي صفات امارة الكهنة مع صفات الحاكم المطلق ، أي الفكرة الاكّادية في حكم العالم ، كما اراد كل من زارجون الآشوري ، وشمشي ــ حـدد الأول تطبيقها في آشـور • واستمرت بعد ذلك فكرة حكم العالم تعيش في الملكية الآشورية الحديثة ، وحتى ايضاً بعد أن شهدت هذه الملكية تغيرا كبيرا نتيجة الغزو الحوري ، وما اقترن به من تطور اجتماعي حتمي • ولذا قادت هذه الفكرة ، الى الاعمال

التي قام بها ، كل من « تيغلات ـ بيليزر الثالث » ، و « زارجون الثاني » •
اما بالنسبة للاله آشور ، فالأمر على الأرجح ، ليس كما فُسر مرارا في السابق ، من ان الإله القومي للآشوريين ، أي الإله المحلي لمدينة آشور ، قد وضع على قدم المساواة مع إنّيل ، وبالتالي مع « مردوك » ، كخالق وموجه للعالم ، لأن مدينة آشور ، قد اصبحت عاصمة لصرح سياسي كبير • بل يمكن للمرء ، إذا ما أراد أن يفهم ويحيط نسبيا بمنجزات الشعب الآشوري الصغير ، أن يرى في الإله آشور الها امدّ اتباعه بارادة حديدية متطرفة مندفعة للنضال في سبيل حكمه للعالم ، وزودهم بالاعتقاد ، ان القتال في سبيل الإله آشور ، انما هو بنفس الوقت ، النضال من اجل الحق والنظام في العالم ، وان المقاومة ضد هذا الإله ، انما تعني الكفر به • فمن هذا الاعتقاد بالإله آشور ، انطلق اصل الشكل ، الذي وصلته الملكية في عهد الامبراطورية العالمية للألف الأولى ق•م والذي يختلف عن طبيعة الملكية البابلية • ان علاقة الإله الأكبر للامبراطورية ـ آشور ـ بالملك الآشوري ، لهي من نوع خاص • إذ لم يكن الملك الآشوري نائب الإله ، كما هو عند الـ « لوكال » السومري ، ولم يصبح إلها كالحكام العالميين الاكاديين ، كما انه ليس فقط الكاهن الأول وقائد جيش الإله • ويذكر في الكتابات التي وصلتنا ، ان الملك يقود الحملات العسكرية بأمر من الإله آشور والآلهة الكبار الأخرى في المجمع اللاهوتي ، كما يقدم الملك بذلك ، تقريرا عن اعماله البطولية ، على شكل رسائل يوجهها الى الإله ، حيث تسمى بـ«رسائل الإله » • الا ان هناك مصدرا آخرا ، علينا أخذه بعين الاعتبار ، في محاولتنا فهم جوهر الملكية الآشورية ، انه الفن التصويري ، الذي وصل اوج قمته ، في تلك الافاريز الحجرية التزيينية لقصور الحكام الآشوريين الكبيرة •
تدور مواضيع الصور التي حُفرت على هذه الافاريز ، والتي تعتبر في هذا المجال أعظم منجزات الشرق الأدنى القديم ، بصورة رئيسية حول شعار للشجرة المقدسة المحوّرة ، التي تقدس بابتهاج ديني من قبل الملك أو

كهنة الأضاحي أو من جني مجنح (**انظر صورة رقم ٤٠**) ٠ ويأخذ الملك احيانا مكان الشجرة ، وكثيراً ما نرى فوق الشجرة قرص الشمس المجنح ، الذي لا يمكن للمرء ربطه ، الا مع الإله آشور نفسه ٠ يمثل دمج الشجرة مع الشمس كشعار ، توحيداً لإله نبات مع اله شمس ، مشابها لما شاهدناه عند مردوك قبلا ، الذي توحد فيه كذلك ، إله أرضي ، وإله فَلكي ٠ اننا نعلم من خلال النصوص التي تعود الى القرن الثامن والسابع ق٠م ، بأن الإله آشور ، يعاني نفس المصاعب كمردوك ، في عيد رأس السنة ،ويذهب نفس الطريق الى العالم السفلي ، ويخوض نفس القتال ضد قوى الفوضى ، كي يبتهج بانتصار بعثه من جديد ، شأنه في كل ذلك شأن مردوك ٠ وبذا فقد اوضحت سياسة الدولة ان الإله آشور أصبح لحد ما يشكل وحدة مع مردوك ، ولو ان الشعب الآشوري البسيط ، لم يسلك هذا الطريق الملتوي ، الى مردوك ، بل قام فعبد وقدس الإله مردوك مباشرة ٠ اما بالنسبة للطقوس الدينية عند الدولة فلم يكن آشور ، الا إله نبات أرضي ، وإله شمس بنفس الوقت ، المجدد لتنظيم الكون كل سنة ٠ واذا ما استعيض عن صورة الشجرة ، الرمز القديم لإله النبات ، الذي قُدس بادىء الأمر عند السومريين وهو تموز ، برسم الملك ، علينا أن نتذكر ، بأن تموز ، كان ملكا أيضا ، فلم يكن الملك إذاً في بلاد آشور ، رسولاً للاله ، وانما كان نائبا له ، وتنيجة لذلك ، تصبح اعماله رمزا لتصرفات الإله ٠ انه ليس من قبيل الصدفة ، إذا ما كان وصف زانحاريب للمعركة ، التي دارت بالقرب من خالولي ، كما أشار البعض لذلك ، تذكيراً للقارىء في هذه القطعة الادبية ، بكل وضوح ، وبواسطة ثروتها اللفظية ، واسلوبها الشعري البليغ ، بالوصف القديم المعروف للصراع بين آشور (مردوك ــ إنّيل) وبين تيامات ٠ زد على ذلك ، أنه لدينا وصفاً تفصيلياً للتزيينات التصويرية ، التي امر زانحاريب بحفرها على لوحات برونزية ، كانت تلبس ابواب معبد السنة الجديدة

في مدينة آشور : هنا يخرج الملك بصحبة الإله آشور أو لوحـده متلبساً شخصية الإله ، ممتطيـا عربـة حربيـة ، في طريقـه لقتـال تيامـات •

في الواقـع ، يجب ألا يُنظـر الـى تلك التقـارير ، التي دونهـا الملوك الآشوريون ، والكتـابات الحمـاسية التى خلفهـا هؤلاء أيضـا ، والتي هي بالنسبة للبابلية ادب آشوري خاص ، على انها عبارة عن تقارير إفتخار فقط ، صيغت بكلمات طنانة ، تشرح الاعمال البطولية والانتصارات • انها تشكل بنفس الوقت ، نصوصا شبه دينية ، تمجد قوة وسلطة آشور ، التي حُققت رمزيا بأعمال الملك • كما يمكن أن يُنظر اليها على انها صورة مصغرة تقريبية للفضاء الإلهي الكبير عند خلق العالم • ولهذا ترتبط في الفن أيضاً ، الفكرة التي تدور حول الشجرة المقدسة تحت قرص الشمس المجنح بالمناظر التصويرية للمعارك والصيد ، أي بمشاهد القتال بين الملك نائب الإله كممثل للنظام ، وبين قـوى الفوضى والظلام • وليس هنـاك من شك ، أن هـذه الصلة ما بين الشجـرة المقـدسة ومشاهد القتـال التصويرية ، التي تشير الى تقليد قديم ، يعود الى فجر العصر السومري ، قد نقلهـا لحدٍّ ما الحوريون ــ الميتانيون الى الآشوريين • ومن المؤكد أيضاً ، أن هذه المجموعة من الافكار قد تطورت فنياً في بلاد آشور ، منذ عهد اشور ــ نازيربال وخاصة في عصر امبراطورية زارجون العالمية • لقد تطورت فنياً في تلك القصور الكبيرة في مدينة « كلخ » ، و « دور شاروكين » ، و « نينوى » ، حتى أصبحت درة فن الشرق الأدنى القديم•

وهكذا يبرز في الاطار العام للحضارة الآشورية ــ البابلية باكاديتها المشتركة ، مع فرق محلي في اللهجات ، وبمجمعها اللاهوتي المشترك ، يبرز ما يسمى بالصفات الآشورية الخاصة ، أي كل ما له علاقة بتعاليم آشور الحربية : فهذه التعاليم ، انما هي مفهوم الملك ، الذي هو نائب للاله في أعماله • انها أيضا تلك المؤلفات الشعرية ، والفنون التصويرية ، التي تخدم بأجمعها ، هـذه الفكرة ، بمعنى آخر انهـا مخلفات الملك ، من الوثائق المكتوبة والافاريز الحجرية التصويرية في قصور الحكام •

الفصل الأول

٢ ـ القوى المتضاربة في امبراطورية آشور العالمية

أسست الامبراطورية الآشورية من قبل اتباعها المتحمسين ، بنضال مستمر مرير دام مئات السنين ضد القوى الفكرية والمادية • حقا لقد دُمرت هذه القوى المعادية ، بيد انه لم يُقض عليها نهائيا ، فجميعها ـ ما عدا عيلام ـ بقيت تقاوم الامبراطورية الآشورية لمدة قصيرة أو طويلة • وبعد سقوط الامبراطورية الآشورية ، استطاع قسم من هذه القوى تطوير نفسه بشكل تام • ومن ناحية أخرى فقد برز هؤلاء في عهد الامبراطورية الآشورية ، فحققوا منجزات لا نستطيع غض النظر عنها ، إذا ما اردنا تتبع وفهم الدور ، الذي لعبه هؤلاء فيما بعد • لقد كانت هذه القوى ، التي كان على آشور أن تنتصر عليها ، تختلف اختلافا كليا في طبيعتها :

فيما يتعلق باورارتو وعيلام ، اللتين كانتا على الهامش ، فقد وقعتا تحت التأثير الشديد للحضارة البابلية ، وقاومتا آشور على الصعيدين السياسي والعسكري • اما في الميديين والآراميين ، فقد وجد الآشوريون مقاومة عنيفة ، زادتها حدة النواحي الفكرية ، وخاصة عند الميديين • الا انها تركزت بادىء الأمر ، وعلى الأكثر ، في تفوق هذين الشعبين الفتيين على الآشوريين وفي قوتيهما البكر • ولقد انطلقت المقاومة من منابع اخرى لبلدان الحضارات القديمة ، كبلاد بابل ، أو دويلات فلسطين ، مثل « اسرائيل » و « يهودا » • وهنا وقف الإله آشور امام عقائد ، استطاع أن يتغلب على معتنقيها ، ولكن دون أن يؤثر على جوهر تلك العقائد بأي سلاح مادي •

آ ـ اورارتـو

قد يُعتبر القتال بين بلاد آشور ومملكة اوراتو استمرار نضال آشور ضد الحوريين الميتانيين ، إذ بعد انهيار السلطة الميتانية ، لم يعد لدى الشعب الحوري ، الذي انتشر عند قدومه من جبال ارمينيا في ربوع شمال بلاد ما بين النهرين ، وبلاد آشور ، وفي شمال ــ غرب ايران ، اية قيادة سياسية تديره وتوجهه . فعلى أثر هجرة الشعوب البحرية : « وتأريم » بلاد ما بين النهرين ، وبعــد تحرير بلاد آشور ، قُذف بالحوريين ثانية الى بلادهم الاصلية في ارمينيا ، أي الى الشمال والشرق من بلاد آشور ، الى ما يُسمى ببلاد النيريين. وهنا تفرق هؤلاء ، الى عدد كبير من القبائل الجبلية الضعيفة ، ثم توحدوا عند نهاية القرن التاسع ق.م تحت قيادة حاكم كبير ، هو ساردور الأول(الثاني؟)، الذي كانت عاصمته توشبا (وان) على الساحل الجنوبي لبحيرة وان الكبيرة ، حيث شملت بلاده اورارتو (ارارات) المنطقة الجنوبية من هذه البحيرة . اعتاد ساردور بادىء ذي بدء ، أن يدون كتاباته باللغة الآشورية ، وبعد ذلك بلغتين الآشورية والخالدية . يعيد المرء تسمية شعب ولغة المملكة الاورارتية الى اسم الههم الاصلي خالدي الا ان هذه اللغة الخالدية ليست في الواقع ، كمـا أبانت لنا التحريات بالتدريج، الا عبارة عن شكل حديث متطور للغة الحورية. يرينا انتشار الكتابات الخالدية ، من لينين ــ كان حتى بحر اورميا ، والى الغرب حتى مالاتيا القوة التوسعية للملكة الاورارتية ، وبالتالي الاهداف التي كانت تسعى لتحقيقها . لم تكن هذه الاهداف ــ من الناحية السياسية ــ الا نفس الأهداف ، التي عملت الدولة الميتانية من اجلها قبل خمسمائة سنة ، ووضعتها الامبراطورية الآشورية الحديثة المعاصرة موضع التنفيذ منذ عهد اشور ــ نازيربال حتى اشور ــ بانيبال ، انها حكم العالم . كان ساردور مثلا ، يسمي نفسه « الملك الكبير ملك الكل » . فمفهوم « ملك الكل » ،

بقي كما كان عليه في عهد زارجون الكبير الاكادي ، أي يعني ذلك الملك ، الذي يسيطر على الاقل على قسم من شمال بلاد الشام واعالي بلاد ما بين النهرين • يجب أن يكون ساردور الثالث قد احتل في القرن الثامن ق•م ، في اوج مجده « حلب » ، و « كومّاجني » • لقد استغل الملوك الخالديون: « اسبو ــ ايني » و « ارجيستي الأول » ضعف الشعب الآشوري ، في الفترة ما بين « زلما ــ نصّار » و « تيغلات ــ بيليزر الثالث » ، فوسعوا امبراطوريتهم ، حتى اصبحت تشمل أيضا كافة القسم الشمالي من الشرق الأدنى • ولم يستطع الا تيغلات ــ بيليزر الثالث تحطيم مملكة اوراتو العالمية ، وانتزاع السلطة لـ « آشور » • ولقد بقيت اورارتو حتى نهاية العصر الآشوري مملكة قوية ذات سلطة محلية ، رغم ان زارجون الثاني ، قد دمرها مرتين ، بحيث لم تستطع الا بصعوبة فائقة الحد من تقدم الهنود الغربيين •

لا نعلم الا القدر اليسير عن التقدم الفكري ، الذي وصله هذا الشعب ، بشكل يمنعنا من اعطاء الاحكام القطعية حوله • اننا نستطيع الحكم على اللغة والمصطلحات اللغوية التي تشبه الآشورية كثيرا وذلك من خلال الكتابات الملكية • كما نعلم ان الملوك العظام قد بنوا المدن ، وشيدوا الحصون ، وشقّوا أقنية الرّي ، واقاموا المعابد لآلهتهم ، التي دعمت جدرانها بركائز تستند عليها سقوف هرمية•لقد تعرفنا عليها بالصدفة ، على يد افاريز زارجون الثاني ، التي يصور لنا عليها حصاره لمدينة موزازير • وثبت لنا أنهم استخدموا طريقة هندسة المربعات في تخطيط ابنيتهم• وكانت لهم مهارة فائقة في مجال الصناعات المعدنية ، التي تركزت خاصة على اليدوية ، والزخارف والتماثيل المجسمة • انه لمن الصعب الجزم، من خلال بعض هذه المنتجات الفنية، التي وصلتنا بصورة رئيسية من حفريات « وان » ، ما إذا كانت تقليداً لابتكارات آشورية ، أو ان الطريقة الآشورية والاورارتية ، قد تشابهتا بتأثير عوامل حورية وراثية • ومن الممكن أن تكون اورارتو في هذا

المجال ، هي الجهة الأصلية المنتجة ، ذلك لأن البلاد تشكل بثرواتها الدفينة ، مركزا طبيعيا في مجال التعدين • وقد وصلت هذه الشهرة درجة يمكننا معها البرهنة على وجود رابطة في حقل التعدين تصل اورارتو باليونان وخاصة بـ « اورتريا » •

أما فيما يتعلق بتركيب الدولة ، وشكل النظام الاجتماعي فيها ، فلا نعلم عنهما شيئا ، وكذلك الديانة ، فلا تتعدى معلوماتنا حولها ، الا النـذر اليسير • فاله الدولة الأكبر والمحلي ، هو خالدز ، الذي هو بنفس الوقت الاب الأول للشعب • انه يشكل مع إله الشمس اردينس ، وتايزباز ، أي تيشوب الحوري ـ الميتاني ، ثالوثا إلهيا كما يوجد هناك ربّة تشبه عشتار ، واسمها زرياس • ولا بد في الختام من أن يطرح السؤال التالي نفسه للاجابة عليه ، وهو : كيف استطاعت آشور ، أن تتغلب على هذا العدو ، الذي كان بلا شك يوازيها في القوة العسكرية ؟ ان الجواب على ذلك ، يتجسم في قرب آشور من مركز الحضارة في الشرق الأدنى ، وفي تنظيم الدولة المحكم ، والمركزية في الحكم ، وقبل كل شيء يتجلى ذلك ايضاً في كفاح إلهها ، الذي لم يستطع الخالديون مجابهته بشيء من قبلهم •

ب ـ زاراتوسترا (زرادشت) والميــديون

لم تنقطع تقريبا سلسلة قتال الشعب الآشوري ، خلال عصر امبراطوريته العالمية ، ضد القبائل الآرية الشمالية والشمالية ــ الشرقية . لقد وجب على هــذا الشعب ، أن يصد الخطر الذي شكله الميــديون ، والسكيتيون ، والكيمريون على الشرق الأدنى ، تارة على شكل هجوم وأخرى في موقف الدفاع . لقد اتصف خطر هذه القبائل الآرية ، بالنسبة لبلاد آشور بطابع خاص ، يختلف عن خطر مملكة اورارتو . لقد كان على آشور ، أن تصد منافسا عسكريا وسياسيا في اورارتو ، قاتل بامكانيات شابهت تلك التي كانت في حوزة الآشوريين ، الا انه كان ينقصه بكل وضوح ، تلك الفكرة ، التي كان قد زود الإله آشور اتباعه بها . لقد كان الميديون والسكيتيون والكيمريون على العكس من ذلك شعوبا لم تتحد بعد في دولة منظمة ، ولم تكن حضاريا بمستوى آشور . الا انه وجب على الآشوريين من ناحية أخرى قهر قوة مقاتلة متوحشة ، قوامها مقاتلون فاقوا الآشوريين عددا . وبالرغم من ذلك ، فقد نجحت اسلحة آشور بادىء الامر ، بالتغلب عليهم . اما الشعب الميدي ، الذي كان اكثر تقدما من الشعبين الآخرين ، ويقطن منذ مئات السنين المنطقة التي تقع اليوم حول همذان ، فقد كان دوما هــدف حملات النهب التأديبية الآشورية . لم يتمتع الميديون آنذاك بتلك السلطة السياسية المركزية العالية ، كما انه لم يجمع شمله تحت لواء دولة موحدة ، إلا في الحقبة الاخيرة من العصر الآشوري الحديث . واذا ما تأملنا الاسباب التي مكنت الميديين من انتزاع قيادة آشوريي العصر الحــديث ، نجدها لا تتجسم فقط في القوة العضلية والمادية لجنود هذا الشعب ، لأن السكيتيين، والكيمريين ، لم يقلوا عنهم شدة وبأسا في هــذا المجال . لقد أصبحت ايران بقبائلها المختلفة ، وخاصة القبائل الميدية والفارسية ، التي تحضرت

تدريجيا منذ مطلع الألف الأولى ق٠م ، مسرحا لحركة فكرية كبيرة ، اثر نشوء وانتشار ديانة جديدة من نوع خاص ٠ اننا نستطيع الآن ولأول مرة ، في تاريخ الشرق الأدنى القديم معرفة اسم مؤسس ورسول مثل هذه الديانة ، انه زاراتوسترا « زرادشت »٠واذا ما اردنا تحديد المنطقة الايرانية ، التي القى فيها هذا الرسول أول خطبه التبشيرية ، فلا بد لنا الا وأن نفترض ، انها كانت تلك المنطقة ، التي تقع في القسم الشرقي من ايران ، هناك حيث تتداخل حدود منطقة الحضر الفلاحين مع حدود بوادي القبائل الرحل ٠ ومن ناحية أخرى ، لا يمكننا تحديد مكان وزمان تأثيره ٠ اما الشيء الأكيد ، فهو ان زاراتوسترا قد لقن تعاليمه لملك اسمه ڤيزتازبا ، (الذي لا علاقة له بـ « هيزتاز بيز » الذي عاش في عصر متأخر وكان أبا لداريوس الأول) ولوزرائه ، ولاحدى القبائل ذات الاصل الايراني في توران ٠ هذا وقد اختلفت آراء العلماء حول ما اذا كانت تعاليم زاراتوسترا ، قد نشأت حوالي ١٠٠٠ ق٠م ، أو بعد ذلك أي عام ٥٠٠ ق٠م ، وفيما اذا كانت تعاليمه ، قد ولدت في غرب أو شرق ايران ، واذا ما كانت قد وصلت مبادئه الى هذه الدرجة من الانتشار ، عن طريق مبشرين خاصين ، أم ان هجرة القبائل واحتكاكها بمنطقة ميلاد هذه المبادىء ، هي التي قادت الى ذلك !!٠ كما ان هناك خلافا في الرأي ، عما اذا كانت هذه المبادىء ، قد شكلت بصورة مبكرة ، جزءاً مهماً من ديانة الدولة ، أو انها كانت لم تزل ، حتى في العصر الاخميني ، تتمتع بدور ثانوي !٠ كذلك اختلفت آراء الباحثين ، حول ما تبقّى في اعتقاد الميديين والفرس وجهاز سحرتهم من ترسبات الافكار الايرانية القديمة ، التي تعود الى ما قبل زاراتوسترا ، وتلك التي يمكن ارجاعها الى زاراتوسترا نفسه ٠ الا ان لدينا « الغاتاز » ، أي الاشعار الخاصة بالرسول ، والتي تبرز نوع تعاليمه ودعايته لهذه المبادىء بطريقة التبشير الملأى بالحماس وبذكر الإله ٠

لم تكن تعاليم زاراتوسترا محاولة لفهم تكوين العالم وحسب ، ولكنها

تعطي اتباعها أيضا مبادىء خلقية ، وتحملهم مهام وواجبات تجاه الإله . إنها لوحي إلهي تجلى بشخصية نبي حي ، يوجد دوما على مقربة من الإله . يعتبر هذا الشيء جديدا لحدّ ما ، اذا ما قورن بجميع كهنوت الشرق الأدنى . هذا ولم يستطع أيضا عرافو الأضاحي ومفسرو الاحلام حل معضلة تنظيم الكون. لقد بنىزاراتوسترا تصوراته حول العالم ، علىافكار الشعوبالآرية القديمة ، والتي ما زلنا نستطيع استخلاص قسم منها على الأقل من الـ « ڤيدِن[1] » . انها لا تشمل فقط ما كان عليه العالم ، عندما نشأ في مراحله الاولى وانما تتجاوز ذلك الى المستقبل ؛ نعم انه يمكن للمرء القول ، بأن المستقبل القريب ، أي يوم الحساب المنتظر ، هو العـامل النفسي ، الذي ترتكز عليه تعاليم زاراتوسترا . ان التأكيد على المثالية ، كما رأينا سابقا (ص ١٩٥ : بلاد بابل تحت حكم الكاشيين) ، هو من مميّزات التطور الـديني في بلاد ما بين النهرين خـلال الألف الثانية ق.م . ذلك ان الآلهـة ارتفعت تدريجيا ، فتجاوزت مرحلة الانسانية المثالية المتطرفة ، لتصبح قوى مثالية كاملة . وبقيت مشاكل الذنب والعقاب والعدالة الإلهية تحتل هناك محور التفكير الديني . غير ان المثل العليا لم تكن ابدا القوة الدافعة لحوادث العالم ، وان تحقيقها لم يكن قطعا هدف الخليقة كما هي الحال في تعاليم زاراتوسترا . وحتى في الديانة الآرية لمـا قبل الزاراتوسترية ، فقد لعبت آلهة الحق والقسم والعقود (المعاهدات) : « ڤارونا » و « ميترا » التي كانت قائدة لكامل مجموعة الآلهة المسماة بالـ « آزورا » ، لعبت دورا رئيسيا ، أكثر مما هي عليـه الحال في أية ديانة أخرى ، اذا ما قورنت ببقية آلهة قوى الفضاء الخارجي المسماة بالـ « دايڤاز » . لقـد اصبحت الـ « آزورا » الآن وبالنسبة لـ « زاراتوسترا » الآلهة الحقيقية للمبادىء المثالية ، التي نظمت العالم والمجتمع البشري ، بينما اصبحت الدايڤاز تجسم قوى الخبث والخداع.

---

(١) تسمية تطلق على اقدم الوثائق الادبية الهندية .

وبهذا تقف مجموعتا العناصر هذه مقابل بعضهما البعض ، كما تقف الحقيقة مقابل الدجل ، والخير مقابل الشر ، والحياة مقابل الموت ، والنور مقابل الظلمة . كما اصبحت النار ، كمجسمة للضوء ، اكثر عناصر الخليقة قدسية ، وارتقت تبعا لذلك حيث صارت عنصرا دينيا . وتتصارع هاتان المجموعتان من القوى الـ « آزورا » والـ « دايڤاز » الواحدة ضد الاخرى منذ بدء الكون ، هذا الصراع الذي يشكل سرّ وجود الخليقة . بيد ان هذا الصراع السرمدي ، لا بد الا وأن يجد نهايته امام محكمة البعث الكبرى ، حيث يقود الى انتصار مبادىء الخير .

وهكذا انتظر زاراتوسترا بادىء الامر ليعيش هذه المحكمة ، ويظهر فيها بنفس الوقت كالمنقذ . ولما لم يتحقق فعلا مثل هذا الامر ، فقد اجل ذلك الى المستقبل البعيد . وهكذا يُعطى المرء بهذا التأجيل ، حتى ذلك الوقت ، الفرصة الكافية ليقرر الى أي جانب سيعمل ويركز قواه واعماله وذلك إمّا الى جانب الـ « ارتا » التي هي النظام الصحيح ، أو الى جانب الـ « درودْش » ، التي هي النفاق بعينه . وانطلاقا من اعمال الانسان في هذه الحياة الدنيا ، فسيحاكم في العالم الآخر ، آخر الأيام ونهايتها . وبهذا لا ينقل زاراتوسترا للبشر النظرة في تحليل نظام العالم وحسب ، وانما يريهم كذلك المهمة الرئيسية في حياتهم ، والطريق الذي عليهم سلوكه الى الخلود .

ظهر زاراتوسترا بتبشيره في منطقة من العالم بعيدة عن مركز الاحداث التاريخية . ولم ينحصر هذا التبشير فقط بين المزارعين والامراء الصغار لمنطقة شرقي ايران كالميديين مثلا ، اكثر من قوم آخر أو عصر آخر . ان نظرته للعالم كانت عامة ، بالاضافة الى ان تعاليمه المثالية لم ترتبط بنظرة قومية . وفي الواقع ان النقص العملي الوحيد في اسباب عدم نجاح التبشير ، إنما تجلى في اقتصار لغته الآرية على مجموعة بشرية معينة ، لا تتعدى الاقوام الايرانية . ولكن بالرغم من ذلك يبقى زاراتوسترا مؤسس أول ديانة

عالمية • ولو انها بقيت مقتصرة على سكان ايران[1] ، الا انها ــ قبل كل شيء ــ دعت ومكنت بلا شك الميديين ، وبعد ذلك اخوتهم الفرس ، من القتال والنضال ضــد آشور ، تزودهم بالسلاح المعنوي الفتّاك لانتزاع السلطة من آشور وحكم العالم •

ففي الـ « ڤارونا » ، حيث أصبح إســم زاراتوسترا « اهورا مازدا » (أي آزورا الحكيم ، والسيد الحكيم) ، ظهر مقابل آشور مبدأ ، لم يكن فقط كـ « مردوك » القديم المعظم ، يلعب دور منظم العالم والمنقذ من الموت ، بل لقد أوجب على اتباعه التدخل الفعلي في احداث العالم ، من الوجهة المثالية • وبهذا انتزع أقوى سلاح من يدي آشور ، الذي بنى طموحه على منطق اذلال الغير ، معاقبا كل عصيان وكأنه جريمة دينية نكراء ، خاصة في صراعه ضد الشعوب الآرية • يصطبغ في الواقع الدافع لسلطة آشور العالمية بصبغة القوة السياسية ولو انها كانت قد عُللت تعليلا دينيا • وبالمقابل لقد قاد الميديون ومن بعدهم الفرس جهادهم انطلاقا من تعاليم زاراتوسترا ، وخاصة تحت راية الفكرة المثالية •

---

(١) ليس هنا مجال لمناقشة تأثيرها على الديانات العالمية الاخرى .

ج ـ « اسرائيل » ويهودا واليهودية

عندما اضطر زانحاريب عام ٧٠١ ق٠م الى التراجع عن حصار القدس ، لم يكن ذلك بكل تأكيد ، نتيجة لتفوق سلاح « الدولة » اليهودية وحلفائها ، بل من الممكن أن تكون قد حلت أثناء الليل كارثة طبيعية أو وباء بمخيمات الجيش الآشوري ، جسب تعليل انصار المنطق العلمي لمعجزة يسوع التي تقول : « لقد خرج ملاك يهوه بنفس الليلة وقضى في مخيم الآشوريين على ١٨٥٠٠٠ رجل » ٠ ان الحقيقة الثانية ، هي أن آشور قد وقفت ، ولأول مرة امام قوة ، لا يمكن أن تُقهر بالسلاح ٠ فعدم استسلام القدس مدين في الواقع الى صمود كل من حزقيا والنبي اشعيا ، اللذين لايستمدان قوتهما المعنوية أثناء المقاومة ، الا من اعتقادهم بالقوة اللا متناهية للاله يهوه ٠ ومهما كانت أهمية هذه الحادثة بسيطة في نظر سكان الشرق الأدنى القديم ، لأنها حدثت في زمن لا يمكن أن تُقارن فيه قوة يهودا بقوة الآشوريين ، فهي هامة في أعين الاحفاد كشعار لقوة مضادة لحكم آشور للعالم، وقوةلم يُقدر لمعناها العالمي أنيبرز إلا بعدذلك٠ ولكن كيفقُدرلهذه القوة أن تصل الى هذا الحد في يهودا فقط ؟ ألم يكن باستطاعة يهوه انقاذ اخت مدينة القدس ، السامرة « عاصمة اسرائيل » التي كانت قد دُمرت قبل عشرين عاما ؟ هل كان يهوه الإله القبلي ، إله العبرانيين الذين هاجروا الى أرض كنعان ، والذي تربع متوجا جبل سيناء ، هل كان منذ البداية إلها آخر غير الإله كاموش الموآبي ، أو ملكارت الصوري ، أو عشتارت الصيداوية ؟ أو انه تطور تدريجيا ، حتى اصبح يجسم قوة فكرية اتصفت بنظام آخر ؟ ٠

لقد استغل العبريون ضعف الامبراطورية الآشورية ، في الحقبة ما بين « تيغلات ـ بيليزر الاول » ، و « اشثور ـ نازيربال الثاني » (حوالي

١١٠٠ ــ ٩٠٠ ق٠م) حيث وطدوا دعائم سكناهم ، وانسجموا مع حضارة المدينة الكنعانية ٠ كما استطاعوا في القرن العاشر ق٠م تأسيس « المملكة الاسرائيلية ــ اليهودية » المتحدة ٠ وبالاضافة الى ذلك ، فقد استطاعت هذه « المملكة » أن تثبت وجودها ضد الفلسطينيين نحو الغرب ، وأن تقيم علاقات وثيقة مع المدن الفينيقية التجارية ٠ ولم يُقدر لهذه « المملكة » التي اتحدت تحت لوائها القبائل الشمالية بالجنوبية ، أن تدوم سوى مـائة سنة فقط ، تحت قيادة ثلاثة ملوك هم : « شاؤول » و« داود » و« سليمان»٠ ان أولى القبائل التي بدأت القتال ضد الفلسطينيين القدماء ، وانتزعت حريتها منهم ، كانت قبيلة بن ــ يمين ٠ ولما رأى شباب « يهودا » خطورة الموقف ، اندفعوا جميعا ملتفين حول شاؤول ، « الذي بورك من قبل رجل الإلـه المختار صموئيل » يقاتلون الى جانبه ضد الشعب الفلسطيني ٠ وتتيجة لهذا الصراع ، قامت تحت قيادة شاؤول وابنه يوناتان لاول مرة « دولة » ضمت جميع القبـائل العبرانية ٠ وكان من مساعدي شاؤول يهودي اسمه داود الذي استطاع بعزفه على القيثارة ، أن يطرد الروح الشريرة عن شاؤول ، ويصبح صديقا لابنه يوناتان ، ويتزوج بابنته ٠ غير ان حلف « شاؤول » و « داود » لم يُكتب له الـدوام ، اذ ان داود انتـزع لنفسه السلطـة بعد موت شاؤول ، وتابع بناء صرح ملكه وتوسيعه ٠ لم يجعل الملكان من المملكة دولة معتبرة وحسب ، وانما قاما بتشجيع ودعم طقوس وتعاليم الإله يهوه ٠ وبعد أن احتل داود مدينة القدس ، وجعلها عاصمة له ، نقل اليها كذلك مقر إله الحرب يهوه من مدينة سيلو ٠ وهكذا أخذ إله بدو الصحراء ، الذي كان يقطن جبـل سيناء ، مكانه في مدينة اليبّوسيين ، القدس ٠ وبالاضافة الى ذلك ، نجد هذا الإله وقد ُقدّس في اماكن اخرى من البلاد ، التي توضعت فيها قبائل اسرائيل ويهودا ٠ اما إلههم يهوه ، الذي كان في الاصل عبارة عن إله قبلي متجول ، فيظهر في النار ويلتف بالغمام ، فقـد تطبغت ماهيته بصفات آلهة بعل ، وذلك في الجوهر والطقوس الدينية ٠

بعد موت داود قام سليمان فحول ملكية أبيــه « الشعبية » الى حكم شرقي وفردي ثري ، انفق كافة الثروات ، التي تدفقت إليه من التجارة ، لتشييد مبان جميلة على غاية من الابهة والعظمة • ولقد مكنته اعمال السخرة ، التي وسعها حتى شملت شعبه الخاص الى جانب مساعدة حاكم ومهرة وفنيي مدينة صور ، من بناء قصر كبير ، اقيم في داخله معبد يتصف ومنزلة يهوه ، حيث عبر به عن جبروته وعظمته كاله المملكة • هذا ولم تهمل حتى الآلهة الاجنبية الخاصة بالتجار الاجانب ، فاقيمت لها بيوتات مقدسة ومذابح لان المرء لم يأنف عبادة وتقديس آلهة أخرى الى جانب إله البلاد •

بعد موت سليمان ، لم يستطع ابنه رحبعام الحفاظ على وحدة « اسرائيل » و « يهودا » • اذ فبعد انفصال الدويلتين عن بعضهما ، اطفىء نور نجم المملكة السياسي ، فانحلت بشكل نهائي في امبراطورية آشور العالمية في الشرق الأدنى • وفي الوقت الذي انكمشت فيه يهودا على نفسها ، بشكل لم يعد لها في المستقبل أي وزن سياسي ، بدأت تشعر القبائل الشماليــة الاسرائيلية مباشرة بالضغط المضاعف من قبــل الآراميين والآشوريين على حد سواء • ولهذا نرى أهمية « اسرائيل » السياسية تأخذ بالضعف المستمر اكثر من ذي قبل ، وخاصة عندما قويت وثبتت دعائم السلطة الآشوريــة العالمية ، وبالذات في القرن التاسع ق•م • ونجد من ناحية أخرى ــ وللدهشة ــ ان قوة يهوه تعاظمت وازدادت ، كلما انحسرت قوة « اسرائيل » السياسية • لقد ترعرعت هذه القوة واشتدت في عقيدة ذلك العدد القليل من الاتباع والمتحمسين للمقاومة ضد الآلهة الغريبة ، وضد الشعب الخاص • كما نمت كذلك انطلاقا من سبب لا يقل اهمية عن هذا الاخير ، وذلك بما يشبه قوة اهورا مزدا ، نبتت من الفكرة المثالية التي تشترط الكفاح العنيد ضد المشركين الاجانب ، وحتى ضد شعب هؤلاء المتفسخ •

لقد وجب دمج الإله المجرد ، الذي لا يُقدس إلا بالفكر ، إله سيناء ، إله العبرانيين الرحل ، مع الإله غير المجرد والمعبود في زيشيم مركز الثقل

الأول للقبائل الاسرائيلية . إنه قد دمج مع ذلك الإله ، الذي عقد معه اتباع يهوه حلف سلام . ان صفة هذا الإله هي الانفراد بالذات ، وعدم تقبله وجود أية آلهة أخرى الى جانبه . ويوجد بالمقابل تطور ديني آخر تساوى فيه يهوه ، كما رأينا ، مع آلهة كنعان المحلية السموحة ، انها آلهة بعل .
لقد اصطدم هذان الاتجاهان ببعضهما ، ولأول مرة في عهد « آل عمري » البيت الاسرائيلي المالك ، الذي نقل اثر موت سليمان مقره الى العاصمة سامرا ، بعد أن اعيد بناء هذه المدينة من جديد . اما الازمة فقد بدأت كالتالي : لقد كان الملك اهاب بن عمري ، قد تزوج بـ « ايزابيل » ابنة ملك صور ، وامر اكراما لها ببناء معبد في السامرة ، باسم الإله ملكارت ، بعل صور ، وذلك على النمط الفينيقي الخالص . وزوده بما يحتاجه من الادوات والتجهيزات الخاصة بالطقوس الدينية . قاد هذا النزاع ، الى ظهور تلك الشخصية نصف الخرافية ، المسماة « ايليا » ، التي تعتبر القدوة الأولى لجميع الأنبياء الاسرائيليين ـ اليهود ، حيث لا بد وانه كان قائد المعارضة وعدو كهنة بعل . ولم يتمكن من الوصول الى الهدف الخفي ، الا احد حوارييه وهو اليزا ، الذي قام بعد بضع سنين بانقلاب ضد الابن الثاني لـ « آخاب» ، وامر احد تلامذته بمباركة وتتويج قائد الجيش« يهوه » ملكا . وتتيجة لذلك قام « يهو » وقضى على كافة أقرباء بيت عمري ، ومعهم حتى سائر معتنقي واتباع طقوس بعل الدينية . كما حطم معبد ملكارت في السامرة بما فيه الـ « اشيرا » والـ « مسبا » . اما بالنسبة لـ « يهودا » فقام كاهنها الاكبر بعد سنوات قليلة من ذلك ، بثورة مشابهة هدم فيها هناك معبد الإله بعل ، واعدم كهنته ، وعقد اثر ذلك المعاهدة بين« يهو »الملك الشاب والشعب القائلة « بان اليهود عقدوا العزم على أن يكونوا شعب يهوه » . كان « يهو الاسرائيلي » من بين اولئك الامراء الصغار في بلاد الشام وفلسطين الذين امر زلمار ـ نصّار الثالث برسمهم على مسلته المشهورة المعروفة بالمسلة السوداء بوضع مقدمي الجزية له .

اما الانقلاب الداخلي الذي قام به هذا الامير في « اسرائيل » فقد جعل منه أكثر من امير ثانوي في شبكة سياسة آشور العالمية لانه يعدمن تلك الحوادث ذات المعنى التاريخي العالمي حيث ركز بذلك حجر الاساس التي حدد بها الطريق الى الوحدانية المجردة •

لما كانت اليهودية لا تستطيع فقط بانطوائها على نفسها وعزلتها وبالتالي انفرادها بقتال بعل الكنعاني أن تصل الى اهدافها ، لذا كان لا بد لها من تطوير جوهرها وطريقتها في الحياة لتستطيع الظهور على قدم المساواة جنبا الى جنب مع تلك القوى الفكرية الاخرى مثل « آشور » و « مردوك » وخاصة الى جانب نظرة زاراتوسترا « زرادشت » العالمية • وللوصول الى ذلك وجب على « يهوه » أن يتطور من إله محلي لقبائل معينة الى فكرة تسيطر على العالم وتشبع بنفس الوقت على مجرى مئات السنين ما فيه الكفاية النزعات الفردية المتزايدة •

ان الدرجة الدينية التي وصلتها الشعوب الآرية الايرانية على يد تعاليم زاراتوسترا بلغها أيضا اليهود بواسطة شخصية يمكننا ، انطلاقا من بعض وجهات نظرها ، وضعها الى جانب زاراتوسترا • ان هـذه الشخصية هي « عاموس » الذي كان احد مربي القطعان في يهودا وظهر في « اسرائيل » بعد حوالي مائة سنة من « يهو » و « اليزا » كنبي ولو انه رفض شخصيا أن يعده المرء من بين الانبياء ، واوكل اليه يهوه في حلم مهمة هي تبليغ شعبه الدمار • وكما ان « محكمة العقاب » هي المستقبل المباشر عند زاراتوسترا كذلك هي بالنسبة لـ « عاموس » حيث أسماها « يوم يهوه » • لم يكن « يهوه » بالنسبة لـ « عاموس » قوة ، مثل بقية الآلهة الاخرى ، التي يمكن للانسان خدمتها بتقديم الأضاحي والطقوس الدينية ، وانما يعتبر عاموس « يهوه » المثال الحي ، الذي يحدد العلاقات المسلكية بين البشر ، انه إله العدالة ، الذي يقتصر مطلبه على تطبيق الحياة المثالية •

وكما كانت « الدايفا » في نظر زاراتوسترا ، كذلك كانت آلهة بعل

الكنعانية بالنسبة لـ « يهوية » • اما الامر الذي تتعارض فيه الديانتان الزاراتوسترية واليهوية ، فكان في نظـرة اليهوية الى آلهة بعل الكنعانية ، اذ لم تسمح الصفة الوحدانية لـ « يهوية » ، بأن تصنف قوى هذه الآلهة بين تلك القوى المؤثرة في نظرتها الفلسفية الى تركيب العالم • كان يهوه بالنسبة لـ « عاموس » بصورة عامة ، المبدأ المثالي المنظم للعالم ، الـذي يسحق الشعوب الغريبة وشعبه الخاص ، ذلك انهم كانوا منذ البدء ، على درجة من الانحطاط الخلقي الذي يسمح بذلك • وهنا تنفصل مبدئيا تعاليم يهوه الدينية عن الصبغة القومية في اعتقاد عاموس الثابت بحتمية انهيار العلاقات الاجتماعية ـ الخلقية ، ليعاد بعدها بناء صرح هذه التعاليم على أساس عام بشري ـ مثالي ـ ديني كما كانت عليه الحال أصلا في تعاليم زاراتوسترا •

في نفس الوقت تقريبـا ، أي في عصر عاموس ، ظهر هوشع كنبي ، وتنبأ « للاسرائيليين » بنفس المصير المحزن ؛ الذي كان عاموس قد بشر به • اما الخلاف في وجهتي نظر النبيين ، فقد كانت أن انتظر عاموس ـ وبحق ـ الابادة الكاملة لشعبه الخاص ، بينما احتفظ حوزيا ببصيص من الامل في انقاذ الموقف على يد البقية الباقية من هذا « الشعب » ، والتي سيطهرها يهوه •

يمكن أن يكون مثـل هؤلاء المتنبئين والمحذرين بالنسبة للجماهير لا أكثر من بلهاء ، ولهذا لم يكن بالمستطاع أن يجد تأثير هؤلاء ، أي صدى الا عند بعض الشخصيات القياديـة مثل يسوع الشاب • الا ان الجماهير فاقت من ثباتها مرتعشة ، عندما قام يهوه حقا بابادة الاسرائيلين على يـد الجيوش الآشورية • وبذا فقد مسحت القبائل الشمالية من التاريخ بغزو سامرة[٤] وتهجير سكانها ، على يد زارجون الثاني ، وذلك بعد سنوات قلائل من تبشير «عاموس» و «هوشع» بقرب محكمة القصاص • غير ان قوة يهوه اكتسبت مقابل ذلك ولاول مرة سلطة فكرية تسمو فوق كافة اشياء هذا العالم • فبالرغم من اعتناق القبائل الجنوبية بقيادة يهودا لتعاليم وتقاليد

يهوه ، ومحاولتهم الاخيرة تنفيذ اوامر يهوه الخلقية عند شعبها ، فقد قدر لهذه المحاولة أن تبرهن على عدم صلاحيتها للتطبيق العملي • ولم تعد اليهودية سلطة ذات صبغة عالميـة إلا فقط بعـد التخلّي النهائي بصورة قطعية عن الوجود السياسي ، الذي فسح له المجال في المسيحية والاسلام ، لان يكتسب معنى عاماً وشاملا •

هكذا لم يبق لتلك الدولة اليهوية بعاصمتها القدس معنى سياسي ، ولم يتركها الآشوريون على قيد الحياة ، منذ عهد تيغلات ـ بيليزر ، الا بالقدر الذي تستطيع القيام به بدور الحامي لحدود الامبراطورية الآشورية ضد بدو الحدود • ولذا لم يكن لملوكها أي وزن سياسي • اما من الناحية التاريخية ـ الفكرية فيعد انبياؤها من الشخصيات القيادية ، التي كان من اشهرها يسوع الذي اقتفى اثر « عاموس » و « حوزيا » • قام هذا النبي أيضا يبشر الشعب بقرب محكمة القصاص • وبالرغم من هذا التشاؤم ، فقد بقي في نفسه الاعتقاد بأن يهوه ، قد اتخذ لنفسه بالتأكيد مكانا في المعبد على « صهيون » ، وذلك بعد تخريب « اسرائيل » وسائر الاماكن المقدسة فيها • وبالاضافة الى ذلك ، فقد اعتقد أيضا ، ان يهودا سيقدر لها بعد تطهيرها ، ان تكون البقية من « الشعب » ، والتي ستبنى عليها من جديد اسس سلطة يهوه في العالم • ونتيجة لذلك تنقلب صورته النهائية في تفسير مصير الفرد والعالم • انه لا يتنبأ فقط بقيام محكمة القصاص ، وانما اشار ايضا ، لأول مرة ، الى امكانية ، متأثرا على مايبدو بتنبؤات مصرية مشابهة ، ولادة فتى اسمه « إمّا نو ـ إيل » ، « الله معنا » الذي سيؤسس ، منطلقاً من جوهر يهوه ، مملكة خالدة • انها مملكة السلام والعدالة • وبهـذا تتم بنفس الوقت خطوط التوازي الفكرية ـ التاريخية ، بين تعاليم الانبياء « الاسرائيليين واليهود » ، وبين تعاليم المتنبئين من الايرانيين ، لان المصير المحتوم لله « زراتو سترية » يعرف أيضا مخرجا لذلك ، وهو الـ « زا اوزيانات » أي « المنقذ » ، الذي يولـد في نهاية الزمان من عذراء ما ، حيث يقيم محكمة القصاص ويجتذب العالم الى جانبه •

لم يكن جميع ملوك يهودا كحزقيا ، الذي انقذ القدس امام الآشوريين ، اتباعا مخلصين للديانة اليهودية التنبؤية • اذا لم يمض زمن طويل على ذلك ، حتى اعاد اتباع بعل مرة ثانية طقوس بعل الدينية • كما ونجد أيضا في نفس الوقت يهوه ، الذي لم يكن قد تمتع فقط في معبد القدس بالاحترام ، بل كذلك في مناطق اخرى من البلاد ، نجده وقد تمزق مرة ثانية في آلهة خاصة محلية أخرى • وهكذا لم يعد يبقى لنبي آخر كـ « ارميا » ، الذي رأى في هذه الطقوس الدينية السطحية ، التي كانت تقام في القدس ، شركا وشعوذة ، شأنها شأن طقوس عبادة يهوه في مدن يهودا ، لم يبق له سوى أن يبشر بالكارثة المحتومة • وبالاضافة الى ذلك ، فقد رأى على عكس كثيرين آخرين ممن شعروا بالأمان تحت حماية يهوه الدينية ، رأى بوضوح في انفصال وابتعاد الشعب عن فكرة الإله النقية ، انفصالا لا يمكن ايقافه قطعا ، حتى ولا بالعودة الى اتباع « القانون اليهودي » لعام ٦٢١ ق•م •

ثبت في هذا القانون ولأول مرة بالصدفة قبيل سقوط الامبراطورية الآشورية عام ٦١٢ بقليل ، ثبتت فكرة يهوه التنبؤية كأهم القوى الفكرية ، التي قدر لها أن تحل محل ادعاء آشور في حكم العالم ، وأن توضع موضع التنفيذ •

لم تكن جميع بواعث ونتائج اصدار هذا القانون ذات صبغة مثالية • كما لم يكن كمبدأ « عاموس » أو « يسوع » ، الذي كان فيه يهوه بالنسبة لهما المبدأ القطعي المثالي والتنظيمي للعالم وبذا لا يمكن لـ « شعب اسرائيل التضحية » له ، إلا عن طريق الاعتقاد الطاهر النقي • فقانون عام ٦٢١ ق•م ، ارتكز بصورة عامة على حل وسط بين النبوة والكهنوت الأعلى لمعبد القدس • لقد ختم هذا القانون اليهود كـ « شعب يهوه المقدس » ، الذي وجب عليه أن يتقدم الشعوب الأخرى بطهارة نفسه وصفاء ونقاء طقوسه

الدينية . الا ان المنتفع الأكبر من هذا القانون كانت اللاڤية[1] . لقد ألحقت كافة الاماكن الدينية الاخرى في البلاد بمعبد القدس وكهنته ، والتي كان الانبياء قد دعوا سابقا ضد ممارستهــا طريقة الالحــاد ، وحــول كامــل دخلها الى المعبد الرئيسي . ومقابل ذلك فقد أبعدت طقوس عادة الآلهة الغريبة ومعها السحرة وعاهرات المعبد في القدس .

يشكل هذا القانون اليهودي في الواقع حقيقة قوة جديدة من نوع خاص في تاريخ العالم ، انها قوة الاعتقاد قوة الدين كتعاليم زاراتوسترا وكمبدأ اجتماعي . وفي الختام لا يمكن تصور وجود المسيحية والاسلام لولا روح هذا القانون .

---

(١) اللاڤية : هي لقب لخدم الكهنوت الاعلى عند اليهود .

الفصل الثاني

امبراطورية كلدان العالمية
انتصار الآرامية وعقيدة مردوك

آ ـ بعث نابو ـ بولاصًار ونيبوخذ ـ نصًار لفكرة الملكية البابلية : امير السلام ومشيد المعابد

تزعم قيادة التطور في الشرق الأدنى ، في العصر ما بين ١٢٠٠و٦٠٠ ق٠م، كما رأينا ، اسرتان كبيرتان من الشعوب ، وهما الاسرة الآرامية والاسرة الهندية الغربية ، ووقفت امامهما قوة سياسية جبارة تجسمت في الدولة الآشورية الصغيرة • لم تنطلق الافكار القيادية والمميزة لهذه القرون الست ، والتي أثرت على تاريخ البشرية في كثير من الامور ، من شعوب عظيمة أو مناطق معينة فقط • ففي الوقت الذي لم يكن لدى الفلسطينيين ، والفريجيين ، والشعوب البحرية الأخرى أية فكرة عالمية كبيرة ، وجد الهنود الغربيون ــ الايرانيون في تعاليم زاراتوسترا فكرة جبارة ، تخطت اهميتها حدود الشعب الواحد • ومن ناحية أخرى ، لم تنطلق اليهوية ذات التأثير الكبير من بين صفوف ذلك العنصر السامي الذي حكم في هذه الحقبة من التاريخ ، أي من أوساط الآرامية ، التي تغلغلت في كافة انحاء الشرق الأدنى ، وانما انبثقت من اولئك العبريين ، الضعفاء على الصعيدين البشري والسياسي •

تجلت اسلحة الآراميين الحقيقية في الاعداد الكبيرة لأحفادهم ، وبالتالي في لغتهم • لقد غذى هؤلاء أفكارهم بما اقتبسوه عن الشعوب القديمة

المتحضرة ، التي استطونوا بلادها بالتدريج ، ثم انتزعوا السلطة السياسية منها • لم يتمتع الآراميون، على عكس الشعب الآشوري القليل العدد بالنسبة اليهم ، بأفكار سياسية ودينية كبيرة ، ولم يبدعوا اسلوبا خاصا بهم في فن النحت ، وذلك على عكس اخوتهم الساميين الآخرين ، وهم الاكاديون والآشوريون • وفي الاقاليم ، التي لم يكن قد وصل اليها السيف الآشوري بعد مثل شمال بلاد الشام ، وشمال بلاد ما بين النهرين ، أو في تلك ، التي ترك لهم فيها على الاقل نصف الحرية ، التي يتمتع بها الاتباع ، نجدهم يؤسسون امارات صغيرة مثل سمأل (زيند شيرلي) ، وتل حلف ، التي كانت ما تزال حتى ذلك الوقت تعيش فيها مختلف التقاليد الحضارية : فهناك التقاليد «الحثية ــ اللوفية ــ الاسيوية الصغرى» ، و «الحورية ــ الميتانية» و « الآمورية ــ السامية الغربية » ، و « الكنعانية ــ الفينيقية » • كان الآراميون على درجة متوسطة من القدرة الحربية ، الا انهم كانوا تجارامهرة ، ينشرون لغتهم في كل مكان ، يبدلون بذلك الكتابة المسمارية الصعبة والرقم الطينية ، بالكتابة الهجائية الفينيقية وملفات البردي • وبما انهم كانوا لايحملون تعاليم دينية عالية خاصة بهم ، نجدهم يعبدون تلك الآلهة المحلية القديمة في مناطق سكناهم الجديدة •

ان اكبر واعظم انجاز سياسي وحضاري حققته الآرامية ، كان ما يسمى بالمملكة البابلية الجديدة • كان الكلدانيون ، الذين رأى اليونان فيهم تجسيما لفكر الشرق الأدنى القديم ، صانعي بعث بابلي جديد ، قدر فيه لطقوس مردوك ولتعاليمه ، بعد انتصارها على الإله آشور ، أن تبلغ آخر ذروة لها ؛ نعم انه يمكن للمرء القول ، ان السلالة الكلدانية للمملكة البابلية الجديدة ، كانت تشكل منذ عصر نابو ــ بولاصّار ، نفس التعبير لـ «تأريم» بلاد بابل طوال مئآت السنين ، وذلك تماما كسلالة حمورابي ، التي تعتبر الحصيلة الفكرية والسياسية لهجرة الساميين الغربيين الى بلاد بابل ، التي دامت أيضا مئآت السنين • وإذا ما وجد مجال للمقارنة ، في وجه الشبه

الفكري بين الحكام العظام ، بالرغم من الفاصل الزمني بينهم عبر مئات السنين ، فان ذلك ينطبق بكل تأكيد بين اعظم سامي غربي ، هو حمورابي ، وأعظم كلداني ، هو نيبوخذ ـ نصّار •

لم يمارس نابو ـ بولاصّار ، الذي كان حتى في عهد أواخر ملوك آشور الاسميين الضعفاء حاكما مستقلا في بابل ، سوى سلطة محدودة على المدينة وضواحيها • الا أن القدر اهداه ماكان مردوك ـ أبال ـ ادّينا قد قاتل سابقا من أجله بمرارة لمدة عشرات السنين وهو : مملكة بابلية بقيادة سلالة كلدانية • نقول حصل على ذلك كهدية من القدر ، لانه لم يكن له ذلك النصيب الكبير في القتال ، الذي ادى الى دحر وانهيار السلطة الآشورية • لقد لاقى مثلا ـ كما رأينا سابقا ـ هزيمة نكراء ، عندما اقدم منفردا عام ٦١٥ ق•م على غزو المركز القديم للامبراطورية الآشورية والذي لم يحتل الا عام ٦١٤ ، على يد الملك الميدي كياكسارس • وهكذا لم يستطع نابو ـ بولاصّار سوى الاشتراك باحتلال آخر معقل للسلطة الآشورية وهو مدينة نينوى ، وذلك كحليف للملك الميدي • وما كادت نينوى تقع عمليا في يد العدو ، حتى اصبح نابو ـ بولاصّار حاكما لامبراطورية كبيرة ، شملت الى جانب بلاد بابل وبلاد البحر في الجنوب ، أيضا عيلام وقسما من منطقة شرقي دجلة ، ومناطق اخرى على الفرات بعكس مجرى النهر ، فشكلت له بذلك صلة الوصل مع بلاد الشام وفلسطين•

امّا الميديون ، فقد اكتفوا بالجزء الشمالي من الشرق الأدنى • لقد وجد هذا التحالف ، الذي يعتبر لحد ما غير طبيعي ، بين الميديين وبلاد بابل تعبيره الرمزي ، في زواج « نيبوخذ ـ نصّار » بن « نابو ـ بولاصّار » من الاميرة الميدية امتيس •

لم يكن لـ « نابو ـ بولاصّار » الا نصيباً ضعيفاً في القضاء عسكريا على آخر مقاومة آشورية في حرّان • كما لم يستطع البدء بتحقيق مخططه القاضي بطرد فرعون مصر نيخو من فلسطين وبلاد الشام ، الا بعد سنوات

عديدة من ذلك ، اي عام ٦٠٥ ق٠م ٠ ولما اصبح نابو ــ بولاصّار عجوزا ، اوكل امر قيادة الجيش لابنه الأكبر نيبوخذ ــ نصّار ، في المعركة الفاصلة بالقرب من كركميش ، حيث مات نابو ــ بولاصّار في هذا الوقت ٠ ولا نعلم بالضبط ما الذي يشهد لقوة شخصية نيبوخذ ــ نصار : هل هو انتصاره العسكري في معركة كركميش ، الذي سلمه كامل بلاد الشام وفلسطين حتى الحدود المصرية ؟ لم ينازعه احد الملك اثناء اقامته في الغرب ، ولا حتى اخوه الاصغر نابو ــ شوم ــ ليشير في بلاد بابل ٠ ولما عاد نيبوخذ ــ نصّار مسرعا الى بابل ، استطاع عند وصوله اليها ، اعتلاء عرش والده دون أي معارض ، وبالتالي متابعة بناء الصرح ، الذي كان والده قد بدأ تشبيده في الوطن ٠ ففي خلال ٤٢ عام من الحكم ، التي وحّد فيها ــ مقتديا بكل دقة بحمورابي ــ صفات القائد الحربي مع صفات امير السلام ، كراع للبشر الذي نُصب من قبل الآلهة ، استطاع فيها مرة ثانية وبنفس الوقت لآخر مرة أن يجعل من صيت مردوك وامبراطوريته شهرة غطت وأبهرت البلدان٠

لم تكن اعمال نيبوخذ ــ نصّار خلال فترة هذا البعث الأخير للفكر البابلي ، كأفعال الملوك الآشوريين ٠ فهي ليست صدى لرغبة اله السماء الأعلى مدبر الكون ٠ ولهذا لم تكد تذكر هذه الاعمال من قبل نيبوخذ ــ نصّار في كتاباته العديدة التي بحوزتنا ٠ اما الشيء الذي اراد نيبوخذ ــ نصّار أن يخلفه للعالم ، ويعلل به لدى الآلهة سبب وجود ملكه ومنصبه فيتجسم ، كما هو الحال كذلك عند حمورابي ، في مجال احياء الطقوس الدينية ، وانشاء المعابد لها ٠ ولقد حدثنا نيبوخذ ــ نصّار بكل تفصيل ودقة ، ليس فقط حول الاماكن المقدسة ، وحول المعابد ، وابراج المعابد ، التي كان قد بناها في جميع انحاء البلاد باسم الآلهة والربّات العظام ، بل تجاوز ذلك الى تعداد جميع ما تبرع به إلى المعابد ، من تجهيزات خاصة لاقامة الطقوس الدينية ، واحضار الادوات وغيرها ، حيث لم يساويه بذلك الا جوديا في هذا السرد التفصيلي ٠ انه يبرهن بذلك على تقاه وطاعته

للآلهة ، حتى بتعداده الدقيق لتلك الأضاحي ، التي كان قد قدمها : « لقد امرت بأن يحضر كل يوم على مائـدة « مردوك » ، و الـ « ساربانيتو » حيوانان سمينان ، ثور كبير مليء الجـوانب كامل الاعضاء ذو جسم نقي لاقامة الطقوس الدينية ، اربع وعشرين نعجة سمينة ، حيوانات نقية للتضحية ، تكريما لآلهة بابل ، اربع ديوك ، عشر حمامات ... ثلاثة رؤوس من الثوم ، كمية من سمك المياه العذبة ، وورود المروج ، كميات كبيرة من الخضر ، محاصيل الحدائق ، فواكه تلمع كالذهب ، اجود ما في حدائق الفواكه ، بلح والصبار من تلمون ، وتين أبيض والعسل المصفى ، وبيرة خفيفة ، وزبدة ، وقشدة ، وحليب ، واصفى انواع الزيوت ... ودقيق اسمر ذهبي ، وعصير السمسم ، ونبيذ مشع ، كل ذلك امرت باحضاره كل يوم على مائدة«مردوك» والـ « ساربانيتو » اكثر من أي وقت مضى ... » . هكذا نقرأ في كتابات تذكارية طويلة مفصلة ، امر نيبوخذ ـ نصّار بحفرها في وادي باريشا بلبنان على الصخر . اننا نشعرمن تلك الكلمات، بوجود قوة ، حسب لها نيبوخذ ـ نصّار ألف حساب ، إنها قوة الكهنوت الكلداني ، الذي كان يجثو على كاهل هذا الملك . كما نقرأ من جهة اخرى نصوصاً حول تلك المنجزات ، التي هي في خدمة الشعبورفاهيته : فمنها مثلا متابعة بناء وتوسيع الحصون في بابل، وشق الاقنية ، وانشاء السدود على الانهار . يشكل كل من خدمة الآلهـة والعناية بالبشر ، العنصرين اللذين تقوم عليهما الملكية الكلدانية ، كما يعبر عن ذلك نيبوخذ ـ نصّار نفسه : « انا الملك نيبوخذ ـ نصّار ، ملك بابل ، الراعي المخلص ، المعزز لدى مردوك ، الامير الكاهن ، حبيب نابو ، الامير صاحب الشرف ، الذي يسير دوما على طريق مردوك ، السيد الكبير ، خالقه الإلهي ، ونابو ابنه الشرعي ، ملكه الحكيم أنا الحكيم الخبير ، الذي يخاف الهتهم ، الذي يوجه سمعه لنداء الآلهة ، الذكي ، الماهر ، الذي يثبت على كلمة الحق امام الآلهة ، والربة ، بكل ورع واحترام ، الحكيم محب الصلاة ، الذي يحافظ على « ايزانجيلا » ، و « ازيدا » (أي معبد مردوك ونابو) ،

الابن الأكبر لـ « نابو ــ بولاصّار » ، ملك بابــل . عندما خلفني الآمر الأكبر مــردوك ، وسلمني صولجــان الحــكم ، جالب البركة والخــير للشعب ، واوكلني المحافظة عليــه ، انا المخلص لسيدي مردوك بــلا أي تراجع » . ويبدو ان ذكر امور الدولة العادية في الكتابات ، لم تلعب لدى نيبوخذ ــ نصّار ، الا دورا ثانويا جدا ، لذلك تبقى بالنسبة الينا ــ للأسف الشديد ــ غامضة جــدا ، مما يشكل ذلــك فجوة في التاريخ الكلداني . وبالرغم من ذلك ، لا بد وأن تكون قد وقعت اثناء حياته الطويلة اصطدامات سياسية وفكرية ذات معنى تاريخي كبير ، بين حاكم العالم مردوك ، وبقيــة أجزاء الشرق الأدنى ، من ايران حتى الحدود المصرية ، والتي لا نعلم عنها الا النذر اليسير . لم يصعب على الملك البابلي مثلا المحافظة على العلاقات الطيبة مع الميديين . وهكذا شيد لزوجته الميدية في عاصمته ــ كذكرى لوطنها الأم ــ رمزا تجلّى بالحدائق السبع المعلقة ، التي اصبحت تعتبر احدى عجائب الدنيا السبع . الا ان ذلك لم يمنعه من الاقــدام على حماية بلاده امــام القــوة الميدية ، حيث اقام على الحدود مع الميديين الاسوار والحصون الجبارة ، لمنع اي اعتداء منتظر من جهة الميديين . هذا ولا نعلم أيضا ، ما اذا كانت جيوش نيبوخذ ــ نصّار ، قد وطئت ارض مصر ام لا . اما الشيء الذي نستطيع معرفته ــ وحتى هــذا بالصدفة ــ هو الاصطدام الفاصل بــين « مردوك » ، و « يهوه » ، الذي علينا فهمه بانه آخر مقاومة للقدس ضد نيبوخذ ــ نصّار ، حيث حطمت فيها « الدولة اليهودية » بشكل نهــائي والى الأبــد .

ب ـ الديانة الكلدانية ـ الحكمة الكلدانية

علم الفلك والتنجيم

كان مردوك إله بابل ، منذ الف سنة يمثل السلطة الروحية التي تحطم عليها الإله آشور • وكان من المرونة بحيث أتى ، على مر مئات السنين ، بمختلف المفاهيم الدينية ، واشبع مختلف النزعات النفسية ، وكل متطلبات الدولة وحاجات الفرد والمجتمع • ان هذا ليس في الاصل ، إلا احدى التشابكات الفكرية ، التي لم تكن غير طبيعية في الشرق الأدنى ، تشابكات بين إله الشمس وسلطة العالم السفلي إله يموت ويبعث مجدداً الطبيعة والبشر ، ويصبح بنفس الوقت ، اله الدولة الظاهر ، الذي يحصر بيديه مصير الشعب والعالم • هذا ولاننسى أيضا ، بان مردوك ، قد تجاوب مع تلك الانتفاضة العامة ، التي قادت منذ الألف الثانية ق•م ، لرفع مفهوم الآلهة الى منزلة القوى المرشدة الحكيمة • وقد ورد في قوائم تعود الى النصف الأول من الألف الأولى ق•م : ان الإله زِن° ، هو مردوك منير الليل ، وشمش هو مردوك فيما يخص العدالة ، وحدد هو مردوك فيما يتعلق بالمطر • وبهذا يمكن القول ، ان الآلهة تجتمع، لتصبح مفاهيم لإله واحد ، هو مردوك • وبذا اصبحت المسافة من الشرك الى الوحدانية لا تتعدى خطوة قصيرة • اما فيما يتعلق بعلم الفضاء ، فقد عرف الكهنة البابليون منذ القرن الثامن ق•م ، حسابات وانظمة مدارات النجوم ، الى جانب معرفتهم لظواهر فلكية أخرى ، كخسوف القمر ، وكسوف الشمس • ان معرفة حسابات هذه المدارات ، التي يمكن أن تكون قد قادت الانسان ولأول مرة ، الى المعرفة أن الفلك يحكم ويسير من قبل قانون ، قد شددت الاعتقاد بوحدة حكم العالم • وكما هي الحال في مدار النجوم ،

تتحكم في كل شيء آخر في هذا الكون ، روح خارقة ، محيطة بكل شيء ، وأقوى من كل شيء • وإذا ما اراد الانسان ، أن يعرف المستقبل ، فعليه ألا يرجع بعد الآن الى الآلهة لمعرفة إرادتها ، بل على الانسان أن يحـدد الوقت المناسب لحادثة ما ، وذلك في حساب مدارات النجوم ، التي اتخذت منها الآلهة مساكن ، وسجلت فيها جميع الأقدار • ومن هنا كان مولد العلوم الكلدانية ، التي كانت قد تطورت ووسعت بكل تأكيد في عهد نيبوخذ ـ نصّار • وبذا ظهر علم التنجيم ، الذي قـُدر له في القرون الزمنية اللاحقة ، أن ينتشر في كافة انحاء العالم ، بحيث لم يتحرر ، منذ ذلك الوقت ، أي عصر من السلطة السحرية للنجوم •

ان الروح العظيمة ، التي تحكم العالم وتحمل الواح القدر والمصير على الصدر ، هي مردوك • لقد عبر عن هذه الناحية في ملحمة خلق العـالم الشعرية • أما فيما يخص شؤون الدولة ، فيتوج الملوك ، ويقدم الحكام على تقبيل يديه بكل احترام • ويعيش العالم اكبر عيد ديني ، هو عيد رأس السنة في بابل انه عيده الذي يجدد به سنويا مآسيه وانتصاره في القتال من أجل الكون • ما من احد ، خلد عبادة مردوك ، وابنه نابو ، ونقلها مكتوبة للبشر ، مثل الحاكمين الكلدانيين « نابو ـ بولاصّار » ، و « نيبوخذ ـ نصّار » • فاذا ماكانت اللوحات الجدارية التصويرية ، والتقارير التاريخيـة الحولية الملكية ، راية للحضارة الآشورية في عصرها الحديث ، فان راية الحضارة البابلية الحديثة ، تلك الابنية من الطوب ، والكتابات ، التي تخص هـذه الابنية • لقد كان آشور الها ، وجب القتال من اجل حقوقه في حكم العالم ، وتنقل الينا المذكرات الحولية الملكية ، واللوحات الجدارية ، ما توصل اليه ، وما حـُقق في هذا المجال في العالم ، من أجل الإله آشور • اما مردوك ، فنرى فيه الها ، لا يشك بسيطرته على العالم ، ولهذا لا يحتاج التقي للنضال من اجله • فكتابات تأسيس الابنية ، ومعها المباني ، ليست سوى رمز لنظـام العالم ، الذي يملكه الإله في يديه ، ويرتبط به الانسان ، وكافة الخليقة •

وكما يستدل على وجود اله الكون الأعظم في القانون الفلكي للكواكب ومدارها ، كذلك نجد المعابد وابراجها ، وفي الاماكن المقدسة والمدن اعظم تعبير له على الأرض • فالى جانب علم الفلك عند الكلدانيين ، اصبح برج بابل لـدى الشعوب المجاورة والخلف ، شعار ورمز الحضارة البـابلية الحديثة • لقد كشفت لنا الحفريات التي اجريت في بابل ، عن اعداد ضخمة من الخرائب الكبيرة لابنية دينية ، لدرجة يحق لنا القول فيها ، بأن الشعب الكلداني ، قد خصص القسم الأكبر من قوة حياته ، لاقامة الابنية الدينية ، ولصنع كافة ما تحتاجه هذه الابنية ، من اشياء أخرى تكريما للآلهة • اذ غذت مدارس الكهنوت ، ظاهرة التدين عنـد الشعب البابلي ، وقوت فيه الشعور السقيم ، بأن كل شيء مقدر ومحتوم في الفلك ، ويمكن معرفته من حسابات خاصة لمدارات الكواكب • فعبر هذا الشعب عن ايمانه بهذه الامور ، بأن قدم الأضاحي ، وأقام المعابد ، وأحيا حفـلات الشراب في مناسبات دينية كبيرة ، وصور بعث الاله الاعظم ، والكون عن طريق الموت والحيـاة •

ج ـ النبوة اليهوديـة وتعاليم مردوك

كان مثل هذا الاعتقاد المذكور اعلاه ، وخاصة لأنه اقترن في بابل الحديثة بقوة سياسته وابهة ظاهرية وانـه عاش أيضا في اسلوب الشرك القـديم المتوارث ، كان العدو الطبيعي لليهوية ، التي حرفها الأنبياء حسب اهوائهم •

يشكل الاصطدام الذي وقع بين امبراطورية نيبوخذ ـ نصّار الضخمة، وبين امارة يهودا المحلية التافهة تقريبا ، الحادثة السياسية الوحيدة ، التي وصلت عن حكومة هذا الملك الكبير • ومما يجب الاشارة اليه ، ان هـذا لم يصلنا أيضا ، عن طريق الوثائق المكتوبة من العصر البابلي الحديث ، بل عن طريق التوراة • ولو كان مثل هذا الحادث لايخرج عن ذلك النوع من الاحداث السياسية ، التي جرت وتكررت في عهد نيبوخذ ـ نصّار مـع الدويلات الشامية ـ الفلسطينية ، أو في اماكن أخرى ، لكانت النتيجة تلك النهاية المعروفة ، وهي قهر هذه الدويلات ، أو ابادة العصاة ، حيث كان على التاريخ ألا يسجلها أو يعيرها أيـة اهمية : اما هنا فالامر يختلف • فقـد قاومت يهودا الصغيرة والضعيفة مرتين ، وخلال فترة قصيرة مـن الزمن ، السلطة البابلية العالمية واشتبكت معها في قتال فاشل ، دون أي تعقل أو حكمة سيـاسية • كان الملك يهوياقيم وابنـه يهوياقين ومعهمـا الملك صـدقيا ، اثناء ذلك قصار النظر ، وأدوات تحقيق افكار أسمى ، نادت بها الشخصية الملحمية ، شخصية النبي ارميا ، اكبر انبياء التوراة • كان ارميا مضطرا ، لأن يتنبأ لشعبه بالدمار والاندثار ، على يد بابل المرعبة والمخيفة ، لانه علم تماما ، ان قانون عام ٦٢١ ق•م ، لم يستطع أيضا انقـاذ الاعتقاد الروحي الصحيح بـ « يهوه » • ولم يكتف ارميا بهذا الحكم على قانون ٦٢١ ق•م ، بل اكد بانه يجب التخلي عن الكيان السياسي وعن المعبـد في القدس ،

حتى يستطاع التوصل الى الصفاء الصحيح ، والى الاعتقاد بقوة خارقة ميتافيزيكية .

امتنع يهوياقيم ، حاكم يهودا في بداية حكم نيبوخذ ـ نصّار ، عن تقديم الجزية السنوية العادية . كما استطاع ، بالرغم من وضعه المعقد الشائك، أن يصمد لمدة من الزمن أمام الجيش البابلي والشعوب المجاورة ، كالعمّونيين والموآبيين . وهكذا لم يتمكن البابليون من قهر القدس ، الا بعد موته . اما الملك الجديد الشاب يهوياقين ، فقد طلب العفو والصفح ، من نيبوخذ ـ نصّار ، ولكنه اقتيد اسيرا الى بلاد بابل ، ومعه ١٠٠٠٠ رجل ، معظمهم من الصناع ، ونهبت كنوز المعبد . لقد وقع هذا النفي الأول عام ٥٩٨ ق.م ، واصبح صدقيا الذي هو عم لـ « يهوياقين » ، ملكا على يهودا . ولم يدم طويلا ، حتى غرر به فرعون مصر هوفرا ، للاشتراك في عصيان ، اشعل ناره هذا الفرعون بين الدويلات الفلسطينية التابعة للامبراطورية الآشورية . واخمد نيبوخذ ـ نصّار ، نار هذا العصيان عام ٥٨٦ ق.م ، وحوصرت مدينة القدس ، وصُد بسرعة جيش مصري اتى لمساعدة القدس . اما صدقيا ، فقد حاول الهرب ، الا انه لم ينجح بذلك ، حيث القي القبض عليه بالقرب من اريحا ، فعصبت عيناه ، ونقل الى بابل ، بعد أن أُعدم ابناه الاثنان . اما مدينة القدس ، فقد دمرت تدميرا شاملا ، ونفي سكانها الى بلاد بابل ، حيث أسكنوا في منطقة قريبة من نيبور . وبذا اصبحت يهودا ، من الآن فصاعدا ، عبارة عن مقاطعة بابلية . اما ارميا ، فقد وجد نفسه في الختام ، مضطرا لأن يهاجر الى مصر ، بعد محاولة لاغتيال الوالي الجديد ، الذي نُصب من قبل نيبوخذ ـ نصّار . وهكذا مسحت شخصية هذه الدولة ، على الصعيدين السياسي والشعبي ، على حد سواء ، نهائيا من الوجود ، ولم يبق ليهوه اتباع سياسيون . ولم يقتصر الامر على ذلك ، وانما اصبح من المستحيل القيام بطقوس عبادته ، لان معبد القدس ، المكان الوحيد الذي يعبده فيه المرء تمشيا مع القانون الجديد قد أصبح

انقاضا . غير ان القضاء سياسيا على اتباع يهوه ، الذين ارتبطوا به منذ البدء ، لا يعني القضاء على يهوه بالذات ، وذلك على عكس ماحدث لـ « آشور » ، وبعده لـ « مردوك » أيضا . لم يكن سبي اليهود في الواقع ، البرهان على تفوق سلطة الآلهة الغرباء ، بل كان البرهان على انعقاد محكمة القصاص عند يهوه ، والتي تنبأ الرسل بها ، ضد شعبه الخاص ، الذي تنكر لـ « يهوه » ، الذي سمح باذلاله على يد آلهة الشرك . وبعد زمن قصير ، صدقت تنبؤات الرسل بالـ « إنقاذ » ، وكبر أمل المنفيين ، « بأن الإله سيقودهم » الى « وطنهم » ليقيموا اقداسا جديدة « بقيادة خلفاء داود » . لقد ترعرع بين يهود بابل نوع من الاعتقاد المجرد عن كل عناصر الشرك ، التي تسربت اليه دوما عن طريق طقوس عبادة بعل في فلسطين . ونشأ بدون أي أسس سياسية ـ قومية ، وبلا معبد وكهنوت وبلا طقوس دينية . لقد ارتكز هذا الاعتقاد الجديد على فكرة ميتافيزيكية لمبدأ عام شامل ، كان قد اكد عليه الانبياء ، وأخذ شكله الثابت منطلقا من قانون الملك حوزيا عام ٦٢١ ق.م فلم يعد الاتباع ، الذين تبنوا هذا الاعتقاد ، يتمتعون بصفة الشعب ، بل كانوا عبارة عن رابطة دينية ، لم تضم فقط اليهود المنفيين ، بل اجانب أيضا ، ممن انضموا اليهم كحماة لهم ، اي معتنقون جدد للديانة اليهودية .

لقد كان الخطر ، الذي يجلبه اي قانون جامد متعنت ، على اتباع رابطة دينية هو أن قائد اليهود المنفيين في بلاد بابل ، لم يكن اكبر انبيائهم ومفكريهم المتحمسين ارميا ، بل كان الكاهن حزقيال ، الذي غير فيما مضى ، المعتقدات القائمة ، وقانون عام ٦٢١ ق.م . ففي نفس اللحظة التي برهنت بها اليهودية كأعلى اعتقاد بالله ! وكمبدأ مثالي على قدرتها لقهر كافة الاشياء المادية ، ترينا اليهودية وجهها الثاني المعاكس ، أي الميل الى الانعزال الذي يطبق الطقوس الدينية بحرفيتها ، بدل أن تتطور مع واقع الحياة والمجتمع . ولقد قدر لهذا المذهب ألا يفارق اليهودية بعد ذلك .

لم يعرف بابليو عصر نيبوخذ ـ نصّار ، على ما يبدو ، أهمية طائفة يهوه هذه ، المستوردة ، والقاطنة بالقرب من نيبور بالنسبة اليهم • لقد نشأت هنا على الارض البابلية ابرز التناقضات واشـد التوترات بـين اليهوية التنبؤية ، التي تجردت عن الاشياء المادية ، وبين الاعتقاد بامير الآلهـة مردوك ، الذي تجسم في تشييد الابنية الدينية الضخمة ، وباقامة الطقوس الغنية ، بتقديم الأضاحي، والاحتفالات الكهنوتية ، ذات الطابع الدراميكي •

د ـ نهـاية الامبراطوريـة الكلدانية

الاتجاهات الدينية والسياسية الجديدة لـ « نابونيد »

لقد تعرض العنصر الآرامي ، الـذي حافظ على امبراطوريـة كلدان العالمية ، ثلاثة ارباع قرن من الزمن ، الى صعاب جمة داخلية منها ، وخارجية لا تذلل • كانت احدى هذه الصعاب ، ذلك التوتر بين « مردوك » ، و « يهوه » ، الذي قدر له بعد ذلك ، أن يقود تدريجيا ، الى نوع من التوازن بين سكان الشرق الأدنى • غير ان هذه الصعاب والاخطار ، لم تكن قط منظورة ومؤكدة لمعاصري نيبوخذ ـ نصّار • اما التهديدات المرئيةوالواقعية، التي كانت واضحة لكل امرىء ، فكانت في الداخل النمو المتزايد لسلطة الكهنوت في الدولة ، وفي الخارج سلطة الميديين الجبارة ، التي لم تكن في الحسبان ، خاصة وانها مازالت حتى ذلك الوقت ، خليفة الامبراطـورية الكلدانية • ولم يظهر هذان الخطران ، عندما كان نيبوخذ ـ نصّار على قيد الحياة • ان شخصيته ومساعيه في تنظيم الدولة الداخلي ، والتي تناولت ـ كما هي الحال عند حمورابي ـ كل شاردة وواردة ، كانت كافية لتحفظ مصالح الشعب والدولة • فعلاقات الصداقة والقربى ، التي كانت تربطه بالبيت الميدي المالك ، يضاف لها شهرته الحربية ، وعمله المتواصل لتحصين البلاد والعواصم ضد غارة متوقعة من الشمال الشرقي ، جعلت الميديين ، يرون ان من الحكمة بمكان ، عدم القيام بأي هجوم ، على قلب بلاد حضارة الشرق الأدنى • ولقد وصل تأثير نيبوخذ ـ نصّار الى درجة من القـوة ، بحيث استطاع معها عام ٥٨٥ ق•م ، الجمع بين كياكسارس الغازي الميدي الكبير ، والملك الليدي حيث اتفقا ، على جعل نهر الهاليس حدا غربيا للملكة الميدية • بيد ان موت نيبوخذ ـ نصّار عام ٥٦٢ ق•م ، كان في الواقع نهاية سلطة

الامبراطورية الكلدانية • لم يحكم ابنه الملك الضعيف اويل ــ مردوك ، سوى سنتين • اننا لا نعلم عنه شيئا ، اكثر من انه عفا عن الملك اليهودي يهوياقين • في المنفى ، وبهذا اعاد الحيـــاة الى آمال اليهود ، في اعادة تجديد وجودهم السياسي ببناء دولتهم مرة أخرى •

لا يمكننا معرفة تلك القوى الداخلية في بلاد بابل ، التي عملت على ازاحة اويل ــ مردوك عن العرش ، ومساندة صهره نيريك ــ ليصَّار • اما الشيء الممكن ، فهو ان اويل ــ مردوك ، حاول الحد من سيطرة الكهنوت • وعلى كل حال فقد زوج نيريك ــ ليصَّار ابنته لأحد كهنة بورسيبا ، الذي كان قد ساعده عند قيامه بالانقلاب ، واستلام الحكم ، وزاد هذا الملك من جديد ، الامتيازات لكهنة البلاد ، بالدرجة الاولى ، لبيوتات ومعابد مردوك في بابل ، ومعها ايضا استغلال الاراضي ومنتجاتها من المواد الاستهلاكية • ولم يستطع حتى باتخاذ هذه الخطوات ، انقاذ الامبراطورية • فعندما مات نيريك ــ ليصَّار ، بعد اربع سنين على الاكثر من توليه العرش ، خلفه ابنه الذي لم يكن قد بلغ بعد سن الرشد ، واسمه لا باشي ــ مردوك •

يبدو ان مجموعة من الكهنة ، واصحاب الاقطـــاع ، التي كانت تتبع سياسة اخرى ، تختلف عن سياسة كهنوت مردوك في بابل ، قد استغلت هذه المناسبة ، لتفرض سيطرتها على الدولة • وتنيجة لذلك ، فقد اغتيل الطفل لاباشي ــ مردوك ، لينصب احد نوابه الخاصِّين ، الذي كان على الارجح كاهنا ، كملك على بابل : انه نابونيد ، الذي كان شخصا غريبا على العرش البابلي ، لانه لم يكن ذا أصل كلداني من البلاد ، ولكنه كان كأسلافه من اصل آرامي • لقد كان والده اميرا غنيا في بلاد ما بين النهرين الآرامية ، وامه الكاهنة الكبرى لإله القمر في حرَّان • ومما لا شك فيه ، ان نابونيد ، كان على صلة بطقوس زِنْ الدينية ، وبكهنته ، لانه حاول اثناء حكمه ، توسيع كـــل من البيتين المقدسين الكبـــيرين ، لإلـــه القمر في « اور » ،

و « حرّان » على حد سواء • كما قام أيضاً ، بتقديم ابنته ، كعروس للاله في معبد اور مقتديا في ذلك بتلك الامثلة المشهورة السابقة التي تكررت على مر الزمن ، حتى بداية العصر الاكّادي • يمكننا حقا القول باننا نقف باعتلاء نابونيد للعرش ، امام ردة فعل بابلية داخلية ، ضد طقوس مردوك الدينية ، التي لم تلعب فيهـا مصالح مادية لفئـة من الكهنة وحسب ، بل من الممكن ايضا ، ان تكون قد لعبت فيها أسباب روحية دينية ، وأخرى ارتكزت على التناقض العنصري بين البابلية والآرامية • ولما كانت مصادرنا حول ذلك قليلة ، فلا نستطيع الاجابة على هذا السؤال بشكل قاطع • ترينا كتابات نابونيد ، التي بحوزتنا أن هذا الملك قد عبد ظاهريا الآلهة البابلية الاصلية ، ووسع وحسن البيوتات المقدسة القديمة في البلاد ، وأقام عدة أبنية حديثة • لقد كان يشعر بالسعادة ، عندما يكشف عن وثائق بناء تأسيسية عريقة في القدم ، ويعيد بناء المعابد كما كانت عليه في السابق • وهكذا عرف نابونيد الملك عند المؤرخين بأنه ذلك الأثري ، الذي كان احب اليه ، أن يتخلى عن السياسة العـامة ، من أجل دراساته الخاصة • وأيد هذا الحكم عليـه ، الحقيقة الغريبة ، انه مكث ثمانية أعوام متواصلة ، في مدينة واحة تيماء في وسط الصحراء العربية ، تاركا الحكم في بابل ، لابنه بِل ـ زاصّار • يمكن أن يزيل هذه التهمة عن شخصيته ذلك الشعر الهجائي ، الذي هو نوع من وثيقة تدين نابونيد ، وتعلل فتح بلاد بابل على يد كيروش ، على انه تحرير من اخطاء نابونيد • لا يمكن ان تكون هذه الوثيقة التاريخية قد كتبت ، الا من احد اتباع كيروش ، يعاونه في ذلك ، احد مؤيدي كهنوت مردوك ، الذي يحتفل بـ « كيروش » ، كمنقذ ، وبمعنى آخر كمحرر من الاتجـاه السياسي للحاكمين الكلدانيين « نابو ـ بولاصّار » ، « نيبوخذ ـ نصّار » • لقد كان هذان الملكان آراميّي الاصل ، ولكنهما لم يكونا كـ « نابونيد » آراميّين شماليّين ، اذ رأى الملكان بعكسه ، ان مهمتهما ، تنحصر في احياء وبعث الحضارة العريقة المقدسة في البلاد ، وايصال اشعاعها الى خارج البلدان

الأخرى . تتهم هذه الوثيقة التاريخية نابونيد ، بأنه اخترق حرمة هذه التقاليد المقدسة ، في كل ناحية ، واستورد الها غريبا ، لوضعه مكان مردوك ، وأهمل واجباته كحاكم ، وتوج كل ذلك ، بأنه خرج الى البلاد الاجنبية ، لينطوي على نفسه في تيماء .

من الممكن أن يكون نابونيد وانصاره ، قد عملوا على خلق قوة كبيرة ، ضد الخطر الايراني ، وذلك بجمع شمل سائر القبائل الآرامية ، في كافة انحاء الشرق الأدنى . وللوصول الى ذلك ، رأى ان عليه ، دعم طقوس الإله زِنْ الدينية ، ليستطيع بواسطته ، ربط الآراميين الغربيين بشخصه ، اكثر من دعمه للتقاليد البابلية المحلية ، وبالدرجة الأولى لسلطة مردوك . وهذا يمكن أن يعلل سبب اتخاذه من بناء معبد إلهه ، (إله القمر) في حرّان محوراً لسياسته ، بينما نجده قد ذهب ــ كما يقال ــ الى حد إلغاء عيد رأس السنة ، عيد مردوك ، لسنوات عديدة . وهذا ما يمكن أن يفسر لنا أيضا سر اقامته عدة اعوام في مدينة محطة القوافل العربية ، حيث يمكن أن يكون قد حاول ، تجهيز وتنظيم قوة الشعب البدوي ، ضد خطر اجتياح الشرق الأدنى ، بواسطة الاقوام الايرانية .

ان مثل هذا التصحيح لمفهوم شخصية نابونيد ، الذي يناقض كتاباته الرسمية ، انما يرتكز ايضا على وثيقة كتابية معادية ومبالغ فيها ، يمكن أن تقلب آخر ملك لدولة بابلية مستقلة ، تصوره المرء قبلا كرأس سياسي غبي وشخص غريب غير كفء ، تقلبه الى عدو واع لاهدافه ، عدو اكبر معاصريه ، وهو كيروش ملك فارس .

بيد ان نابونيد ، كان على كل حال ، في موقف اليائس . فبالرغم من ان العنصر الآرامي ، استطاع تثبيت نفسه قومياً ولغويا ، في كافة انحاء الشرق الأدنى ، الا انهم عجزوا ، بسبب افتقارهم الى مذهب فكري عالمي كبير خاص بهم ، وبالتالي بسبب حاجتهم الى تنظيم واحد يجمع شملهم ، عن استلام زمام القيادتين الفكرية والسياسية . ولم يستطع الإله زِنْ بعد ذلك ، منافسة

« مردوك » ، و « اهورا مزدا » ، و « يهوه » • ولم تكن الاقوام والامارات الآرامية المبعثرة ، بقادرة على مجابهة التنظيم ، الذي كان يتمتع به الشعبان الميدي والفارسي • فسقطت بابل عام ٥٣٩ ق•م ، في يد الملك الاخميني كيروش ، واصبحت بذلك ولاية فارسية • غير ان سلطة مردوك الروحيــة استمرت على الحياة بادىء الامر ، حتى تحت الحكم الاجنبي •

الفصل الثالث

امبراطورية الفرس العالمية

بقيـــادة الاخمينيين

آ ـ تطور الاحداث من كيروش حتى داريوس

عندما اجتاح السكيتيون عام ٦٥٠ ق٠م البلاد الميدية الفتية ، اغتنم تايزب بن اخايمين ، ملك بارشوما في غرب ايران ، الذي كان قد وضع يده على المنطقة الجنوبيـــة الشرقية المجاورة انشان ، اغتنم الفرصة ، ليتوغـل باتجاه الجنوب الشرقي في منطقة بارزا (= فارس) ٠ وبذا استطاع هــذا قبل موته عام ٦٤٠ ق٠م تقسيم مملكته بين ولديــه : فــكان من نصيب كيروش الأول عرش الوطن الام بارشوما ، أما ابنه الاصغر آريارامين ، فقد آل اليه عرش بلاد فارس الحقيقية ٠

ولكن بعد أن قضى كياكسارس[1] عام ٦٢٥ ق٠م على السكيتين في ميديا ، وجعل من الميديين ، خلال عدة سنوات قوة جبارة ، لم يبق لابني أخايمين بعد ذلك مجال حيوي واسع في ايران ٠ صحيح أنه ليس لدينــا معلومات كثيرة ، عن تطور الاحداث السياسية والعلاقات الميدية ـ الفارسية في ذلك الوقت ، الا انه من المرجح أن يكون كياكسارس هو الذي حطم سلطــة آريارامين والذي لقب نفســه بملك فارس وبالملك الكبــير ، وبملك الملوك ٠

(١) يذكر هيرودوت بان هذا الملك تمكن من قهرهم بعد ان اسكرهم جيعا .

لم يعتل ابن آريارامين ، « آريام » ، ولا حفيده « هيزتازب » عرش فارس ، ولم يحملا حتى لقب ملك ، بل ترك كياكسارس بلاد فارس للجناح الآخر من الاخمينيين ، الذين استمروا في حكم بلاد بارشوما كملوك تابعين ٠ فقد أوكل الى قمبيز الأول ، الابن الثاني لـ « كيروش الأول » البارشومي ـ الذي اقتيد اخوه أروكو من قبل اشور ـ بانيبال كرهينة الى نينوى ـ ، اوكل اليه ادارة بلاده الخاصة بارشوما ، بالاضافة الى بلاد فارس ٠

بقي عالم الشرق الأدنى حتى منتصف القرن السادس ق٠م مقسما بين السلطتين الكبيرتين « ميـديا » ، و « بابل » ، وفقا لتخطيط العظيمـين « كياكسارس » و « نيبوخذ ـ نصّار » ٠ ولم يلعب الاخمينيون في هذا الجزء من العالم ، سوى دور ثانوي ، حتى ولو صدقت رواية هيرودوت (الجزء الاول : ص ١٠٧ ٠٠٠ الخ) التي تقول ان قمبيز الأول قد تزوج ابنة الملك الميدي أزتياج أي ابن كياكسارس وخليفته ولم يستطع أي انسان في ذلك العصر ولا قمبيز الأول نفسه ـ الذي ترك بموته عرش « فارس » و « سوزيانا » لإبنه الأكبر كيروش الثاني ـ ، أن يتصور بأن حكم العالم سيكون من نصيبهم بعد سنوات قليلة ، خاصة وان كيروش الثاني نفسه ، كان ملكا تابعا للملك الميدي الكبير أزتياج ٠ لقد اعتقد نابونيد بأن امكانيات كيروش الثاني محدودة ، فتحالف معه آملا أن يجد فيه قوة مضادة للخطر الميدي ، الذي كان يهدد باستمرار بلاد بابل ٠ ولكن نابونيد شعر بعد حين ، بأنه استبدل الخطر الميدي ، بخطر أعظم ، هو الخطر الفارسي ٠

لقد رفض كيروش عام ٥٥٢ ق٠م ـ أي بعد ست سنوات من توليه العرش ـ طلب مليكه الميدي الأكبر أزتياج ، المثول أمامه في اكباتنا للدفاع عن نفسه ٠ الا انه لم يكتف بهذا العصيان بل بدأ الحرب ضد الميديين ٠

اغتنم نابونيد الفرصة مستبشراً ، ليعيد احتلال مدينة حرّان ، مدينة إلهه واسلافه ٠ فتنفس الصعداء ، بعد انهيار السلطة الميدية الكبيرة ، لأنه كان يشك في قدرة بابل على مجابهتها ٠

لم يحتل كيروش الثاني مملكة كياكسارس وحدها ، بل توغل باتجاه الغرب مع محاربيه الفرس الاشداء ، ذوي القوة البكر ، الذين منحتهم فكرة الههم اهورا مزدا المثالية، ديناميكيةجبارة فيالقتال. وعندما اجتاز نهرالهاليس ليهاجم المملكة الليدية في غرب آسيا الصغرى ، أحس نابونيد والعالم كله ، بأن عصرا جديدا أطل بفجره على الشرق الأدنى . ولذا دفعت الكارثة المشتركة بملوك « زارديز » ، و « سبارطه » و « فرعون مصر » و « بابل » للوقوف بوجه الغازي الجبار ، بينما عقد يهود المنفى وكهنة مردوك الآمال على نصره. وفي عام ٥٤٦ ق.م ، كان كيروش قد هزم الجيش الليدي ، واحتل عاصمة كروزيز ملك ليديا فرأى كروزيز ، الذي وعده المنجمون اليونانيون بالنصر ، أن آلهته قد تخلت عنه ، الا انه كان محظوظا فأحسن أعداؤه معاملته .

وهكذا وقع اليونانيون ولأول مرة تحت حكم الشرق الأدنى فقسمت ليديا الى قسمين ، وضمت الى الامبراطورية الفارسية .

لقد دخل كيروش بابل بعد سبع سنوات من انتصاره على كروزيز الليدي ، وبعد أن وجه هجوما من عيلام ضد اوروك ، ومن وادي الديالي ضد زيبار . احتل قائد الجيش الفارسي كوبيراز العاصمة بدون أية مقاومة ، فهرب نابونيد الى بورسيبا ، حيث القي القبض عليه هناك . ودخل كيروش ، فقبل يدي مردوك ، واعاد الآلهة الاجنبية ، التي كان نابونيد قد نقلها الى بابل الى اوطانها ، ونصب ابنه قمبيز كملك من الدرجة الثانية على بابل . وهنا يتحدث كيروش : « وعندما دخلت بابل بصورة سلمية ، جعلت مقر السلطة ـ تحت التهليل والابتهاج ـ في قصر الامراء ، وحبب بي مردوك السيد العظيم قلوب البابليين الكبيرة . في الوقت الذي اقمت الصلوات اليومية من اجله ... لقد قدم لي الجزية الكبيرة سائر ملوك جهات العالم ، الذين يقطنون مقصورات العرش ، من البحر الأعلى حتى البحر الاسفل ... ، وقبلوا قدميّ في بابل ... » . ومما لا شك فيه ان كهنة مردوك قد احتفلوا بـ « كيروش » كمحرر مرسل منقبلالإله حيث خلصهم من كابوس

حكم نابونيد . ولقد حيّا يشوع الثاني الملك كيروش بعد انتصاره على كروزيز كمنقذ لليهود المنفيين ، وأنه سوف يقودهم الى فلسطين ويعيد يهوه الى معبده في القدس . وفعلا أصدر كيروش في عام ٥٣٨ أي في السنة التي تلت غزو بابل ، امراً باعادة بناء المعبد في القدس والسماح لليهود بالعودة الى فلسطين .

اننا لا نعرف متى وسع كيروش امبراطوريته نحو الشرق حتى الحدود الهندية وفيما اذا كان هو بالذات قد وضع الخطة للزحف على مصر . الا ان الشيء المؤكد هو ان سلطته قد تجاوزت تلك المناطق التي عرفها ملوك ــ الآلهة الاكاديون ، وانه سار على نظم اجتماعية مثالية لم تكن معروفة قط في الشرق الأدنى ولا في تلك الممالك التي كانت تابعة للحثيين . لقد اتخذ كيروش من اهورا مزدا إلها قائدا ــ فهل كان كيروش من معتنقي الزاراتوستريه أم لا ؟ ــ قدر له أن يشفق على الشعوب المغلوبة وأن يعامل تلك الشوب الأجنبية وآلهتها معاملة الصديق للصديق .

لقد اتسعت امبراطورية كيروش الكبيرة ، التي كانت على الصعيد السياسي حصيلة الهجرتين الشعبيتين الكبيرتين الهندية الجرمانية والآرامية في الألف الثانية ق.م ، لكل من الحكمة الكلدانية وفلاسفة الطبيعة الايونيين وكذلك لكلتا الديانتين العالميتين « يهوه » و « اهورا مزدا » ومعهما أيضا العقيدة البابلية العريقة المتطورة وهي عبادة مردوك .

مات كيروش عام ٥٢٨ ق.م متأثرا على الارجح بجراح اصابته في غزوة طارد بها البدو في الشمال الشرقي من امبراطوريته .

لم يكن ابنه الأكبر وخليفته قمبيز الثاني يتحلى بتلك الروح المتسامحة والقلب الرؤوف ، الذي كان لدى والده . ولو لم يلق قمبيز حتفه في بلاد الشام بعد حكم ظالم دام فترة قصيرة لفشلت بسببه فكرة الامبراطورية الاخمينية كليا ، مع أنه انتصر على بسامتيتيش الثالث بن اماسيس بالقرب

من بيلسيوم بعد حرب خطط لها بـشكل عناية وضم علـى اثرها مصر الى الامبراطورية الا انه كان يشكل النقيض لسلفه العظيم • وقد تجلى هـذا التناقض في الطريق الشاذة التي سلكها عند تنصيب نفسه فرعوناً على مصر • ففي الوقت الذي قام فيه بتقديس بعض الآلهة المصرية واحترامها ومنح كهنتها امتيازات خاصة ، هدم بالمقابل معابد أخرى ، واحتقر تقديس الحيوانات عند المصريين وعبادتها اذ أنه لم يظهر تفهما لها بل أقـدم على قتل ثور ابيس المقدس ودفنه بعد ذلك • ولهذا ليس من العجيب أن تندلع في الوطن نـار عصيان أثناء غياب قمبيز الطويل • إذ أن قمبيز كان قد دبر اغتيـال اخيـه الاصغر بارديـًا (سمير ديس) قبـل البدء بحملة مصر لانـه رأى فيـه خطرا عليه كوال على المقاطعات الشرقية • وبعد مدة انتحل أحد السحرة واسمه جاوماتا شخصية بارديـًا وانتزع السلطة لنفسه • وهكذا وجد قمبيز نفسه مضطرا ليعترف وهو على فراش الموت بأنه أقدم على اغتيال أخيه لتبقى السلطة على الاقل في السلالة الاخمينية •

كيف حدث ذلك وكيف أنقذت الامبراطورية يحدثنا عنه داريوس الذي ينتمي الى فرع آخر من السلالة الاخمينية • فهو ابن هيستاسبس وحفيد آريارأمين ملـك بارزا الوحيد الـذي كان كياكسارس الميدي قد قهره • انه يحدثنا عن ذلك في كتابة نقشت بالخط المسماري في لغات ثلاث : الفارسية القديمة والعيلامية والاكّادية على صخور بيهستون :

« ••• لم يجرؤ احد على التفوه بشيء ضد جاوماتا ، الساحر حتى اتيت أنا • وتوسلت •• لـ اهـورا مزدا • فأعانني اهـورا مزدا ••• ، فقتلت بمساعدة رجال قلائل المدعو جاوماتا الساحروخيرةالرجالمن اتباعه • وفي حصن يسمى سيكاي أوٌاتيش في منطقة اسمها نيساي في بلاد ميديا ، قتلته وانتزعت منه السلطة • وحسب مشيئة اهورا مزدا اصبحت ملكا • ومنحني اهورا مزدا السلطة ••• » • وتتحدث كتابة بيهستون بالتفصيل ، كيف تمكن داريوس بكل دهاء وحـزم من تثبيت دعائـم سلطته وانقـاذ

الامبراطورية من التفكك عندما نشبت الثـورات المحلية خاصة في القسم الشرقي من الامبراطورية ، وعندما أخضع فارس وبلاد بابل الى حكمه • « ••• ، هذا الذي قمت به تمشيا وارادة اهورا مزدا ، خلال سنة واحدة،بعد أن أصبحت ملكا ، خضت غمار تسعة عشر معركة • وبارادة اهورا مزدا انتصرت فيها جميعا واسرت تسعة ملـوك ••• » • لقد قضي على أولئـك الملوك التسعة الدجالين من بينهم جاوماتا الساحر الذي أدعى بأنه سمير ديس وكان من بينهم ايضا نيدينتو ـ بل الذي ادعى انه ابن نابونيد وفصل بابل عن الامبراطورية • وقد سرد داريوس اسماء هؤلاء وأقسم بأن جميع ما فعله من اعاجيب قد تم في سنة واحدة وينطبق والحقيقة • وبروح المتشبع بتعاليم اهورا مزدا يقول داريوس : « ••• ولهذا السبب ساعـدني اهورا مزدا والآلهة الأخرى الموجودة لانني لم اكن قط متعديا ولا دجالا ولا ظالما لا أنا ولا اسرتي • لقد سرت منطلقا من الحق والواجب لم استخدم القوة ضد اي يتيم أو فقير ••• » •

وفي الختام يسمي داريوس ستة من الفرس ، « الذين كانوا حضورا عندما قتلت جاوماتا ، الساحر ، الذي أسمى نفسه سمير ديس» • انها لأفكار جديدة تهب علينا في لغة جديدة بدائية ، من خلال هذا التقرير ، انهـا لروح رجل اصبح لا يعد فقط المجدد الحقيقي وانما المنظم الاخير لامبراطورية كيروش •

عمل داريوس ست وثلاثين سنة متواصلة في البناء الداخلي والخارجي لهذه الدولة العالمية التي امتدت من الحدود الليبية في شمال افريقيا والساحل الايجي حتى نهر الهندوس ومن البحر الاسود وبحر قزوين في الشمال حتى المحيط الهندي في الجنوب • ولم تكن حملاته ضد الهنود والسكيتيين الا لتدعيم حدود الامبراطورية • وكما سعى داريوس لدرء الاخطار الخارجية عن الامبراطورية التي شملت العالم المتمدن آنذاك باستثناء اليونان حاول حماية الامبراطورية من الداخل وجعلها قادرة على العمل والاستمرار في

مجالات الخدمات الداخلية في تلك الامبراطورية العظيمة ٠

وقد شمل هذا التنظيم كافة نواحي الادارة من قانون وضرائب وخدمة في الجيش ، والتجارة والبريد ، والمواصلات ، والكتابة ، واللغة ٠ لقد كان الهم الرئيسي لهذا الملك يتجسم في كيفية امكانه قيادة هـذه الافكار مجتمعة أو بتعبير أفضل امكانية جعلها تعيش بسلام تنتج وتثمر دون اصطدام٠

لقد جلبت معها السنوات الاخيرة من حكمه النزاع الاول في التاريخ ، الذي جرى بين الامبراطورية الفارسية ودويلات المدن اليونانية ٠ ولم يكن لهذه الدويلات في الواقع ، سوى أهمية عادية ، حسب منطقة نفوذ كل منها ، وبالرغم من ذلك ، نجد ان هذه الحقبة تعتبر من اهم مراحل تطور البشرية ، وبنفس الوقت الفصل الاخير من تاريخ الشرق القديم ٠ اذ اصطدمت لاول مرة ، عقيدة عالم غرب آسيا بعقيدة انسان الغرب ٠ انه الانسان الهيلليني ، الذي اخذ يفضل منذ القرن السادس والخامس ق٠م ، الحكمة على العقيدة ، والذي يعتقد ان مقاييس كل الامور ، قد اهتدى اليها بتفكيره الخاص ٠ لا يدخل هذا النزاع ، الذي جرى بين الشرق والغرب ، حتى ولا تطوراته الأولى في صلب مهمة بحثنا ٠ ان هذا النزاع ، مازال مستمرا حتى يومنا هذا ، ظاهرا للعيان في تفكير وعقلية كل من الشرق والغرب ٠ لم يعرف الشرق القديم مثل هذه الامور ٠ انه لم يعرف سوى الآلهة ، التي يصطدم مجالاتها الفكرية والمادية ، ضمن النفس الانسانية وخارجها ٠ فامبراطورية داريوس ، لا تعد في الواقع ، سوى آخر محاولة ، لبناء هـذه المجالات الحيوية ، بكلمة اخرى انها آخر محاولة قام بها الشرق القديم ٠

ب ـ مفهوم الملـك وتنظيم الامبراطوريـة

هكذا يمكن رسم صورة للامبراطوريـة الفارسية العالمية في عهـد داريوس ، التي نختتم بها عرضنا لتاريخ الشرق القديم .

شملت الامبراطورية الاخيمينية عددا من الشعوب اكثر من تلك ، التي كانت تحكم من قبل الامبراطورية الآشورية في القرن الثامن والسابع ق.م . لقد ذكر داريوس الأول في كتابة قبره في نقشي الرستم ، تسعة وعشرين شعبا بربريا من شعوب الحدود الشرقية ، بالاضافة الى الشعوب ذات الحضارة العريقة . تتجسم الاواصر ، التي تربط هذه الشعوب ببعضها ضمن الدولة الواحدة في وجهة نظر الفرس ، في رحمة اهورا مزدا إله الآريين ، حيث جعل داريوس ، هـذه الشعوب تعيها وتفهمها ، ليسهل عليهـا الطريق ، للاحاطة بقوانينه ، وذلك كما ورد في كتابـة بيهستون . ان الحفاظ عـلى الامبراطورية متعلق بشخص الملك بالذات ، الذي يدين بسلطته على شعوب اجنبية لإلهه الخاص . فملك الفرس لم يكن يوما الها ، الا ان الآريين رأوا في عظمة جلالته ، التي تمت الى النار بصلة القربى الها . ولم يذكر في كتابة داريوس شيئا عن سلطة هذا الملك على الشعب السيد « الفرس » : فالملكية على الفرس هي حق موروث للاخمينيين كأسرة أولى من بين الأسر الفارسية السبع ، التي لها الحق في الملكية ، والى جانب الملك ، اخذ زعمـاء الأسر الست الاخرى ، امكنـة خاصة ، وشكلوا مجلسا استشاريا عمـل الملك بنصائحه . هذا وليس لهؤلاء علاقة ، بأولئك الست ، الذين ساعدوا داريوس ضد الملك الدجال سميرديس . وانطلاقا من قانون الدولة هذا ، لم تختلف الامبراطورية الفارسية كثيرا في تأسيسها عن الامبراطورية الآشورية ، التي شكلت تنظيما سياسيا ، مارس فيه شعب سيد ، انطلاقا من قوته ، الحكم على

الميدي ، شقيق الشعب الفارسي فقد تبوأ مكانا رفيعا خاصا بين هذه الشعوب المحكومة ، وشارك في قيادة الامبراطورية السياسية ، مشاركة اتت بالدرجة الثانية بعد الشعب الفارسي •

أما فيما يخص بلاد بابل ومصر ، فقد بقيتا محافظتين على حضارتيهما القديمتين ، الا انهما لم تلعبا أي دور سياسي هام •

ففي نفس السنة التي أصبح فيها كيروش الثاني ملكا على فارس ، اقدم هذا الملك على بناء مقر لمملكته في بلاد فارس الام ، اسماه « بازار كادي ». أما داريوس ، فقد شيد بالمقابل عاصمة محلية ، اطلق عليها اليونانيون اسم بيرزيبوليس ، التي هي عبارة عن قصر محصن في المدينة الصغيرة « بارزا » • تعتبر هذه المدينة حتى هذا اليوم أعظم آبدة أثرية في الشرق الأدنى • بالرغم من انهـا تحوي اجمل واغنى بقايـا فن العمـارة والنحت الاخميني ، فانها لم تكن مركزا لحكومة الامبراطورية الفارسية العالمية • اما العاصمة الحقيقية للامبراطورية الفارسية ، فقد كانت حصن مدينة سوزا ، العاصمة القديمة لعيلام ، حيث أقدم داريوس على توسيعه واصلاحه ، وجهزه باثمن المواد والمفروشات ، على يد صنـاع مهرة ، ينتمون الى كافـة مقاطعـات الامبراطورية ، من الجزر الايجية حتى الهند • لم يتخذ الملك من قصر سوزا مسكنا وبيت مال فقط ، وانما كان محاطا من قبل الاشراف الفرس والميديين ، الذين كانوا من اشراف الاقطاع ، وبنفس الوقت من اشراف البلاط ، اذ على الاقطاعيين الكبار ، أن يقدموا الولاء للملك في البلاط ، اذا ما ارادوا ألا يفقدوا رحمته • وهنا كان لديه أيضا « مجلس السبعة » ، وعاش تحت حماية الالف « الخالدين » ، الذين شكلوا تحت قيادة اكبر موظفيه ، المسمى « شيليارش » ، حرسه الخاص • وبالاضافة الى ذلك فقد كان حوله كامل جهاز موظفي القصر ، الذي برز فيه ، بصورة خاصة ، كل من : كبير السقاة[1] ورئيس سواس الخيول ، ورئيس الخزينة ، وسائق العربة ، وحامل الرمح ،

(1) لقد كان الساقي في عصور متاخرة اما من الخصية او من اليهود مثل « نيخمايا » .

عدد من الشعوب الغربية ، وذلك على يد حكام ، عينوا من قبل الملك • اما الفرق بين الامبراطوريتين ، فقد تجلى في الناحية الفكريـة ، لان تعاليم اهورا مزدا ، التي تختلف عن تعاليم الإله آشور ، قد اكدت على الناحيـة الاجتماعية المثالية ، والانسانية ، لماهيته كأعظم إله ايراني قديم • كذلـك خففت وطأة حكم الاخمينيين الأجانب ، على الدول ذات الحضارة العريقة ، مثل بلاد بابل ، ومصر ، وفينيقيا ، ودويلات المدن الايونية ، اعتبار الملـك الفارسي نفسه ، على انه المختار من قبل الآلهة المحلية لهذه البلدان ، وترك زعماء الدول المحليين من متسلطين وامراء صغار ، يحكمون بلادهم بمراقبة ساتراب[1] الامبراطورية الفارسية • يمكن ان يكون نظام الـ « ساترابِنْ » (اي الولاة) الذي يشبه في طبيعته لحد كبير جدا ، نظام الولاة ، الذين حكموا المقاطعات في آخر عهد الامبراطورية الآشورية ، قد أسس في عهد الملك الميدي كياكسارس • ومما يرجح ذلك ، هو ان هذه التسمية ، تعود الى أصل ميدي ، وليس الى فارسي • وبغض النظر عن ذلك نجد ان هذا النظام لم يكتمل الا في عهد داريوس • ولما كان اكثر الـ « ساترابِنْ »، ان لم يكن جميعهم من الامــراء الفرس ، أو ممن ينتسبون الى العائـلات الميدية والفارسية الشريفة ، اصبح نظام الـ « ساترابِنْ » ، عبارة عن واسطة اخرى لسيطرة الشعب الفارسي ، وبالتالي للحفاظ على الامبراطورية • وقد يفترض المرء ان شعوب بلدان الشرق الأدنى الغربية ، قد تحطمت مقوماتها الشخصية الخاصة ، بسبب سياسة التهجير ، والتسلط الآشورية ، لدرجة اصبحت معها ، هذه الشعوب عاجزة عن القيام بأي عمل سياسي أو عسكري •

وانطلاقا من ذلك ، فقد شكلت الامبراطورية الفارسية ، اتحادا شعوبيا ، حافظت عليه ، بتسلم الشعب الفارسي السيد القيادة السياسية ، التي كان الملك على رأسها ، وقد وحّد في شخصه كافـة السلطات • امـا الشعب

(١) تسمية فارسية ــ يونانية تطلق على الوالي من قبل الملك الفارسي للاشراف على مقاطعة ما من الامبراطورية •

وحامل الصولجان • كما كان لديه أيضا اطباؤه وفنانوه المصريون واليونانيون• وكذلك التقت هنا معا ، وبصورة خاصة ، خيوط الادارة العليا ، من سائر انحاء الامبراطورية في يد « مجلس السبعة » ، وعلى رأسه ـ على الارجح ـ الآمر الاعلى للحرس الخاص ، الذي كان بمثابة الوزير الكبير • ومن الممكن أن يكون قد انضم الى هؤلاء السبعة ، مستشار الامبراطورية ، الذي اخذ على عاتقه أخطر منصب وهو كتابة المراسلات السياسية والديبلوماسية • كانت الآرامية اللغة الرسمية لدواوين الامبراطورية ، بينما لم تستعمل الفارسية والعيلامية والبابلية ، الا في الكتابات على المباني ، والتماثيل ، أو في مناسبات محلية صرفة • وهكذا لم تستطع الكتابة المسمارية ، التي أوجدها الملوك الاخمينيون للغتهم الخاصة ، من ايقاف النصر الذي حققته اللغة الآرامية في الشرق • لقد كانت اللغة الآرامية مرتبطة بملفات البردى الخفيفة، بينما تراجعت امامها الرقم الطينية أكثر فأكثر •

يجب هنا أيضا في هذا القصر ، أن يكون مقر ذلك الموظف الكبير ، الذي كان يخبر الملك عن ملاحظاته وخبرته ، والذي اطلق عليه اليونانيون لقب « عين الملك » • لقد كان هذا الموظف ، مفتش الامبراطورية ، الذي كان ليس عليه فقط ، مراقبة الامور الزراعية ، وفرض الضرائب ، وانما أيضا التفتيش على الساترابين ، وحكوماتهم ، في نفس البلاد التي يديرونها • وكان يرافقه في رحلاته ، عدد كاف من الجنود ، ليتخذ الاجراءات المناسبة فورا •

لقد كان الساترابين ، الذين بلغ عددهم العشرين منذ التقسيم الجديد ، الذي قام به داريوس للامبراطورية ، النواب المباشرين للملك • لقد كان عليهم ادارة شؤون البلدان ، التي تقع تحت امرتهم ، وذلك باستقلال تام • لقد حصّلوا الضرائب، ونقلوها الى الدولة• لقد قام كل منهم بدور القاضي، وآمر قوى الامن المحلية ، واقاموا الاتصالات والمحادثات مع الشعوب الاجنبية المجاورة • لقد كان بلاطهم صورة مصغرة ، عن بلاط الملك في العاصمة • كانوا يملكون ، كالملك ، منتزهات مترامية الاطراف ، تمرح فيها

الحيوانات المتوحشة . تسمى هذه المنتزهات بالجنان ، التي يستطيع فيها هؤلاء الساترابن° ، تمشيا والعادة الفارسية ، الذهاب الى الصيد . وبالاضافة الى ذلك كله ، كان هؤلاء ، يتمتعون ، لحد ما ، بحق اصدار القوانين . ومن ناحية أخرى ، ولكي يبقي الملك سلطة هؤلاء العشرين من الساترابن° ، تحت امرة الادارة المركزية ، وليحمي سكان البلاد التي يديرها هؤلاء ، من التعسف والظلم قام فوضع الى جانب كل منهم اكبر موظف ثان في المقاطعة ، أي سكرتير ملكي ، كان مسؤولا مباشرة امام الملك .

هذا وقد كانت مشاكل الضغط على المحكومين واستغلالهم فيمقاطعاتهم، من الكثرة ، بحيث لم يمض يوم ، دون حدوث مثل ذلك . وبذا لم يقل تكرار مثل هذه الحوادث ، عن عددها الكبير فيما بعد ، أثناء ادارة المقاطعات في العصر الروماني ، من قبل الحكام الرومان . وبصورة عامة ، فقد اوجد الفرس من نظام الساترابن (المقاطعات) ، نظاما يشبه الشبكة ، التي رموا بها فوق بلدان وشعوب الامبراطورية المغلوبين على أمرهم . هذا ولم ينسج المرء هذه الشبكة على نمط واحد ، وانما تميزت ، بأن عيونها كانت واسعة ، أو ضيقة ، ويمكن للمرء شدها أو ارخاؤها ، وذلك حسب الحاجة .

جـ ـ وحدة ، وتشعب الحضارات في الامبراطورية الفارسية

تميزت الامبراطورية الفارسية ، عن غيرها من امبراطوريات الشرق الأدنى القديم السابقة ، بطريقة خاصة من الادارة، وباجراءات معينة على صعيد وضع القوانين ، التي لم يصلنا الا اجزاء منها ، وعلى صعيد الخدمة في الجيش ، وشق الطرق ، والمحافظة عليها • لقد حصل الشرق الأدنى القديم بلا شك ، على نوع من الوحدة ، بواسطة هذه الميزات المذكورة ، بالاضافة الى خدمة المراسلات الحكومية ، والاقتصادية ، وكذلك تقليد الملك الليدي، باستخدامهم طريقة التداول بالعملة ، حيث كان هذا الملك اول من طبقها • كما وساهم هذا النوع من الوحدة ، بالاضافة الى اللغة والكتابة الآرامية ، التي اتسعت اتساعا كبيرا ، في تطور الفكر على صعيد الامبراطورية • هذا ولم يدر في خلد الاخمينيين ، ولا حتى في خلد شعبهم الفرس ، أن يتخطوا حدود هذه الوحدة الادارية ، لشعوب الشرق الأدنى ، ليخلقوا أو ليفرضوا ، نوعا من الوحدة الفكرية التامة • ولم يقدم هؤلاء ، على التخلي عن معتقدهم ، ليضعوا أنفسهم ، في مصاف اولئك الصانعين للحضارة القديمة ، كما لم يحاولوا ايضا استخدام القوة في نشر الفكر الفارسي ، في بلاد بابل ، وبلاد الشام ، ومصر ، وآسيا الصغرى •

تتلمذ الاخمينيون على يد حضارات بلاد الرافدين العريقة في كل الحقول سواء أكانت الصناعات اليدوية ، أو التكنيك ، أو في صياغة التعابير اللغوية • وبالرغم من ذلك استطاعوا أن يخلقوا من منشآتهم المعمارية والفنية ، في « بازاركادي » ، و « بيرزيبوليس » ، و « نقشي الرستم » ، و « سوزا » رمزا شاهدا على اتجاههم الفكري والروحي الخاص • على المرء أن ينتبه في تلك المنشآت الجبارة ، خاصة الى أصالة مخططاتها ، وحسن تنفيذها ، والى تعدد مواضيع الفن التصويري ، والى البساطة في اسلوب اللغة الاخمينية ، التي تشبه لغة كتابات داريوس ، وعليه الا يركز اهتمامه الزائد ، على بعض العناصر ، التي اقتبست عن الماضي وعن الشعوب الاجنبية ودمجت في لغة الاخمينيين الخاصة •

د ـ ديانة الاخمينيين وديانات الامبراطورية الاخمينية

اذا ماكانت لغة هذه المنجزات الفنية الاخمينية ، التي ناءت تحت ثقل التقاليد العريقة ، عند نهاية تطور الشرق القديم ، قد حافظت مع ذلك ، على طابع خاص بها ، فان الفضل في ذلك يعود لديانة الفرس الخاصة ، التي كانت احد عوامل تطور الحضارة الفارسية • ان اغنى واهم فصل من الناحية التاريخية العالمية في العصر الفارسي القديم ، هو لا شك ، الفصل الخاص بالديانة الاخمينية ، وديانات الامبراطورية الاخمينية •

لقد اصبح السؤال التالي ، أهم مشكلة ، عولجت في السنين السابقة : أي ديانة اعتنقها الفرس وملوكهم في العصر الاخميني ؟ لقد اعتقد العلماء في السابق ، ان تعاليم زاراتوسترا ، قد شكلت الاعتقاد العام لهذه الحقبة التاريخية الكبيرة ، وان تسجيلها الخطي ، في الـ « افيستا » ، يمكن أن يكون قد تم في عصر لاحق • ولو انطلقنا من كتابات داريوس ، لوجدنا هذا الملك ، يمجد اهورا مزدا كأكبر اله ، كخالق السماوات والارض • كما وانطلاقا من تكراره لذكر « الدجل » عند اعدائه يجوز الاستنتاج ، بأن اعتقاده ، انما حمل طابع « الثنائية » ، الذي تميزت به تعاليم زاراتوسترا ، وذلك بالصراع بين الخير والشر ، وبين النور والظلمة • ولكن كل ذلك ، الثنائية وأيضا إهورا مزدا ، السيد الحكيم ، يمكن أن يعود في اصله ، الى عصر ما قبل الزاراتوسترية ، أي الى الديانة الايرانية القديمة •

يقول احد تلامذة ارسطو ، المسمى اويديموس الرئودسي ، بأن السحرة وكامل جنس الشعوب الآرية ، ينظرون الى المخلوق القديم ، كوحدة مؤلفة من المكان والزمان • ومن هذا المخلوق ، انطلقت قوتان ، هما اله الخير اورامزديز ، والشيطان الخبيث اريمانيوس ، أو كما يقول البعض ، قبل ذلك أي النور والظلمة • الا ان هذه التعاليم الزيرقانية ، القائلة بلا نهائية

الزمان ، فانها تغلغلت أيضا ، في تعاليم ومعتقدات ايرانية اخرى ، منها طقوس ميترا • وتنيجة لذلك ، لا تشكل هذه برهانا ، على سعة انتشار معتقدات زاراتوسترا في عصر الاخمينيين ، الذي عاش في نهايته اويديموس •

لا نستطيع معرفة ، مما هو متوفر لدينا من سبل ، نوع صفة الديانة ، التي خدم طقوسها السحرة ، أي زمرة الكهنة الميديين ، الذين لعبوا أيضا دورا هاما ، في كافة الامور الفكرية ، في عصر الامبراطوريةالفارسية ـ الاخمينية• هذا ولا نعرف ، ما هي الصفة الدينية ، التي مثلتها تلك الاماكن المقدسة ، التي قام داريوس ـ كما ذكر في كتاباته في بيهستون ـ باعادة ترميمها بعد أن خربها الساحر ، الملك الدجال ، جاوماتا • لم تعرف الديانة الآرية القديمة ، صورا ولا بيوتا للآلهة ، وانما قدمت الاضاحي للآلهة ، على اماكن مقدسة في العراء ، أو على شكل ثار دائمة على مذابح ، أو في بيوت خاصة للنار • ومن الممكن أن يكون الاخمينيون ، لاسباب سياسية ، أو لصفة التسامح التي تحلوا بها ، هم اولئك الذين اعادوا لمعتنقي الديانة اللا « زاراتوستيرية » حرية الاعتقاد ، حتى على الارض الايرانية • اذ ان داريوس تكلم عن اهورا مزدا والآلهة الاخرى • كما اقدم ارتاكسيركسيس الثاني ، على تقليد الديانة البابلية ، بأن ادخل عبادة صور آلهة الشرك في فارس • ولقد قام بادىء الامر ، بصنع صور للالهة اناحيتا ، أي « النقية » ، حيث كانت في البدء الهة نهر ايرانية ، والتي لا تختلف كثيرا بصفاتها عن عشتار •

واذا كان الامر كذلك ، فمن الممكن الا يكون العصر الاخميني اذاً عصر ازدهار وانتشار معتقدات زارا توسترا ، وانما عصر تبدل وتقمص أفكار الآلهة الايرانية والبابلية الاقدم • تدلنا مناظر تلك الافاريز ، التي تزين جدران ابدانا داريوس ، في بيرز يبوليس ، والتي ليست الا اعادة لتصوير اعياد السنة الجديدة ، أي عيد باجايّادا للاله ميترا ، الى الحقيقة التالية ، ان الاخمينيين لم يكونوا فقط ، اتباعا لـ « زاراتوسترا » •

لم يقتصر مجال هذا الانسجام الداخلي والتأثيرات المتبادلة بين مختلف اتجاهات الامور السماوية ، على الارض الايرانية ، وانما تعداها ليشمل أيضا الامبراطورية بكاملها . لا تنضح أهمية هذا البناء السياسي الجبار ، للامبراطورية الاخمينية ، الذي ارتكز في كثير من جوانبه على الكهنوتية ، ــ كما يوصم به اكثر الاحيان ــ والاحتفالات الدينية الظاهرية ، في قيمته التاريخية ، وتأثيره في جمع شمل تعاليم الآلهة المختلفة والاتجاهات الاجتماعية لبلدان غربي آسيا . ومثلنا على ذلك انه لم تكن حكمة سياسية فقط ، عندما اقدم كيروش على اعادة الاعتبار القديم لطقوس مردوك ، أو عندما قام قمبيز ، بالرغم من احتقاره لطقوس المصريين في عبادة آلهتهم ، فأظهر الاحترام لهذا الاعتقاد . ولقد رفع التقي المصري ، بالرغم من كافة المظاهر ، متمثلا بطقوس مردوك الدينية ، آلهته الرئيسية الى مصاف القوى السماوية ، حيث جسم بذلك كل اله صفة خاصة من صفاتها . ورغم هذا ، لا يعني أبدا اقدام ملوك الفرس على تبجيل وتعظيم مردوك وتعزيز مركز كهنته ، الابتعاد عن اعلى مبدأ لهم أي عن السيد الحكيم ، اهورا مزدا . علما بأن هناك هوة سحيقة تفصل الاعتقاد الديني الآري عن البابلي ، شبيهة بالهوة ، التي كانت قد فصلت بين عقيدة يهوه ، والعقيدة الكنعانية : كانت هذه الهوة عبارة عن فاصل بين مبدأ روحي مجرد ، لا يتجسم بأي شكل من أشكال الطبيعة ، سواء أكان حجرا ، أم صخرا ، أم شجرا ، أو حيوانا ، أو انسانا ، وبين اله ، يتجسد في شكل انسان ، أو تمثال على هيئة انسان ، بغض النظر عن عمق سره وشموله . وبعد موتداريوس، رفض خليفته الذي كان ابنه ارتاكسيركسيس، التبارك بيدي مردوك ، اثر عصيان في مدينة بابل . ولكن لا يمكن القضاء على التجسد في الدين ، وحيثما كان سائدا لا بد وأن يظهر دوما للعيان ، ولهذا رأينا بأن ارتاكسيركسيس نفسه ، قد صور اناحيتا على شكل انسان .

هكذا حصل مردوك في مجال التوحيد ، الذي تميزت به ديانات هذا العصر ، وتمثل في اهورا مزدا الايراني ، وفي يهوه الاسرائيلي ــ اليهودي ،

على قسط وافرمن ذلك . وبالمقابل اصطبغ الاعتقاد الايراني على مر الزمن بالماهية البشرية للآلهة البابلية . لقد كان لهذا الاحتكاك الاول بين الفارسية القديمة ، والكلدانية أثرا تاريخيا كبيرا ، اذ حافظ على الاوضاع الروحية ، التي كانت سائدة في كل من جزئي الامبراطورية . وقد زاد في ذلك اهمية ، هو ان التعاليم الكلدانية ، التي ترى لكل شيء وقتا محددا مسجلا في الكواكب ، والتي تقول بتطابق الكون الكبير مع الكون الصغير ، لم تبق بكل تأكيد ، دون أن تؤثر على العالم الايراني ، ومجموعة الكهنة فيه ، أي السحرة . أما الاحتكاك الثاني للكهنوت ، أي الاحتكاك مع اليهودية ، أو على الاصح مع تلك اليهودية الناشئة ، فكان له وزن اكبر من الاحتكاك الاول . يحدثنا التاريخ في مجراه الطويل عن أمثلة قليلة جدا ، يستطيع معها المرء ، الشعور بصدق لتنبؤ تاريخي ، كما هي الحال ، في ذلك الامر ، الذي اصدره كيروش ، باعادة اليهود المنفيين ، من بلاد بابل الى فلسطين . لقد اصدر كيروش هذا الامر عام ٥٣٨ ق.م ، بعد مدة وجيزة من احتلاله لمدينة بابل ، وذلك من مدينة اكباتنا يقول فيه بالسماح باعادة اولئك اليهود الذين شكلوا مستعمرة في بلاد بابل والتي لم تكن تتمتع بأي معنى سياسي . ان الاسباب السياسية التي يمكن أن تكون قد دفعت بكل من كيروش وقمبيز لان يعترفا بالديانتين المصرية والبابلية ، لم تلعب أي دور بالنسبة ليهود المنفى طالما ان لا حول لهؤلاء ولا قوة . لم يبق الا أثر ضئيل لفكرة المملكة الماسونية ، التي بشر بها من قبل انبياء اليهود ، والتي طالما انتظرها بفارغ الصبر يهود بابل ، الذين عاشوا حسب وصية حزقيال . لم يبق الا أثر ضئيل لفكرة المملكة الماسونية ، التي ستكون فيها جميع الشعوب بخدمة يهوه ، بعد أن عاد بضع عشرات ألوف من اليهود المنفيين في بابل الى فلسطين ، واستقبلوا بفتور قوي من السامريين ، والجيران الآخرين ، الذين استوطنوا البلاد ، التي اصبحت قاحلة جرداء . لم يصمم « العائدون » بادىء الامر ، على اعادة بناء معبد يهوه من جديد في القدس . ولم تؤثر فيهم أيضا الافكار اليهوية العظيمة ،

التي تعود الى عصر اشعيا وارميا . لقد كان الشيء الحاسم بالنسبة للمرحلة القادمة ،هو بالدرجة الاولى ، تأسيس كنيس مستقل ، يسيّر وينظم حسب قانون خاص ، ويبدأ اعماله باستقلال تام عن أية سلطة حكومية . اما الشيء الذي لم يستطع اليهود « العائدون » انجازه ، حققه اولئك اليهود ، الـذين ظلوا في بلاد بابل ، وجمعوا الثروات ، ولعبوا دورا كبيرا فيها . لقد صاغ الكاهن عزرا في النصف الاول من القرن الخامس ق.م قانونا ، شكل خاتمة العمل ، الذي كان قد بدأه ، حزقيال ، وعاد عزرا عام ٥٤٨ ق.م الى القدس ، مخولا من قبل الملك ارتاكسيزكسيس ، تأسيس الجمعية اليهودية . ولكنـه اصطدم في فلسطين عند تطبيقه القانون ، بعقبات جمة ، فاسرع لمساعدته رجل يهودي ، كان له أثره الكبير في البلاط الفارسي ، واسمه نيحميـا . فانجز تحصين القدس ، واعلن قانون عزرا . وبذلك أصبحت اليهودية ، اول جمعية دينية بحته بقيادة كاهن كبير ، وفئة من الكهنة ، دون الاعتمـاد على اسس الدولة . لقد تم هذا في الواقع على حساب التفكير الديني الحي، الذي غزاه الانبياء الكبار ، الا ان النتائج التي انبثقت عن هذا الحدث ، الذي لم يكن بالامكان تحقيقه ، الا بتعاون الفارسية واليهودية ، كانت اشـد أهمية واكثر خطورة . اذ لم يصبح بذلك الطريق الى مسرح التاريخ العالمي ، مفتوحا حرا امام اليهوية ، والافكار العميقة الحساسة للنبوة الأسرائيلية — اليهودية — بينما كانت اليهوية كديانة لمجموعة صغيرة من المنفيين في ارض بابل لا يتعدى معناها على الاكثر اهمية فرقة دينية صغيرة — تحت راية سلطة الدولة الفارسية فحسب ، وانما تشكلت هنا ولاول مرة ، جمعية دينية مستقلة تيوقراطية اعترفت بها الامبراطورية الفارسية ، وقدر لها بعد ذلك ان تلعب دورا كبيرا في التطور السياسي لكل من الشرق والغرب .

لمحة عامة

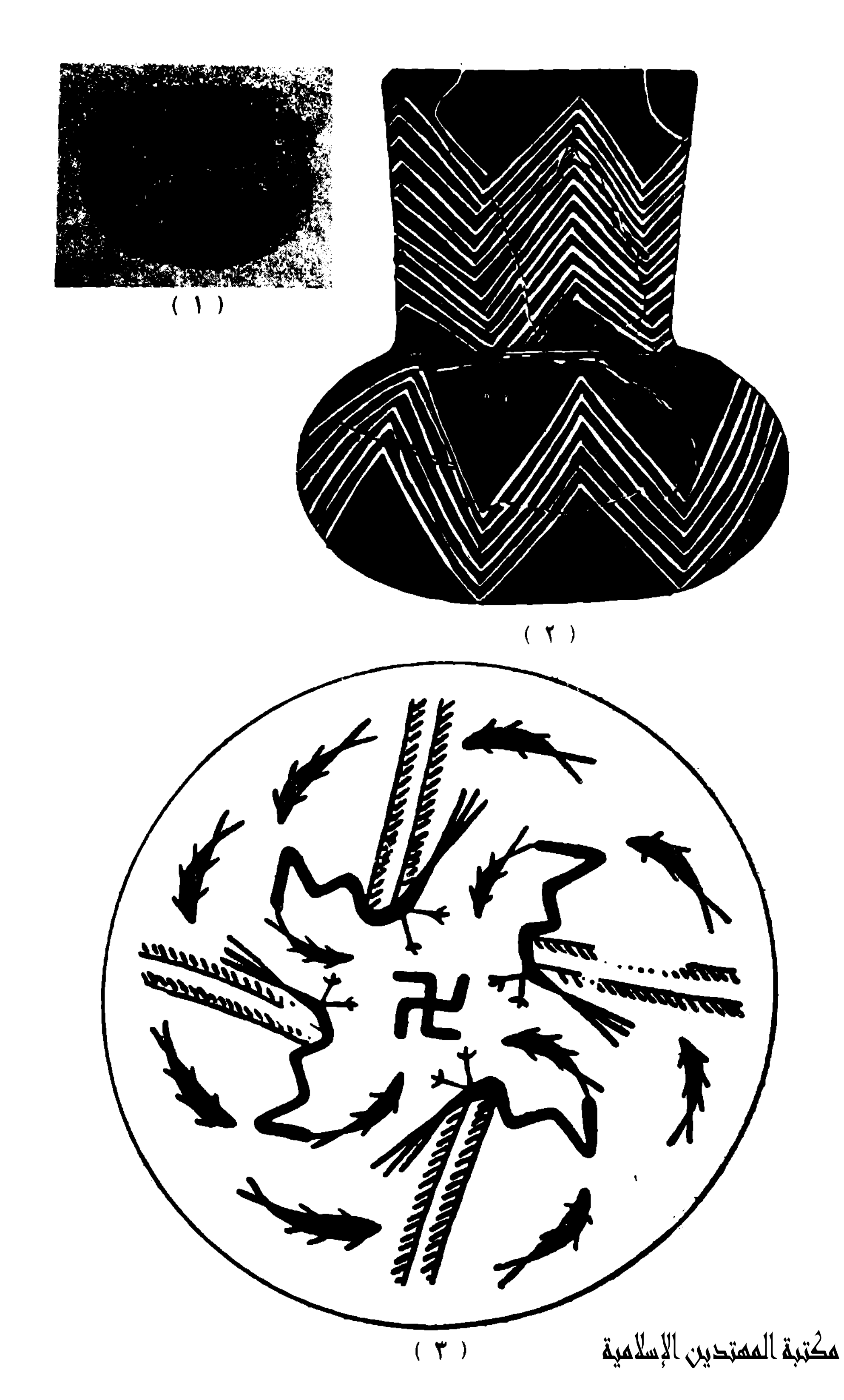
لقد رأينا في تأسيس دويلات الاله السومرية ، التي شملت سلطتها الارض والسماء على حد سواء مطلع فجر تاريخ الشرق الأدنى القديم . وهكذا نرى انفسنا الآن وقد وقفنا مع نوع من التيوقراطية ، التي ابتعدت لصالح صفة الفكرة النقية لمفهوم الاله عن كل سلطة ارضية وفصلت ذاتها عن كل فكرة للقوة ، نقف ضمن العصر الاخميني في نهاية تاريخ الشرق الأدنى القديم . ويفصل بين هاتين الحقبتين اكثر من الفي سنة رأينا في مجراها سلسلة طويلة من الافكار تمر امامنا وكأنها شريط سينمائي حول الاله والخليقة ، وحول الموت والحياة ، وحول الخير والشر . وبعد ذلك قامت الآلهة ، ومنها آلهة الفضاء ، فحللت نفسها من تجسيم قوى الطبيعة ومن الرابطة الشعبية ورابطة الدولة . وقد دام طويلا حتى الالف الأولى ق.م حتى قدر للآلهة مثل اهورا مزدا الزاراتوستري ويهوه التنبؤي ان يفهما مترفعين عن كل امور العالم السفلي لدرجة أصبح معها تمثيلها بالبشر ، من المستحيلات ، فكيف اذاً بالحيوانات ؟ ! . هكذا وفي الختام يمكن القول ان الاله قد استطاع ولاول مرة في التاريخ أن يؤسس لنفسه جمعية لا تربطها به الا رابطة الفكر عن طريق قانون عزرا .

ففي جميع هذه التيارات الدينية في الامبراطورية الاخمينية سواء أكان في عقيدة زاراتوسترا أو في اعتقاد الكلدانيين بالنجوم ، سواء أكان في الاعتقاد القديم لمردوك أي بمشاقه وبنصرته كاله مجرد للكون أو في اعتقاد يهوه التنبؤي وقف الآن المؤمن امام اله جامع ، الذي يستطيع أن ينتظر منه الخلود لشخصه وليس بعد فقط الرخاء والنعمة على الامبراطورية والملك .

كانت هذه آخر درجة من التطور الفكري ، التي استطاع الشرق القديم بلوغها . لقد وجد نهايته ، بعد ان توضحت جميع ما فيه من امور في فكرتين عالميتين مبنيتين على اساس ديني فكرتين جديدتين كل الجدة ، لا يستطاع

جمعهما على صعيد واحد . كانت احداها على صعيد السياسة ــ الدنيوية وهي المدينة اليونانية وعلى الصعيد الفكري الجمعية الدينية اليهودية .

ولم يصبح بامكان انسانية الشرق الأدنى ثانية متابعة التطور الا بعد تلقيحها من بلاد الظلمة ولتعود الى ذاتها ، بعد أن نمت المسيحية من جذورها الاصلية على اسس تهلّنت : نمت من اليهوية التنبؤية وافكار الخلاص الايرانية وكذلك من تصورات حول الموت والحياة حول آلام وبعث الاله ـ البشر ، فتعود هكذا بكامل جذورها الى فجر تاريخ الشرق الأدنى .



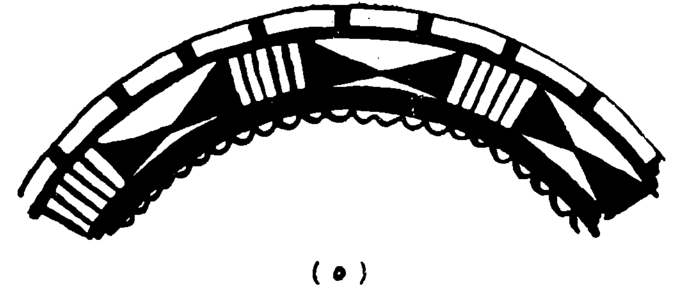
(١)

(٢)

(٣)



(٤)

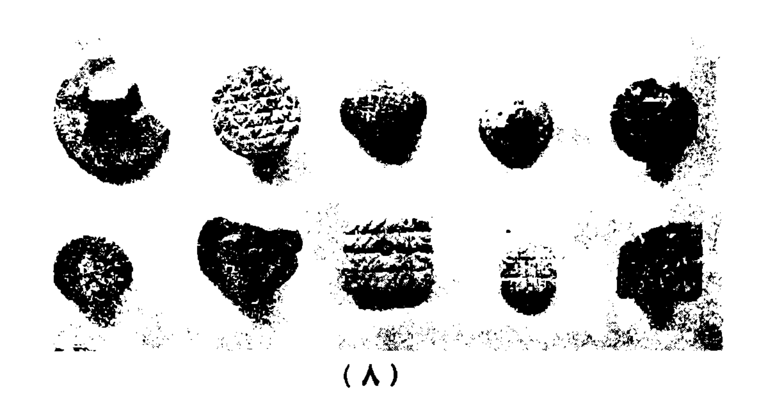


(٥)

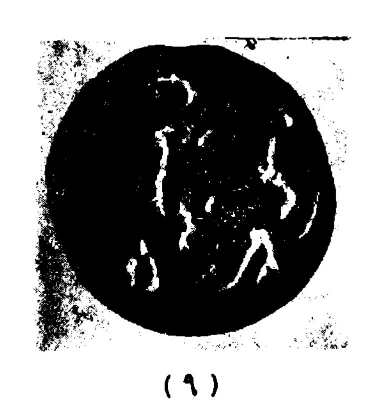
(٦)



(٧)

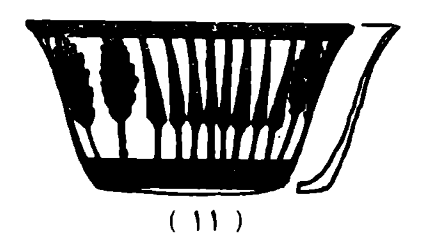


(٨)

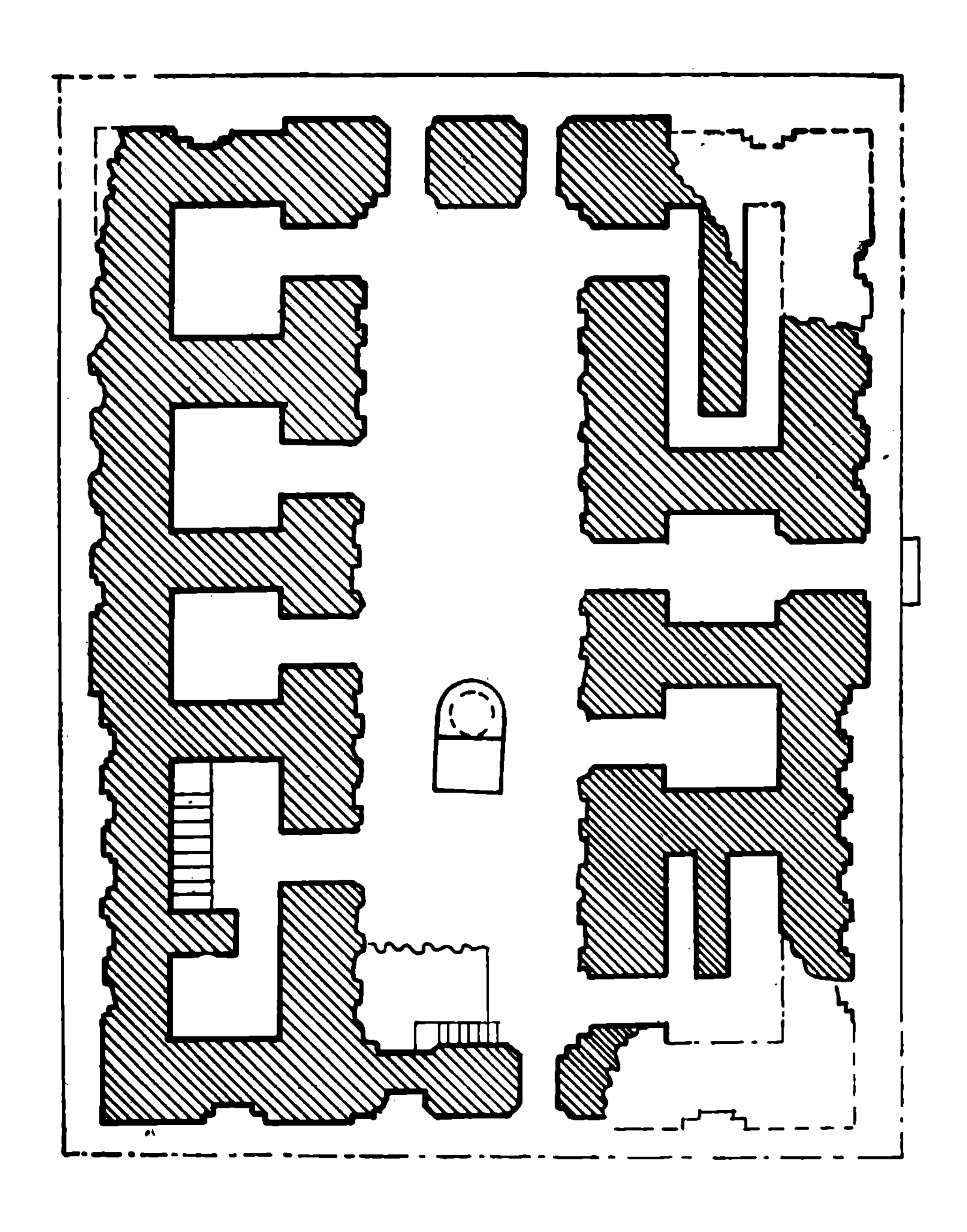


(٩)

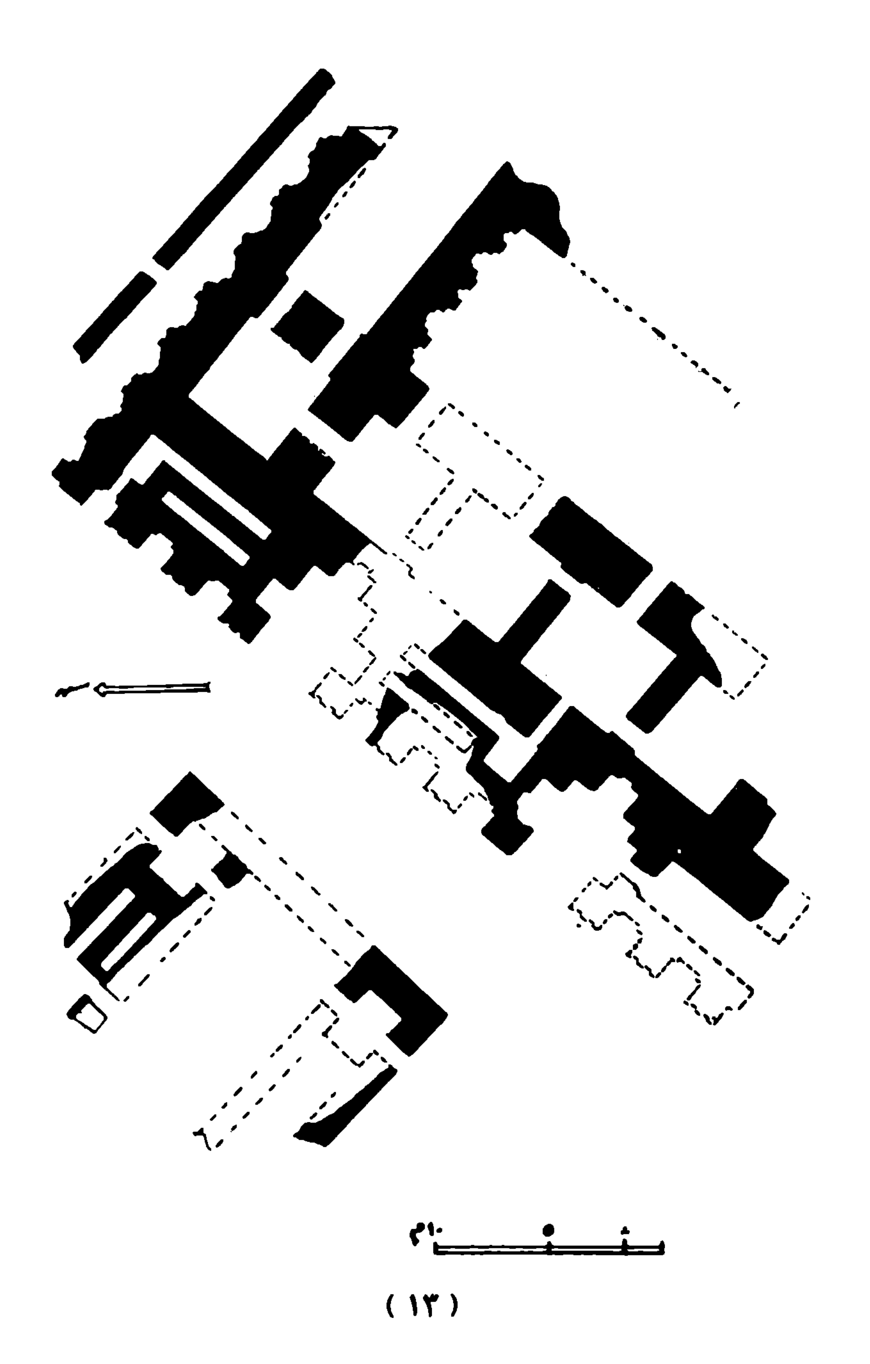
(١٠)



(١١)



(١٢)



(١٣)





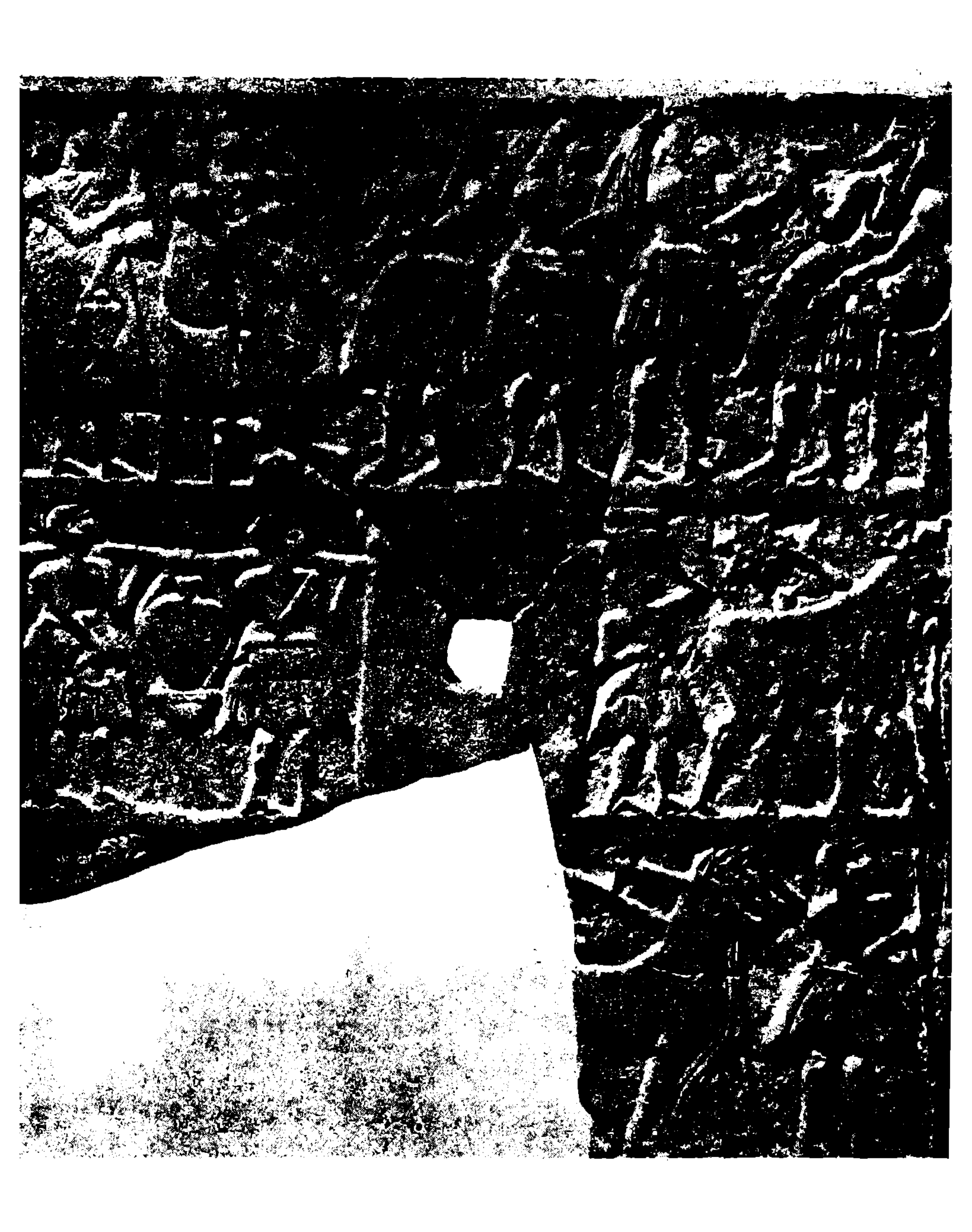
(١٥)



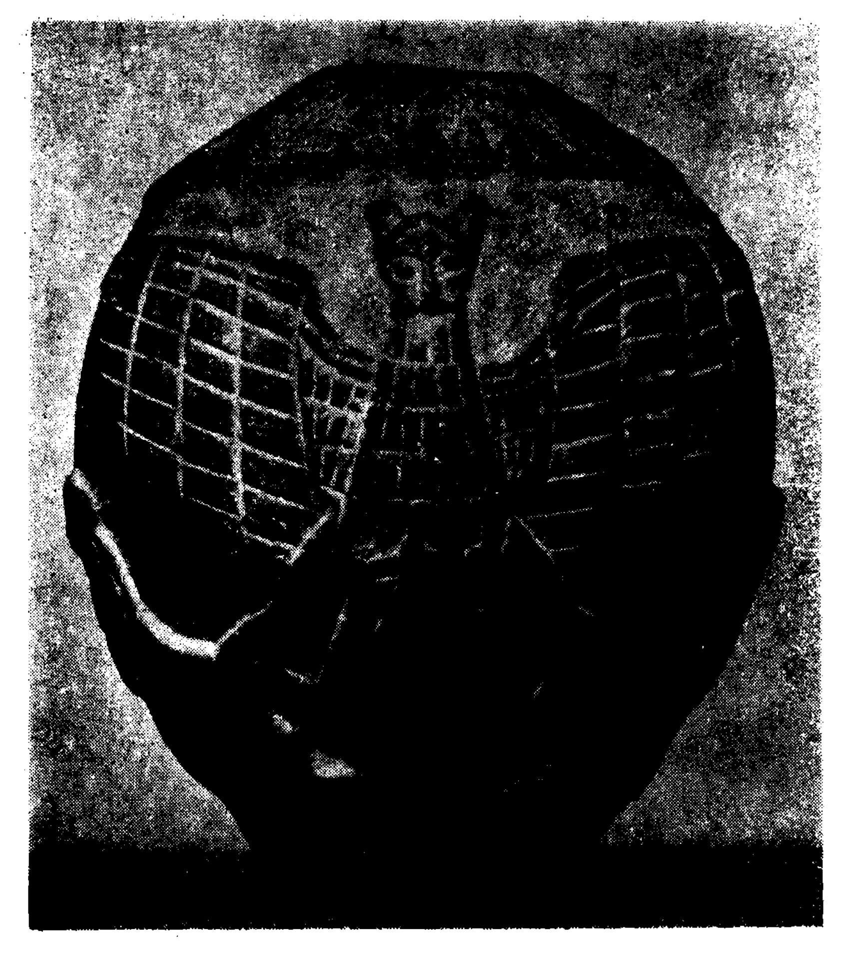
(١٦)



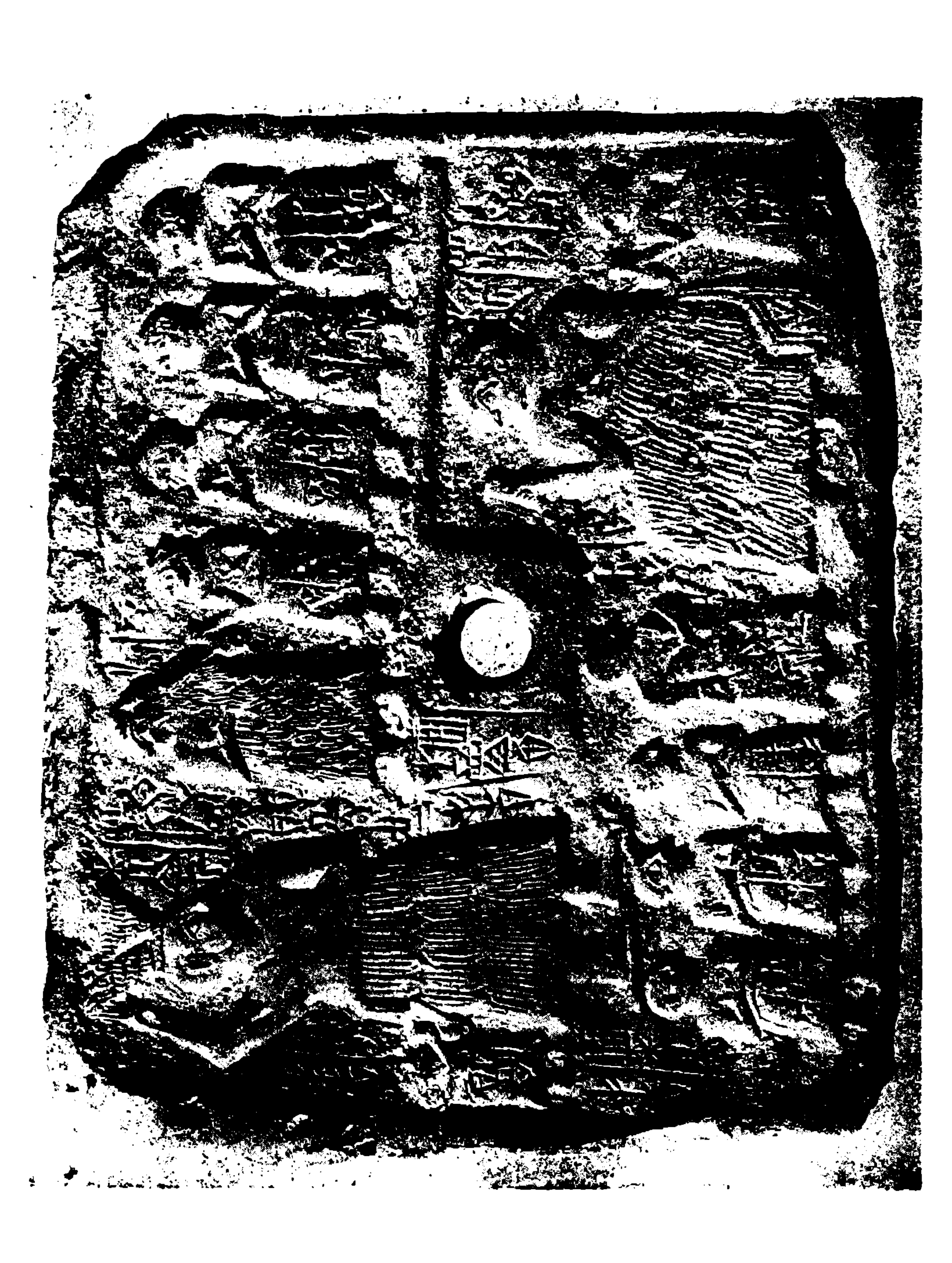
(١٧)

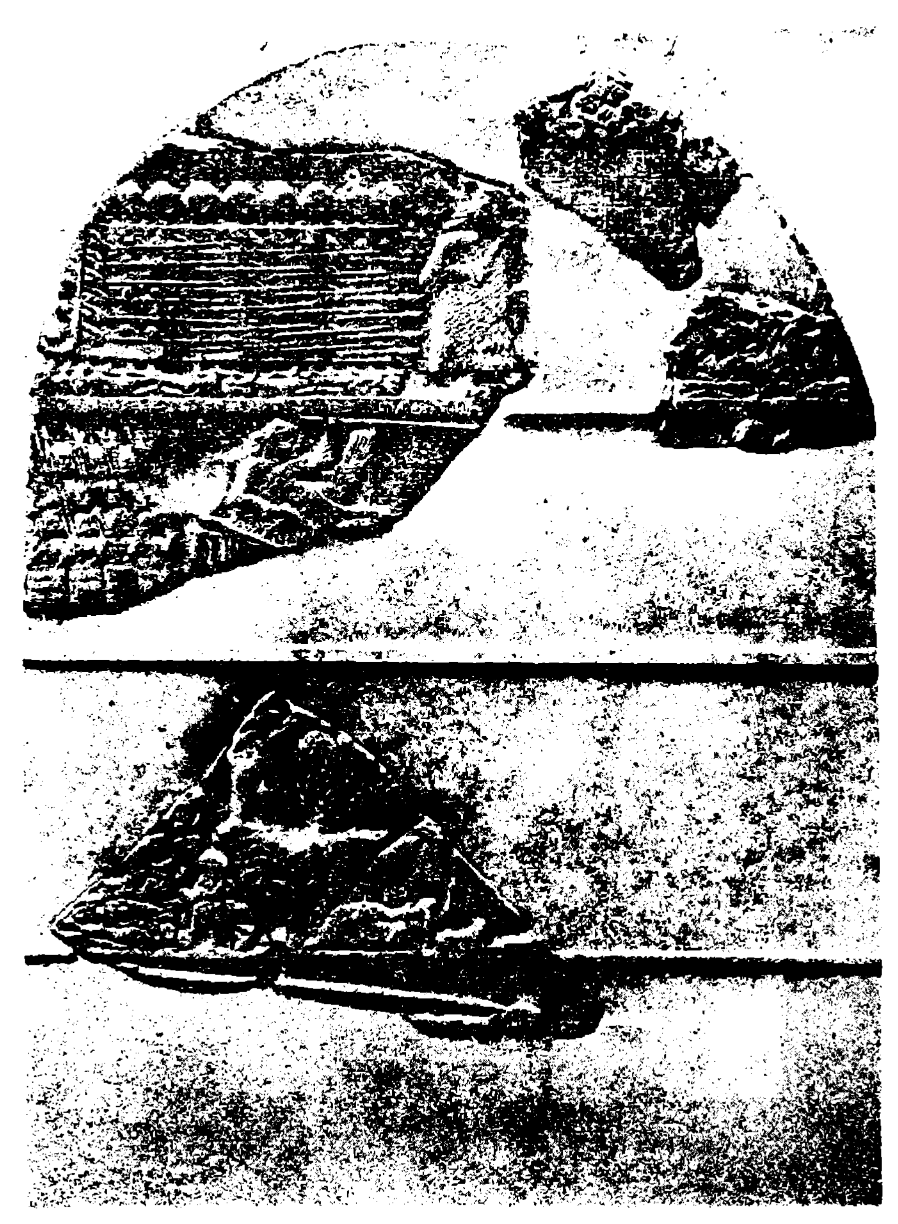


(١٨)



(١٩)





(٢١)



(٢٢)



(٢٣)



(٢٤)



(٢٥)



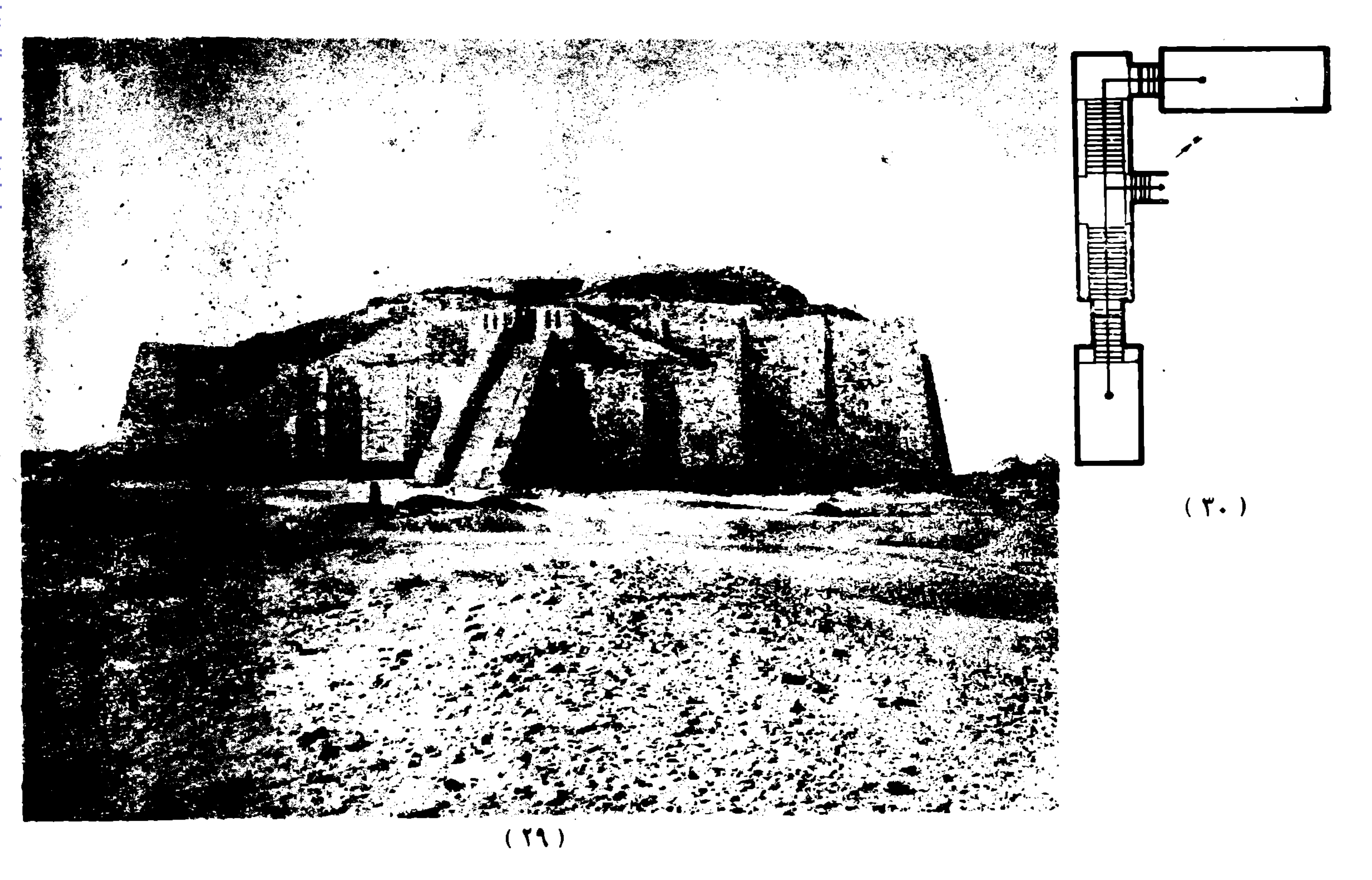
(٢٦)



(٢٧)



(٢٨)

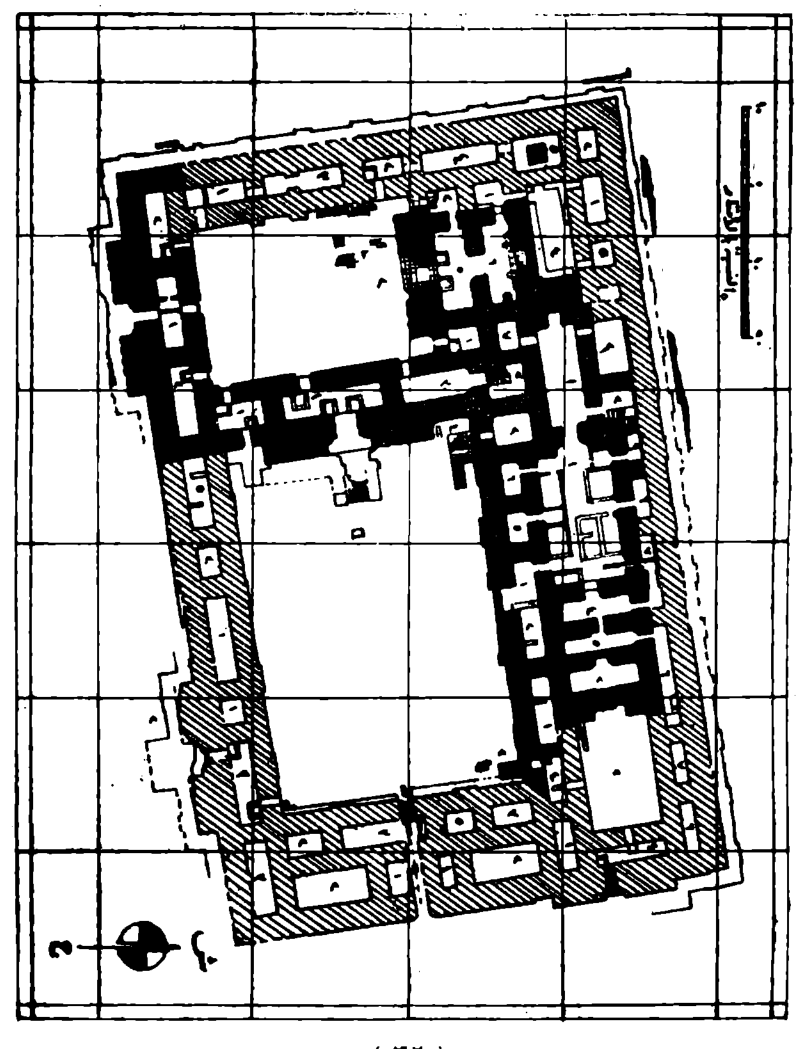


(٢٩)

(٣٠)



(٣١)



(٣٢)



(٣٢)

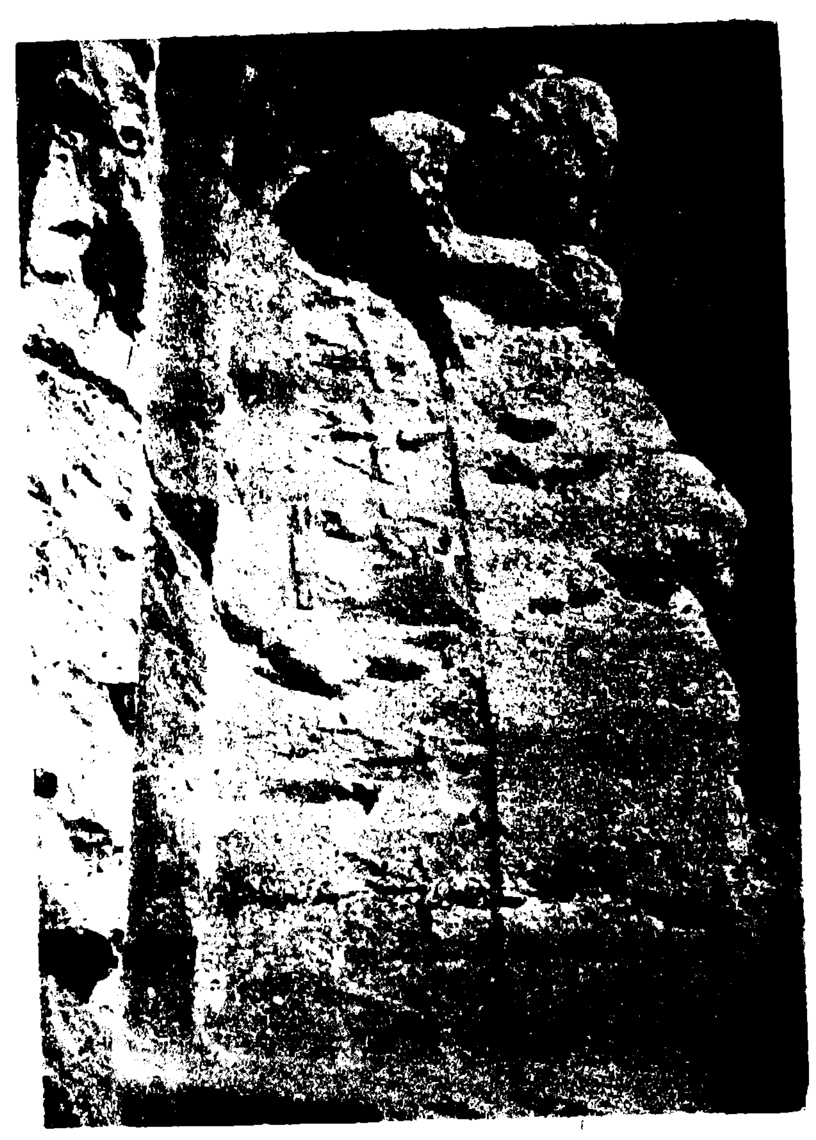

(٣٤)



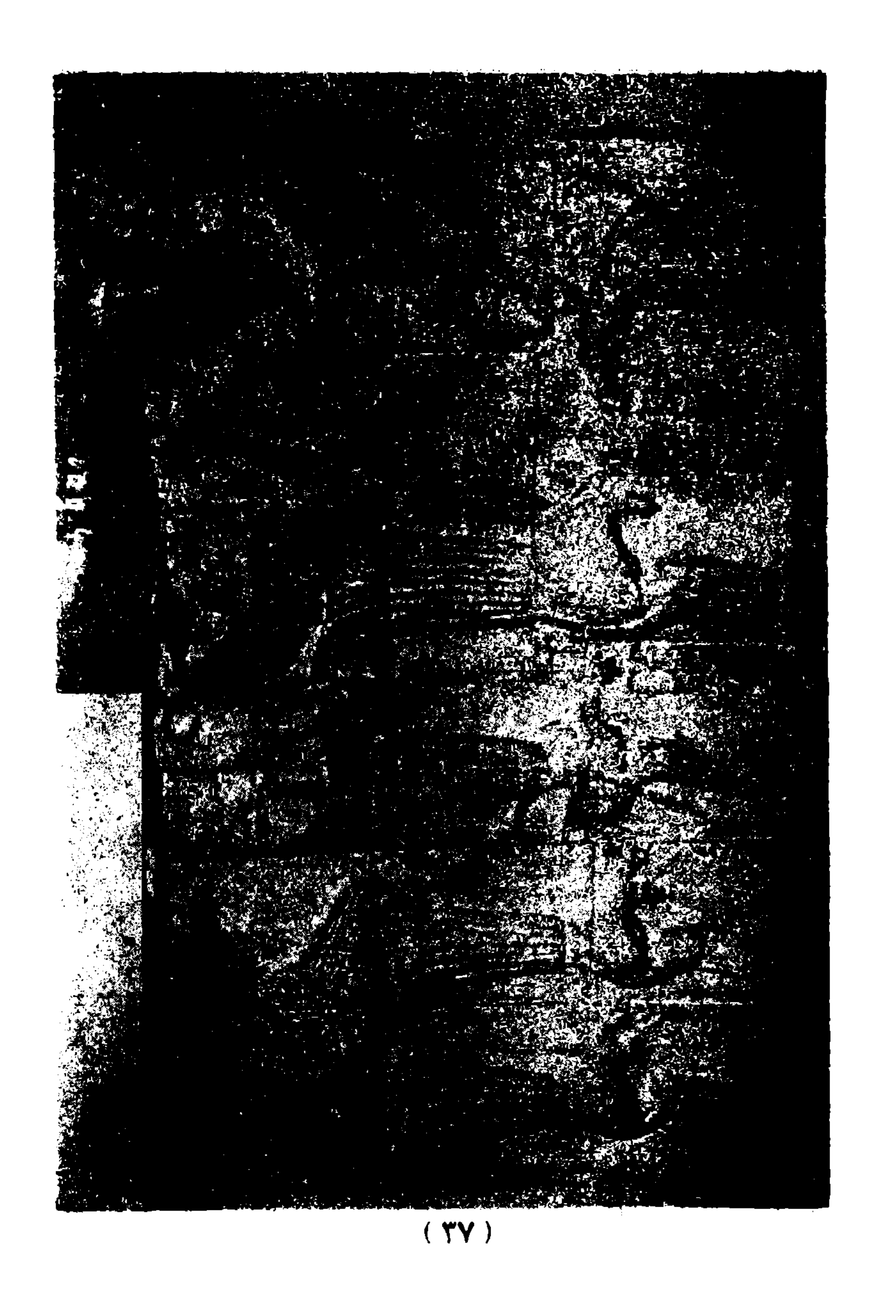
(٣٥)



(٣٦)



(٣٦)



(٣٧)



(٣٩)



(٣٨)



(٤٠)

عيلام	ماري	آشور	البابليون

الأكاديون	السومريون

فجر التاريخ

عصر أوروك (الطبقة الخامسة حتى الرابعة)

عصر جمدة نصر
(أوروك الطبقة الثالثة .. حتى الثانية)

عصر ميزيليم

عصر سلالة أور الأولى

لاجاش
أورنانشي
أكوركال
إي - أناتوم
إي - ناناتوم الأول
إن - تيمينا
إي - ناناتوم الثاني
إي - نينارزي
إيلمارزي
لوكالوندا
أوروكاجينا

ميشانيبادا
آ - أنيبادا

لوكال زاجيزي الأوروكي (حوالي ٢٢٥٠)

العصر الأكادي حوالي (٢٢٥٠ - ٢١٥٠)

زاجون	٥٦	سنة
ريموش	٩	سنوات
مانيشتوزو	١٥	سنة
نارام - زن	٢٧	سنة
شاركاليشاري	٢٥	سنة

وهناك ستة ملوك آخرين

العصر الجوتي حوالي ٢١٥٠ - ٢٠٥٠

أوتوشيكال الأوروكي حوالي ٢٠٥٠

عصر اليقظة السومرية

لاجاش حوالي ٢٠٥٠ - ١٩٥٠
أوربابا
جوديا
أورنينجرسو

أورنامو
شولجي
أمار - زن
شو - زن
أبي - زن

لارزا		إي - زن	
نبلو - نوم	(١٩٦٠ - ١٩١)	إشبي - إرّا	(١٩٥٩ - ١٩٢٧)
إبي - سيزوم	(١٩٢٩ - ١٩١٢)	شو - ايليشو	(١٩٢٦ - ١٩١٧)
		إدّين - داجان	(١٩١٦ - ١٨٩٦)

٤٠
٢٠
٠٠
١٠

بابل	آشور	ماري	عيلام
السلالة البابلية الأولى	الملك الثاني والثلاثون إلو - شوما		
سومو - آبوم (١٨٩٠-١٨٧٧	إرّي - شوم الأول		
سومولا - إيلو (١٨١٦-٧٨١	ايكونوم شاروكين الأول - زارجون		شمني - سيلخان
سابوم (١٧٨٠-٧٦٦	بوزور - اشور الثاني		كودور - مابوك
آبيل - زِنْ (١٧٦٦-٧٤٩	ابام - زِنْ		
	إرّي - شوم الثاني (؟ - ١٧٥٠)		
زِنْ - موبليط (١٧٤٨-١٧٢٩		إي - اجيتليم	
	شمشي - هدد الأول (١٧٤٩-١٧١٧)	اي - اخدو نليم معاصر شمشي هدد الأول	
حمورابي (١٧٢٨-١٦٨٦		اي - اسمع هدد ن شمشي هدد	
	اشمي - داجان (١٧١٦-١٦٧٧)	زيمريليم ن - إي - اخدو نليم	
	اشور - دوجول (١٦٧٦-١٦٧١)	اشور - ابلو - ابدي نظير - زِنْ زِنْ - نامير ابني - عشتار هدد - رالولو ادازي ١٦٧٠	
سمسو - إيلونا (١٦٨٥-١٦٤٨	بيل - ابني (١٦٦٩-١٦٦٠)		
	لباي (١٦٥٩-١٦٤٢)		
أبي - إشوه (١٦٤٠-١٦٢٠	شارما - هدد (١٦٤١-١٦٢١)		
	لي - تار - زِنْ (١٦٢٠-١٦١٩)		
ابي ديتانا (١٦١٩-١٦٠٨	بازاي (١٦١٨-١٥٩١)		

لارزا	إي - زنْ		الحثيون
زامورم (١٨٧٧-١٩١١)			
	اشبي - داجان (١٨٧٦-١٨٩٥)	٩٠	
زابا - آ (١٨٦٨-١٨٧٦)		٨٠	
	ليبت - عشتار (١٨٦٥-١٨٧٥)	٧٠	
جونجونوم (١٨٤١-١٨٦٧)		٦	
	اور - نينورتا (١٨٢٢-١٨٦٤)	٥٠	
إبّي - زاري (١٨٢٠-١٨٤٠)		٤٠	
	بور - زنْ (١٨١٦-١٨٢٦)	٣٠	
سومو - إيلو (١٨٠١-١٨٢٩)		٢	
	ليبت - إنليل (١٨١١-١٨١٥)	١٠	
	إرّا - إميتي (١٨٠٤-١٨١٠)		
نور - أدد (١٧٨٥-١٨٠٠)			
	إنليل - باني (١٧٨٠-١٨٠٤)	٩٠	انتا
زنْ - إدّينا (١٧٧٩-١٧٨٤)			
زنْ - إريبام (١٧٧٧-١٧٧٨)	زامبيا (١٧٧٧-١٧٧٩)	٨٠	
زنْ - إقيشام (١٧٧٢-١٧٧٦)	إي - تيربيشا (١٧٧٣-١٧٧٦)		
صلّي - أدد (١٧٧١)	اور دوكوجا (١٧٦٩-١٧٧٢)	٧٠	
وارد - زنْ (١٧٥٩-١٧٧٠)			
← ابن كودور - مابوك	زنْ - ماجير (١٧٥٨-١٧٦٨)	٦٠	
		٥٠	
	دامق - إيليشو (١٧٣٥-١٧٥٧)		
		٤٠	
←		٣٠	
ريم - زنْ (١٧٥٨-١٦٩٨) ابن كودور مابوك		٢٠	
		١٠	

الكاشيون		السلالة الأولى في بلاد البحر		
			٩٠	
جانداش	١٦ سنة		٨٠	
		إلوما - إلو	٧٠	
آجوم الأول	٢٢ سنة		٦٠	
			٥٠	
			٤٠	
كاشتيلياش الأول	٨ سنين			توتخاليا الأول
			٣٠	
كاشتيلياش الثاني	٢٢ سنة	مجموعهم اثنا عشر ملك ولا يعرف مدد حكمهم بدقة	٢٠	واشان له
أبي - راتّاش			١٠	

عيلام	ماري	آشور	البابليون
		لولاّي (١٥٨٨-١٥٩)	
		شو - نينوا (١٥٧١-١٥٨٤)	اگمي - راروكا (١٥٦٢-١٥٨٢)
		شارما - حدد الثاني (١٥١٨-١٥٧)	
		اريشوم الثالث (١٥٥٥-١٥٦٧)	
		شمشي حدد الثاني (١٥٤٩-١٥٥٤)	سمسو - ديتانا (١٥٩٠-١٥٦٢)
		اشمي داجان الثاني (١٥٢٢-١٥٤٨)	
		شمشي حدد الثالث (١٥١٧-١٥٩٠)	نهاية سلالة حمورابي
		آشور نيراري الأول (١٦٩١-١٥٣١)	

١٦٠٠	الحثيون	السلالة الاولى في بلاد البحر	الكاشيون
	لابارنا الأول		
٩٠			ترى - حورماش
٨٠		تقدر المدة التي عاشتها السلالة حوالي ٢٢٥ سنة	هاربا - شيباك
٧٠	هاتوشيلي الأول		
٦٠			تيبتاكزي
٥٠			
٤٠			آجوم الثاني
٣٠	مورشيلي الأول حوالي ١٥٩٠		
٢٠			
١٠	هنتيلي		

	... دبرتا	بوزور - اشور الثالث (١٤٩٠-١٤٧٧)
	شوتارنا	انليل - ناظر الأول (١٤٧٦-١٤٦٤)
	بارزاشاتار	نوريلي (١٤٦٣-١٤٥٢)
	شاوشتار	اشور - شادوني (١٤٥١)
		اشور - رابي الأول } ١٤٥٠-١٤٢١
	ارتاتاما الأول	اشور - نادين اخي }
		انليل - ناظر الثاني (١٤٢٠-١٤٠٥)
		اشور - نيراري الثاني (١٤٢٤-١٤١٨)
		اشور - بيل - نيشيشو (١٤١٧-١٤٠٩)
	شوتارنا الثاني	اشور - ريم نيشيشو (١٤٠٨-١٤٠١)
		اشور - نادين اخي الثاني (١٤٠٠-١٣٩١)
	توشراتا	اريبا - حدد الأول (١٣٩٠-١٣٦٤)
	متي - وازا (تابع شوبيلوليوما)	
		اشور - اوبلط (١٣٦٢-١٣٢٨) ←
	نهاية الامبراطورية الميتانية	
هورباتيلا (حوالي ١٣٢٠) ←		
		انليل - نيراري (١٣٢٧-١٣١٨) ←
		اريك - دينيلو (١٣١٧-١٣٠٦)
	هانيكلبات	
	شاتوارا الأول	حدد - نيراري الأول (١٣٠٥-١٢٧٤)
	وازاشاتا	
	شاتوارا الثاني	زلما - نصار الأول (١٢٧٢-١٢٤٤)
اوتناش - هوبان		
		توكولتي - نينورتا الأول (١٢٤٢-١٢٠٧)
		اشور - نادين - ابلي

بابل	بلاد البحر	الحثيون		
سلالة الكاشيين				١٥٠٠
		زيدانتا	٩٠	
		امّونا	٨٠	
		حوزّيا	٧٠	
بورنا - بورياش الأول كاشتيلياش الثالث		تيليبينو	٦٠	
اولام - بورياش (الملك الثاني عشر) ←	→ إيا - جيل نهاية سلالة بلاد البحر	توتحاليا الثاني	٥٠	
			٤٠	
آجوم الثالث			٣٠	
← كارا ينداش		حاتوشيلي الثاني	٢٠	
			١٠	
		توتحاليا الثالث		١٤٠٠
كاداشمان - خاربي الأول (١٤١٠-١٣٨٦)		آرنو - واندا [illegible] حوالي ١٣٨٠	٩٠	
كوريجالزو الأول كاداشمان - إنليل الأول			٨٠	
			٧٠	
بورنا - بورياش - الثاني (١٣٦٧-١٣٤٦)		شوبيلوليوما (١٣٨٠-١٣٤٦)	٦٠	
كاداشمان - خاربي الثاني		آرنو - واندا الثاني حوالي ١٣٤٥	٥٠	
			٤٠	
← كوريجالزو الثاني (١٣٤٢-١٣٢١)		مورشيلي الثاني (١٣٤٥-١٣١٥)	٣٠	
			٢٠	
نازي - ماروتاش الثاني (١٣٢٠-١٢٩٥)		مواتلي (١٣١٥-١٢٩٠)	١٠	
				١٢٠٠
كاداشمان - تورجو (١٢٩٤-١٢٧٨)		اورشي - تيشوب (١٢٩٠-١٢٨٢)	٩٠	
كاداشمان إنليل الثاني (١٢٧٧-١٢٧١)			٨٠	
كودور - إنليل (١٢٧٠-١٢٦٢)		حاتوشيلي الثالث (١٢٨٢-١٢٥٠)	٧٠	
شاجاراكتي - شورياش (١٢٦٤-١٢٥٠)			٦٠	
← كاشتيلياش الرابع (١٢٤٩-١٢٤٢)			٥٠	
إنليل - نادين شوم ← كاداشمان - خاربي الثالث } (١٢٤١-١٢٣٨)		توتحاليا الرابع (١٢٥٠-١٢٢٠)	٤٠	
← حدد - شوم - ادّينا (١٢٢٧-١٢٢٢)			٣٠	
مجزرة ؟		آرنو - واندا الثالث (١٢٢٠-١٢٠٥)	٢٠	
			١٠	
حدد - شوم - ناصر (١٢٢١-١١٩٢)		شوبيلوليوما الثاني ؟		

عيلام		اشـــور
شوتروك - ناخونتي الاول (١٧ سنة) كوتير - ناخونتي (٦ سنين) شيلهاك - انشوشيناك (٤٠ سنة)		اشور - نياري الثالث (١٢٠٤ - ١١٩٧) انليل - كودور - اوظور (١١٩٧ - ١١٩٢) نينورتا - أبال - إكور (١١٩١ - ١١٧٩) اشور - دان الأول (١١٧٨ - ١١٢٢) نينورتا - توكولتي - اشور (١١٢٢) موتكيل - نوزكو (١١٢١) اشور - ريش - ايشي (١١٢٠ - ١١١٢) تيغلات - بيليزر الأول (١١١٢ - ١٠٧٤)

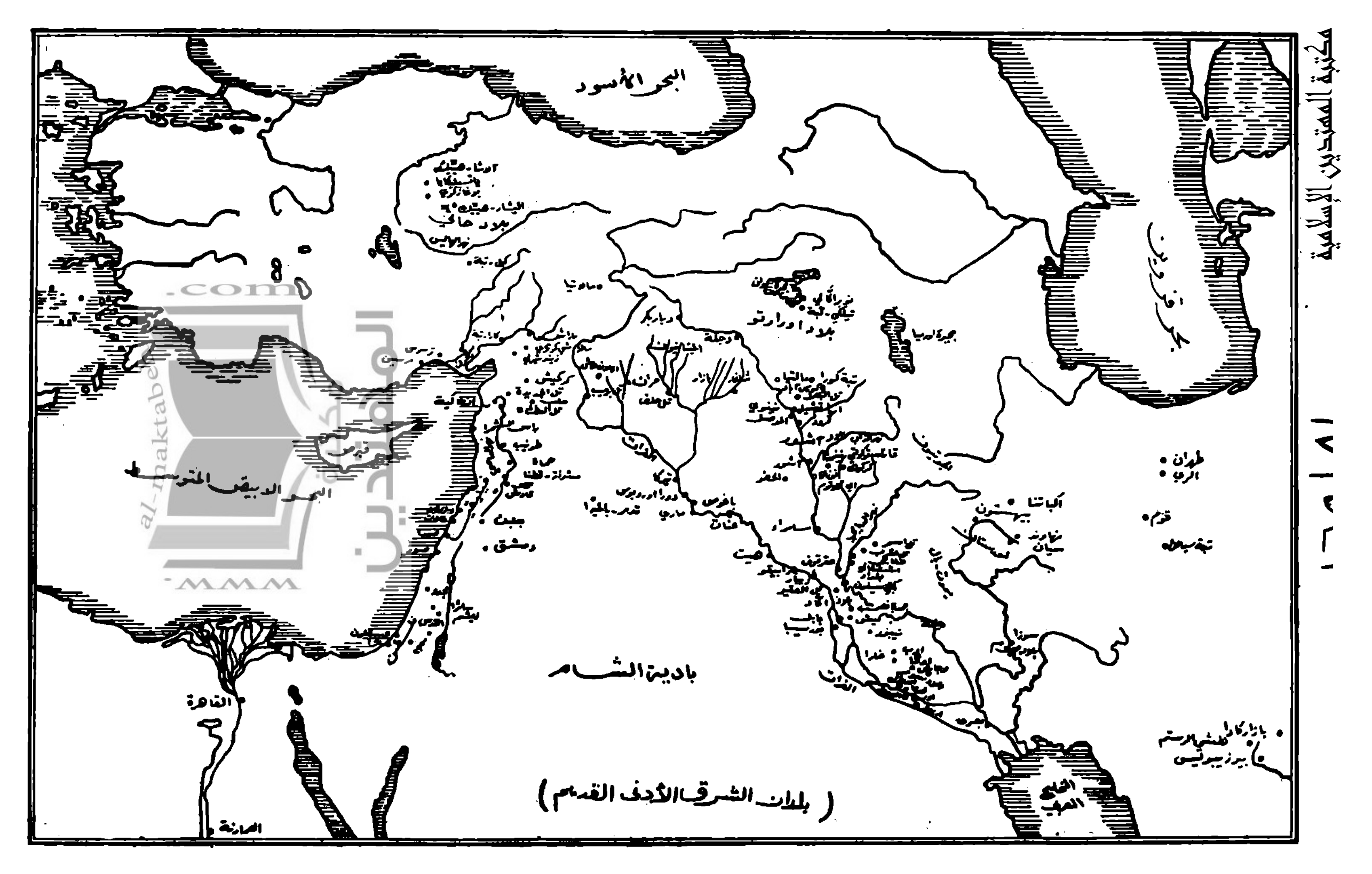
بابل		الحثيون
		٩٠
جيلي-شيباك (١١٩١-١١٢٢)		٨٠ نهاية الامبراطورية الحثية
مردوك - أبال - ادّينا (١١٧٦-١١٦٤)		٧٠
زابابا-شوم-ادّينا (١١٦٢) انليل - نادين أخي (١١٦٢-١١٦٠) **السلالة الثانية في إي-زن**		٦٠ الفريجيون
مردوك - شابيك - زيري (١١٥٩-١١٤٢)		٥٠
نينورتا - نادين - شوم (١١٤٠-١١٢٧)		٤٠
نابو-كودورّي-اوصر الأول (نبوخذ - نصّار)		٣٠
		٢٠
انليل - نادين - ابلي		١٠

الفرس	الميديون	عيلام	اورارتو
		ماربيتي - أبال - اوزور	
			ساردور الأول ؟ ساردور الثاني (الأول) ؟ اسبو - ايني مينوا

التاريخ	إسرائيل ويهودا	بابل	آشور
١١٠٠			
٩٠		مردوك - نادي - ناحّي	**تيغلات - بيليزر الأول (١١١٢-١٠٧٤)**
٨٠		إتّي - مردوك - بالاطو مردوك - شابيك - زير - ماتي	اشاريد - أبال - إكور (١٠٧٤-١٠٧٣)
٧٠		صدو - ابال - إدّينا (٢٢ سنة)	اشور - بيل - كالي (١٠٧١-١٠٥٤)
٦٠		مردوك - احّي - إريبا (١٥ سنة) مردوك - زير (...) (١٢ سنة)	
٥٠		نابو - شوم - ليبور (٩ سنين) **الدولة الثانية لعودة البحر**	اريبا - حدد الثاني (١٠٥٤-١٠٥٢) شمشي - حدد الرابع (١٠٥١-١٠٤٨)
٤٠		سيمّاش - شيباك (١٨/١٧ سنة)	اشور - نازيربال الأول (١٠٤٧-١٠٢٩)
٣٠		إيا - موكين - شومي (١٥ أشهر) كاشو - نادين - أخّي (٣ سنين)	
٢٠		**سلالة بازي**	زلما - نصار الثاني (١٠٢٨-١٠٢٧)
١٠	شاؤول صموئيل	إي - أولماش - شاكين شومي (١٧-١٤ سنة) نينورتا - كودوري - اوزور الأول (٣-٢ سنين)	اشور - نيراري الرابع (١٠١٦-١٠١١)
١٠٠٠		شيريكتو - شوكا مونا (٢ أشهر) **احد العيلاميين**	
٩٠	داود		اشور - رابي الثاني (١٠١٠-٩٧٠)
٨٠		مار بيتي - أبال - اوظور (٥ سنين) **السلالات H، ز، ل**	
٧٠		نابو - موكين - ابلي ٢٦ سنة	اشور - ريش - ايشي الثاني (٩٦٩-٩٦٥)
٦٠			
٥٠	سليمان	نينورتا - كودوري - اوزور الثاني (٣-٢ سنين)	تيغلات - بيليزر الثاني (٩٦٤-٩٣٣)
٤٠		مار بيتي - احّي - إدّينا	
٣٠			
٢٠			اشور - دان الثاني (٩٣٠-٩١٠)
١٠		شمش - مودمّيك	
٩٠٠			حدد - نيراري الثاني (٩٠٩-٨٨٩)
٩٠		نابو - شوم - اوكين الأول	توكولتي - نينورتا الثاني (٨٨٨-٨٨٤)
٨٠			اشور - نازيربال الثاني (٨٨٣-٨٥٩)
٧٠	عمري (٨٧٨-٨٧١)	نابو - ابال - ادّينا (... - ٨٥١)	
٦٠	آخاب (٨٧١-٨٥٢)		
٥٠	اهازيا (٨٥٢-٨٥١) يورام (٨٥١-٨٤٥)	مردوك - بيل - اوزاتي (٨٥١-٨٥٠) مردوك - زاكير - شوم الأول	زلما - نصار الثالث (٨٥٨-٨٢٤)
٤٠			
٣٠	ياهو (٨٤٥-٨١٨)		
٢٠			
١٠		مردوك - بالاتزو - اكبي (... - ٨١١) بابا - احّي - إدّينا	شمشي - حدد الخامس (٨٢٣-٨١٠)
٨٠٠			

الفرس	الميديون	عيلام	اورارتو
			أرجشتي الأول ←
			سادورا الثالث (الثاني)؟ ←
		خومبا نيكاش الأول (٧٤٠-٧١٧)	
	ديوكيس حوالي ٧١٥		روسا الأول
		شوتروك - ناخونتي (٧١٧-٦٩٩)	
		خالوشو - انشوشيناك (٦٩٩-٦٩٢)	ارجشتي الثاني
اخمينيز (٧٠٠-٦٧٥)		كوتير - ناخونتي (٦٩٢-٦٩٠)	
		اونتاش - هومبان - سيناثو (٦٩٠-٦٨٨)	روسا الثاني
		هومبا - خالداش الأول (٦٨٨-٦٨٤)	
		هومبا - خالداش الثاني (٦٨٤-٦٧٥)	
	فراورتيس (٦٧٥-٦٥٢)	اورتاكو (٦٧٥-٦٦٤)	
تايزباز (٦٧٥-٦٤٠)		تومبا - مان (٦٦٤-٦٥٢)	
		خومبا نيكاش الثاني (٦٥٢-٦٥١)	سادورا الرابع (الثالث)
		تاماريتو (٦٥١-٦٤٩)	
		انابيكاش (٦٤٩-٦٤٨)	
	(السكيثيون)	هومبا - خالداش الثالث (٦٤٨-٦٣٩)	
كيروش الأول (٦٤٠-٦٠٠)		نهاية الامبراطورية العيلامية	
	كياكسارس (٦٢٥-٥٨٥)		
قمبيز الأول (٦٠٠-٥٥٩)	استياكيز (٥٨٥-٥٥٠)		
كيروش الثاني (٥٥٩-٥٢٩)			
قمبيز الثاني (٥٢٩-٥٢٢)			
داريوس الأول (٥٢٢-٤٨٦)			

	اسرائيل ويهودا		بابل	آشور
٨٠٠		٩٠	مردوك - بيل - زيري	حدد - نيراري الثالث (٨٠٩-٧٨٢)
		٨٠	مردوك - ابال - اوزور اريبا - مردوك	زلما - نصّار الرابع (٧٨١-٧٧٢)
		٧٠		
		٦٠		آشور - دان الثالث (٧٧١-٧٥٤)
		٥٠	نابو - شوم - اوكين الثاني (... -٧٤٧)	آشور - نيراري الخامس (٧٥٢-٧٤٦)
		٤٠	(٧٤٧ - ٧٢٥) نابو - نازير	تيغلات - بيليزر الثالث (٧٤٥-٧٢٧)
		٣٠	نابو - نادين - زير (٧٣٤-٧٣٢) نابو - شوم - اوكين (٧٣٢) اوكين - زير (٧٣٢-٧٣٠)	
	غزو - سامرا عام ٧٢١	٢٠	بولو (تيغلوت - بليزر الثالث) (٧٢٩-٧٢٧) اولولاي (زلما - نصّار الخامس) (٧٢٦-٧٢٢)	زلما - نصّار الخامس (٧٢٦-٧٢٢)
	حزقيا - اليهودي (٧١٩-٦٩١)	١٠	مردوك - ابال - إدّينا الثاني (٧٢١-٧١١) شاروكين الثاني (زارجون) (٧١٠-٧٠٥) زاخاريب (٧٠٤-٧٠٣) مردوك - زاكر - شري الثاني (٧٠٣) مردوك - أبال - إدّينا الثاني (٧٠٣)	شاروكين الثاني (٧٢١-٧٠٥) (زارجون)
٧٠٠	يشوع		بيل - ابني (٧٠٢-٧٠٠) آشور - نادين - شري (٦٩٩-٦٩٤) نيركال - اوشيزيب (٦٩٣) موشيزيب - مردوك (٦٩٢-٦٨٩)	زاخاريب (٧٠٤-٦٨١)
		٩٠		
		٨٠	زاخاريب (٦٨٨-٦٨١) اسار حدّون (٦٨٠-٦٦٩)	اسار - حدّون (٦٨٠-٦٦٩)
		٧٠		
		٦٠	شمش - شوم - اكين (٦٦٨-٦٤٨)	
		٥٠		آشور - بانيبال (٦٦٨-٦٢٦)
		٤٠	كاندالانو (= آشور - بانيبال) (٦٤٧-٦٢٦)	
		٣٠		
		٢٠	الكلدانيون	آشور - اتيل - ايلاني (٦٢٥-٦٢١) زينشار - اشكون (٦٢٠-٦١٢) آشور - اوبليط الثاني (٦١١-٦٠٦) نهاية الامبراطورية الآشورية
		١٠	نابو - ابال - اوزور (٦٢٥-٦٠٥) (نابو - بولاصّار)	
٦٠٠		٩٠	نابو - كودوري - اوزور الثاني (نيبوخذ - نصّار) (٦٠٤-٥٦٢)	
	غزو القدس على يد نيبوخذنصّار (٥٨٦)	٨٠		
		٧٠		
		٦٠	اويل مردوك (٥٦١-٥٦٠) نيركال - شار - اوزور (٥٥٩-٥٥٦) لاباشي - مردوك (٥٥٦)	
		٥٠	نابونيد (٥٥٥-٥٣٨)	
		٤٠	غزو كيروش لبابل عام (٥٣٩)	
		٣٠		
		٢٠		
		١٠		
٥٠٠				



البحر الأسود
البحر الأبيض المتوسط
بادية الشام
(بلدان الشرق الأدنى القديم)
القاهرة
قبرص
دمشق
جبيل
حماة
تدمر
ديار بكر
هيت
سامراء
بابل
الفرات
بحيرة أورمية
طهران
الري
قم
الخليج العربي

صفحة

القسم الأول

القسم الثاني

(عصر حكم الشعوب الجبلية حتى عام ١٢٠٠ ق٠م)

القسم الثالث

(الصراع حول القيادة السياسية والفكرية)